

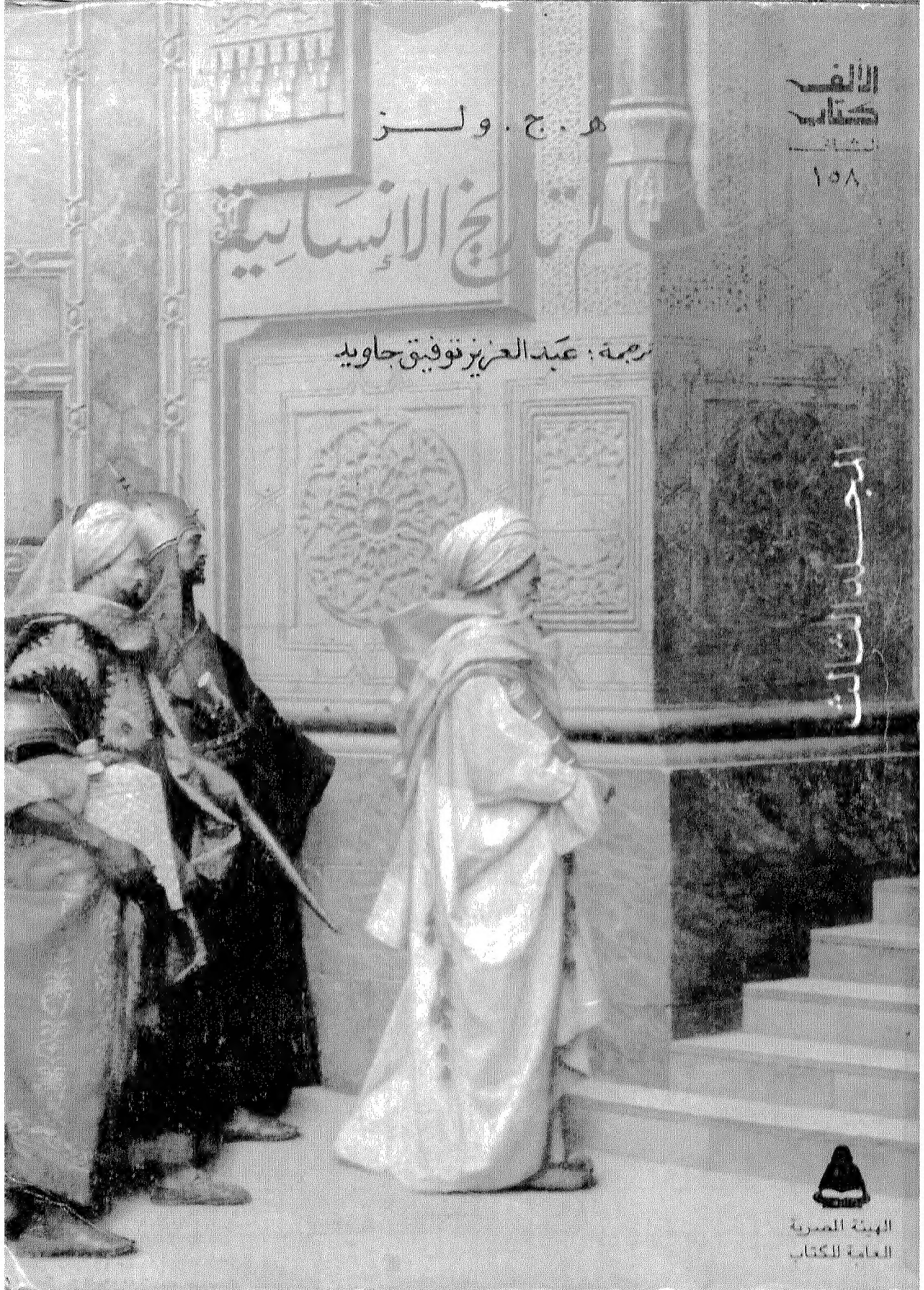
الألف
بكر
١٥٨

ه. ج. ولسز

تاريخ الانبياء

ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد

الكتاب



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

مَعَالِمُ تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَةِ

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام
و. سمير سرحان
رئيسة مجلس الإدارة

رئيس التحرير
لمنى المطيعي

مدير التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفني
محمد قطب

الإخراج الفني
محسنة عطية

هـ.ج. ولز

مَعَالِمُ تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَّةِ

ترجمة

عبد العزيز توفيق جباريد

المجلد الثالث

في المسيحية والإسلام والعصور الوسطى
وعصر النهضة

الطبعة الرابعة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

هذه ترجمة لكتاب

The Outline of History
Being a Plain History of Life and Mankind
By

H. G. WELLS.

Revised and brought up to the end of the Second World War by Raymond Postgate.

- ١ - راجع الطبعة الأولى المرحوم الأستاذ محمد مأمون نجا والأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس ، وراجع المترجم الطبعة الثانية .
- ٢ - وعاود المترجم مراجعة هذه الطبعة الثالثة ونقحها على أحدث الطبعات الانجليزية للكتاب ١٩٦٣ التي أشرف عليها الأستاذ راييموند پوستجيت الكاتب والصحفي الانجليزي المعروف .

محتويات الكتاب

صفحة

محتويات الكتاب	ه
فهرس الصور والخرائط	ح
كلمة المترجم	ك
كلمة المترجم للطبعة الثانية	ن
تصدير الطبعة الثالثة	س

الكتاب السادس

المسيحية والإسلام

الفصل الثامن والعشرون : قيام المسيحية وسقوط الإمبراطورية الغربية ...

١ - اليهودية إبان الحقبة المسيحية	٦٨٥
٢ - تعاليم يسوع : (عيسى) الناصرى	٦٨٩
٣ - الديانات العامة الجديدة	٦٩٩
٤ - صلب يسوع الناصرى	٧٠٢
٥ - مبادئ أضيفت إلى تعاليم يسوع	٧٠٦
٦ - كفاحات المسيحية واضطهاداتها	٧١٣
٧ - قسطنطين الكبير	٧١٧
٨ - تأسيس المسيحية الرسمية	٧٢٠
٩ - خريطة أوروبا في ٥٠٠ م	٧٢٥
١٠ - خلاص العلوم على يد المسيحية	٧٣٠
١١ - الفن البيزنطى	٧٣٥

الفصل التاسع والعشرون : تاريخ آسيا أثناء انحلال الإمبراطوريتين الغربية والبيزنطية

١ - جستنيان الكبير	٧٣٧
٢ - الإمبراطورية الساسانية في فارس	٧٤٠
٣ - انهيار سلالة سورييا في عهد الساسانيين	٧٤٣
٤ - أول رسالة من الإسلام	٧٤٨
٥ - زرادشت وماني	٧٥٠
٦ - الشعوب الهونية في آسيا الوسطى وبلاد الهند	٧٥٢
٧ - أسرتا « هان وتانج » بالصين	٧٥٧
٨ - أغلال الصين الذهنية	٧٦٣
٩ - الفن الصينى القديم	٧٧١
١٠ - رحلات يوان تشوانج	٧٧٤

صفحة

الفصل الثلاثون : محمد ﷺ والإسلام

- ١ - بلاد العرب قبل محمد (ص) ... ٧٨١
- ٢ - حياة محمد (ص) حتى الهجرة ... ٧٨٥
- ٣ - محمد (ص) يصبح نبياً منافحاً ... ٧٩١
- ٤ - تعاليم الإسلام ... ٨٠١
- ٥ - الخليفة أبو بكر وعمر ... ٨٠٦
- ٦ - أيام عظمة بني أمية ... ٨١١
- ٧ - انحلال قوة الإسلام في ظل العباسيين ... ٨٢٢
- ٨ - الثقافة العربية ... ٨٢٧
- ٩ - الفن العربي ... ٨٣٣

الفصل الحادى والثلاثون : عالم المسيحية والحروب الصليبية

- ١ - العالم الغربي في أشد دركات تدهوره ... ٨٣٥
- ٢ - نظام الإقطاع ... ٨٣٨
- ٣ - ملكة المير وفتحين الفرنجية ... ٨٤٢
- ٤ - تنصير البرابرة الغربيين ... ٨٤٦
- ٥ - شرلمان يصبح إمبراطوراً على الغرب ... ٨٥٣
- ٦ - شخصية شرلمان ... ٨٥٨
- ٧ - الفن والعمارة الرومانسكيان ... ٨٦١
- ٨ - الفرنسيون والألمان يتم انفصالهم ... ٨٦٤
- ٩ - النورمانديون والعرب والمجريون والأتراك السلجوقيون ... ٨٦٩
- ١٠ - كيف استغاثت القسطنطينية بروما ... ٨٧٧
- ١١ - الحروب الصليبية ... ٨٨٢
- ١٢ - الحروب الصليبية اختبار للمسيحية ... ٨٩٣
- ١٣ - الإمبراطور فردريك الثانى ... ٨٩٧
- ١٤ - معايير البابوية وتحديداتها ... ٩٠١
- ١٥ - قائمة بأسماء البابوات العظام ... ٩١٠
- ١٦ - العمارة والفن القوطيان ... ٩١٦
- ١٧ - موسيقى العصور الوسطى ... ٩١٩

الكتاب السابع

الإمبراطوريات المغولية صاحبة الطرق البرية والإمبراطوريات الجديدة صاحبة الطرق البحرية

صفحة

الفصل الثاني والثلاثون: چنكيزخان وخلفاؤه وإمبراطوريتهم العظيمة (عصر الطرق البرية)

- ١ - آسيا عند نهاية القرن الثاني عشر ٩٢٢
- ٢ - قيام المغول وانتصاراتهم ٩٢٦
- ٣ - رحلات ماركوپولو ٩٣٢
- ٤ - الأتراك المنيون والقسطنطينية ٩٤٥
- ٥ - لماذا لم يعتنق المغول المسيحية ٩٤٧
- ٦ - أسرتا يوان ومنج في الصين ٩٤٨
- ٧ - المغول يرتدون إلى الروح القليلة ٩٥٥
- ٨ - إمبراطورية القيقاق وقيصر موسكويا (الروسيا) ٩٥١
- ٩ - تيمورلنك ٩٥٣
- ١٠ - إمبراطورية الهند المغولية ٩٥٥
- ١١ - النجر (النور) ٩٦٢

الفصل الثالث والثلاثون: نهضة المدنية الغربية؛ الطرق البحرية تحتل مكان الطرق البرية

- ١ - المسيحية والتعليم الشعبي ٩٦٥
- ٢ - أوربا تشرع في التفكير لنفسها ٩٧٤
- ٣ - الطاعون الكبير وبزوغ فجر الشيوعية ٩٨١
- ٤ - كيف حرر الورق عقل الإنسان ٩٨٧
- ٥ - بروتستانتية الأمراء وبروتستانتية الشعوب ٩٨٩
- ٦ - العلم يستيقظ من سباته ٩٩٧
- ٧ - النمو الجديد للبدن الأوروبية ١٠١٠
- ٨ - النهضة الأدبية ١٠١٧
- ٩ - النهضة الفنية ١٠٢١
- ١٠ - أمريكا تدخل التاريخ ١٠٢٦
- ١١ - رأى ماكياڤلي في العالم ١٠٣٧
- ١٢ - جمهورية سويسرا ١٠٤٢
- ١٣ - (١) حياة الإمبراطور شارل الخامس ١٠٤٣

صفحة

(ب) بروتستانت إذا رغب الأمير في ذلك	١٠٥٥
(>) التيار السفلى الذهني المضاد	١٠٥٦
تصويب الأخطاء	١٠٥٧
فهرست أبجدي للكتاب	١٠٥٩
التعريف بالمترجم	١٠٧٥

فهرس الصور والخرائط

رقم

١٢٠ - خريطة منطقة الجليل والولايات المحيطة بها	٦٨٧
١٢١ - خريطة أوروبا حوالى ٥٠٠ م	٧٢٦
١٢٢ - صورة بالفسيفساء فلسطين وبلاطه	٧٣٨
١٢٣ - خريطة الإمبراطورية الشرقية وإمبراطورية الساسانيين	٧٤٥
١٢٤ - خريطة المدن في آسيا الصغرى وسوريا وبلاد بين النهرين (في القرن الأول المسيحي)	٧٤٧
١٢٥ - صورة لعملة إفتالية	٧٥٦
١٢٦ - خريطة الإمبراطورية الصينية ومقارنة مساحتها بالإمبراطورية الرومانية	٧٦٢
١٢٧ - » تبين طريق يوان تشوانج من الصين إلى الهند ٦٢٩ - ٦٤٥	٧٧٤
١٢٨ - » بلاد العرب والبلاد المتاحة لها	٧٨٤
١٢٩ - » بدايات الدولة الإسلامية	٨٠٢
١٣٠ - » نشأة الدولة الإسلامية في ٢٥ عاماً	٨١٢
١٣١ - » الإمبراطورية الإسلامية عام ٧٥٠ م	٨١٨
١٣٢ - » أوروبا حوالى سنة ٥٠٠ م	٨٤٠
١٣٣ - » حدود ملكيات الفرنجة في عهد شارل مارتل	٨٤٢
١٣٤ - » إنجلترا سنة ٦٤٠ ميلادية	٨٤٥
١٣٥ - » إنجلترا عند معاهدة ويدبور سنة ٨٧٨	٨٤٧
١٣٦ - » أوروبا عند وفاة شارلمان سنة ٨١٤ م	٨٥٥
١٣٧ - صورة رسم بارز من قبر شارلمان في إيكس لاشايل وهو يكرس كنيسة للعدراء	٨٦٢
١٣٨ - خريطة فرنسا في نهاية القرن العاشر	٨٦٦
١٣٩ - » إمبراطورية أوتو الكبير	٨٦٧
١٤٠ - » ظهور السلاجقة	٨٦٩
١٤١ - » الحرب الصليبية الأولى	٨٨٣
١٤٢ - صورة قبر صلاح الدين	٨٨٦
١٤٣ - » كنيسة القديس مارك بالبندقية	٨٨٨
١٤٤ - » الصليبي المشالي	٩٠٧
١٤٥ - خريطة أوروبا وآسيا حوالى ١٢٠٠ م	٩٢٥

(ط)

رقم	صفحة
١٤٦ -	خريطة إمبراطورية جنكيز خان عند وفاته سنة (١٢٢٧) ٩٣٠
١٤٧ -	» الولايات المغولية حوالى (١٢٨٠) ورحلات ماركو پولو ٩٣٦
١٤٨ -	صورة ماركو پولو ٩٣٨
١٤٩ -	خريطة الإمبراطورية العثمانية قبل سنة ١٤٥٣ ٩٤٤
١٥٠ -	» الإمبراطورية العثمانية بعد وفاة سليمان القانونى سنة ١٥٦٦ ٩٤٥
١٥١ -	صورة داخل كنيسة سانت صوفيا ٩٤٦
١٥٢ -	خريطة إمبراطورية تيمور لنك ٩٥٤
١٥٣ -	صورة تاج محل بأجرا ٩٥٦
١٥٤ -	خريطة أوروبا عند سقوط القسطنطينية ٩٦٨
١٥٥ -	صورة مشاهد من حياة الفلاحين ٩٨٢
١٥٦ -	» صفحة من طبعة جوتنبرج للكتاب المقدس ٩٩١
١٥٧ -	» مارتن لوثر ٩٩٤
١٥٨ -	» لويولا ٩٩٧
١٥٩ -	» كاتدرائية ريمس (رانس) ١٠٠٠
١٦٠ -	» جاليليو ١٠٠٨
١٦١ -	خريطة الطرق التجارية الرئيسية فى أوروبا فى القرن ١٤ ١٠١٢
١٦٢ -	» للمالم تبين رحلات الاستكشاف الرئيسية إلى سنة ١٥٢٢ ١٠٢٩
١٦٣ -	» المكسيك وبيرو ١٠٣٦
١٦٤ -	» لسويسرة توضيح أهم الطرق والممرات ١٠٤٢
١٦٥ -	» أوروبا فى عهد شارل الخامس ١٠٤٦
١٦٦ -	صورة الإمبراطور شارل الخامس ١٠٤٧
١٦٧ -	» فرانسيس الأول ١٠٤٧
١٦٨ -	» هنرى الثامن ١٠٤٨

كلمة المترجم

نال الزمان بعد الأغريق من صولة الرومان ، ومالت شمس قيصر ، وولت الأيام
العظيمة والأيام دُول

وانقضت خمس عشرة مئة من السنين تلقت فيها البشرية من الدروس
ما تلقت ، وقاست من العذاب والآلام ألواناً .

خمس عشرة مئة سنة أو تزيد مرت هزالا عجافاً حتى لإخخال التاريخ شديد
الرغبة في تخليص ذاكرته من شوائبها ؛ لما حطمت من نظم ، وشتت من جموع ،
ولما قوضت من خلق ولما اجتاحت في الوحدة العالمية العامة التي كانت الشيء الوحيد
الذي أفادته الدنيا من الرومان والتي لا تبرح هدفنا الأعلى الذي نسعد بدلوفاً إليه .

خمس عشرة مئة من السنين توقف فيها موكب الحضارة ، وأخذ الناس يتلمسون
طريقهم فلا يجدونه ؛ وكأني بهم يطلبون القديم فلا يستطيعون إليه وصولاً ، ويجنون
إلى إصلاح الحاضر والحاضر خرائب وأنقاض ، ويتطلعون إلى المستقبل فلا يجدون فيه
بارقة تحيي نفوسهم . وكان الناس في قديم العصور في همجية قالت بهم الحال إلى
نظام ، وما هم أولاء في حال لا هي بالهمجية ولا هي بالمدنية ، حال من الانتكاس
الموئس الموحش .

خمس عشرة مئة من السنين أو تزيد أطبقت فيها عن العالم المعروف سدفه
محلولة ، فقد فيها الإنسان كل أمل في هذا الوجود ؛ وارتد إلى الكون قانون الغاب
الذي قوامه الظفر والناب ، والذي يغتال فيه القوى الضعيف ، وترجع فيه القوة
كل حق .

ظلام حالك وفوضى شاملة ، وتفتت لكل شيء إلى جزئياته بل ذراته الأولى
وذو الضمائر يسائلون أنفسهم أهكنا نهاية البشرية ؟ أهكنا تتحطم كل الأمال التي
عقدتها الناس على مستقبل مشرق سعيد ؟

(ل)

ليل عبوس عصيب رهق حتى تقطعت نياط الآمال و طال ما جثم حتى بلغت النفوس الحناجر ، فما يستطيع أحد أن يفيق مما غشيه من هم وحزن .

ولولا أن يد القدر امتدت إلى تلك الحقبة الطويلة المديدة من الليل الأكد ، فأومضت فيها ثلاث ومضات خطفت الأبصار بادئ الرأي ، ثم استردت الأمور بعض وعيها ، وأخذت تتلمس بعدن طريقها نحو نور ابتداء شعاعاً في دقة الخيط ، وما زال يقوى وينبسط حتى أصبح في القرن العشرين فيضاً منهراً من باهر الضياء وساطع الإشراق ، — لولا هذا لقضى على المدنية في غارها وحاضرها ، ولأدبل من الإنسانية إلى أبد الأبدن .

فأما الومضة الأولى التي شق نورها غياهب تلك الظلمة الفاحمة ، فذلك الوليد الذي انتبذت به أمه مكاناً قصياً ، والذي كان كلمة من الله شئت بها إرادته القدسية ، أن تعيد إلى النفوس شيئاً من الأمل ، وأن تلقى في روع الإنسانية ألا تقتط من رحمة الله . وإذا هو يُعَلِّم القوى الرحمة بالضعيف ويدعو إلى التفاني في خدمة الغير تقياً يُدخل الإنسان في ملكوت السماوات وهو ، بعد في هذه الأرض ، ويجرده من عرض الدنيا ويتوج مفرقه بحب من يحيطون به إذ يمنحهم كل ما تملكه يده من مال وقوة ونشب .

وكانت الومضة التي أوراها ذلك النبي الرحيم خاطفة وضاءة أطاشت صواب الإنسانية فددت يديها توارى العينين قبل أن يخطف البرق ضياءهما . وما هي إلا هنيهة حتى كان ستار الظلام قد أسدل من جديد كثيفاً فاحماً مدلهما

وهوت البشرية مرة ثانية صريعة أو تكاد

ثم دار الزمان دورته ، وآن للعناية أن تلمحظ الدنيا برحمة من لديها ، تعيد إليها شيئاً من الثقة والطمأنينة . وجاءت النفحات القدسية في البوادي العربية على يد ذلك اليتيم العائل ، الذي آواه ربه وأغنى . إذ يقول له الملك : « اقرأ » وما هو بقارئ ، ولا يبرح به حتى يقرأ على الناس كتاباً مطهراً ، يدعوهم فيه إلى عبادة الأحد الصمد ، وإلى إخاء شامل ومساواة بين القرشي والحبيشي . ويأمرهم بالتسامح والعدل والإحسان ويحضهم على العمل الشريف في هذه الدنيا والتزود للأخرة بالصالح

(م)

والتقوى . لقد أشرق ضياء الطاهر الصادق ، وهبت لنصرته البوادي وأقبل عليه الناس رجالا وعلى كل ضامر ، وسعدت البشرية هنية بالإيمان والمساواة والتضحية في سبيل الحق والخير .

ثم غلبت على الإنسانية شقوتها ، ففقدت إيمانها بالحق ، وحرمت التعلق بالمثُل وتجانفت عن كل تضحية .

وانطبق الستار ككرة أخرى مرخياً دياجيرها ، وران على الناس سبات عميق طال في الشرق حتى لتحسبه نعاس الأبد .

ثم خفق سراج القدر في القرون الوسطى بالومضة الثالثة التي ، أرسلت شرارة بارقة اتصلت بهشيم الحيوات الأولى ، ووجدت من المسيحية والإسلام ذخراً لا ينضب له معين ، فأوقدت ناراً بدأت بإحياء العلوم خافتة تسرى ولا ترى ، وانتهت بنهضة القرون الوسطى مشوبة حارة ، حتى ترامت إلى ما ترى حولك من مشاعل وهاجة ونيران فيأضة الضياء مشرقة السطوع

تلك هي الومضات الثلاث التي يؤرخ لها سفرنا هذا إذ ينظر إلى المسيحية وبشيرها الناصري الكريم ؛ وإلى الإسلام ورسوله المصطفى الهادي الأمين ، وإلى ذلك النهوض الذي دفع بدولاب المعرفة والحياة في القرون الوسطى دفعة توثب أدارته إلى ما يحيط بك من حال الشئون في القرن العشرين .

ولن أزيد القارئ بياناً بالجلذل الطروب الذي يستعرض به المؤلف هذه الومضات الثلاث بوصفهن صوى عظمى في تاريخ الإنسانية وركائز ترتكز عليها في دلوفها نحو الأمام ولا بالتعقبات الفلسفية العميقة التي يعقب بها عليها ولا بالنظرات الناقدة الدقيقة والتوجيهات التي مهما يكن رأى بعض الناس فيها فإنها صادرة من قلب مخلص مؤمن بما يدعو إليه .

وبحسب القارئ أن يقلب صفحات الكتاب ليستمتع ويتزكى .

عبد العزيز توفيق هاريد

مصر الجديدة في ١٤ يونيو ١٩٥٠

كلمة المترجم للطبعة الثانية

أحمد الله كثيراً إذ أقدم لقراء العربية هذه الطبعة الجديدة . وقد بذلت في تنقيح هذه الطبعة ومراجعتها على أحدث الطبعات الإنكليزية للكتاب نفس ما بذلت من جهد في محلديه الأول والثاني . وأضفت إليه كدأبي في سالفه الشروح والفهارس الأبجدية . وبسّطت عبارته لتكون في متناول كل فهم رغبة مني في إبلاغ ثقافة المؤلف الرفيعة وعلمه الغزير وبصائرہ النفاذة إلى كل ذى عقل مستطلع يطلب النور .

ع . ت . ج

مصر الجديدة في ١٤ مايو ١٩٦١

تصدير الطبعة الثالثة

كان من الطبيعي أن تنفذ طبعنا الكتاب الأولى والثانية . ولا غرو فإنه بما حوى من ثقافة عميقة وفلسفة عقلانية ونظرة علمية حديثة ودعوة مخلصية إلىخير البشرية تكاد تتمم الرسائل العليا التي قام بها أفذاذ الرجال ، قد أصبح من الأركان العقلية التي لا يستغنى عنها مثقف في هذا العصر .

وقد تصادف ، وأنا أطبع الطبعة الثانية من المجلد الرابع ، أن وقعت في يدي طبعة إنجليزية حديثة جداً نقحها المستر راييموند بوستجيت فضبطه عليها ، وفعلت ذلك أيضاً بالمجلدين الأول والثاني من الطبعة الثالثة . وكذلك نقحت عليها هذه الطبعة من مجلدنا الثالث هذا .

وقد راجعت ترجمته مراجعة دقيقة . وأعدت النظر في الأعلام فجاءت مطابقة لما ورد بالكتاب المقدس وغيره من المظان والمراجع وبذا أقدمه إلى القراء راجياً أن ينتفعوا به باعتباره موسوعة ضخمة من العلم والثقافة والتاريخ أتمنى أن يقبل عليها شبابنا إطلاعاً وانتهاءً ؟

ع . ت . جاورير

مصر الجديدة في أول يناير ١٩٧٢

الكتاب السادس

المسيحية والإسلام

الفصل الثامن والعشرون

قيام المسيحية وسقوط الامبراطورية الغربية

- ١ - اليهودية لإبان الحقبة المسيحية .
- ٢ - تعاليم يسوع (عيسى) الناصري .
- ٣ - الديانات العامة الجديدة .
- ٤ - صلب يسوع الناصري .
- ٥ - مبادئ أضيفت إلى تعاليم يسوع .
- ٦ - كفاحات المسيحية واضطهاداتها .
- ٧ - قسطنطين الأكبر .
- ٨ - تأسيس المسيحية الرسمية .
- ٩ - خريطة أوروبا في ٥٠٠ م .
- ١٠ - خلاص العلوم على يد المسيحية .
- ١١ - الفن البيزنطي .

١ - اليهودية^(١) لإبان الحقبة المسيحية

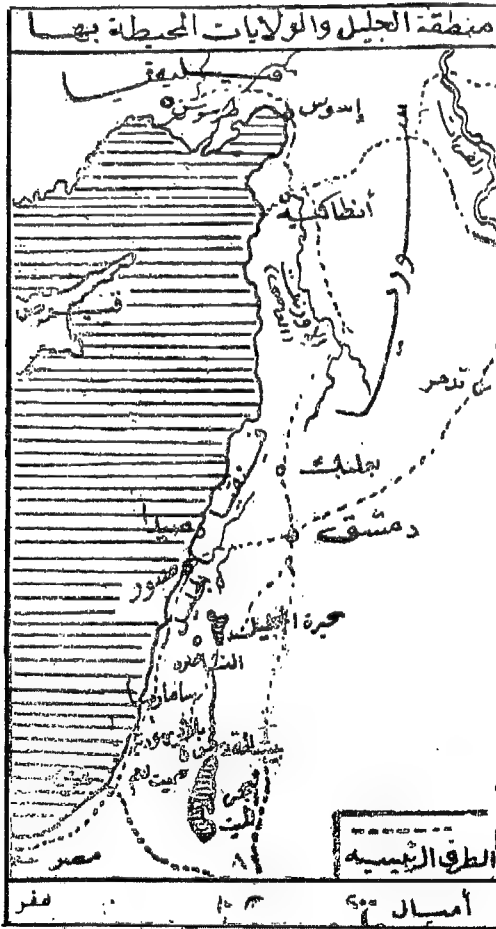
لن يتبها لنا فهم خصائص المسيحية التي عليها الآن أن تلعب دوراً كبيراً في تاريخنا ، والتي فتحت أعين الناس على نواح جديدة تبشر بإمكان قيام عالم موحد ، - حتى نرجع البصر بضع قرون ونحدثك عن الأحداث التي جرت في فلسطين وسوريا ، وهما القطران اللذان نشأت فيهما المسيحية . ولقد أسلفنا إليك من قبل أهم الحقائق المتعلقة بأصل الشعب اليهودي وتقاليدته ، وتحدثنا عن يهود الشتات (Diaspora) وعما فطرت عليه اليهودية من حيث جوهرها من تشتت وتشرذم حتى وهي في مهد بدايتها ، وعن التطور التدريجي لفكرة إله أحد عادل يحكم في الأرض ويرتبط بوعد خاص قطعه على نفسه : أن يحفظ الشعب اليهودي ويرفعه مكاناً عليا . والفكرة اليهودية كانت وما تزال مزيجاً عجيباً من رحابة أفق لاهوتية ووطنية عنصرية حادة ضيقة . وكان

(١) أرض أو بلاد يهوديا أو يهودية أو اليهودية هي ترجمة للفظ (Judea) الأجنبية . كما ورد في المجلد الثاني من المعالم . وتسميتها الموسوعة العربية المسيرة باسم يودايا . (المترجم)

اليهود يترقبون مخلّصاً معيناً : مسيحاً يخلص البشرية بطريقة محبة إليهم ، تنطوى على استرجاع ما كان لداود وسليمان من مجد أسطوري ، ووضع العالم آخر الأمر تحت أقدام اليهودية الخيرة والحازمة أيضاً . حتى إذا انحطت القوى السياسية للشعوب السامية ، ولذا أقل نجم قرطاجه من بعد صور وهوتا في غياهب الظلمات ، وأصبحت أسبانيا ولاية رومانية ، فقد ترعرع ذلك الحلم وشاع . وليس ثمة شك أن الفيزيقيين المتناثرين في أسبانيا وإفريقية وفي كل أرجاء البحر المتوسط ، وهم قوم يتكلمون لغة شديدة القربى بالعبرانية ، ويعيشون محرومين من حقوقهم السياسية الأصلية الحققة ، - قد تحولوا إلى أتباع لدين اليهودية . ذلك أنه مرت في التاريخ اليهودى أدوار قوية من الدعوة واسمالة الأنصار إلى اليهودية كما تقلبت عليه أدوار أخرى من شامل الغيرة والاعتزال . إذ حدث يوماً أن اليهود قهروا الإدوماين (Idumeans) وأجبروهم أجمعين أن يصبحوا هوداً^(١) . وهناك قبائل عربية كانت على دين اليهودية في زمان محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وثمة شعب تركى في جنوب روسيا كان في معظمه يهودياً في القرن التاسع . والواقع أن اليهودية هى المثل الأعلى السياسى المعاد تشكيله لكثير من الشعوب المخطئة وهى فى غالب أمرها سامية الأصل . ولا مراء أن ما لليهود من التقاليد المالية والتجارية إنما يعود إلى الفئة الفيزيقية منهم وإلى دخول الآراميين ملة اليهود فى بابل . على أن هذه الالتفاتات والاندماجات وألوان التمثل ، التى كانت تقوم تقريباً بكل مدينة من مدن الإمبراطورية الرومانية ، بل تتجاوز حدودها إلى مسافة بعيدة شرقاً ؛ قد ترتب عليها أن المجتمعات اليهودية كانت تتجر وتزدهر وتثرى وتتصل بعضها ببعض بفضل التوراة وبواسطة هيئة دينية وتعليمية . ولم يحدث فى يوم من الأيام أن الشطر الرئيسى من الشعب اليهودى كان يقطن اليهودية ، كما أنه لم ينبعث إلى العالم من ذلك القطر أبدا .

ومن الواضح أن هذه المجموعة المتصلة الحلقات من المجتمعات المتهودة كانت تنعم بتسهيلات وفرص عظيمة جداً من الناحيتين المالية والسياسية . فكانوا يستطيعون أن يجمعوا الموارد والقوى في أيديهم ، وكانوا يستطيعون أن يستثروا وأن يهدثوا ومابلغوا من الكثرة ولا الحضارة مبلغ الإغريق الذين كانوا حتى آنذاك أوسع منهم انتشاراً ،

ولكن كان لهم تراث قديم امتاز بتماسك أقوى مما كان لدى الإغريق . فكان الإغريقى عدوا للإغريقى ؛ أما اليهودى فكان لليهودى أخاً ونصيراً . فحينما حل يهودى ، وجد رجالا لهم عقل مثل عقلية وتقاليده مثل تقاليده . فكان فى وسعه أن يجد المأوى والطعام والقروض المالية والعون القانونى . من أجل هذا التماسك اضطر الولاة أن يحسبوا لهؤلاء القوم حساباً فى كل مكان إما بوصفهم مصدر عون لهم أو منهلا للقروض أو مبعثا للمتاعب . وهكذا حدث أن اليهود ظلوا محفظين بكيانهم كشعب ، على حين أصبحت « الهلينية » نوراً عاماً يضىء للجنس البشرى كافة .



(شكل ١٢٠) منطقة الجليل والولايات المحيطة بها

ولسنا بمستطيعين أن نسرد هنا على سبيل التفصيل تاريخ ذلك القسم الأصغر من الشعب اليهودى الذى عاش فى بلاد اليهودية (Judea) نفسها . عاد هؤلاء اليهود إلى مركزهم القديم المخفوف بالمخاطر ؛ عادوا يلتمسون السلام مرة ثانية فى وسط طريق كبير مطروق إن صح هذا التعبير . لقد كانوا فى الزمان القديم ينزلون بين سوريا وآشور إلى الشمال ومصر إلى الجنوب . وها هم الآن بين السلوقيين شمالاً والبطلمية جنوباً ، فلما أن ذهبت ريح السلوقيين ، هوت على رأسهم قوة الرومان . ونتيجة لهذا كله كان استقلال « بلاد اليهودية » على الدوام أمراً مقيداً غير مستقر . ولابد للقارئ أن يرجع إلى كتابى « الأخبار العتيقة »

(Antiquities) و « حروب اليهود » لفلافيوس يوسيفوس - (وهو كاتب مطنب ممل

ذو نزعة وطنية جامحة تبعث في الرأس الجنون) - إذا هو شاء أن يعرف من تقلب عليهم من الحكام ومن الملوك الكهنة الأعلين ، والمكابيين والهيروديين ومن شاكلهم . كانت غالبية هؤلاء الحكام من الطراز الشرقى المعتاد ، ماكرين ، غادرين وملطخى الأيدى بالدماء . وقد أخذت منهم أورشليم ثلاث مرات ودمر لهم المعبد مرتين . ولم ينقذ هذا القطر الصغير من أن تمتد إليه يد المحوالتام إلا معونة يهود التثشت الأقوى نفوذاً ، حتى كان عام ٧٠م وفيه فتح المدينة تيتوس الابن المتبنى للإمبراطور ثسبازيان وخليفته ، ودمرها هي والمعبد على السواء بعد حصار يضارع في العنف والمرارة والهول حصار صور وقرطاجة . وقد فعل تيتوس ذلك محاولاً أن يقضى على الشعب اليهودى القضاء المبرم إلا أنه في الواقع زاد الشعب اليهودى قوة بتدميره النقطة الوحيدة الحساسة المهيضة فيه .

مرت بين العودة من الأسر وبين تدمير أورشليم قرون خمسة انقضت في حروب واضطرابات أهلية داخلية ، ولكن ظل اليهود أثناءها محتفظين بصفات معينة ثابتة . فاليهودى لم يفتأ يؤمن بوحداية الإله إيماناً راسخاً ؛ وهو لا يقبل أى إله آخر إلا الإله الواحد الحق . وإنه ليقف في روما كما يقف في أورشليم رافضاً في رجولة عبادة أى قيصر رب . كما أنه استمسك جهده طاقته بمواثيقه مع ربه . فلم يكن يسمح بدخول أية تماثيل منحوتة إلى أورشليم ؛ بل إن الأعلام الرومانية نفسها بما عليها من نسور اضطرت أن تبقى خارج المدينة ،

ولأنك لتستطيع أن تتعقب عند اليهود اتجاهين فكريين متباعدين أثناء تلك المئات الخمس من السنين . فأنت واجد إلى اليمين ، إن جاز لنا مثل هذا التعبير ، فئة اليهود العليا المتشددة ، وهم الفريسيون الذين يستمسكون بعقيدة السلف أبليغ استمسك ويحافظون تماماً حتى على أدق تفاصيل الشريعة ؛ وهم شديدو الوطنية قويو النزعة الانعزالية . وحدث ذات مرة أن سقطت أورشليم في يد الملك السلوقى أنطيوخوس الرابع ، لأن استمسكهم بعقيدتهم أبى عايمهم أن يدافعوا عنها يوم السبت حين يحرم عليهم العمل . وكذلك ترتب على امتناع اليهود فيما بعد عن بذل أى جهد يوم السبت

لتفسير أدوات الحصار الذى ألقاه بومبي العظيم على أورشليم ، أنه استطاع أن يستولى عليها .

ولكن كان يوجد لقاء هؤلاء اليهود المتشددين ، يهود آخر واسعو الأفق ، هم يهود اليسار ، الذين كانوا يؤمنون بالمذاهب الهلينية ، ويمكن أن يضم إليهم الصدوقيون (Sadducees) – الذين لم يكونوا يعتقدون فى الخلود . وكان هؤلاء اليهود الآخرون وهم اليهود الواسعو الأفق ، يميلون جميعاً – وإن بدرجات متفاوتة – إلى الامتزاج والاندماج فى الإغريق والشعوب « المهلّنة » المحيطة بهم . وكانوا على أتم الأبهة أن يقبلوا فى مذهبهم أتباعاً جدداً ، وبذلك يتقاسمون ربوبية الرب ووعدته مع البشرية كافة . بيد أن ما كسبوه من الساحة وسعة الأفق نخسروه فى ناحية الاستقامة وحسن السمعة . فهم فى « بلاد اليهودية » يعتبرون العلمانيين المتكالبين على الأمور الدنيوية . ولقد ذكرنا من قبل كيف أن يهود مصر المهلّنين فقدوا لغتهم العبرية واضطروا إلى نقل توراتهم إلى الإغريقية .

وظهر فى « بلاد اليهودية » فى أيام طيبريوس قيصر ، معلم عظيم قدّر له أن يحرر الإدراك العميق لبر الله ووحدانيته التى لا تقبل تحدياً ولا جدلاً ، والتزامات الإنسان المعنوية نحو الله ، وهى التى كانت دعامة لقوة العقيدة اليهودية السلافية ، – يحررها من ذلك التشدد الضيق الاعتزالي الجشع ، الذى كان يخالطها فى ذهن اليهودى على أبلغ صورة خارقة . كان ذلك المعلم هو يسوع (عيسى) الناصرى ، الذى هونوا المسيحية أكثر منه مؤسسها .

٢ – تعاليم يسوع (عيسى) الناصرى

إن الجمهور الذى سيقدم إليه هذا الكتاب أول ما يقدم ، سيكون معظمه من المسيحيين ، وربما يكون فيه بعض قراء متناثرين من اليهود ، والأولون على أقل تقدير ، يعدون يسوع الناصرى شيئاً أعظم كثيراً من مجرد معلم من البشر ، كما يعدون ظهوره فى العالم لا حدثاً طبيعياً فى التاريخ بل شيئاً إعجازياً خارقاً ، يعترض ويغير ما للحياة من ناموس ثابت للتطور يهدف إلى « وعى مشترك وإرادة مشتركة » وبحوله عن سبيله

— الأمر الذى ما برحنا حتى الآن نفقد أثره فى هذا الكتاب . بيد أن هذه المعتقدات على ذبوعها فى أوربا وأمريكا ، ليست مع ذلك معتقدات الناس كافة ولا الغالبية العظمى من الجنس البشرى ، ونحن إنما نكتب هذه « المعالم » فى تاريخ الحياة ، مجانين بأقصى استطاعتنا كل ما من شأنه أن يثير منازعة أو جدلا . كما أننا نحاول أن نفترض ونحن نكتب أن من سيقروا أن هذا الكتاب من الهندوك أو المسلمين أو البوذيين يعدلون فى عددهم من يقرؤونه من الأمريكيين والأوربيين الغربيين . لذلك سنستمسك بالحقائق الظاهرة استمسكاً دقيقاً ونجانب — دون أية منازعة أو إنكار — كل الشروح اللاهوتية التى فرضت عليها فرضاً .

وسنخبرك بما اعتقده الناس فى يسوع الناصرى ، أما هو فإننا سننظر إليه كما بدا ، أى بوصفه بشراً على نحو ما يفعل المصور تماماً حيث يلتزم حين يصوره لإظهاره فى صورة البشر . وسنعالج الوثائق التى تدون أعماله وتعاليمه على أنها وثائق بشرية عادية . فإذا سطع أنوار الألوهية من خلال تلاوتنا لها ، فلن نعيه ولن نحجبه . وهذا هو ما فعلناه آنفاً فى حالة بوذا ، وهو ما سنهجه قريباً مع محمد (صلى الله عليه وسلم) . فليست مهمتنا أن نكتب عن يسوع من الناحية اللاهوتية بل من وجهة التاريخ . وليست عنايتنا موجهة إلى أهمية حياته الروحية واللاهوتية ، بل إلى تأثيراتها على حياة الناس السياسية واليومية .

ويكاد يكون المصدر الوحيد لمعلوماتنا عن شخصية يسوع (عليه السلام) محصوراً فى الأنجيل الأربعة (Gospels) ، وكلها كانت بالتأكيد موجودة بعد وفاته ببضع عشرات من السنين ، ومن الإشارات إلى حياته فى رسائل (Epistles) الدعاة المسيحيين الأوائل ، ويظن الكثيرون أن الأنجيل الثلاثة الأولى ، متى ومرقس ولوقا ، مستمدة من بعض وثائق أقدم منها ؛ ولكن إنجيل القديس يوحنا يتصف بطابع أخص وأبرز ؛ كما أنه يصطبغ بصبغة لاهوتية ذات طابع هلينى قوى . ويميل النقد إلى اعتبار إنجيل القديس مرقس أصح ما كتب عن شخص يسوع وأعماله وأقواله وأجدرها بالثقة . بيد أن الأنجيل الأربعة جميعاً تتفق فى إعطائنا صورة لشخصية واضحة الحدود تماماً . وهى تحمل من الإقتناع بصحتها نفس ذلك الإقتناع الذى تحمله إلينا البيانات الأولى المتواترة عن بوذا .

وبالرغم مما أضيف إلى القصة من إضافات معجزية وأمور لا تصدق ، فإن المرء لا يسعه إلا أن يقول « إن هنا لإنساناً حقاً . إذ ليس من الممكن أن يكون هذا القسم من القصة من نسج الخيال والاختراع » .

ولكن كما أن شخصية جوتاما بوذا قد شوهت وانطمست وراء تلك الصور الجامدة المتربعة التي عليها وثن البوذية المتأخرة المذَهَب ، فكذلك يشعر المرء أن شخص يسوع النحيل المكدود قد أضربه كثيراً ذلك الجحش الوهمي وتلك الروح التقليدية للذنان فرضهما على صورته في الفن المسيحي الحديث تبجيل خاطئ من رسّام تقى قانت . كان يسوع معلماً ذا خصاصة ، يتجول في « بلاد اليهودية » المتربة اللافحة الشمس ، ويعيش على هبات عرضية من الطعام ؛ ومع ذلك فإنه يصور على الدوام نظيفاً بمشط الشعر مرجّله صقيل الإهاب ، نقى الثياب مستقيم العود ، ومن حوله سكون لا يريم كأنما هو منزلق في الهواء . وهذا وحده قد جعله وهماً لا يؤمن به الكثير من الناس ، الذين لا يستطيعون أن يميزوا بين لباب القصة وبين زخرف إضافات التحسين والتحلية غير الموفقة التي يضيفها بعض المتبتلين بغباء .

ومن الجائز أن الأجزاء الأولى من الأناجيل استطرادات وإضافات من نفس هذا الطراز . فإن المعجزات المتصلة بمولد يسوع : ذلك النجم العظيم الذي جلب الحكماء من الشرق ليعبدوا الله عاكفين عند مهده بالميدود ، ومذبحة الأطفال الذكور في بيت لحم بأمر هيرودس نتيجة لهذه الظواهر والنذر ، والحرب إلى مصر ، إنما هي أمور يظنها كلها كثير من الثقافات من أمثال تلك المواد المضافة . وهي في خير أحوالها حوادث لا ضرورة لها للتعالم ، وهي تسلبها الشيء الكثير مما لها من قوة وسلطان عندما تجرد من مثل تلك الإضافات وكذلك الشأن في مسألة النسب المتناقضة التي أوردناها متى ولوقا ، والتي يحاولان فيها إرجاع النسب المباشر لأبيه يوسف إلى الملك داود ، كأنما كان شرفاً ليسوع أو لأى إنسان آخر أن يكون رجل كهذا أحد أسلافه . وإدخال هذه الأنساب أشد إمعاناً في الغرابة ومناورة المعقول لأن يسوع كما تقول القصة لم يكن ابناً ليوسف بتاتاً ، إذ قد حملت فيه أمه بطريقة إعجازية .

فلذا نحن جردنا هذه القصة من هذه الإضافات العسيرة ، وجدنا أنفسنا لإزاء كائن مكتمل الإنسانية موفور الجلد مرهف العاطفة والحساسية ، عرضة للغضب

السريع ، يعلم الناس مبادئ جديدة بسيطة عميقة : هي أبوة الرب العامة المحبة ومحبة مملكة السماء . وغنى عن البيان أنه كان شخصاً — إن جاز لنا أن نطلق عليه هذا اللفظ العادى — ذا جاذبية شخصية بالغة القوة . فكان يجتذب إليه الأتباع ويملأهم بالحب والشجاعة . وكان الضعفاء والمرضى من الناس يتشجعون بحضرتة ويرأون مما بهم ، ومع ذلك فإنه كان على الأرجح ذا بنية ضعيفة ، استنتاجاً منا من السرعة التي مات بها من آلام الصلب . وهناك خبر متواتر يقول بأنه أغشى عليه عندما كلف بأن يحمل صليبه إلى مكان التنفيذ كما جرى بذلك العرف . وكان يناهز الثلاثين من عمره عندما شرع لأول مرة يعلم الناس . وظل يحبب البلاد ثلاثة أعوام ينشر مبادئه ، ثم هبط أورشليم ، واتهم بأنه يحاول أن يقيم مملكة عجيبة في « بلاد اليهودية » ، وحوكم بهذه التهمة ، وصلب مع اثنين من اللصوص . وقبل أن يموت هذان بزمان طويل كانت آلامه قد انتهت .

ومن الحقائق الثابتة أن ما تحويه الأناجيل من مجموعة الأخبار والتأكيدات اللاهوتية التي تؤلف المبادئ المسيحية الطقوسية لا يقوم إلا على سند محدود جداً . إذ لا يوجد في هذه الكتب كما قد يرى القارئ بنفسه ، ما يدعم ويؤيد كثيراً من تلك المبادئ التي يرى معلمو المسيحية على اختلاف نحلهم أنها ضرورية بوجه عام للخلاص . فإن سندها من الأناجيل غالباً ما يكون سنداً غير مباشر ومعتمداً على الإشارة . ولا بد إذن من تصيد ذلك السند تصيداً وإقامة الحجة عليه بالبحث والمجادلة . وفيما عدا بعض فقرات ندور حولها المنازعات ، يعسر عليك أن تجد كلمة تنسب فعلاً إلى يسوع فسر فيها مبادئ الكفارة والفداء أو حض فيها أتباعه على تقديم القرايين أو تناول سر مقدس (١) (Sacrament) (وهي أعباء وظيفية رجال الكهنوت) . وسنرى من فورنا كيف مزق الشقاق حول مسألة الثالث فيما بعد ، العالم المسيحي بأسره . وليس هناك من دليل واضح على أن حوارى المسيح اعتنقوا ذلك المبدأ . كذلك لا يبرز هو دعواه أنه « المسيح » ولا يضمنى على اشتراكه مع الله في الربوبية أى ثوب بارز ربما أحسبنا أنه لم يكن ليفوته أن يضمنيه لو أنه كان يراه أمراً في الدرجة الأولى من الأهمية . ومن أشد ما يحير اللب قوله (إنجيل متى : الإصحاح ١٦ - ٢٠) : « حينئذ

(١) على أن السيد المسيح عليه السلام : « أخذ خبزا وشكر وكسر وأعطاهم قائلاً هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم : اصنعوا هذا لذكرى » (لوقا ٢٢ : ١٩) . (المترجم)

أوصى تلاميذه أن لا يقولوا لأحد إنه يسوع المسيح^(١) ! فمن العسير أن يفهم الإنسان السر في هذا المنع^(٢) ، إذا فرضنا أنه كان بعد هذه الحقيقة من ضروريات الخلاص .

ثم إن مراعاة طقس السبت اليهودي ، وهو الذي استبدوا به الأحد الميثرائي^(٣) ، ظاهرة هامة عند كثير من النحل المسيحية ، على أن يسوع لم يرفع السبت متعمداً وقال إنه خلق لأجل الإنسان ، ولم يخلق الإنسان لأجل السبت . وهو لم يفهم بكلمة واحدة عن عبادة أمه مريم في صورة إيزيس مليكة السماء . كما أن الكثير مما هو من أخص خصائص المسيحية في العبادة والطقوس لقي منه إغضاء تاماً . ولقد بلغ من جرأة الكتاب المتشككين أن أنكروا إمكان أن يسمى يسوع مسيحياً على الإطلاق . ويجب على كل قارئ أن يلجأ إلى مرشديه الدينيين ليستضيء بهديهم في هذه الثغرات الخارقة في تعاليمهم . ونحن هاهنا ملزمون بأن نذكر تلك الثغرات لما تولد عنها من صعوبات ومنازعات ، كما أننا مضطرون أيضاً ألا نتوسع فيها .

ومما يسترعى الأنظار أيضاً ، تلك الأهمية الهائلة التي يضيفها يسوع على الفكرة لتعليمية التي أسماها « مملكة السماء » ، وعدم أهميتها النفسية لإجراءات وتعاليم غالب الكنائس المسيحية .

إن هذا المبدأ ، مبدأ مملكة السماء ، الذي كان رأس تعاليم يسوع ، والذي يلعب دوراً ضئيلاً جداً في العقائد المسيحية ، إنما هو ولا مراء من أشد المبادئ الثورية ، التي قدر لها — أبداً الدهركلة — أن تحرك الفكر الإنساني وتغيره . فلا غرو إذن أن عالم ذلك الزمان فاته أن يدرك مغزاها الكامل — وتراجع يائساً مرتاعاً ناكصاً عن أية درجة من الفهم لتحدياتها الهائلة لعادات المجلس البشري ونظمه الراسخة . ولا عجب أن المسيحي الحديث والتلاميذ الجدد المتردد ينقلبون من فورهم إلى الأفكار المألوفة القديمة : أفكار المعبد والهيكل والآلهة الشرسة ، ومرعيات الأسترضاء والكاهن المتكرس والبركات السحرية . ولم تلبث رعاية القوم لهذه الأمور ، أن انتكست بهم ثانية إلى الحياة القديمة المألوفة الأثيرة ، حياة الأحقاد والأرباح والمنافسة والاستكبار . ذلك أن مبدأ مملكة السماء ، كما يلوح أن يسوع كان يبشره ، لم يكن ليقل عن طلب جرىء لا هوادة فيه ينادى بإدخال تغيير وتطهير كاملين على حياة جنسنا المناضل ، أى لإحداث

(١) كان المنع لحكمة ، لأن الجهر بأنه المسيح كما تقول الدوائر المسيحية المطلعة كان يؤدي إلى إيقاف الصليب ، والصلب وسيلة الخلاص . (المترجم)

(٢) انظر المعالم ج ٢ ط ٣ ص ٥٤٥ ، ٦٣٣ . (المترجم)

تطهير شامل مطلق في جوانية الناس ويرانيتهم^(١) . وعلى القارىء أن يرجع إلى الأنجيل ملتصقاً كل ما تبقى من هذه التعليلة الهائلة . فلسنا هنا بمعنيين إلا بالزلزلة القوية التي أحدثتها في الأفكار الوطيدة القائمة .

كان اليهود على اقتناع تام بأن الله ، الرب الأوحد للعالم بأسره — رب بر وهدى ، بيد أنهم زعموه كذلك رباً متجراً ، أتم مع أبيهم أبراهام (إبراهيم) صفقة هم قوامها ، وهي لا جرم صفقة طيبة جداً لهم ، هي أن يرفعهم آخر الأمر إلى مكانة الصدارة في الأرض . ولشد ما كان ارتياحهم وغضبهم عند ما شهدوا يسوع يكتسح أمامه كل ما يعززون به من ضمانات ، إذ يعلم الناس أن الله ليس من المساومين . وأن ليس هناك شعب مختار ، ولا أحظياء في ملكوت السماوات . وأن الله هو الأب المحب لكل الأحياء ، وأنه لا يستطيع اختصاص البعض بالرعايات عدم استطاعة الشمس ذلك سواء بسواء . وأن الناس جميعاً إخوة كلهم خاطئ آثم وكلهم أبناء محبوبون لذلك الأب القدوس . وإن يسوع في ضربه للناس مثل ذلك السامري الطيب ، قد ازدري ذلك الميل الطبيعي الذي تخضع له نفوسنا جميعاً ، والذي نزرع به إلى تمجيد شعبنا نحن وإلى الخط من شأن ما لدى النحل الأخرى والأجناس الأخرى من هدى وبر . وإنه في المثل الذي ضربه عن العمال قد اطّرح تلك الدعوى العنيدة التي يدعى بها اليهود بأن لهم ضرباً من حق الرهن الأول على الله جل جلاله . فالله — كما علم السيد المسيح — يخدم على السواء كل أولئك الذين يتلقاهم في الملكوت . فليس هناك تمييز في معاملته إذ ليس لفضله وطيبته من حدود . وهو فضلاً عن ذلك يطالب الناس جميعاً ببذل أقصى ما في مستطاعهم — كما يشهد المثل الذي ضربه عن « الوزنة المدفونة » وكما تعززه حادثة فلّس الأرملة . وليس هناك أية امتيازات ولا خصم في الأسعار ولا معاذير في مملكة السماء .

بيد أن يسوع لم يقتصر فقط على ازدراء وطنية اليهود القبلية الحادة وحدها : فلأنهم كانوا أيضاً شعباً ذا ولاء عائلي شديد ، وذلك بينما كان يسوع يبتغي أن يكتسح طوفان جارف من حب الله كل العواطف العائلية المتشددة الحافلة بالقيود الضيقة . فلم يكن بد للملك السماء بأسرها من أن تكون عائلة أتباعه . ويحدثنا الإنجيل أنه « وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجاً طالبين أن يكلموه » فقال له واحد : هو ذا أمك

(١) يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصلح جوانيتك يصلح الله برانيتك » . (المترجم)

وإخوتك واففون خارجاً طالبين أن يكلموك . فأجاب وقال للقائل له : من هي أمي ومن هم إخوتي ؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أمي وإخوتي ! ! لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي » ، (إنجيل متى الإصحاح الثاني عشر ٤٦ - ٥٠) .

ولم يقتصر يسوع على كيل الضربات للوطنية ولروابط الولاء العائلي باسم أبوة الله العامة وأخوة الجنس البشري أجمع ، بل إن من الواضح أن تعاليمه كانت تستنكر كل ما ركب عليه النظام الاقتصادي من تدرجات ومراتب وكل ثروة خاصة وكل منفعة شخصية . فالناس جميعاً ينتمون إلى الملكوت ، وكل ممتلكاتهم تنتمي إلى الملكوت ، والحياة الصالحة البرة لكل الناس ، الحياة البرة الوحيدة ، إنما هي في خدمة إرادة الله بكل ما لدينا من عدة وبكل ما نملك من كيان . ولطالما شهّر بالثروة الخاصة مرة بعد مرة كما ذم مدخرات الأفراد وعمل الاحتياطات في حياتهم الخاصة .

« وفيما هو خارج إلى الطريق ركض واحد وجثا له ، وسأله أيها المعلم الصالح ، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية . فقال له يسوع لماذا تدعوني صالحاً ؟ ليس أحد صالح إلا واحد وهو الله . أنت تعرف الوصايا ، لا تزني ، لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، لا تسلب ، أكرم أباك وأمك . فأجاب وقال له يا معلم هذه كلها حفظتها منذ حداثتي . فنظر إليه يسوع وأحبه وقال له يعوزك شيء واحد ، إذهب بع كل مالك وأعط الفقراء ، فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني حاملاً الصليب . فاغتم على القول ومضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة »

« فنظر يسوع حوله وقال تلاميذه ما أعسر دخول ذوى المال إلى ملكوت الله ! فتحير التلاميذ من كلامه . فاجاب يسوع أيضاً وقال لهم يا بني ، ما أعسر دخول المتكئين على الأموال إلى ملكوت الله . مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » (إنجيل مرقس . الإصحاح العاشر ١٧ - ٢٥) .

وفضلاً عن ذلك فإن يسوع في نبوءته الهائلة عن هذا الملكوت الذى يجمع الناس كلهم ويجعلهم فرداً واحداً في الله ، كان يضيق صدره بما في الديانة الرسمية من بر وصلاح يقوم على المساومة .

وهناك أيضاً جزء كبير من أقواله المسجلة موجه ضد الرعاية الدقيقة لقواعد التقوى وحيلة التقى . « واجتمع إليه الفريسيون وقوم من الكتبة قادمين من أورشليم . ولما رأوا بعضاً من تلاميذه يأكلون خبزاً بأيديهم دنسة أى غير مغسولة لاموا . لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعثناء لا يأكلون متمسكين بتقليد الشيوخ . ومن السوق إن لم يغسلوا لا يأكلون . وأشياء أخرى كثيرة تسلموها للتمسك بها من غسل كؤوس وأباريق وآنية نحاس وأسرّة . ثم سأله الفريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزاً بأيديهم غير مغسولة . فأجاب وقال لهم حسناً تنبأ إشعياء عنكم أنتم المرأين كما هو مكتوب . هذا الشعب يكرمنى بشفتيه ، أما قلبه فبتعد عني بعيداً . وباطلاً يعبدوننى وهم يعلمون تعاليم هى وصايا الناس . لأنكم تركتم وصية الله وتمسكون بتقليد الناس . غسل الأباريق والكؤوس وأموراً أخرى كثيرة مثل هذه تفعلون . ثم قال لهم حسناً رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم » (إنجيل مرقس . الإصحاح السابع ١ - ٩) .

كذلك أيضاً ، نستطيع أن نلاحظ عشرات المواضع التى ازدرى فيها تلك الفضيلة الأثيرة لدى المستمسكين بالشكليات ، وأعنى بها رعاية السبت .

لم يكن ما أعلنه يسوع مجرد ثورة أخلاقية واجتماعية . فإن من الواضح من عشرات الدلائل ، أن تعاليمه كان لها طابع سياسى من أبسط الأنواع وحققا إنه قال إن مملكته ليست من هذا العالم ولكنها موجودة فى قلوب الخلق ، وليست فوق عرش ؛ ولكن يضارع هذا فى الوضوح أنه حينما أقيمت مملكته وأيا كان المدى الذى تقوم به فى قلوب الخلق ، فإن العالم الخارجى يتجدد ويحدث له انقلاب ثورى بنفس ذلك المدى بالضبط .

ومهما يكن ما فات سامعيه من أشياء أخرى من أقواله بسبب صممهم وعمائيتهم ، فإن من الواضح أنهم لم يخف عليهم اعتزامه إحداث انقلاب ثورى فى العالم . وبعض الأسئلة التى كانت تحمل إلى يسوع والأجوبة التى أدلى بها ، تمكننا من أن نحس نوع واتجاه الكثير من تعاليمه غير المسجلة . فإن نزعه الصريحة فى مهاجمة السياسة تنجلي فى حادثة كمحادثة العملة .

« ثم أرسلوا إليه قوماً من الفريسيين والهيروديسيين لكي يصطادوه بكلمة . فلما جاءوا قالوا له ، يا معلم ، نعلم أنك صادق ولا تبالي بأحد ، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس ، بل بالحق تعلم طريق الله . أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟ نعطي أم لا نعطي ؟ فعلم رياءهم وقال لهم : لماذا تجربوني ؟ إيتوني بدينار لأنظره . فأتوا به . فقال لهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ فقالوا له لقيصر . فأجاب يسوع وقال لهم : إعطوا ما لقيصر . لقيصر وما لله لله » (إنجيل مرقس . الإصحاح الثاني عشر ٢٣ - ١٧) . وهى قصة لو نظرنا إليها على ضوء سائر ما علمه ، لم تبق لقيصر إلا الشيء القليل من نفوس الناس أو مما يمتلكون . .

وإن الجوال الذى يتكنف خصومه ومعارضيه وظروف محاكمته وإعدامه ، لنظهر بأجلى بيان أنه كان يلوح لعين معاصريه فى صورة من يقترح صراحة - بل من قد اقترح فعلا صراحة - تغيير الحياة الإنسانية برمتها وصهرها وتوسيع جنباتها . ولكن حتى تلاميذه أنفسهم لم يدركوا المغزى العميق الشامل الذى ينطوى عليه ذلك الاقتراح . إذ كان لا يزال يغشى على عقولهم الحلم اليهودى القديم بملك أى مسيح يقضى على سلطان أسرة هيرودس المهلنين والسيد الأعلى الرومانى ، ويسترجع أعجاد داود الأسطورية . ولعمري لقد أغفلوا مادة تعاليمه ، على ما كان بها من وضوح وقصد إلى الغاية ؛ وواضح أنهم زعموا أنها لم تكن إلا طريقتة الخفية الفذة للبدء فى المغامرة التى ترفعه آخر الأمر إلى عرش أورشليم . فزعموه مجرد ملك جديد فى سلسلة الملوك التى لا نهاية لها ، ولكن من طراز شبه سحرى ينطق بتصرّيات شبه سحرية عن فضيلة مستحيلة .

« وتقدم إليه يعقوب ويوحنا ابنا زبدي قائلين : يا معلم نريد أن تفعل لنا كل ما طلبنا . فقال لهم : ماذا تريدان أن أفعل لكما ؟ فقالا له : أعطنا أن نجلس واحد عن يمينك والآخر عن يسارك فى مجدك . فقال لهم يسوع لستما تعلمان ما تطلبان ، أنستطيعان أن نثربا الكأس التى أشربها أنا وأن تصطبغا بالصبغة التى أصطبغ بها أنا ؟ فقالا له نستطيع ، فقال لهم يسوع : أما الكأس التى أشربها أنا فتشربانها وبالصبغة التى أصطبغ بها أنا تصطبغان . وأما الجلوس عن يميني وعن يساري فليس لى أن أعطيه

إِلَّا لِلَّذِينَ أُعِدَّتْ لَهُمْ . وَلَمَّا سَمِعُوا الْعَشْرَةَ ابْتَدَأُوا يَغْتَاطُونَ مِنْ أَجْلِ يَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا .
فَدَعَاهُمْ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِينَ يُحْسَبُونَ رُؤَسَاءَ الْأُمَمِ يَسُودُونَهُمْ وَأَنَّ
عِظَاءَهُمْ يَتَسَلَطُونَ عَلَيْهِمْ . فَلَا يَكُونُ هَكَذَا فِيكُمْ . بَلْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِيرَ فِيكُمْ عَظِيماً يَكُونُ
لَكُمْ خَادِماً وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِيرَ فِيكُمْ أَوْلَا يَكُونُ لِلْجَمِيعِ عَبْدًا . لِأَنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ أَيْضًا
لَمْ يَأْتْ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيُخْدَمَ . وَلِيَبْدُلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ » (لِتَنْجِيلِ مَرْقُس .
الإصحاح العاشر ٣٥ - ٤٥) .

كَانَ هَذَا أَسْوَأَ عِزَاءٍ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يَبْحَثُونَ عَنْ جِزَاءٍ مَنَاسِبٍ لَخِدْمَتِهِمْ
وَمَتَاعِهِمْ الَّتِي يَلَاقُونَهَا فِي اتِّبَاعِهِمْ لِإِيَّاهُ . فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَصْدُقُوا هَذَا الْمَبْدَأَ الشَّدِيدَ
الْقَائِلَ بِمَمْلَكَةِ قَوَامِهَا الْخِدْمَةُ كَانَتْ فِي حَدِّ ذَاتِهَا هِيَ جِزَاءُهَا الْعَظِيمُ الْأَوْفَى .
وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ حَتَّى بَعْدَ وَفَاتِهِ عَلَى الصَّلِيبِ ، اسْتَطَاعَتْ عَقُولُهُمْ أَنْ تَقْبَلَ بَعْدَ
انْقِشَاعِ ذَعْرِهِمُ الْأَوَّلِ ، الْانْكَفَاءَ إِلَى الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّهُ كَانَ مَعَ ذَلِكَ يَنْزِعُ مَنَازِعَ الْعَالَمِ
الْقَدِيمِ عَالَمِ الْأَهْبَاتِ وَالْإِمْتِيَازَاتِ . وَأَنَّهُ سَوْفَ يَبْعَثُ حَيًّا مِنْ فُورِهِ بِإِحْدَى عَجَائِبِ
الْمُعْجَزَاتِ ، وَيَعُودُ وَيَقِيمُ عَرْشَهُ بِالْأَهْبَةِ الْعَظِيمَةِ وَالسَّاحَةِ الْفِيَاضَةِ فِي أُورُشَلِيمَ . لَقَدْ
ظَنُّوا أَنَّ حَيَاتِهِ خُطَّةٌ مُحْكَمَةٌ وَأَنَّ مَمَاتِهِ أَجْبُولَةٌ مَدْبُورَةٌ .

كَانَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ فَهْمُ تَلَامِيذِهِ . وَهَلْ يَعْجَبُ الْقَارِئُ — بِالنَّظَرِ إِلَى
مَا قَالَهُ صِرَاحًا — أَنْ يَشْعُرَ كُلُّ الْأَغْنِيَاءِ وَالْمُوسِرِينَ بِرُعْبٍ مِنْ أَشْيَاءَ غَرِيبَةٍ ، وَأَنْ يَحْسُوا
بِأَنَّ عَالَمَهُمْ يَمِيدُ وَيَدُورُ مِنْ حَوْلِهِمْ بِسَبَبِ تَعَالِيهِمْ ؟ وَلَعَلَّ الْكُهَنَةَ وَالْحُكَّامَ وَالْأَغْنِيَاءَ فَهَمُّهُ
أَكْثَرُ وَأَحْسَنُ مِمَّا فَهَمُّهُ أَتْبَاعُهُ . ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَ يَسْتَخْرِجُ دَفِينَ مَدْخَرَاتِهِمُ الصَّغِيرَةَ الْخَاصَّةَ الَّتِي
كُونُوهَا مِنَ الْخِدْمَةِ فِي مَجْتَمِعِهِمْ وَيَكْشِفُهَا لِلْأَنْظَارِ فِي ضَوْءِ حَيَاةٍ دِينِيَّةٍ عَامَةٍ . كَانَ
أَشْهُ شَيْءٍ بِصِيَادِ أَخْلَاقٍ رَهِيْبٍ يَحْفَرُ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَيُنْجِرُهَا مِنْ حِجْرِهَا الدَّفْنِيِّ الَّذِي
عَاشَتْ فِيهِ حَتَّى ذَلِكَ الْحَيْنِ . وَتَحْتَ أَنْوَارِ السَّرَاجِ الْوَهَاجِ لِمَمْلَكَتِهِ هَذِهِ ، لَمْ يَكُنْ يَجُوزُ
وَجُودُ أَيْةٍ مِمْلَكَاتٍ وَلَا إِمْتِيَازَاتٍ وَلَا اسْتِكْبَارٍ وَلَا أَفْضَلِيَّةٍ (أَسْبَقِيَّةٍ) . وَلَعَمْرُ الْحَقِّ
مَا كَانَ فِيهَا مِنْ حَافِزٍ وَلَا جِزَاءٍ إِلَّا الْحُبَّةُ . أَفَنُ الْعَجِيبِ إِذْنُ أَنْ أَنْهَرَهُمُ الْقَوْمَ وَعَمِيتَ
عَيْنُهُمْ فَتَصَايَحُوا كُلَّهُمْ عَلَيْهِ ؟ بَلْ إِنْ تَلَامِيذُهُ أَنْفُسَهُمْ تَصَايَحُوا بِهِ عِنْدَمَا رَفُضَ أَنْ

يعنى أعينهم من ساطع الضياء . أفن العجيب إذن أن يدرك الكهنة أنه لم يكن بين هذا الرجل وبين أنفسهم خيار إلا أن يموت هو أو تهلك الكهانة ؟ أعجيب إذن أن الجنود الرومانيين ، وقد واجههم وأذلم شئ يعلو على أفهامهم ويهدد كل أنظمتهم ، يلوذون بالضحك الضارى ، ويتوجون هامته بالشوك ويضعون عليه ثوباً أرجوانياً ليتخذوا منه قيصراً سخرياً ؟ ذلك أن أخذهم إياه أخذ الجلد ، كان معناه الدخول فى غمار حياة عجيبة وهيبة ، وترك مألوف العادات وضبط هائج الغرائز والدوافع ، ومحاولة درك سعادة لا يصدقها عقل .

أفن العجيب أنه حتى هذا اليوم ، ما يفتأ هذا الجليلي أكبر مما تتسع له قلوبنا الصغيرة ؟

٣ - الديانات العامة الجديدة

ومع هذا فما يجب ملاحظته أنه بينما كانت تعاليم يسوع الحقيقية تضم كثيراً من الأشياء التى لا يستطيع أن يقبلها غنى أو كاهن أو تاجر أو موظف إمبراطورى أو أى مدنى عادى محترم إلا وألم بطرائق حياته انقلاب هائل يقلبها رأساً على عقب ، فلم يكن منها شئ لا يبادر إلى تقبله بقبول حسن رجل ممن يتبعون تعاليم جوتاما ساكيا الحقبة ، إذ ليس ثمة شئ يحول بين بوذى بدائى وبين أن يكون نصرانياً ، وكذلك ما من شئ يمنع أحد التلاميذ المباشرين ليسوع من اعتناق تعاليم جوتاما بوذا المسجلة .

وليك الآن هذه القطعة المقتبسة من كتابات رجل صيني هو « موى »^(١) ، الذى كان يعيش فى زمان ما فى القرن الرابع ق . م ، وقت ما كانت تعاليم كنفوشيوس ولاهوتزه منتشرة فى الصين ، قبل هبوط البوذية إلى تلك البلاد ، فتأمل نغمتها وانظر كم هى نصرانية الروح .

« إن الاعتداءات المتبادلة بين دولة ودولة ، والاغتصابات المتبادلة بين عائلة وأخرى ؛ والسراقات المتبادلة بين الإنسان وأخيه الإنسان ؛ وافتقار الملك إلى الرفق والوزير إلى الولاء ؛

(١) عن « موى » انظر للمترجم كتاب « التاريخ وكيف يفسرونه » الهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر . (المترجم)

والحاجة إلى الحنان والواجب البنوي بين الوالد وولده — هذه وأمثال هذه أمور ضارة بالإمبراطورية . وكل هذا راجع إلى انتفاء الحب المتبادل . فلو أمكن فقط أن تعم بين الناس تلك الفضيلة الواحدة ، فلن يصبح للأمرء — وقد أحب أحدهم الآخر — أى ميادين للقتال ؛ ولن يحاول رؤساء العائلات أن يأخذوا أى شئ غصباً ؛ ولن يرتكب الرجال أية سرقة ؛ ولا تنصف الحكام والوزراء بالسباحة والولاء ؛ ولا يصبح الآباء رحماء والأبناء بررة ؛ ولصار الإخوة منسجمين وأمسى التراضى بينهم هينا . ولو أن الناس عامة أحب بعضهم بعضاً ، لما انقض قلوبهم على ضعيفهم ؛ ولما نهبت كثرتهم قلوبهم ، ولما أهان غنيهم فقيرهم ، ولما أظهر شريفهم قحة مع وضعيعهم ولما غش خبيهم^(١) بسيطهم^(٢) .

لا شك أن في هذا مشابهة عجيبة لتعاليم يسوع الناصري ، وإن صب في قالب سياسى . وهكذا اقتربت أفكار « موتى » من ملكوت السماء .

وهذا التطابق الجوهري هو أهم سمة تاريخية تجمع بين أسباب هاتين الديانتين العالميتين . فإن بداياتهما كانت مخالفة تمام المخالفة لنحل الكاهن والمذبح والمعبد ، وهى تلك النحل المقامة لعبادة آلهة محدودة المعالم معروفة الحدود واللاعبة في مراحل تطور الإنسانية الأولى بين ١٥٠٠ ق . م و ٦٠٠ ق . م دوراً عظيماً كل العظم هاما كل الأهمية . أما هذه الديانات العالمية الجديدة ، من ٦٠٠ ق . م فصاعداً ، فهى بالضرورة ديانات القلب والعالم العلوى الشامل . وهى التى جرفت أمامها كل تلك الأرباب المتنوعة المحدودة التى خدعت حاجة الإنسانية ، منذ أن تلاحت المجتمعات الإنسانية بعضها في بعض بعامل الخوف والرجاء . وسرى من فورنا عندما نصل إلى الإسلام أنه حدث للمرة الثالثة ، أن ظهر ثانية نفس المبدأ الأساسى الجديد ، مبدأ الحاجة إلى إخلاص عام من جميع الناس « لإرادة » واحدة . على أن محمداً انعط بما مر بالمسيحية من تجارب ، فكان حاسماً باتاً في إصراره على أنه هو نفسه ليس إلا بشراً كغيره من الناس ، وبذا وقى تعاليمه شر كثير من الفساد والتصحيف .

ونحن حين نتحدث عن ديانات الإنسانية العظيمة هذه ، التى نشأت فيما بين غزو

(١) الحب : بكسر الخاء هو الفحاش الخادع . (المترجم)

(٢) نقلاً عن هيرث (The Ancient History of China) الفصل الثامن

الفرس لبابل وتصدع الإمبراطورية الرومانية ، — إنما نتحدث عنها بوصفها عقائد متنافسة . على أن مرد ذلك التنافس هو نقائصها وما تكلدس فيها من إضافات وما زاد عليها من نمو طفيلي ، واختلافها في اللغات وطريقة التعبير . وما ينبغي أن نشخص بأبصارنا إلى غلبة واحدة منها على الأخرى ، أو قيام أى بديل جديد يحل محلها جميعاً ، بل إلى الصديق الصراح في كل منها ، بعد إذ يصهر تماماً ويخرج نقيا من كل الشوائب والأدران ويعدو فيهن جميعاً هو نفس الصديق الواضح المبين : — وأعني بذلك أن قلوب الناس ومعها حياة الناس وأنظمتهم جميعاً ، يجب أن تخضع « لإرادة » عامة واحدة تحكمها وتصرفها جميعاً . ويقول نائب الأسقف إنج في إحدى مقالاته الصريحة الجريئة : « إن القديس بولس قد فهم ما لم يدركه معظم المسيحيين ، وأعني بذلك أن « بشارة المسيح » ليست « إحدى » الديانات ولكنها الدين نفسه في أشد معانيه شمولاً وعمقاً » .

ومع أن الحماقة دفعت الناس إلى كتابة الشيء الكثير عن التضارب بين العلم والدين ، فالحق أن ذلك التضارب شيء لا وجود له . فكل ما تصرح به كل هذه الديانات العالمية بطريق الوحي والاستبصار ، إنما هو شيء يكشف فيه التاريخ مع ازدياد وضوحه ، ويتبين فيه العلم مع اتساع أفقه — حقيقة معقولة يمكن إثباتها : هي أن الناس جميعاً يكونون أخوة واحدة عامة ، وأنهم يرجعون إلى أصل واحد مشترك ، وأن حياتهم الفردية وأهمهم وأجناسهم ، تنداخل نسباً وتمزج دماً ولا تبرح في امتزاج حتى تنغمر من جديد آخر الأمر في مصير إنساني واحد مشترك على هذا الكوكب الصغير السابح بين النجوم . وإن العالم النفساني ليستطيع اليوم أن يقف إلى جانب الواعظويؤكد لنا أنه ليس هناك سلام للقلب معقول ولا توازن ولا أمان للروح ، ما لم يجد الإنسان حياته بفقده إياها ، وما لم يدرب غرائزه وعواطفه الضيقة المحدودة وينظمها . ولا يخفى أن جنسنا وتجاربنا الدينية الشخصية يسيران جنباً إلى جنب في تحاذ وثيق يخجل معه للمشاهد العصري كأنما هما شيء واحد تقريباً فكلاهما يتحدث عن كائن كان في بادئة أمره مشتتاً تحجب العناية عنيه ويكتنفه جو من مطلق الحيرة والارتباك . وهو يتحسس طريقته في بقاء سائراً نحو صفاء وخلوص يجمعهما هدف منظم متماثل : ولعلكم ترون معي أن هذه هي معالم التاريخ في أبسط (٢ - معالم)

صورها ؛ وسواء كان للمرء هدف ديني ، أم كان ينكر كل هدف ديني إنكاراً
باتاً ، فإن خطوط المعالم تظل كما هي .

٤ - صلب يسوع الناصري

في ٣٠ م حين كان طبريوس الثاني إمبراطوراً على روما ، وبيلاتس البنطي
والياً على بلاد اليهودية ، وقبل عيد الفصح بقليل ، هبط يسوع الناصري إلى أورشليم .
والراجح أنه هبطها عند ذاك لأول مرة في حياته . إذ كان حتى ذلك الحين يعظ
الناس أكثر ما يعظهم في الجليل ، ويعظهم في كثير من الأحوال بمدينة كفر ناحوم
وما حولها . يعظهم هناك في معبد اليهود .

كان دحوه مدينة أورشليم نصراً سلمياً . إذ اجتمع حوله في الجليل عدد عظيم من
الأتباع ، وكان يضطر في بعض الأحيان أن « يعلم » الناس من زورق في بحيرة الجليل ،
بسبب تزاخم الجمهور على الشاطئ - وتسامع الناس به وسبقته شهرته إلى العاصمة .
فخرجت جماهير غفيرة لتحيته . وواضح بين أنهم لم يفهموا منحي تعاليمه ، وأنهم
كانوا يشركون من حولهم في اقتناعهم العام ، بأنه سيقبل النظام القائم بضرب من
سحر البر والصلاح . وقد دخل المدينة راكباً جحشاً استعاره له تلاميذه ، والجمهور
يرافقه رافعاً صوته بالتهليل والتكبير هاتفاً بكلمة (أوصنا ! ! Hosanna) وهي لفظة
تعبر عن الفرح .

فذهب إلى الهيكل . وكانت أفنيته الخارجية خاصة بمناضد الصيارف وبخوانات
أولئك الذين يبيعون الحمام لكي يحمره زوار المعبد الاتقياء ! ! ! وانبعث هو وأتباعه
يطردون هؤلاء المتجرين على حساب الدين وقلبوا لهم مناضدهم . وتكاد هذه أن
تكون فعلته الإيجابية الوحيدة .

ثم استمر يعلم الناس في أورشليم أسبوعاً يحيط به جمهور من الأتباع جعلوا اعتقال
السلطات له أمراً عسيراً . ثم جمعت الهيئة الرسمية أمرها ضد ذلك المقتحم الرائع . ذلك
أن يهوذا (Judas) أحد تلاميذه ملاً بالجزع واليأس قلبه لما شاهده في استيلاء معلمه على
أورشليم من قلة غناء وجدوى ، فتقدم إلى الكهنة اليهود ليقدم إليهم نصيحته ومعونته في

القبض على يسوع . فكوفئ على تلك الخدمة بثلاثين قطعة من الفضة . وكان لكبير الكهنة ولل يهود عامة أسباب كثيرة تدعوهم للجزع من ذلك العصيان الوداع الذى كان يملأ الشوارع بالجماهير المنفعلة ، فمن الجائز مثلاً أن يسىء الرومان فهم الأمر ، أو أن ينتهزوه فرصة لإيقاع الأذى بالشعب اليهودى كافة . ومن ثم كان الخبر الأكبر قيافا (Caiaphas) - فى بالغ قلقه على إظهار ولائه للحاكم الرومانى الأعلى - على رأس من قاموا بالإجراءات التى اتخذت ضد ذلك المسيح (Messiah) الأعزل ، وكان الكهنة وغوغاء أورشليم المتمسكون بعقيدتهم السلفية أكبر المتهمين ليسوع .

وتحدثنا الأناجيل فى جلال ليس عليه من مزيد كيف قبض عليه فى ضبيعة جنسيمانى (Gethsemane) ، وكيف حوكم وأدين على يد بيلاطس البنطى الوالى الرومانى ، وكيف نكل به الجنود الرومان وسخروا منه ، وصلبوه على التل المسمى بتل جلجثة (Golgotha) .

بذلك انهارت الثورة انهياراً تاماً وتخلى عنه تلاميذه على بكرة أبيهم ، ولما اتهم بطرس بأنه واحد منهم قال « إني لا أعرف الرجل » . إذ لم تكن هذه هى النهاية التى كانوا يرجونها من قدومهم العظيم إلى أورشليم . ولم يشهده فى ساعاته الأخيرة وهو على الصليب يعانى مرارة الألم المبرح والظماً الشديد ، سوى بضع نفر من النساء والأصدقاء الأذنين . حتى إذا قارب هذا يوم العذاب نهايته ، استجمع ذلك الزعيم الذى تخلى عنه الناس جميعاً كل قواه باذلاً آخر جهد لديه وصاح بصوت جهير « إلهى ! لماذا تركتنى ؟ » ثم أسلم الروح مخلفاً هذه العبارة ترجعها العصور ، أحجية أبدية للمؤمنين .

ولم يكن بد من أن يحاول بسطاء المؤمنين أن يهولوا من عنف الذعر الرهيب المتولد عن هذه المأساة ، بإذاعتهم أقاصيص سخيفة عن حدوث اضطرابات فى الطبيعة تشابه تلك التى اختلقت لتوكيد اعتداء جوتاما إلى الصراط السوى . فإنهم يخبروننا أن ظلمة قد غشيت الأرض . . . وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل . وإذا كانت هذه الأمور حدثت حقاً ، فهى لم تحدث أقل تأثير فى أذهان الناس فى أورشليم فى ذلك الزمان . ومن العسير علينا فى هذه الأيام أن نصدق أن نظم الطبيعة قد سمحت لنفسها بالانغماس فى مثل هاته التعليقات الجوفاء على الأحداث . ولكن الشيء الأشد

هولا من هذا بكثير أن يفترض المرء وجود عالم لا يهتم فيما يظهر به هذه الصليبان الثلاثة القائمة تحت شفق المساء اللغافى ، ولا يأبه بتلك الجماعة الصغيرة من النظارة المرتبكين المستوحشين . وأرخى الظلام على التل سدوله . وشرعت المدينة البعيدة فى القيام باستعداداتها لعيد الفصح ؛ وما من أحد سوى ذلك النفر القليل من المحزونين العائدين إلى منازلهم يُعنى بأمر يسوع الناصرى هل هو لا يزال يعانى سكرات الموت أو هو قد قضى وانتهى بالفعل . . .

أما الحواريون فقد غمرت أرواحهم إلى حين غاشية من الظلمات الدامسة . ثم ما لبثوا أن دب بينهم تهاوس ثم أقاصيص متناقضة أو تكاد . . . بأن جسم يسوع ليس فى القبر الذى وضع فيه ، وأن واحدا منهم ثم آخر قد رآه حياً . وسرعان ما أخذوا يعززون أنفسهم بالاعتقاد بأنه قد بعث من بين أهل القبور ، وأنه أظهر نفسه للكثيرين ، ثم صعد على مرأى من الناس إلى السماء . وجيء بشهود أعلنوا بلهجة التأكيد القاطع أنهم رأوه يصعد بجسمه ظاهرا للعيان . لقد ذهب يطوى طباق السموات الزرقاء - إلى الرب . وسرعان ما ألقوا فى روع أنفسهم أنه لا بد عائد من فوره ، فى قوة ومجد ليحكم البشرية كافة . وقالوا إنه يعود إليهم بعد برهة وجيزة ؛ على أنهم - وهم ينعمون بإحياء حلمهم القديم البراق بمجد دنيوى يحقق ذواتهم غاب عنهم ذلك النصيب الأعظم ، النصيب الهائل الجبار الذى خولهم إياه يسوع من ملكوت الله .

٥ - مبادئ أضيفت إلى تعاليم يسوع

إن قصة البدايات الأولى للمسيحية إنما هى قصة الكفاح بين التعاليم الحقة والروح المحض ليسوع الناصرى وبين التحديدات التى فرضها ، والإطنابات والزيادات التى أضافها ، والمسائل التى أساء فهمها ، أولئك الرجال البسطاء الذين أحبوه وساروا فى أثره من الجليل ، والذين غدوا يومئذ حماة رسالته وحملتها إلى البشرية . وتقدم إلينا الأنجيل وأعمال الرسل سجلا مرقعاً غير متوازن ، ولكن لا مجال للشك فى أنه فى جملة سجل تام الأمانة فى تصوير تلك الأيام الأولى .

والناصرىون الأول وهو الاسم الذى كان يطلق على أتباع يسوع ، يتخبطون منذ البداية

في غمرات الحيرة العظيمة إذ يتنازعهم أمران : تعاليمه من ناحية وما استحدثته التلاميذ من ناحية أخرى من صنوف الشروح والتفسير . وقد أقاموا من بعده زماناً عاملين بسنته في قهر النفس التام ؛ فجعلوا بضاعتهم مشاعاً بينهم ، ولم يتخذوا رابطة تربطهم إلا الحب . ومع ذلك فإنهم أسسوا عقيدتهم على الأقاصيص التي كانت تدور حول قيامته وصعوده السحري للخلاب ، وحول عودته الموعودة . وقلّ منهم من كان يفهم أن التبرؤ من النفس وببذرها هو جزاؤها بعينه ، وأنه هو نفسه مملكة السماء ؛ وكانوا يعدون ذلك التبرؤ قرباناً يخولهم جزاء من القوة والسيادة ، عندما تحدث الغودة الثانية عما قليل . وقد أصبحوا جميعاً يرون أن يسوع هو المسيح الموعود ، ذلك المسبب الذي طالما انتظره الشعب اليهودي . واكتشفوا في أقوال الأنبياء تنبؤات بالصلب - ويشدد الإنجيل متى بصفة خاصة في تأكيد هذه التنبؤات . وأنعشت هذه الآمال المبادئ النصرانية ، وشدت أزرها بفضل الحياة الحلوة النقية التي كان يحياها كثير من المؤمنين ، فأخذت تنتشر انتشاراً بالغ السرعة في أرجاء بلاد اليهودية وسوريا .

وظهر للوقت معلم آخر عظيم ، يعده كثير من الثقاة العصرين المؤسسين للحقبة للمسيحية - وهو شاول الطرسوسي أو بولس . ويظهر أن شاول هو اسمه اليهودي وأن بولس هو اسمه الروماني . كان مواطناً رومانياً ، ورجلاً أوتي علماً أوسع كثيراً وعقلية أضيق كثيراً مما يبدو أن قد أوتي يسوع . والراجح أنه كان يهودي المولد ، وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك . ولا مراء في أنه تعلم على أساتذة من اليهود . بيد أنه كان متحرراً في لاهوتيات الإسكندرية الهلينية^(١) وكانت لغته الإغريقية . ويقرر بعض علماء الأدب الكلاسيكي القديم أن لغته الإغريقية غير مرضية ؛ فهو لم يستخدم لغة أثينا ، بل لإغريقية الإسكندرية ، بيد أنه استخدمها بقوة وطلاقة . وينعتها البروفسور جلبرت موراي بأنها «بالغة الجودة» . . «وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفي للمدارس الهلنستية وبأساليب الرواقيين (Stoicism) . على أن تمكنه من اللغة الراقية الرفيعة عظيم مدهش » . كان صاحب نظرية دينية ومعلماً

(١) يفرق المؤرخون بين العصر الهليني السابق على الإسكندر والهيلينس الذي يحى في تاريخ الإغريق

بعد وفاة الإسكندر إلى ظهور أوغسطس قيصر . (المترجم)

يعلم الناس قبل أن يسمع يسوع الناصري بزمان طويل ، وهو في رواية العهد الجديد يبدو بادی ذی بدء في إهاب الناقد المرير ، والخصم العنيد والمضطهد الناشط للناصريين (النصارى) جميعاً .

ولم يوفق كاتب هذه السطور إلى العثور على أى بحث في آراء بولس الدينية قبل أن يصبح من أتباع يسوع . ولا بد أنها كانت أساساً لآرائه الجديدة وإن لم تزد عن قاعدة انطلاق لها ، كما أن أسلوب تعبيرها وطريقها أسبغت بالتحقيق على مبادئه الجديدة لوناً خاصاً . وإنا نكاد نتخبط في نفس الظلمات حول تعاليم نعمالائيل ، الذى يقولون إنه هو المعلم اليهودى الذى كان بولس يجلس عند قدميه . كذلك لسنا ندرى ما هي التعاليم غير اليهودية التي درسها . ومن الراجح جداً أنه تأثر بالمثرائية . إذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المثرائية . ويتضح لكل من يقرأ « رسائله » المتنوعة ، جنباً إلى جنب مع الأناجيل ، أن ذهنه كان مشبعاً بفكرة لا تبدو قط بارزة قوية فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعليم ، ألا وهي فكرة الشخص الضحية الذى يقدم قرباناً لله كفارة عن الخطيئة . فما بشر به يسوع كان ميلاداً جديداً للروح الإنسانية ؛ أما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة ، ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء طلباً لاسترضاء الإله . كان يسوع في نظره حمل عيد الفصح ، تلك الضحية البشرية المأثورة المبرأة من كل عيب وذنس التي تتعقب في إصرار ديانات الشعوب البيضاء الداكنة^(١) . أمد بولس الناصريين بقوة جارفة لأنه جاءهم بتفسيره هذا المقنع تماماً لكارثة الصلب . وكان تفسيره ذاك نوراً ساطعاً سلط على دياجير الخيرة المطلقة التي رانت على عقول الناس .

ولم ير بولس يسوع قط . ولا بد أنه استقى معرفته بيسوع وتعاليمه سماعاً عن التلاميذ الأصليين . ومن الجلى أنه أدرك الشيء الكثير من روح يسوع ومبدئه الخاص بالميلاد الجديد ، بيد أنه أدخل هذه الفكرة في صرح نظام لاهوتي ، نظام يتسم بشديد البراعة والخفاء ، لا تبرح فتنته إلى اليوم تستهوى العقول « فكرياً » بصفة رئيسية . ومن الواضح أن عقيدة الناصريين التي وجدها على صورة مبدأ للحفز والإثارة وأسلوب للعيش ، قد تحولت على يديه إلى مذهب « إيمان » . ذلك بأنه وجد الناصريين ولهم روح

(١) يشير المؤلف بهذا إلى الشعوب البيضاء الداكنة الأعين والشعر والسكنة أصولها حول البحر المتوسط (انظر المعالم ج ١ ، ص ١٧٧ ، ط ٣) (المترجم)

ورجاء ؛ وتركهم مسيحيين لديهم بداية عقيدة .
 بيد أننا يجب أن نرجع القارئ إلى « أعمال الرسل » و « رسائل بولس » ،
 ليحصل على بيان واضح عن رسالة بولس وتعاليمه . كان رجلاً هائل الطاقة والنشاط ،
 وقد علم الناس في أورشليم وأنطاكية وأثينا وكورنثوس وإفيسوس وروما .

ويحتمل أيضاً أنه انحدر إلى أسبانيا . وليست طريقة وفاته بمعروفة على وجه
 التحقيق ، ولكن يقال إنه قتل في روما إبان حكم نيرون . فقد شب حريق عظيم
 ألقى على قسم كبير من روما ، فاتهمت الطائفة الجديدة بأنها تسببت في ذلك الحريق .
 ولا شك أن انتشار المسيحية السريع مدين لبولس أكثر منه لأي رجل آخر بمفرده .
 فلم تكد تمضي على صلب المسيح عشرون سنة ، حتى استرعت هذه الديانة نظر
 الولاة الرومان في ولايات عديدة . ولئن حصلت من يد القديس بولس على
 لاهوتها ، فلقد ظلت محتفظة بالكثير مما لتعاليم يسوع من السمة الثورية والبداية . وقد
 أصبحت أكثر تسامحاً نوعاً ما مع الملكية الخاصة ، وأصبح في وسعها أن تقبل
 نصارى أغنياء دون الإصرار على جعل ثرواتهم مشاعاً ، واغتفر القديس بولس
 نظام الرق عند ما قال : « أيها العبيد أطيعوا في كل شيء سادتكم »^(١) ، ومع ذلك
 فقد صمدت كالصخر لا تلين إزاء بعض النظم الجهورية في العالم الروماني . فإنها
 لم تجز البتة ربوبية قيصر . فلم يقبل المسيحيون قط أن يعبدوا الإمبراطور ، حتى
 ولا بإيماءة صامتة عند المذبح ، رغم ما في ذلك من تعريض حياتهم للخطر . ولأنها
 لتستنكر حفلات المجالدين^(٢) . وهكذا فإن المسيحية غير مسلحة بشيء إلا قوى
 هائلة من المقاومة السلمية ، بدت منذ مستهلها في ثوب ثورة صريحة ، تكيل الضربات
 للأسس الجهورية للنظام الإمبراطوري السياسي إن لم يكن الاقتصادي . وأول ما نجد في
 الأدب (: الكتابات) غير المسيحي من الشواهد على وجود المسيحية ، يبدو عند ما أخذ
 الموظفون المرتبكون يكتب بعضهم لبعض ويتبادلون الآراء في المشكلة الغريبة الماثلة بين

(١) كانت روح يسوع ، الروح الباعثة للحياة في المسيحية ، والتي تسرى في الأنجيل ، تتعارض
 تعارضاً تاماً مع كل من الملكية الخاصة والرق ، إلا أن اتجاه المسيحيين ، لم يتعين إطلاقاً بمثل هذا التحديد .
 وكانوا في الغالب أميل إلى التخفيف منهم إلى الإلغاء . (المؤلف)

(٢) المجالد Gladiator ، شخص وبخاصة عبد أو أسير ، يقاتل حتى الموت (في المجلد
 Arena) أو إنقاذ الحياة ، لإمتاع الجماهير بروما القديمة . (المترجم)

أيديهم ، مشكلة ذبوع عدوى ذلك العصيان الصادر من قوم لا شريخى منهم فيما عدا ذلك من شئون الدنيا .

ويفشى الغموض التام شطراً كبيراً من تاريخ المسيحيين فى القرنين الأولين من الحقبة المسيحية . فمع أنهم انتشروا فى كل أرجاء العالم ، فلما لا نعرف إلا القليل النادر من أفكارهم أو طقوسهم وطرائقهم أثناء ذلك الزمان . ولم تكن لهم حتى حينذاك عقائد مستقرة ، إذ لا شك أنه كانت هناك اختلافات محلية كبيرة فى معتقداتهم ونظمهم غير المتكيفة إبان ذلك العصر . ولكن مهما يبلغ ما بينهم من فوارق محلية ، فيلوح أنهم كانوا فى كل مكان يحملون الشيء الكثير من روح يسوع . ومع أنهم كانوا حينها حلوا أثاروا ضدهم عداً مريراً ودعاية مضادة قوية ، فلما نفس التهم الموجهة إليهم تشهد بما هم عليه من خير وصلاح عام .

وفى أثناء ذلك الأمد غير المحدد كان يحدث فيما يبدو قدر جسيم من ضرب بعينه من الثيوكرازيا (أى التوحيد والمطابقة بين الآلهة المختلفة) بين النحلة المسيحية والعقيدة الميثائية التى تكاد تضارعها فى سعة انتشارها بين سواد الشعب ، ونحلة سيرابيس لإيزيس حورس^(١) . ويبدو أن المسيحيين اقتبسوا من الأولى يوم الأحد بوصفه يومهم الأكبر للتعبد بدلا من يوم السبت اليهودى ، كما استعاروا فكرة الإكثار من استعمال الشموع فى الحفلات الدينية ، وأسطورة أداء العبادة بواسطة الرعاة (أعنى القسس) ، كما اقتبسوا أيضاً فيما يرجع ، تلك المفكرات أو العبارات التى لا تزال تمتاز بها إلى يومنا هذا بعض الشيع والى تتكلم عن « الاغسسال فى دم » المسيح وعن كون المسيح تضحية بالدم . ذلك أنه لزام علينا أن نتذكر أن الموت صلباً ، لا يكاد يهرق من الدم أكثر مما يريقه الشنق ؛ فتصوير يسوع فى صورة المريق دمه من أجل البشرية ، إنما هو فى الحقيقة من أشد العبارات بعدا عن الدقة . ونحن وإن تذكرنا أنه لقى التعذيب والتنكيل وأنه ألبس تاجاً من الأشواك ، وأن جنبه قد طعن بحربة ، فلما لا تزال أبعد ما نكون عن « نبع يفيض دما » . بيد أن الميثائية ،

(١) سيرابيس كان مركبا من أوزيريس وأبيس (انظر ج ٢ ص ٣٨٨ من المعالم) . (المترجم)

وكانت تتركز حول بعض الخفايا التي عني عليها اليوم النسيان ، تخيل مثلاً وهو يضحي بعجل مقدس خير . ويلوح أن جميع المقاصير المقدسة المثرية تزدان بصورة لثراً وهو يذبح ذلك العجل ، الذي ينزف دمه نزفاً عظيماً من جرح في جنبه ، ومن ذلك الدم نشأت حياة جديدة . وكان المريد المتعبد الميثرائي يستحم بالفعل في دم عجل التضحية ، وبذلك « يولد من جديد » . وكان عند انخراطه في النحلة لأول مرة يدخل تحت سقالة يذبح العجل عليها ، فيسيل عليه دمه . ويخيل إلينا أننا نعالج هاهنا استمراراً لسفك الدماء البدائي للتضحية عند وقت البذار ، وهي فيما يحتمل الفكرة الدينية الأولى لأقدم مدنيات المعابد .

على أن ما أسهمت به نخلة الإسكندرية في الفكر المسيحي والطقوس المسيحية كان أعظم قدراً أو يكاد . إذ كان طبعياً أن يجد المسيحيون في شخصية حورس ، (الذي كان ابناً لسيراپيس وهو سيراپيس في نفس الوقت) ، شبهاً مرشداً لهم فيما يبدؤون من جهود عنيفة لفهم ما خلفه لهم القديس بولس من خفايا . وقد كان الانتقال من هذا إلى المطابقة بين شخصية مريم وإيزيس . ثم السمو بها مرتبة شبه قدسية - بالرغم مما سبق أن اقتبسناه من أقوال يسوع عن أمه وإخوته - خطوة طبيعية جداً كذلك . وكان طبعياً كذلك للمسيحية أن تقتبس وهي لا تكاد تعي ، الطرائق العملية للديانات الشائعة في ذلك الزمان . فاتخذت مساوئها طريقة الروؤس الحليقة والزي الخاص بالكهنة لمصريين ، لأن ذلك كان يبدو الطريقة المثلى لتمييز القسس . وتتابعت البدع واحدة في إثر الأخرى . وكانت نتيجة ذلك أن دفنت التعاليم الثورية الأصلية بطريقة تكاد تكون غير محسوسة تحت تلك « الإضافات المألوفة » . ولقد حاولنا من قبل أن ننصوّر عودة جوتاما بوذا إلى التبت ، وانذهاله لعبادة تماثله في لاسا (Lhasa) . ولو أن أحد الناصريين (النصارى) المخلصين ممن عرف واتبع معلمه الأشعث الضاوي من السفر في وهج الشمس اللافح بالجليل ، أعيد فجأة إلى هذا العالم ثم زار مثلاً قداساً في كنيسة القديس بطرس بروما ، فلسنا بحاجة إلى تصوير ما يحل به من دهشة كبرى مماثلة عندما يعلم أن تلك الخشكناة (القربان) الموجودة على المذبح إن هي إلا معلمه المصلوب .

والدين في مجتمع عالمي ليس أشياء عديدة وإنما هو شيء واحد ، ومن ثم لم يكن مناص لكل العقائد الدينية الحية في عالم ذلك الزمان ، وكل ما اتصل بالمسيحية من فلسفة وفكر ديني ، من أن تتحاسب وتبادل العبارات والفكرات والطقوس . وكانت آمال الناصريين الأول قد طابقت بين ذاتية يسوع وبين المسيح . ولكن ذكاء بولس المتوقد أحاط سيرته بالأهمية المستيقية . وكان يسوع دعا الناس رجالاً ونساء إلى أداء واجب جبار : هو إنكار الذات والميلاد الجديد في مملكة الحبة . وكانت أهون السبل على ضعيف الإيمان المستجد في ديانتهم أن يفر بعيداً عن هذا المبدأ البسيط الصريح ، ذلك الاقتراح الشديد الصلابة ، — إلى الغوص في مسائل ذهنية بحتة قوامها نظريات ومراسم معقدة لا تمس جوهر نفسه بأي حال فما أسهل أن ينضح الإنسان ذاته بالدم ومن أن يطهر نفسه من الخقد والمنافسة ؛ وأن يأكل الخبز ويشرب النبيذ مدعياً أنه قد امتص الألوهية ؛ وأن يفضل تقديم الشموع على تقديم القلب ، وأن يخلق الرأس ويستبقى النفس الأمانة بالسوء المستقرة في داخله !! كان العالم غاصاً بأمثال هذه الفلسفة التهرية والمادة اللاهوتية في القرون الاستهلالية الأولى للحقبة المسيحية . وليس يعنينا هنا أن نتوسع في تفصيل الظواهر المميزة للأفلاطونية الحديثة (Neoplatonism) (١) والأدرية (Gnosticism) (٢) والفيلونية (Philonism) (٣) وما إليها من تعاليم كانت كثيرة في العالم الإسكندراني . بيد أن الواقع أنه كان كله عالمًا واحدًا ، ذلك العالم الذي جمع بين هؤلاء وبين المسيحيين الأول . وتشهد كتابات رجال من أمثال أوريجين (Origen) وأفلوطين (Plotinus) وأوغسطين

(١) الأفلاطونية الحديثة : مزيج من الفلسفة الشرقية والأفلاطونية ، وهي فلسفة أفلوطين ، الذي عاش بالإسكندرية في القرن الثالث . (المترجم)

(٢) الأدرية أو الأغنسطية حركة دينية نشأت والمسيحية ناشئة يراها بعض الناس زندقة ولكنها محاولة لتكوين مزيج من اللاهوت المسيحي والفلسفة الإغريقية وعناصر مأخوذة من النحل السرية بعالم البحر المتوسط . ويرى الأغنسطيون أن لهم علماً باطنياً بالمعنى الداخلي للديانة . وهو المعرفة التي يستطيعون أن يصلوا بها إلى الاستنارة والخلود . (المترجم)

(٣) الفيلونية : نسبة إلى فيلون وهو فيلسوف إهريقى من أصل يهودى ولد بالإسكندرية قرابة ٢٠ ق . م وفلسفته تخلط بين أفلاطون والكتاب المقدس ولها بعض الأثر في المؤلفات المسيحية . (المترجم)

(Augustine) — بحركة الأخذ والعطاء التي لم يكن منها مفر في ذلك الزمان .

وقد سمي يسوع نفسه ابن الله وابن الإنسان أيضاً ؛ بيد أنه لم يركز إلا أقل الاهتمام بشخصه : من هو؟ أو ما هو؟ ، وإن اشتهد تركيزه كثيراً على التعاليم المتعلقة بالملكوت . وعند ما صرح بولس وأتباعه الآخرون بأنه أكثر من إنسان وأنه إله ، فإنهم — أخطأوا أم أصابوا — قد فتحو ميداناً هائلاً من الجدل . فهل كان يسوع رباً ؟ أم أن الرب خلقه ؟ هل هو والرب سواء أو هو منفصل عن الرب ؟ وليس من مهمة المؤرخ أن يجيب عن مثل هاته الأسئلة ، بيد أنه مضطر أن يدونها وأن يلحظ كم هي أسئلة لم يكن منها بد ، بسبب ذلك السلطان الهائل الذي كان لها على كل ما تلا ذلك من حياة البشرية في بلاد الغرب . حتى إذا وافى القرن الرابع من الحقبة المسيحية وجدنا المجتمعات المسيحية بأسرها في حالة من الهياج والسخط بسبب الجدل المتنازع حول طبيعة الله — بحيث أهملت بدرجة كبيرة التعاليم الأكثر بساطة ، تعاليم الإحسان والأخوة والخدمة التي طبعها يسوع في العقول مراراً وتكراراً .

وأهم الآراء التي ينبغي أن يلحظها المؤرخ هي آراء الأريوسية (Arians) والسابيلية^(١) (Sabellians) والثالوثية (Trinitarians) . وكانت الأريوسية تتبع آريوس الذي كان يعلم أن المسيح كان أقل من إله ، وكان السابيلية يعلمون أنه حالة أو أقنوم للإله — فالإله هو الخالق والمخلص والمواسي ، كما يكون الرجل الواحد أباً وقيماً وضيعاً ؛ أما الثالوثية الذين كان إثناسيوس زعيمهم الأكبر فقالوا إن الأب والابن والروح القدس ، أقانيم ثلاثة مميزة ، بيد أنها إله واحد . وإذا لرجع القارئ إلى عقيدة إثناسيوس يطلب عندها التعبير الدقيق عن السر الأخير ، ويطلب فيها النتائج المزعجة التي ستحل به إن فاته فهمها أو الإيمان بها ! ! . ويجب عليه أن يرجع إلى جيبون^(٢) إن شاء بياناً عن هذه الخصومات ملوّهة السخرية والتهمك . على أن الكاتب الحالي

(١) السابيلية هم أتباع سابيلوس (القرن الثالث م) الذي كان يرى أن الله لا ينطوي إلا على شخص واحد وأن الثالوث لم يكن إلا ثالوثاً من الوظيفة والإظهار . (المترجم)

(٢) أصدرت المؤسسة المصرية للطباعة والنشر (في ١٩٦٩ - ١٩٧٠) ترجمة عربية لجيبون بإشراف الأستاذ أحمد نجيب هاشم . فليرجع إليها القارئ . (المترجم)

لا يسهه إلا أن يعالجها دون أدنى رهبة ولا سخرية . وهو يرى من واجبه أن يعترف أنها تبدو له كأنما هي غليان مدر تهدر مراجله في العقل البشرى وتفيض منه الكوارث الوبيلة وأنها لا تتسق بتاتاً مع تعاليم يسوع البسيطة الصريحة المحفوظة لنا في الأناجيل . ولم يعد اعتناق المذهب التقليدى السليم (الأرثوذكسى) شرطاً لازماً للحصول على الوظيفة المسيحية فحسب ، بل لمزاولة التجارة بين المسيحيين والحصول على المعونة المسيحية كذلك . فإن التمسك بنقطة صغيرة من نقاط المبادئ الدينية أو التزحزح عنها قد يكون معناه ثراء رجل أو إدقاعه . ومن العسير أن يقرأ الإنسان الكتابات الباقية من ذلك الزمان ، دون أن يشعر شعوراً قوياً بتحكم الاتجاه الاعتقادى (Dogmatism) وباستبداد الأحقاد والمنافسات والتفهمات بالرجال الذين مزقوا المسيحية إرباً من أجل هذه التفصيلات اللاهوتية الدقيقة . ومعظم المجادلين الثالوثيين — إذ أن أهم ما تبقى من الوثائق هو وثائق الثالوثية — يهتمون خصومهم (وبحق ما يهتمونهم في الغالب) بأن لهم دوافع دنيئة أخرى خفية . بيد أنهم يفعلون ذلك بطريقة تفضح روحهم الوضيعة في جلاء تام . مثال ذلك أنهم يهتمون أريوس مثلاً بأنه يعتنق الإلحاد (المهرطقة) ، لأنه لم يعين أسقفاً على الإسكندرية . وكانت الفتن والحرمات (من عضوية الكنيسة) والنفي تلازم على الدوام هذه الخصومات ، ثم جاء دور الاضطهاد الرسمى آخر الأمر . إذ اختلطت هذه الفروق الدقيقة حول طبيعة تكوين الإله ، بالسياسة والمنازعات الدولية . وكان الرجال الذين يتنازعون حول أشغالهم ، والزوجات اللاتي يرغبن في مضايقة أزواجهن ، يعتنقون في هذا الموضوع الرفيع آراء متضادة . وكان معظم البرابرة غزاة الإمبراطورية الرومانية من الآريوسيين ، والراجع أن مرد ذلك هو أن عقولهم البسيطة لم تكن لتفهم العقيدة « الثالوثية » .

ومن أيسر الأمور على المتشكك أن يهزأ من هذه المنازعات . ولكن حتى لو كنا نرى أن هذه المحاولات التي ترمى على وجه الدقة إلى تبين مقدار ارتباط الله بنفسه ، فيها من الغرور والجرأة فضلا عن الفظاعة من الناحية الذهنية ما فيها ، فإننا على ذلك مضطرون إلى الاعتراف بأن تلك التفصيلات الدقيقة المخالفة لكل معقول . تفصيلات الاعتقادات (Dogmas) المستحيلة ، كثيراً ما كانت تكمن وراءها عاطفة صادقة تهدف نحو الحق ،

وإن أساء القوم تصور ذلك الحق وفهمه . وكان لكل من الجانبين شهداء صادقوا الشهادة . والحماسة التي تجلت في هذه المنازعات وإن تكن حماسة وضیعة في غالب الأحيان ، إلا أنها جعلت الشیع المسيحية على كل حال نشیطة جداً في ناحيتي الدعاية والتعليم . ومع ذلك فينبغي ألا يخذعنا تاريخ الجماعة المسيحية في القرنين الرابع والخامس من حيث هو في معظمه سجل لهذه المنازعات التعسة ، إذ الواقع أن روح يسوع كانت تعيش فعلاً وتنسأ بأرواح كثيرة بين المسيحيين . وفوق ذلك فإن نصوص الأناجيل ، وإن جرى على الراجع التلاعب بها أثناء تلك المدة ، إلا أنها لم يقض عليها تماماً ، وظل يسوع الناصري في جلال عظيمته الوضاحة التي لا تجارى ، يعلم الناس من خلال نصوصها . كذلك لم يمنع هذا الشقاق التعس المسيحية من الاحتفاظ بمجبة موحدة ضد حفلات المجالدين وضد العبادة المشينة عبادة الأوثان والقيصر الرب .

٦ - كفاحات المسيحية واضطهاداتها

كان طبعياً أن تعد المسيحية حركة عصيان للدولة وتفكيك لعراسها ، ما تحدت ربوبية قيصر والنظم التي تتميز بها الإمبراطورية ، والواقع أنها كانت تعد كذلك في نظر معظم الأباطرة قبل قسطنطين الأكبر . فلقيت عداء جسيماً ، انتهى آخر الأمر إلى بذل محاولات منظمة للقضاء عليها . وكان ديكْيوس (Decius) أول إمبراطور أنزل بها اضطهاداً رسمياً ، كما أن عهد دقلديانوس (٣٠٣ وما أعقبها من السنين) هو حقبة الشهداء العظيمة . والواقع أن اضطهادات دقلديانوس هي النزاع النهائي بين فكرة الإمبراطور الرب القديمة وبين الهيئة العظيمة البالغة بالفعل حد القوة والتي كانت تنكر ربوبيته . وكان دقلديانوس أعاد تنظيم شئون الملك والمملكة على أسس متطرفة من الحكم المطلق ، وألغى آخر ما تبقى من آثار النظم الجمهورية ؛ وهو أول إمبراطور يحيط نفسه إحاطة تامة بكل ما للملوك الشرقيين من مظاهر باعثة على الرهبة . فاضطره منطق مدعياته أن يحاول القضاء التام على ذلك النظام الذي كان ينكرها إنكاراً صريحاً . وكان الاختبار المهد للاضطهاد ، أن يطلب إلى « المسيحي » أن يقرب إلى الإمبراطور قرباناً .

« ومع أن دقلديانوس الذى لم يبرح نافرا من سفك الدماء ، قد خفف من غلواء جاليريوس الذى اقترح أن كل من رفض تقديم القربان يجب أن يحرق من فوره حيا ، إلا أن العقوبات التى وقّعت على المسيحيين المعاندين ، يمكن أن تعد من النكال الصارم ذى الأثر البالغ . فصدرت مراسيم تقضى بأن كنائسهم فى أنحاء الإمبراطورية يجب أن تهدم من أساسها ؛ ثم أُنذِر بعقوبة الإعدام كل من يجروء على عقد أية اجتماعات سرية بقصد العبادة الدينية . واتخذ الفلاسفة فى ذلك الأوان لأنفسهم وظيفة زرية ، هى توجيه الحماسة العمياء للدولة فى ذلك الاضطهاد ؛ فأقبلوا يدرسون طبيعة الديانة المسيحية وعبريتها دراسة كدّ وتوفر ؛ ولما كانوا لا يجهلون أن من المفروض أن المبادئ النظرية للعقيدة تحتويها كتابات الأنبياء والإنجيليين والرسل ، فأرجح الظن أنهم هم الذين اقترحوا إصدار الأمر بأن يسلم الأساقفة والقساوسة كل كتبهم المقدسة إلى الحكام ، الذين صدرت لهم الأوامر بأن يحرقوها فى هيئة علنية رهيبة ، وإلا نالهم شر الجزاء . وقد تضمن نفس المرسوم مصادرة أملاك الكنيسة على الفور ؛ وكانت الأجزاء المختلفة التى تتكون منها ، إما أن تباع لمن يدفع فيها أغلى ثمن أو تضم إلى الأملاك الإمبراطورية أو توهب للمدن أو الهيئات أو تمنح تلبية لطلب الطامعين من رجال البلاط . وبعد اتخاذ مثل هذه التدابير الفعالة لإلغاء العبادة ، ولل قضاء على رئاسة المسيحية ، رؤى من الضرورى تعريض أولئك الأفراد المنحرفين الذين يواصلون رفض عقيدة الطبيعة ، عقيدة روما وعقيدة أسلافهم ، لما لا يكاد يطاق من العنت والشقاء . وكان الأفراد المستنيرون من أبناء البيوتات يعدون غير أكفاء لحيازة الرتب أو تولى المناصب ؛ فأما الأرقاء فيحرمون حرماناً أبدياً من التطلع إلى الحرية ؛ كما أن الجماعة المسيحية بأجمعها حرمت حماية القانون . فقد خول للقضاة الحق فى أن ينظروا وأن يقضوا فى كل قضية ترفع أمامهم ضد أى مسيحي ؛ بيد أنه لم يكن مسموحاً للمسيحيين أن يشتكوا من جور يصيبهم ؛ وهكذا كانت هذه الطائفة المتعسة هدفا لكل ظلم وعنت ، على حين يحال بينهم وبين الانتفاع بالعدالة العامة . ولم يكد هذا المرسوم يعرض على الملأ فى أبرز المواضع بنيقوميديا ، حتى امتدت إليه يدا مسيحي بالتمزيق المصحوب بأقذع التنديد والسباب تعبيراً عن المقت والاحتقار لمثل هؤلاء الحكام الفسقة الطغاة . وكانت جريمته

طبقاً لأخف القوانين وطأة ، توضع بمنزلة الخيانة العظمى وتجازى بالإعدام وفإن صبح أنه كان رجلاً ذا مرتبة وعلم ، فإن تلك الظروف ما كانت إلا لتزيد في جرمه : وإذا هو يحرق أو قل يشوى على نار بطيئة . وإذا بجلاديه وقد امتلأوا حماسة للانتقام للإهانة الشخصية التي لحقت بالأباطرة ، يفتنون في إنزال العذاب ألواناً بالمسكين دون أن يستطيعوا لصبره قهراً ، وأن يغيروا من ابتسامة الثبات والزراية التي ظل محتفظاً بها على محياه وهو في آلام نزعته الأخير . « (١) » .

وهكذا افتتحت الصفحة الأولى من الاضطهاد العظيم بموت ذلك الشهيد المجهول . ولكن ما وصلنا من معلومات عن مدى غلظة الاضطهاد وشدة إنما هو — كما يلاحظ جيبون — موضع الشك الكثير . وهو يقدر مجموع الضحايا الكلى بما يقارب الألفين ، ويقارن هذا بالثابت المؤكد من عدد جماهير المسيحيين الحاشدة الذين استشهدوا على أيدي زملائهم في الدين أثناء فترة الإصلاح الديني . ومن المعلوم أن جيبون شديد التحامل على المسيحية ، وهو هاهنا يبدو كأنما ينزع إلى التهوين من شأن تجلده المسيحيين وما عانوه من الآلام . ولا مرأ أن كثيراً من المقاطعات أبدت نفوراً عظيماً في تنفيذ المرسوم . بيد أن السلطات بذلت جهداً كبيراً في تصيد نسخ الكتب المقدسة ، كما حدث أيضاً في أماكن كثيرة هدم معظم الكنائس المسيحية . وعذب وأعدم كثير ، كما ملئت السجون بالأساقفة والقساوسة المسيحيين . ولزام علينا أن نتذكر أن المجتمع المسيحي كان يولف عنصراً ضخماً جداً بين السكان ، وأن نسبة كبيرة من الموظفين المكلفين بتنفيذ المرسوم كانوا هم أنفسهم يدينون بالعقيدة المحرمة . وكان جاليريوس صاحب الأمر في الولايات الشرقية من أشد أنصار الاضطهاد قوة شكيمة وشدة ، بيد أنه أدرك آخر الأمر وهو على فراش الموت (٣١١) أن لا فائدة ترجى من اعتداءاته على هذا المجتمع الضخم ، فأصدر مرسوماً بالتسامح ، يترجم جيبون خلاصته على الوجه التالي :

« كان من بين الأمور الجوهرية التي أهتمنا لمنفعة الإمبراطورية والمحافظة عليها ، اعترافنا أن نصلح ونقيم من جديد كل شيء وفقاً للقوانين القديمة ونظام الرومان العام ، وقد رغبتنا رغبة خاصة في أن نهدي إلى سواء سبيل العقل والطبيعة أولئك المسيحيين

(١) انظر جيبون في "Decline & Fall of the Roman Empire" الفصل السادس عشر .

وبإشراف أحمد نجيب هاشم وترجمة محمد علي أبو درة وآخرين ، أصدرت المؤسسة المصرية للطباعة والنشر طبعة عربية لطبعة مختصرة من جيبون أصدرها الاستاذ د . م . لو . (المترجم)

المخدوعين الذين تركوا الديانة والطقوس التي استنها آباؤهم ؛ واحتقروا في جرة وغرور شريعة الأقدمين ، واخترعوا قوانين وآراء هوجاء وفقاً لما تملبه عليهم أهواؤهم ، وجمعوا من حولهم مجتمعاً مغلطاً من مختلف ولايات إمبراطوريتنا . وإذا أن المراسيم التي أصدرناها لدعم عبادة الآلهة ، قد عرضت كثيراً من المسيحيين للأخطار والخن ، فلقى الكثيرون منهم حتفه ، وترك الأكثرون ممن لا يزالون يصرون على ضلالهم الأحق محرومين من أى ممارسة عمومية للديانة ، فإننا نميل إلى أن نشمّل هؤلاء التعساء بآثار رحمتنا المعتادة . لذلك فنحن نسمح لهم بأن يعبروا بحرية عن آرائهم الخاصة وأن يجتمعوا في اجتماعاتهم الدينية دون خوف أو مضايقة ، على شريطة دائمة هي أن يحافظوا على الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة . وسنوضح في أمر آخر مقاصدنا للقضاة والحكام ؛ ونأمل أن يطوع تسامحنا للمسيحيين بأن يقدموا صلواتهم للرب الذي يعبدون ، من أجل سلامتنا ورخائنا ومن أجل سلامتهم ورخائهم ومن أجل سلامة الجمهورية ورخائها .

وفي بضع سنين كان قسطنطين الأكبر في دست الملك ، يحكم في مبدأ الأمر بالاشتراك مع آخر (٣١٢) ثم يحكم منفرداً بالسلطان . (٣٢٤) ، فانهت على يديه أفسى من المسيحية . ولئن كانت المسيحية قوة عصبانية مدمرة حيال روما الوثنية ، فلقد كانت قوة موحدة ومنظمة في داخل مجالها ومجتمعاتها هي . وأدرك قسطنطين بعقليته هذه الحقيقة . فإن روح يسوع بالرغم من الخلافات النظرية التي سادت المسيحيين جعلت منهم جماعة متعاطفة كبيرة في كل أرجاء الإمبراطورية بل في خارج حدودها . وأخذت العقيدة في الانتشار من وراء الحدود من البرابرة ، كما امتدت إلى فارس وآسيا الوسطى . وكانت مصدر الأمل الوحيد للتماسك الخلقى الذي استطاع قسطنطين أن يدركه في حماة الآراء الضيقة والأثرة التي كان لزاماً عليه أن يحكم من فوقها . فهي ، وهي وحدها ، كانت صاحبة الوسائل المهيئة لتكوين « الإرادة » المنظمة ، تلك الإرادة التي كانت الإمبراطورية يسبب حاجتها إليها تتناثر أشلاء تناثر قطعة باليسة من القماش . وفي (٣١٢) اضطّر قسطنطين أن يحارب دفاعاً عن روما وعن مركزه ضد مكسينتيوس (Mxentius) فوضع طغراً (١)

(١) الطغراء : علامة ترمز إلى شخص أو جماعة ما تتألف من أحرف الاسم الأولى مرقومة على نحو متشابه . (المترجم)

اسم المسيحية على تروس جيشه وراياته ، وادعى أن رب المسيحيين قاتل ذباداً عنه في نصره المبين في معركة جسر ميلثيان (Milvian) خارج روما بالضبط . وبهذا العمل تنازل عن كل ادعاء له بالربوبية التي أدخلها غرور الإسكندر الأكبر لأول مرة إلى العالم الغربي . وبموافقة المسيحيين ومعونتهم نصب نفسه ملكاً ، له من الحكم المطلق نصيب أعظم مما أتيح لـ دقلديانوس نفسه . ولم تنقضى بضع سنوات حتى أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية ، وفي (٣٣٧ م) عُمدَ قسطنطين مسيحياً وهو على فراش موته .

٧ - قسطنطين الكبير

إن شخص قسطنطين الكبير جوهرى في التاريخ ويعدل في جوهرته على أقل تقدير شخص الإسكندر الأكبر أو أوغسطس قيصر . ولسنا نعرف إلا أقل القليل عن شخصيته أو حياته الخاصة ؛ إذ لم تهَيَّ لنا المقادير في زمانه مؤرخاً مثل بلوتارك^(١) أو سويتونيوس^(٢) يبقى لنا على تفاصيل زاهية التلوين تتصل اتصالاً وثيقاً بمعيشته الداخلية . أجل لدينا الآن مطاعن مما كتب أعداؤه ، كما أن لدينا في مقابل ذلك من الثناء عليه ما هو ظاهر الغلظ والسجاجة . بيد أن واحداً من هؤلاء الكتاب لم يعطنا صورة له حية زاهية الألوان ، فإنه ليس بالنسبة إليهم إلا رمزاً لطافتهم ، أو راية حزبية لهم . ويدكر خصمه زوسيموس (Zosimus) أنه كسرجون الأول ، كان غير شرعى المولد . إذ كان أبوه قائداً شهيراً ، على حين كانت أمه هيلالة ابنة صاحب خان في نيش ببلاد الصرب . على أن جييون يرى مع ذلك أنه ثمرة زواج شرعى . ومهما يكن الأمر فإنه كان زواجا وضيعاً ؛ وقد طغت عبقرية قسطنطين الشخصية على نقائص خطيرة تكنفته . فإنه كان من الأميين أو يكاد ، وكان يعرف القليل الذى لا يكاد يذكر من الإغريقية . ويبدو أنه نفى حقاً ابنه الأكبر كريسپوس ، وأمر به فأعدم بتحريض من فاوستا امرأة أبى الفتى ؛ كذلك تحمل إلينا السجلات أنه اقتنع فيما بعد ببراءة كريسپوس ، وأمر بفاوستا فأعدمته ، بأن أغلى عليها ماء حمامها حتى ماتت — على قول لإحدى الروايات ؛ وبأن ألقيت للضواري (في رواية أخرى) عارية الجسم

(١) بلوتارك : (ح ٦٤ - ١٢٠) كاتب تراجم يوناني حاصر في الفلسفة بروما . وعينه هادريان واليا على اليونان . وكتابه « التراجم المتعوزية » فيه موازنة بين كل اثنين من كبراء الإغريق والرومان . (المترجم)

(٢) سويتونيوس : مؤرخ لاتينى (ازدهر بالقرن الثانى الميلادى) ويعطينا كتابه « حياة القياصرة » معلومات شخصية كثيرة عنهم . (المترجم)

على جبل موحش ؛ على حين توجد كذلك وثائق مقنعة جداً تدل على أنها عاشت من بعده . فإن كانت أعدمت فعلاً ، فإن ذلك لا يؤثر في الحقيقة القائلة بأن أولادها الثلاثة ومعهم اثنان من أبناء إخوتها ، أصبحوا ورثة قسطنطين « بالتعيين » . وواضح أنه لا يمكن الحصول على شيء يعتمد عليه في هذه المعقدات الغامضة ، وعلى القارئ المتطلع أن يطلب أخبار هذه « الحبيسة » القائمة على مادة بالغة الندرة عند جيبيون الذى ديجها بمهارة فائقة (الفصل ١٨) .

ومعروف أن جيبيون كاتب ذو ميول مضادة للمسيحية ، فهو من ثم خصم معاد لقسطنطين ؛ بيد أنه يعترف أنه كان معتدلاً عفيفاً . وهو يتهمة بالإسراف بسبب مبانيه العامة العظيمة ، كذلك يتهمة بالغرور والخلاعة ! لأنه لبس وقد تقدمت به السن شعراً مستعاراً (ولا يخفى أن جيبيون نفسه كان يلبس شعره المستعار ويربطه برباط أسود مناسب) وتاجاً ملكياً وثياباً فاخرة . على أن جميع الأباطرة المتأخرين يعد دقلديانوس لبسوا التيجان والثياب الفاخرة .

ومع ذلك فلئن ظلت شخصية قسطنطين الكبير أشبه شيء بالأطيفاف ، ولئن لم تتكشف تفاصيل حياته الخاصة إلا عن مأساة يغشاها الإبهام ، فإننا مع ذلك نستطيع أن نتخيل كثيراً مما كان يحول في ذهنه . ولا بد أنه كان ذهنًا يشعر بالوحشة الأليمة وهو في خاتمة سنى حياته . كان أكثر استبداداً من أى إمبراطور سابق — أعنى أنه كان أقل استشارة واستعانة بغيره ، إذ لم يبق لديه أحد من أهل الثقة ذوى الروح الغيرية العامة^(١) ، ولم يكن هناك مجلس شيوخ (سناتو) ، ولا أى مجلس أيا كان يشاركه وضع الخطط وتطويرها . فإلى أى مدى أدرك ذلك الرجل ضعف إمبراطوريته وإلى أى حد كان يرى الكارثة الشاملة التى كانت عند ذاك وشيكة الحدوث ؟ ذلك ما لا نستطيع أن نعلم فيه إلا على الحدس والتخمين . ومهما يكن الأمر فإنه جعل عاصمته الحقيقية مدينة نيقوميديا بولاية بيثنيا . وقد مات والقسطنطينية عبر البسفور ما تزال تبنى . ويلوح أنه — شأن دقلديانوس — قد أدرك انقصاب^(٢) ظهر معالم ممتلكاته وشكلها العام . .

(١) يقصد المؤلف هؤلاء كل شخص يعنى بالشئون العامة وخدمة الجمهور . (المترجم)

(٢) انقصب الظهر بمعنى انكسر . (المترجم)

وركز اهتمامه على الشؤون الخارجية ، وعلى الأخص إلى شئون بلاد المجر وجنوب روسيا والبحر الأسود . وقد أعاد تنظيم أداة الحكم في الإمبراطورية ، وأعطاهها دستوراً جديداً وسعى في أن يكون أسرة مالكة . وكان مجدداً لا يهدأ له بال ، فحاول أن يعالج الفوضى الاجتماعية بمساعدته نظام الطوائف على التطور . وهو في هذا يترسم خطى سلفه العظيم دقلديانوس . فحاول أن يجعل من الفلاحين وصغار الزراع طائفة ، وأن يحظر عليهم الانفصال عما في حوزتهم من أرض ، وهو في الحقيقة قد سعى أن يجعلهم موالى أرض (Serfs) . ذلك بأن الوارد من الأرقاء العمال قد نصب معينه ، إذ أن الإمبراطورية لم تعد بعد قوة غازية بل قوة معرضة للغزو ، فأنقلب يتلمس العلاج في نظام موالى الأرض ، واقتضت جهوده الخلاقة فرض ضرائب ثقيلة لم يسبق لها مثيل . وتشير كل هذه الأمور إلى عقل قوى يشعر بالوحدة الموحشة . وتتجلى قوة ابتكاره الأصلية في فهمه اليأس للحاجة إلى بعض القوى الأخلاقية الموحدة التي لا بد منها لتماثل بنيان الإمبراطورية .

ويبدو أنه لم يدرك الاختلافات العنيفة القائمة بين رجال اللاهوت إلا بعد أن تحول بوجهه صوب المسيحية . فأنفق جهداً عظيماً للتوفيق بين هذه الفروق لكي يتسنى له أن يبث في المجتمع تعاليم تتصف بالتناسق والانسجام ، وبناء على مشورته عقد مجمع عام للكنيسة (٣٢٥) في نيقيا ، وهي مدينة تقع قرب نيقوميديا في مواجهة القسطنطينية . ويقدم إلينا يوسيبوس (Eusebius)^(١) بياناً عجيباً عن هذا الاجتماع الغريب ، الذي كان يرأسه الإمبراطور وإن لم يكن بعد مسيحياً معمداً . لم يكن أول مجلس عقده من أجل الكنيسة ، لأنه سبق له أن رأس في (٣١٤) مجلساً في آرل (Arles) . جلس الإمبراطور في بهرة مجلس نيقيا على عرش من ذهب ، وإذا أنه كان رقيق الزاد من الإغريقية ، وجب علينا أن نفرض أنه اكتفى بملاحظة ملامح وسحنة وإيماءات المتناظرين وسماع نغمات أصواتهم . وكان المجلس عاصفاً . ولما قام آريوس (Arius) المسن ليتكلم ، لطمه على وجهه شخص هو نيقولاس الميرى (Nicholas of Myra) ، ثم هرول الكثيرون بعد ذلك إلى الخارج ، وقد وضعوا أصابعهم في آذانهم في رعب مفتعل من هرطقات الرجل الشيخ . وإن المرء ليلذ له أن

(١) يوسيبوس (ح ٢٦٠ - ٣٤٠ م) هو أبو التاريخ الكنسى . ويعتقد أنه ولد بفلسطين . عين أسقفاً لقيصرية ح ٣١٣ ولعب دوراً هاماً في مجمع نيقيا . (المترجم) *

يتصور الإمبراطور العظيم ، وهو في أشد القلق على روح إمبراطوريته ، كما أنه كذلك وطيد العزم على إنهاء تلك الانقسامات ، منحنيًا نحو مترجمه يسألهم إيضاح تلك الضجة .

وتمخض هذا المجمع عن « بيان العقيدة النيقية » . وهو بيان « ثالوثي » دقيق ، وناصر الإمبراطور هذه العقيدة « الثالوثية » . ولكن لما حدث فيها بعد أن أنثاسيوس اشتط في الحملة على الأريوسيين ، أمر به فني من الإسكندرية ، ولما رغب كنيسته الإسكندرية في حرمان آريوس ، أجبرها على أن تعيده إلى حظيرتها .

٨ - تأسيس المسيحية الرسمية

إن عام (٣٢٥ م) يعد من أنسب التواريخ لكتابنا هذا . إذ هو تاريخ أول مجمع عام « مسكوني Oecumenical » بكامل هيئته للعالم المسيحي بأسره : (فأما ذلك المجمع الذي عقد في آرل وذكرناه آنفاً فكان اجتماعاً للنصف الغربي فقط) . وهو يسجل دخول الكنيسة المسيحية والدير المسيحي بصفة قاطعة إلى مسرح الشؤون الإنسانية ، على النحو المفهوم عن ذلك الدين في العالم اليوم عامة . وهو يحدد التعريف الدقيق للعالم المسيحية بواسطة قرار العقيدة النيقية (Nicene Creed) .

ومن الضروري أن نستلفت نظر القارئ إلى الفروق العميقة بين مسيحية نيقية هذه التامة التطور وبين تعاليم يسوع الناصري . فإن المسيحيين جميعاً يعتقدون أن الأولى تنطوي على الثانية وتحتويها احتواء تاماً ، على أن هذه مسألة تخرج عن مجالنا . فن الواضح تماماً أن تعاليم يسوع الناصري تعاليم نبوية من الطراز الجديد الذي ابتداء بظهور الأنبياء العبرانيين . وهي لم تكن كهنوتية ، ولم يكن لها معبد مقدس حبساً عليها ولا هيكل . ولم يكن لديها شعائر ولا طقوس . وكان قربانها « قلباً كبيراً خاشعاً » . وكانت الهيئة الوحيدة فيها هيئة من الوعاظ ، وكان رأس ما لديها من عمل هو الموعظة . بيد أن مسيحية القرن الرابع الكاملة التكوين ، وإن احتفظت بتعاليم يسوع في الأناجيل كنواة لها - كانت في صلبها « ديانة كهنوتية » ، من طراز مألوف للناس من قبل منذ آلاف من السنين ، وكان المذبح مركز طقوسها المنمقة ، والعمل الجوهري في العبادة فيها

هو القربان بقربه قسيس متكرس للقدس . ولها هيئة تتطور بسرعة مكونة من الشمامسة والقساوسة والأساقفة .

ولئن اتشحت المسيحية بأردية خارجية تشابه نخل سيرايس أو آمون أو بعل مردك مشابهة غير عادية ، فلا بد لنا من تذكر أنه حتى كهانتها نفسها كانت لها مظاهر جديدة بأعيانها . فإنها لم يكن لديها في أى مكان أى صورة مجسدة شبه قدسية للرب . ولم يكن هناك معبد رئيسى يحوى الرب ، وذلك لأن الرب موجود فى كل مكان ولم يكن هناك قدس أقداس . وكانت مذابحها المنبثة فى كل مكان موجهة كلها إلى الثالوث العام الذى لا يرى . والمسيحية حتى فى أقدم مظاهرها كانت تحوى شيئاً جديداً .

وثمة أمر هام جداً علينا أن نلاحظه ونسجله وهو الدور الذى لعبه الإمبراطور فى تثبيت المسيحية . فلم يقتصر الأمر على أن قسطنطين الكبير هو الذى دعا لاجتماع مجمع نيقيا ، بل إن كل المجامع العظيمة ، ومنها اثنان بالقسطنطينية (٣٨١ ، ٥٥٣) وواحد بإفيسوس (Ephesus) (٤٣١) وخلقدون (Chalcedon) (٤٥١) ، جمعها كلها يد الإمبراطور . والجلى الذى لاخفاء فيه أن قدرا كبيرا من تاريخ المسيحية فى ذلك العصر يشف عن روح قسطنطين الكبير بقدر ما يشف عن روح يسوع إن لم يزد . وكان قسطنطين كما سبق أن نوهنا مستبدا (أو توراتياً) مطلقاً . ذلك بأن آخر آثار الروح الجمهورية الرومانية قد اختفت فى أيام أوريليان ودقلديانوس . وكان يحاول بالقدر الذى هيائه له معارفه ، أن يعيد — قبل أن يفوت الأوان — تكوين الإمبراطورية المتضعضعة ، وكان يعمل من غير مستشار أو ناضح ، أو أى رأى عام أو أى شعور بالحاجة إلى مثل هذا النوع من وسائل العون والضبط . فإن فكرة محق كل خصومة وانقسام ، والقضاء على كل فكر بواسطة فرض عقيدة « اعتقادية Dogmatic » واحدة على المؤمنين جميعاً ، إنما هى فكرة استبدادية أو توراتية بأشمل معانى الكلمة ، وإنها لفكرة الرجل الفرد الذى يعمل بغير معين والذى يشعر أنه لكى يستطيع أن يعمل ينبغي أن يكون غير مقيد بأية معارضة أو نقد . ومن ثم يصبح تاريخ الكنيسة بتأثيره ، سلسلة من الكفاحات العنيفة التى كان لا بد من حدوثها نتيجة لمباغتته الناس بدعوته الفجة إلى الإجماع على رأى . وعنه تاريخ الإنسانية ج ٢

اقتبست الكنيسة الميل إلى الاستبداد وعدم الخضوع للمسئولية ، وإنشاء هيئة تقوم على المركزية وتعيش على غرار الإمبراطورية وإلى جوارها .

وجاء بعد ذلك مستبد، عظيم ثان هو ثيودوسيوس الأول (Theodosius I) أو ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥) فساهم من فوره في فرض طابع استبدادى صريح على المسيحية الكاثوليكية . فحرم على من لم تصح عقدهم من المسيحيين عقد الاجتماعات ، وسلم كل الكنائس للثالوثيين ، وقضى على معابد الوثنية في كل أرجاء الإمبراطورية ، وفي ٣٩٠ أمر بتمثال سيرابيس العظيم بالإسكندرية فحطم . إذ لم يكن يسمح بعد ذلك بوجود أية منافسة ولا أية مناقضة لوحدة الكنيسة المتناسكة .

ولسنا بمستطيعين أن نخبرك هنا بما عانته الكنيسة من المتاعب الداخلية الهائلة ولا عن عدم هضمها للزنادقة مثل أتباع أريوس وأتباع بولس^(١) والأدريين (الأغنسطيين) والمناويين . ولو أنها كانت أقل استبداداً وأكثر تسامحاً مع الأفكار المتنوعة ، فلربما أصبحت هيئة أقوى بكثير مما وصلت إليه . ولكنها على كل هذه الاضطرابات ، ظلت زماناً تحتفظ بالفعل بفكرة لوحدة الإنسانية فيها من التعاطف ورحابة الأفق ما لم تصل إليه الإنسانية قبل ذلك قط . ولما وافى القرن الخامس إذا المسيحية أخذت بالفعل تقبوا منزلة أعظم وأقوى وأشد دواماً مما وصلت إليه أية إمبراطورية في الماضي . لأنها لم تكن مجرد شيء مفروض على الناس فرضاً بل هي قطعة من نسيج عقولهم . وقد تجاوز اتساعها أقصى حدود الإمبراطورية . بكثير ، حتى شملت أرمينية وفارس والحبشة وإيرلندة وألمانيا وحتى تغلغت في الهند والتركستان . « وهي وإن تألفت من مجاميع منتثرة انتشاراً متباعداً ، فإن الناس كانوا يفكرون فيها بوصفها جماعة واحدة للمسيح وشعباً واحداً لله . واستطاعت هذه الوحدة المثالية أن نجد للتعبير عن نفسها سبلا عديدة . فإن تبادل الاتصال بين المجتمعات المسيحية المتنوعة كان قائماً على قدم

(١) أتباع بولس (Paulicians) : فرقة من الزنادقة نشأت بسوريا والشرق في القرن السابع عقيدتها خليط من الأغنسطية والمناوية . واشتق اسمهم من القديس بولس الذي كانوا يولونه وكتاباته تبجيلاً عظيماً . (المترجم)

وساق . وكان المسيحيون الذين هم على سفر ، على يقين دائماً من استقبال حار وترحاب كريم من إخوانهم في الدين . وكثر تبادل الرسل والرسائل بين كنيسة وأخرى . وكان المبشرون ودعاة الإنجيل ينتقلون على الدوام من مكان إلى مكان . وكانت الوثائق المتنوعة الأصناف ، بما فيها الأناجيل والرسائل الرسولية ، منتشرة انتشاراً واسعاً . وهكذا وجد الشعور بالوحدة طرائق متنوعة للتعبير عن نفسه . حتى لكان تطور أجزاء متباعدة الشقة من المسيحية يطابق على درجات متفاوتة ، طرازاً مشتركاً بينهن جميعاً» (١) .

وقد احتفظت المسيحية على الأقل بالتقاليد الشكلية لهذه الوحدة العامة للروح حتى عام ١٥٤٠ ، عندما انفصلت كل من الكنيسة الغربية اللاتينية اللسان ، والكنيسة الرئيسية الأصلية الإغريقية اللغة وهي الكنيسة « الأرثوذكسية » ، انفصلتا إحداها عن الأخرى لسبب صوري هو إضافة كلمتين على العقيدة ، فإن الملة القديمة كانت أعلنت « ان روح القدس منبثق من الأب » . وأرادت اللاتينية أن تضيف لفظة (Filioque) (أى ومن الإبن أيضاً) بل وأضافها فعلا ، وبذلك أخرجوا اليونان من مجتمعهم الديني لأنهم أبوا أن يتبعوا ملتهم . على أن مسيحي شرق سوريا وفارس وآسيا والهند كانوا قد انفصلوا بأنفسهم من قبل في زمن مبكر يرجع إلى القرن الخامس متذرعين بمثل هذه الذرائع ، — إذ كانت هناك كنائس في مرو وهيرات وسمرقند . فهؤلاء المسيحيون الآسيويون الشديدي الطرافة يعرفون في التاريخ باسم الكنيسة النسطورية ، وقد امتد سلطانهم إلى صميم بلاد الصين . كذلك فصلت الكنيسة المصرية والحبشية نفسيهما في زمن مبكر جداً لمثل هذه النقابات التي لا سبيل إلى تفسيرها . ومهما يكن الأمر ، فالواقع أنه قبل هذا الانفصال الرسمي بين شطري الكنيسة الرئيسية الناطقين باللاتينية والإغريقية يزن كبير ، كان هناك انفصال فعلي جاء في أعقاب انقسام الإمبراطورية . ذلك بأن أحولهما تباعدت منذ البداية . فعلى حين كانت الإمبراطورية الشرقية الإغريقية اللغة متماسكة البنيان ، وعلى حين ظل الإمبراطور في القسطنطينية متسلطاً على الكنيسة ، فإن النصف اللاتيني من الإمبراطورية قد انهار

كما سبق أن قلنا ، وترك الكنيسة الغربية حرة من كل قيد إمبراطورى .

وفضلا عن ذلك فإنه بينما كانت السلطة الكنسية (الإكليروسية) فى إمبراطورية القسطنطينية موزعة بين الأساقفة الكبار أو البطاركة فى القسطنطينية وأنطاكية والإسكندرية والقدس ، فإن السلطة فى الغرب تركزت فى بطريك أو بابا روما . وكان الجميع يعترفون على الدوام بأن أسقف روما هو الأول بين البطاركة ، وتأزرت كل هذه الأمور على تبرير ادعائه بصورة غريبة بأن له الحق فى ممارسة سلطات شبيهة بسلطات الإمبراطور . حتى إذا سقطت الإمبراطورية الغربية سقطتها النهائية ، اتخذ البابا لقب الحبر الأعظم (Pontifex Maximus) الذى كان الأباطرة يتخلونهم لأنفسهم ، وبذا أصبح كاهن القرايين الأعلى فى قديم التقاليد الرومانية ، فأما فى بلاد الغرب فقد اعترف الناس له اعترافاً كاملاً بالسيادة العليا على المسيحيين هناك ، فأما فى داخل ممتلكات الإمبراطور الشرقى ودائرة اختصاص البطاركة الأربعة الآخرين ، فقد كان من الضرورى منذ البداية توخى منتهى الحذر فى حث الناس على تقبل تلك السيادة .

وكان القول بتولى الكنيسة الحكم الدنيوى منشراً بالفعل فى القرن الرابع الميلادى . فإن القديس أوغسطين وهو من أهل مدينة هيبو^(١) بشمال إفريقيا ، كتب بين ٣٥٤ ، ٤٣٠ معبراً عن تطور الفكرات السياسية للكنيسة فى كتابه « مدينة الرب » . وكتاب « مدينة الرب » ينتقل بفكر قارئه مباشرة إلى إمكان تحويل العالم إلى « مملكة سماء » لاهوتية منظمة . والمدينة كما يصورها أوغسطين إنما هى « مجتمع روحى من المؤمنين المقدور لهم الإيمان منذ الأزل » ، بيد أن الانتقال من ذلك إلى التطبيق السياسى للفكرة لم يكن بالخطوة الواسعة . إذ كان ينبغى للكنيسة أن تصبح حاكمة العالم التى تسود الشعوب جميعاً ، والقوة التى ترشد بها العناية الربانية وتحكم من فوق عصابة عظيمة من الدول الأرضية . وتطورت هاته الفكرات فيما أعقب ذلك من أعوام فأصبحت نظرية سياسية وسياسة محددة . وبينما الشعوب البربرية تستقر وتتحول إلى المسيحية ، شرع البابا يدعى أن له السيادة العليا على ملوكهم . ولم تنقض بضع قرون حتى أصبح البابا من

(١) فى الموسوعة العربية الميسرة أنه ولد بمدينة تجسسى النوميديّة . ونوميديا إقليم قديم فى شمال غرب أفريقيا يطابق بالتقريب الجزائر الحديثة . (المترجم)

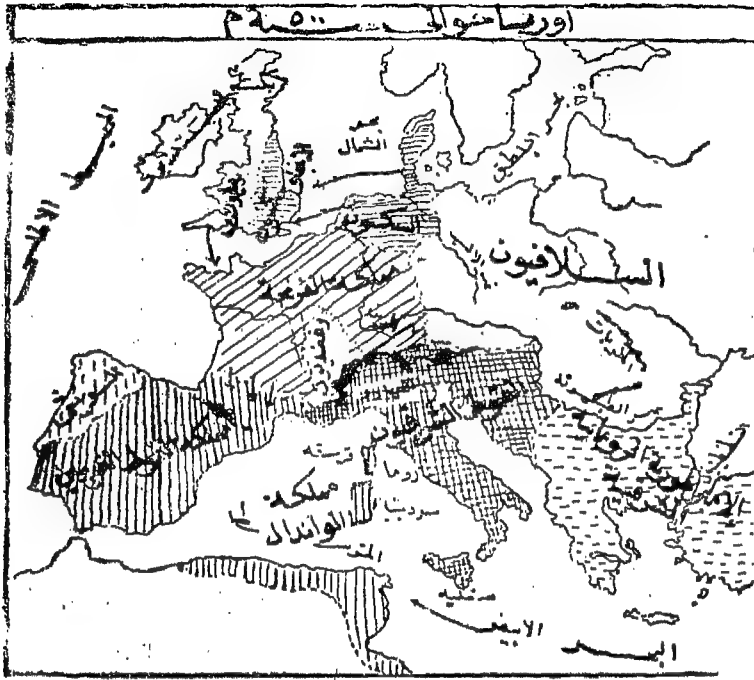
الناحية النظرية ، وإلى حد معين من الناحية العملية — الكاهن الأعلى والرقيب والقاضى والملك القدسى للعالم المسيحى . وامتد سلطانه غرباً إلى ما وراء أقصى مدى بلغته الإمبراطورية القديمة : إلى أيرلندة والسويد والنرويج وشمل كل بلاد ألمانيا . وانتضت ألف عام أو تزيد ، وأوروباً تسود فيها هذه الفكرة القائلة بوحدة المسيحية ، وهى التى تتصور العالم المسيحى فى صورة ضرب من حلف من الدول ، يمنع أعضاؤه حتى فى أيام الحرب عن إتيان كثير من الأمور المتطرفة بدافع فكرة من الأخوة المشتركة والولاء المشترك للكنيسة . ومن أسف أن تاريخ أوروبا منذ القرن الخامس فما بعده حتى القرن الخامس عشر ظل فى الأغلب تاريخاً يسجل فشل هذه الفكرة العظيمة ، فكرة قيام حكومة عالمية مقدسة ، — عن تحقيق نفسها عملياً

٩ — خريطة أوروبا فى ٥٠٠ م .

أدلبنا إليك فى الفصل السابق بيان عن أهم الغارات التى قامت بها الشعوب المتبربرة . وفى إمكاننا الآن أن نقوم بمساعدة إحدى الخرائط بمراجعة وجيزة لأقسام أوروبا السياسية عند ختام القرن الخامس . فى ذلك الحين ، لم يبق للإمبراطورية الغربية وهى الإمبراطورية الرومانية الأصلية ، أثر بوصفها قسماً سياسياً متميزاً منفصلاً . فإنها من الناحية السياسية أصبحت حطاماً بالياً وحل محلها فى عقول الناس بأجزاء كثيرة من أوروبا الشرقية الهلينية التى أصبحت هى « الإمبراطورية » فى عرفهم . وكان الإمبراطور فى القسطنطينية لا يزال هو الإمبراطور — من الناحية النظرية على الأقل .

أما فى بريطانيا فكان الأنجل (الإنجايذ) والسكسون والحوث — وهم أجيال من التيوتون البرابرة الباغى الهمجية قد غزوا نصف إنجلترا الشرقى . وكان البريطانيون (Britons) لا يزالون صامدين فى غرب الجزيرة ، بيد أنهم كانوا يرغمون على التقهقر إلى الخلف رويداً رويداً نحو ويلز وكورنوال . على أن الأنجلوسكسون كانوا فيما يبدو من أشد البرابرة الغزاة قساوة وتأثيراً فعلاً فيمن حولهم ، فحيثما سادوا حلت لغتهم محل اللغة الكلتية أو اللاتينية اللتين كان البريطانيون يستخدمون إحداهما — ولنا ندرى

على وجه التحقيق أتيهما كانوا يستخدمون . ولم يكن هؤلاء الأنجلوسكسون
تنصروا بعد .



(شكل ١٢١) خريطة أوروبا حوالي سنة ٥٠٠ م .

أما معظم بلاد الغال (فرنسا) وهولندة وأرض الراين فكانت تحت حكم
مملكة الفرنجة المسيحية المتوسطة القوة والأكثر تمدناً . بيد أن وادي الزون كان
تابعاً لمملكة منفصلة هي مملكة البرجنديين . على حين كانت أسبانيا وشطر من
جنوب فرنسا تحت حكم القوط الغربيين ولكن السويثي كانوا يملكون الركن الشمالى
الغربي من شبه الجزيرة .

ولقد سبق أن كتبنا عن مملكة الوندال بإفريقية ؛ فأما إيطاليا ، وكانت لا تزال
رومانية السكان والعادات ، فإنها وقعت في قبضة القوط الشرقيين . لم يبق هناك
إمبراطور بروما ؛ بل كان يتولى الحكم هناك ثيودوريك الأول بوصفه أول ملوك
القوط . وكان حكمه يمتد عبر جبال الألب إلى بانونيا وينحدر جنوباً في الأدرياتي
إلى دالماتيا وبلاد الصرب .

على حين كان أباطرة القسطنطينية يحكمون إلى الشرق من مملكة القوط حكماً ثابتاً مستقراً . وما برح البلغار حتى ذلك الوقت قبيلة مغولية من الرحّل راكبة الخيول في منطقة القوقاز . أما الصربيون الآريون فقد انحدروا حديثاً نحو الجنوب إلى شواطئ البحر الأسود ، إلى المواطن الأصلية للقوط الغربيين ؛ ولم يكن المجريون ذوو الأرومة التركية الفنلندية ، وصلوا بعد إلى أوروبا . وكان اللومبارد نازلين حتى ذاك الوقت في شمال الدانوب .

ويمتاز القرن السادس بدور من القوة تغيّاته الإمبراطورية الشرقية أثناء حكم الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) . فاسترجعت الإمبراطورية مملكة الوندال عام ٥٣٤ م ؛ وطردت القوط من إيطاليا ٥٥٣ م . وما أسرع ما انحدر اللومبارديون إلى إيطاليا على أثر موت جستنيان (٥٦٥) ، فاستقروا في لومبارديا ، على أنهم تركوا رافنا وروما وجنوب إيطاليا وشمال إفريقيا تحت حكم الإمبراطورية الشرقية .

ذلك هو الوضع السياسي للعالم الذي تطورت فيه فكرة عالم المسيحية Christendom . والحق إن الحياة اليومية لذلك الزمان كانت تتقلب في مستوى خفيض جداً - لاجرم - من النواحي الجثمانية والذهنية والخلقية . وكثيراً ما يقال إن أوروبا قد انحدرت إلى البربرية في القرنين السادس والسابع ، بيد أن هذا لا يعبر عن حقيقة الحال . والأصح كثيراً أن يقال إن مدينة الإمبراطورية الرومانية قد دخلت في دور انحلال خلقي متطرف . والبربرية نظام اجتماعي ذو طراز أولى ، ولكنه منظم داخل نطاقه ؛ بيد أن أوروبا من دون تمزقها السياسي كانت في حالة فوضى اجتماعية . ولم تكن معنوياتها كمعنويات إحدى قرى المتوحشين (Kiaai) بجنوب إفريقيا بل معنويات حي فقير بإحدى المدن . ففي القرية المتوحشة ، يعرف المتوحش أنه ينتمي إلى مجتمع ، ويعيش ويتصرف وفقاً لهذا ، فأما في حي الفقراء ، فإن الفرد لا يعرف ولا يعترف بأى كائن أكبر منه ولا يتصرف مرتبطاً إلى ذلك الكائن .

ولم تستطع المسيحية إلا بغاية البطء والضعف أن تعيد ذلك الإحساس المفقود وأعنى به الإحساس بالمجتمع وأن تعلم الناس أن يلتفتوا حول فكرة « عالم المسيحية » .

لقد أصبح البناء الاجتماعى والاقتصادى للإمبراطورية الرومانية حطاماً وأشلاء . فإن حضارتها حضارة ثراء وسلطان سياسى يقومان على ما ترسف فيه كتلة البشرية الكبرى من قيود واسترقاق . أجل إنها تجلت في مشهد من الفخامة الظاهرية والكماليات المترفة ، ولكن كان يكمن وراء ذلك المظهر الخارجى النبيل كل ألوان القساوة والغباء والركود ، فكان لا بد لها من أن تحطم ، وكان لا بد من إزالتها قبل أن يستطيع أن يخلفها ما هو خير منها .

ولقد سبق أن استرعىنا الأنظار إلى موتها الذهبى . إذ أنها لم تنتج في ثلاثة قرون علماً ولا أدباً له أية قيمة . والواقع أن الاستطلاعات المخلصة غير المغرضة والدوافع النقية الصافية لن تجد مجالاً يتيح للعالم فلسفة متزنة وعلماً راقياً وفناً منظماً ، إلا حيث يوجد رجال ليسوا من الثراء والقوة بحيث يُغروّن على الإغراق في الملذات . وليسوا فقراء مكدودين بحيث لا يعنون بشيء وراء الحاجة اليومية . على أن بلوتوقراطية (Plutocracy) روما : (حكومة الأثرياء المترفين) قد جعلت مثل هذا الشيء أمراً مستحيلاً . فعندما لا يجد الرجال والنساء أن لهم حداً يلتزمون به ولا ضابطاً يكبحهم ، فإن شواهد التاريخ تدل بأجلى بيان أنهم جميعاً بلا استثناء عرضة لأن يصبخوا وحوشاً عتاة في إمتاع النفس بالملذات ؛ فإن أضنانهم العسر وأذلم الشقاء ، بلأوا إلى الأحزان الفاجعة أو إلى الفتن الهوجاء أو فزعوا إلى الدين وما فيه من تقشف وتزمت .

على أنه يخيل إلى أننا ربما جانبنا الصدق حين نقول إن العالم أصبح شقياً تعساً في هذه « العصور المظلمة » ، التي وصلنا إليها الآن ؛ ويكون أقرب إلى الصدق كثيراً أن نقول إن ذلك الخلداع العنيف السوقى الحشن الذى ركبت عليه الإمبريالية الرومانية ، ذلك العالم من السياسيين والمغامرين وأرباب الأملاك والمالين ، قد هوى في خضم البؤس الذى كانت أمواجه تتلاطم حولهم من قبل . ولا يخفى أن معلوماتنا التاريخية عن تلك الأزمان بتراء ناقصة إلى أبعد حد ، فقل أن وجد مكان يستطيع فيه الناس أن يكتبوا ، وقلما كان هناك تشجيع على الكتابة إطلاقاً ؛ ولم يكن هناك ضمان يكفل لأى إنسان سلامة كتاباته أو يؤكدها احتمال قراءتها . بيد أننا نعرف عن ذلك العصر قدراً يتيح لنا أن نقول إنه لم يكن مجرد عصر لصوبية وحروب ، بل عصر مجاعة ووباء . إذ لم تظهر في العالم حتى

ذلك الحين أية هيئة صحية ذات أثر فعال ، ولا بد أن هجرات ذلك الزمان كانت تقضى على كل إجراء صحى يتخذ . فإن تخريب آنيلا لشمال إيطاليا لم يوقفه إلا انتشار الحمى في ٤٥٢ . كما حدث وباء عظيم من الطاعون الدملى قرب نهاية حكم جستنيان (٥٢٥) ، كان له أثر كبير فى إضعاف دفاع إيطاليا أمام اللومبارد . وفى ٥٤٣ مات عشرة آلاف إنسان فى يوم واحد بالقسطنطينية (ويقول جيون « إن هذا العدد كان يموت كل يوم ») . وكانت مراحل الطاعون تغل وتهدر فى روما عام ٥٩٠ . وكان القرن السابع كذلك قرناً منكوباً بالطاعون . ويسجل بيد^(١) (Bede) الإنجليزى ، وهو أحد الكتاب القليلين فى زمانه ، أوبئة حدثت فى إنجلترا فى ٦٦٤ ، ٦٧٢ ، ٦٧٨ ، ٦٨٣ ، أى ما لا يقل عن أربعة فى عشرين سنة ! ويقرن جيون الوباء الجستنيانى بالمدتب العظيم الذى ظهر عام ٥٣١ ، وبما دهمى به العالم أثناء حكم ذلك العاهل من الزلازل المتتالعة الخطيرة . فيقول « غودرت كثير من مدن الشرق خاوية على عروشها ، وذبل المحصول والعنب على الأرض فى كثير من أصقاع إيطاليا » . وهو يدعى حدوث « نقص ظاهر فى النوع الإنسانى لم يعوض قط فى بعض من أجمل أقطار الدنيا » . وقد بدا للكثيرين فى تلك الأيام السوداء أن كل العلوم وكل ما يجعل الحياة مستساغة مقبولة قد أوشك على الزوال .

ومن المحال علينا أن نعرف إلى أى حد كانت العامة أنعس حالا فى ظلال هذه القمذارة وعدم الاطمئنان منها تحت نظام الإمبراطورية الطاحن . أجل إنه ربما اختلفت الظروف بين مكان وآخر ، فهنا حكم أشرار عنيفين وهناك حرية معتدلة ، وقد تلقى مجاعة فى هذه السنة ووفرة خيرات فى التى تليها . فلئن كثر اللصوص ، فإن جامعى الضرائب والدائنين قد اختفوا . وإن ملوكاً من أمثال ملوك الفرنجة والقوط لم يكونوا فى الواقع إلا أطيافاً وحكاماً لا سلطان لهم على معظم من يسمون برعاياهم . كانت حياة كل ناحية تزعج فى مستوى خفيض ، ليس به إلا القليل من التجارة والأسفار . وقد يسيطر بعض المقتدرين من الأشخاص على مساحات كبرت أو صغرت من الريف ؛ مدعياً على قدر من الحق والعدالة يختلف زيادة ونقصاناً ، لقب لورد أو كونت أو دوق مستقى من تقاليد الإمبراطورية المتأخرة أو من الملك . ويقوم هؤلاء

(١) بيد (ح ٦٧٣ - ٧٣٥) لاهوق ومؤرخ إنجليزى ، سمى بيد الوقور . كتب أعمالاً علمية ولاهوتية وتاريخية كثيرة . (المترجم)

النبلاء المحليين بجمع فرق من الأتباع وبناء معازل حصينة لأنفسهم . وكثيراً ما كانوا يتخذون لأنفسهم مباني قديمة يكيّفونها وفق حاجتهم . مثال ذلك أن الكولوزيوم (Colosseum) بروما وهو المجلد الذى طالما شهد حفلات المجالدين ، حول إلى قلعة ، وكذلك حول المسرح المدرج فى آرل . وكذلك أيضاً حولت مقبرة هادريان العظيمة بروما .

وكان يحدث فى المدن والبلدان المتهمة التى صارت عند ذاك غير صحية ، أن هيئات صغيرة من مهرة الصناعات كانت تتصافر وتخدم بصناعاتها حاجات القرى الزراعية المحيطة بها ، مع وضع أنفسهم فى حماية بعض النبلاء المجاورين .

١٠ - خلاص العلوم على يد المسيحية

حملت هيئات الرهبنة : (الديرية) المسيحية التى أخذت تنشأ فى العالم الغربى إبان القرنين السادس والسابع ، نصيباً بالغ الأهمية فى عملية إعادة التبلور الاجتماعى الذى حدث فى هذين القرنين بعد ما جرى فى الرابع والخامس من التحطم والانصهار .

كانت الأديرة موجودة فى العالم قبل ظهور المسيحية . وفى الفترة التى أُلِم فيها الشقاء الاجتماعى باليهود قبل زمان يسوع الناصرى ، كانت طائفة من النساء الإيستينيين^(١) تعيش منعزلة فى مجتمعات وقد وهبت نفسها لحياة تقشفية من الوحدة والطهر وإنكار الذات . كذلك أنشأت البوذية لنفسها مجتمعات من رجال اعتزلوا غمرة الجهود العامة والتجارة فى العالم ، ليعيشوا عيش التقشف والتأمل . والواقع أن قصة بوذا ، كما سردناها لك ، أبانت أن مثل هذه الأفكار لا بد أنها كانت منتشرة فى الهند قبل أيامه بزمان بعيد ، وأنه عاد فبندھا وراء ظهره آخر الأمر . ونشأت فى زمن مبكر جداً من تاريخ المسيحية حركة مشابهة لهذه ، تنكب ما يغمر حياة الناس اليومية من منافسة وحمية وشدائد . وفى مصر على وجه الخصوص ، خرجت حشود كبيرة من الرجال النساء إلى الصحراء ، وهناك عاشوا عيشة عزلة تامة قوامها الصلوات والتأملات ، يعيشون فى فقر مدقع فى الكهوف أو تحت الصخور على الصداقات التى تقذفها

^(١) : جماعة إخوان دينية بين اليهود الأقدمين كانت تعيش عيشة شظف انعزالية والملكية

إليهم الصدقة من أولئك الذين يتأثرون بقداستهم ، وربما لم يكن لمثل هذا النوع من حياة الأنفس كبير وزن لدى المؤرخ - فلإنها لعمري أنفس منسحبة من التاريخ بحكم طبيعتها ذاتها - لولا ذلك الاتجاه الذى اتخذته للفور تلك الزعة الديرية (Monasticism) بين الأوربيين الأكثر نشاطاً والأميل إلى الناحية العملية .

ويعد القديس بندكت الذى عاش بين سنتي ٤٨٠ ، ٥٤٤ من أهم الشخصيات في قصة تطور الديرية في أوربا . ولد في مدينة اسبوليتو (Spoleto) بإيطاليا ، وكان شاباً كريم الأصل جم الكفاية . وقد ألفت عليه أحوال ذلك الزمان ظلها ، فقال إلى الحياة الدينية كما مال بوذا ، وأطلق لتقشفاته العنان في مبدأ الأمر . فهناك على مبعدة خمسين ميلاً من روما تقع سوبياكو (Subiaco) ، وعند نهاية خائق في نهر الأنيو (Anio) تحت أجمة من الأعشاب والشجيرات ، كان يقوم قصر مهجور أقامه الإمبراطور نيرون ، يطل على بحيرة صناعية صنعت في أيام الرخاء المنصرم ذاك بحجز مياه النهر . وهناك اتخذ بندكت - وكان أهم ما في حوزته قيص من الشعر - بمقامه بكهف في صخرة عالية متجهة جنوباً تطل على النهر ، وهى في مركز يصعب الوصول إليه ، إلى حد أن أحد المعجبين به كان يضطر أن يدلى إليه طعامه بحبل . وهناك أقام ثلاث سنوات. ذاعت فيها شهرته : مثلما ذاعت شهرة بوذا في ظروف مشابهة قبل ذلك بألف سنة .

وكما حدث في حالة بوذا ، فإن قصة بندكت أضيف إليها بفضل تلاميذ له سخفاء بسيطى العقول ، طائفة من سخييف الحكايات القائمة على المعجزات والكرامات . على أننا لا نلث حتى نجده وقد انصرف عن تعذيب النفس ، وأخذ يدير مجموعة من اثني عشر ديراً ، كانت ملاذ عدد كبير من الناس . ويجلب الشباب إليه ليتعلموا على يديه العلم ، وبذا تغير وجه حياته كلية .

وانتقل من سوبياكو جنوباً إلى مونتى كاسينو ، وهو جبل في منتصف المسافة بين روما ونابلى ، موحش جميل ، يقوم في وسط دائرة كبيرة من المرتفعات الرائعة . ومن الشائق أن نلاحظ أن القسديس وجد هنا في القرن السادس الميلادى ، معبداً لأبولو وأجمة (١) مقدسة ، كما وجد أن المنطقة الريفية المحاورة مازال تعبد في ذلك

(١) الأجمة : الشجر الكثير الملتف . (المترجم)

المعبد . لذا لم يكن بد من أن يبدأ عمله ، بالتبشير لدين المسيح ، فاستطاع في شيء من العسر أن يقنع الوثنيين البسطاء أن يهدموا معبدهم وأن يقطعوا أبحاثهم . وما لبثت المؤسسة المنشأة على موتى كاسينو أن بلغت حد الشهرة والقوة في حياة مؤسسها . وإنا لنستطيع أن نعرف شيئاً من روح بندكت الحقيقية وإن اختلطت بمخترعات وطرهات مسخيفة صاغها خيال رهبان مولعين بالعجائب : من أبالسة تنصاع للرق ، وتلاميذ يمشون على الماء وأطفال موتى يعودون إلى الحياة . غير أن الأفاصيص التي تمثله ينهى عن التطرف في قمع النفس وإذلالها ، إنما هي أقاصيص لها مغزى ودلالة خاصة . فإنه أرسل رسالة لراهب منعزل اخترع درجة جديدة من الورع بربط نفسه بسلسلة إلى صخرة في غار ضيق يثبط فيها من حماسه ويدعوه فيها أن يخفف من غلوائه . قال بندكت : « كسّر أغلاك ، لأن خادم الله الحقيقي ، لا يغل إلى الصخور بالحديد ، وإنما يربطه المسيح إلى الهدى والبر » .

والميزة الثانية التي يمتاز بها بندكت بعد مقاومته لتعذيب النفس والعزلة ، لإصراره على ضرورة الجهد في العمل ، وتسطيع في ثنايا الأساطير دلائل واضحة تشهد بالشغب الذي أحدثه تلاميذه ومريدوه النبلاء ، الذين وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الكدح الشديد بدلا من أن يعيشوا عيش التقشف والبطالة معتمدين على خدمة إخوانهم من أبناء الطبقة الدنيا . والشيء الثالث العجيب حول بندكت هو فقوذه السياسي . فإنه نصب نفسه لإصلاح ذات بين القوط والطلليان ، ومن المعروف أن توتيل (Totila) ، ملك إيطاليا القوطي ، حضر إليه يطلب مشورته ، وأنه تأثر به تأثراً عظيماً . ولما استرجع توتيل نابلي من الإغريق ، صان القوط النساء من كل إهانة وعاملوا حتى الجنود المأسورين بالإنسانية . وذلك بينما حدث عندما استولى بليساريوس قائد جستنيان على نفس المكان قبل ذلك بعشر سنوات ، أنه احتفل بنصره بإقامة مذبح عامة .

والواقع أن هيئة الرهبنة التي أوجدها بندكت ، كانت بداية عظيمة جداً في العالم الغربي ، ومن بين أتباعه المبرزين البابا جريجوري الكبير (٥٤٠ - ٦٠٤) ، وهو أول راهب أصبح بابا (٥٩٠) ؛ وهو من أشد الباباوات اقتداراً وهمة ونشاطاً ؛ حيث أرسل بعثات تبشيرية تكللت جهودها بالتوفيق إلى من لم يعتنقوا الدين المسيحي وعلى

الأخص إلى الأنجلوسكسون . وحكم في روما كأنه ملك مستقل ، ينظم الجيوش ويعقد المعاهدات . وإلى نفوذه يرجع الفضل في فرض قواعد المذهب البندكتي وأصوله على كل الرهبانات اللاتينية تقريباً .

ويرتبط كاسيودورس (٤٩٠ - ٥٨٥) بهذين الاسمين ارتباطاً وثيقاً من حيث تطور الرهبنة (الديرية) من مجرد تعذيب النفس الأناني لدى النساك الأول ، إلى القيام بدورها في خدمة الحضارة . وواضح أنه كان أسن بكثير من البابا جريجوري ، ويصغر بندكت بعشر سنوات ، وكان شأن هذين - ينتمى إلى أسرة نبيلة من البطارقة ، أسرة سورية استقرت في إيطاليا . قضى مدة كبيرة من حياته موظفاً في خدمة ملوك القوط ، ولما حدث بين سنتي ٥٤٥ ، ٥٥٣ ، أن مهد خلع هؤلاء الملوك والوباء العظيم ، الطريق لحكم اللومبارد البربري الحديد ، راح يلتمس الملاذ في حياة الرهبانية ، فأنشأ ديراً على أرض مزارعه الخاصة ، وجعل الرهبان الذين جمعهم يشتغلون على نفس النسق البندكتي تماماً ، وإن كنا لا ندرى هل كان رهبانه يتبعون بالفعل القواعد والأصول البندكتية التي كانت تصاغ قرابة نفس ذلك الزمان في مونت كاسينو . ولكن لا يتطرق الشك حول تأثيره على تطور هذا النظام العظيم القائم على العمل والتعليم والدراسة . ومن الجلى أنه قد راعه ماران على التعليم من التحلل عام واحتمال ضياع كل العلوم والأدب القديم من يد الغالم . لذا وجه لإخوانه منذ البداية إلى ضرورة حفظ هذه الأشياء وإعادة لها إلى نصابها . فجمع المخطوطات القديمة وأمر بها فنسخت . وقام بصنع المزاويل والساعات المائية وما شابهها من أجهزة : وهو قبس ضئيل أخير للعلم التجريبي خفق هزيمة في تلك الظلمات المتكاثفة . وألف كتاباً في تاريخ ملوك القوط ؛ ومن أوضح الدلالات على شعوره بحاجة زمانه ، إصداره سلسلة من الكتب المدرسية عن الفنون الحرة^(١) وكتاباً في الأجرومية أعنى قواعد اللغة . والراجح أن سلطانه ، يكاد يرجع سلطان القديس بندكت من حيث جعل الرهبانية أداة قوية لإعادة النظام الاجتماعي في العالم الغربي إلى نصابه .

(١) الفنون الحرة (Liberal Arts) : هي فروع معينة من الفكر والعلوم الإنسانية تمد وسائل لا بد منها للتنمية الفكرية مثل النحو والمنطق والرياضيات . (المترجم)

وكان انتشار أديرة النظام أو السلك البندكتى فى القرنين السابع والثامن عظيماً جداً .
 فإننا نجدها فى كل مكان مركزاً للنور يعيد مستوى التهذيب إلى نصابه ويحافظ
 عليه ويرفع لواءه ، ويقوم ضرباً من التعليم الأولى ، وينشر فنونا مفيدة ويكثر من
 عدد الكتب ويحترنها ويصونها ، ويضع أمام أعين العالم صورة ومثالا لعمود فقرى
 اجتماعى . ومضت قرون ثمانية لبث فيها نظام الأديرة الأوربية مكوناً من رقع
 وخيوط للاستنارة فى عالم لولا الأديرة فيه لعمته الفوضى برمته . ومما يرتبط
 بأديرة البندكتيين ارتباطاً وثيقاً ، تلك المدارس التى نمت للفور فأصبحت جامعات
 القرون الوسطى . وكانت مدارس العالم الرومانى قد زالت زوالاً تاماً فى طوفان
 الانهيار الاجتماعى العام . ولقد جاء أوان كان عدد قليل جداً من القسيسين فى بريطانيا
 وبلاد الغال يستطيع أن يقرأ الأناجيل أو كتب الصلوات . فكأن التعليم لم يرجع إلى
 نصابه فى العالم إلا تدريجياً . بيد أنه عند ما رد إلى نصابه ، لم يعد بوصفه عملاً
 إجبارياً يلزم بأدائه عبد عالم ، بل بوصفه الخدمة الدينية لطبقة خاصة من الرجال
 الذين حبسوا أنفسهم عليه .

وحدث فى شرق الإمبراطورية كذلك أن تقطع جبل التعليم ، بيد أن السبب
 هناك لم يكن الاضطراب الاجتماعى قدر ما كان عدم التسامح الدينى ، كما أن
 الانقطاع لم يكن بأية حال تاماً كما حدث فى الغرب . فأقفل جستينيان ما بأثينا من مدارس
 منكشمة ومنحلة ذهنياً وشرد رجالها (٥٢٩) . بيد أنه فعل ذلك فى معظم الأمر
 لكى يقضى على كل منافس للمدرسة الجديدة التى كان يقيمها فى القسطنطينية والتى
 كانت تحت الرقابة الإمبراطورية المباشرة أكثر من المدارس الأخرى .

ولما لم تكن للعلوم اللاتينية الجديدة فى الجامعات الغربية الناشئة كتب دراسية
 ولا أدب خاص بها ، فلمها اضطرت بالرغم من تحزبها اللاهوتى لقوى لتقيض ذلك ،
 أن تعتمد اعتماداً كبيراً على الأدب اللاتينى (الكلاسيكى) القديم وعلى الترجمات
 اللاتينية للأدب الإغريقى . وبذلك اضطرت أن تحافظ على قدر من ذلك الأدب
 الفاخر يعظم كثيراً ما كانت تود أن تحتفظ به .

١١ - الفن البيزنطي

منذ أن نقلت حاضرة الإمبراطورية إلى الشرق أى إلى بيزنطة ، يظهر في العالم طراز جديد من الفن المعمارى وروح فنية جديدة ، هو الطراز البيزنطى . وبلغ ذلك للفن درجة عالية من التطور إبان حكم الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) وسنحدثك عنه في الفصل التالى . ثم انخطت ثانية وعاد فارتفع إلى أوج جديد في القرن الحادى عشر . وهو لا يبرح إلى يومنا هذا تراثاً فنياً حياً في شرق أوروبا . وهو يعبر عما جاءت به المسيحية الرسمية الجديدة من قيود ودوافع . وقد أفرغت فيه على التقاليد الكلاسيكية السمات الشرقية ، وبخاصة بعض النزعات المصرية والفارسية . وتحل فيه الفخامة محل الضراحة والرشاقة .

ومن بين ما تختص به زخرفته من خصائص احتواؤها على قدر معين من الصلابة . وقد ذهب كل ما كان يحتويه التصوير والنحت الإغريقى والرومانى من مرونة ، وظهر في مكانها فسيفساء^(١) (Mosaics) تحمل أشكالاً مسطحة سيمتريّة التصوير منتصبّة في مواجهة تامة . ولا تكاد تجد البتة رسماً جانبياً (Profile) ولا أى أثر للتقصير^(٢) . وكأنما أصبح ذلك الجسم الطبيعى الذى كان يقبله الإغريقى ، موضع الملائمة وشيئاً يخشى شره . ومن ثم بلغ ذلك الفن وقاراً عظيماً رصيناً . فتبدو صور الرب الخالق والعدراء والطفل والقديسين العظام ، الضخمة المصنوعة من الفسيفساء ، ممعنة في التفكير ، وهى تطل على المشاهدين من علياء القباب العظيمة التى هى موضوعة فيها . وتجلت نفس تلك الصلابة الوهاجة في التصوير وتحلية الكتب ، بالصور ، وانحط فن النحت من الناحية الأخرى ، واستبدلت الأشكال المجسدة (أى التماثيل) بنوافذ شبكية Lattices زاهية الألوان ذات حليات محفورة . وكانت أشغال الذهب

(١) وهو ما يسمى بفصوص الذهب أو السليزلى . (المترجم)

(٢) التقصير (Foreshortening) : تمثيل المنظور بحيث تقصر في الظاهر الخطوط الساقطة .

(المترجم)

والفضة والميناء تعمل بإتقان لم يسبق له مثيل . وغالباً ما كانت مصنوعات النسيج المستجلبه من الشرق ذات رسوم فارسية لا لبس فيها . ولم تلبث التأثيرات الإسلامية حتى ظهرت على المسرح قاضية على كل شكل يمثل الأجسام قضاء أتم وأكمل . وكذلك أصبحت الموسيقى ضخمة ولها شأنها . وكانت موسيقى القرون المسيحية الأولى أقرب إلى التبتل والحماسة منها إلى الإتقان والصقل ، وهى تنهل من منابع « سامية » أكثر منها « هليئية » . فأما الموسيقى الدنيوية فمحظورة حظراً تاماً . فقد قال القديس جيروم « إن الفتاة المسيحية يجب ألا تعرف ما هو اللير أو الناي » . فأما ترتيل المزامير وعزفها على الآلات ، فشئء نقله المسيحيون من الصلوات اليهودية ، وقصر قصراً يترأوح زيادة ونقصاناً على الجوقات (الكورس) المنظمة . وكان الترتيل التجاوبى (Antiphonal) شائعاً . وكان جماعة المصلين ينشدون التراتيل بطبيعة الحال فى نغمة موسيقية موحدة الصوت والطبقة وذلك لأن التوزيع الغنائى (Part Singing) لم يكن قد اخترع بعد . وكان إنشاد التراتيل متنفساً عظيماً ينفس عن العواطف المكبوتة . فظهر قدر وفير من التراتيل فى اللغتين اليونانية واللاتينية . ويقال إن بعضها لا يزال باقياً فى تراتيل موجودة إلى وقتنا هذا . وقد وضع القديس جريجورى (جريجورى الكبير) ، ذلك المنظم العظيم للكنيسة ، الذى لدينا عنه مزيد من القول نحدثك به فى فصل تال ، أسس موسيقى القداس الكنسى فى القرن السادس .

الفصل التاسع والعشرون

تاريخ آسيا أثناء انحلال الإمبراطوريتين الغربية والبيزنطية

- ١ - جستنيان الكبير .
- ٢ - الإمبراطورية الساسانية في فارس .
- ٣ - انحلال سوريا في عهد الساسانيين .
- ٤ - أول رسالة من الإسلام .
- ٥ - زرادشت وماني .
- ٦ - الشعوب الهونية في آسيا الوسطى وبلاد الهند .
- ٧ - أسرتا «هان وثانج» بالصين .
- ٨ - أغلال الصين الذهبية .
- ٩ - الفن الصيني القديم .
- ١٠ - رحلات يوان تشوانج .

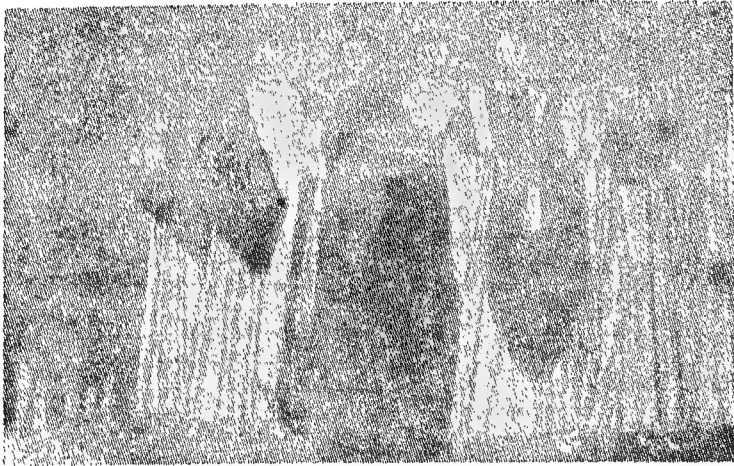
١ - جستنيان الكبير (١)

ركزنا التفاتنا في الفصلين السابقين بصفة رئيسية على ما حدث في فترة قصيرة نسبياً قوامها أربعة قرون من انهيار النظام السياسي والاجتماعي في القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية العظيمة : إمبراطورية قيصر وتراجان ، ولم يفتنا أن نعم النظر ذلك الانهيار والإفاضة في بلوغه الذروة . ولا مرأ أن أى فرد ذكى الفؤاد عمومي الروح (٢) ، يعيش في زمان القديس بندكت أوكاسيودورس وفي نفس ظروف حياتهما ، — كان يخيّل إليه أن الحضارة قد أخذ ضياؤها ينحو وأذنت شمسها بالمغيب . على أن النظرة الأرحب التي تتيحها لنا دراسة التاريخ العام ، تطوع لنا أن نستعرض قرون الظلال هذه بوصفها دورا — ولعله كان دورا ضروريا — من أدوار تقدم الأفكار والمفاهيم الاجتماعية والسياسية في انطلاقها إلى الأمام . ولئن حدث أثناء ذلك الزمان ، أن إحساسا قائما بنكبة فادحة يجثم على صدر أوروبا الغربية ، فلا بد لنا من أن نتذكر في مقابل ذلك أن أجزاء عظيمة من العالم لم يلم بها أى تقهقر ولا انحطاط .

(١) من شاء استزادة في تاريخ ذلك الإمبراطور فعليه أن يقرأ للمترجم كتاب « الحضارة البيزنطية » تأليف استيفن رانسيمان (مجموعة الألف كتاب ومكتبة النهضة المصرية) . (المترجم)

(٢) عمومي الروح Public spirited هو من يخدم الخير بدافع من حب المصلحة العامة وهو الغيرى الروح كما أسلفنا في هامش سابق . (المترجم)

ويجئ الكتاب الأوريون ، بسبب انشغال بالهم الدائم بالدولة الرومانية الغربية وسيطرتها على أفكارهم ، إلى الإسراف في الميل إلى التقليل من شأن تماسك الإمبراطورية الشرقية التي كان مركزها القسطنطينية . وغنى عن البيان أن تلك الإمبراطورية كانت لها تقاليد أقدم بكثير من تقاليد روما . فلو أن القارى نظر إلى الخريطة التي تبين مدى اتساعها في القرن السادس ، ولو أنه تأمل أن لغتها الرسمية كانت أصبحت آنذاك يونانية ، لأدرك أن ما نعالجه هنا ، إنما هو فرع



(شكل ١٢٢) صورة بالفيوسفاء لجستنيان وبلاطه

من الإمبراطورية الرومانية بالاسم فقط . إذ الواقع أنها هي الإمبراطورية الهلينية التي طالما حلم بها «هيرودوت» ، والتي أسسها الإسكندر الأكبر . حقا إنها كانت تدعو نفسها «الرومانية» وتدعو سكانها «رومانا»^(١) ، ولا تزال اللغة اليونانية العصرية تسمى إلى يومنا هذا بالرومية (Romaic) . وحقاً أن قسطنطين الكبير كان ضئيل الحظ من اليونانية وأن لهجة چستنيان في نطقها كانت رديئة . على أن هذه الأمور السطحية المتعلقة بالاسم والشكل لا تستطيع أن تغير الواقع ، وهو أن الإمبراطورية كانت في حقيقتها هلينية ، لها في زمن قسطنطين الكبير ماض من

(١) ويسمى العرب بدولة الروم . (المترجم)

سنة قرون ، وأنه على حين تقلصت الإمبراطورية الرومانية اللاتينية تقلصاً كاملاً في مدى أربعة قرون ، فإن هذه الإمبراطورية الرومانية الهلنسية قد صمدت أكثر من أحد عشر قرناً من ٣١٢ عند ابتداء حكم قسطنطين الكبير إلى ١٤٥٢ ، عند ما سقطت القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين .

وعلى حين اضطربنا أن نحدثك عن حدوث ما يشبه الانهيار الاجتماعي الكامل في الغرب ، فلم يحدث في الشرق انهيار مماثل لذلك . فازدهرت المدن والبلدان وتقدمت الزراعة في المناطق الريفية وتواصل رواج التجارة . وظلت القسطنطينية قروناً عديدة أعظم وأغنى مدينة في العالم . ولن نشغل أنفسنا هنا بأسماء أباطرتها المتعاقبين وحماقاتهم وجرائمهم ومؤامراتهم . فإنهم شأن معظم ملوك الدول العظيمة ، لم يكونوا ليوجهوا لإمبراطوريتهم ، بل هي التي كانت تدفعهم دفعاً . ولقد سبق أن عاجلنا في شيء من الإسهاب موضوع قسطنطين الكبير (٣١٢ - ٣٣٧) . وذكرنا ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥) ، الذي وحد الإمبراطورية لفترة يسيرة ، وذكرنا جستنيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥) . وسنذكر لك من فورنا شيئاً عن هرقل (٦١٠ - ٦٤١) .

ولعل جستنيان كان كقسطنطين يحمل في عروقه دمًا سلافياً . كان رجلاً واسع الطموح ذا قدرة عظيمة على التنظيم ، ومن حسن حظّه أن تزوج امرأة ذات مقدرة معادلة لمقدرته إن لم تفقها ، وهي الإمبراطورة ثيودورا ، التي كانت في صباها ممثلة ذات سمعة مغموزة . على أن محاولاته الطموحة لاسترداد عظمة الإمبراطورية القديمة ، أثقلت فيما يرجح مواردّها بالضرائب^(١) . ولقد أسلفنا إليك أنه استرد الولاية الإفريقية من الوندال واستعاد معظم إيطاليا من القوط . كذلك استرد جنوب أسبانيا . وبني الكنيسة العظيمة بالحميلة كنيسة القديسة صوفيا بالقسطنطينية ، وأسس جامعة وجمع القوانين . بيد أننا يجب أن نضع إلى جوار هذا إقفاله مدارس أثينا . ولكن اجتاحت العالم في زمانه طاعون عظيم ، وانهارت بموته تلك الإمبراطورية الموسعة المجددة كما تنهار مئانة نفخت بالهواء إذا وخزها دبوس . فذهب القسم الأكبر من فتوحه الإيطالية إلى أيدي اللومبارد ، ونذكر هنا أن إيطاليا تحولت في ذلك الزمان إلى

(١) عن المزيد من تاريخ هذه الحقبة ، انظر كتاب « ميلاد العصور الوسطى » تأليف موص وترجمة المترجم (الألف كتاب ومكتبة عالم الكتب) . (المترجم)

صحراء أو ما يشبه الصحراء . ذلك أن مؤرخي اللومباردين يؤكدون أنهم نزلوا في قطر خال من الناس . وانحدر الآفار والصقالبة (السلاف) يعيشون فساداً من أرض الدانوب إلى الأدرياتي ، وأخذ أقوام من الصقالبة يستقرون فيما هو الآن صربياً وكرواتياً ودمالتييا ، فأصبحوا يوغوسلاف هذا الزمان . وفضلاً عن ذلك فإن نزاعاً عظيماً مضياً نشب بين الإمبراطورية وبين الساسانيين في فارس .

ولكن يجدر بنا قبل أن نقول شيئاً عن هذا الكفاح ، الذي أوْشك فيه الفرس ثلاث مرات أن ينزعوا القسطنطينية ، والذي كان العامل الفاصل فيه هزيمة الفرس العظيمة قرب نينوى (٦٢٧) ، يجدر بنا أن نلخص بغاية الإيجاز تاريخ بلاد الفرس منذ أيام البارثيين .

٢ - الإمبراطورية الساسانية في فارس

سبق أن عقدنا موازنة بين القرون الأربعة الوجيزة التي عاشتها الإمبريالية الرومانية وبين الحيوية العنيدة لإمبريالية إقليم دجلة والفرات . وألقينا نظرة عجل على الملكيتين البلخية الباكترية^(١) والسوقية المهلّتين اللتين ازدهرتا مدة ثلاثة قرون في النصف الشرقي مما غزاه الإسكندر من بلاد . وأخبرناك كيف هبط البارثيون أرض الجزيرة في القرن الأخير ق . م . ووصفنا لك معركة كاري (Carrhae) ونهاية كرسوس . ومنذ ذلك الحين فما بعده بقرنين ونصف استمرت أسرة الأرشكيين البارثية تحكم في الشرق بينما حكمت الدولة الرومانية في الغرب ، على حين فصلت بينهما أرمينية وسوريا ، وكانت الحدود تنتقل شرقاً أو غرباً تبعاً لزيادة قوة أحد الطرفين على الآخر . ولحظنا أقصى امتداد بلغته الإمبراطورية الرومانية شرقاً في عهد تراچان (انظر الخريطة (١١٤) المرافقة للفصل ٢٧ القسم الأول ص ٦١١ ج ٢) ، كذلك لاحظنا أن « الهندو إسكيزيين Indo-Scythians » تدفقوا قرابة ذلك الزمان إلى الهند (الفصل ٢٧ - القسم الخامس) .

وشبت ثورة في ٢٢٦ ، وحلت محل الأسرة الأرشكية أسرة جديدة أقوى منها هي الساسانية ، وهي أسرة فارسية قومية يرأسها أردشير الأول . وكانت إمبراطورية

(١) بلخ (بقر) : وهي ما تسمى الآن باكتريا : كانت ملتقى الحضارة الهندية وغيرها . (المترجم)

أردشير الأول ذات مشابهة عجيبة من وجهة واحدة بإمبراطورية قسطنطين الكبير بعد ذلك بمئة سنة . ذلك بأن أردشير حاول أن يقوى أواصر تماسكها بأن اهتم بالوحدة الدينية وأصر عليها واتخذ من عقيدة زرادشت الفارسية القديمة ديانة رسمية للبلاد ، وسندكر المزيد عنها فيما بعد .

وتحولت هذه الإمبراطورية الساسانية الجديدة من فورها إلى العدوان ، فاستولت على أنطاكية (Antioch) في حكم شابور الأول ابن أردشير وخلفه . وقد ذكرنا من قبل كيف هزم الإمبراطور فاليريان (٢٦٠) وأخذ أسيراً . على أنه بينما كان شابور عائداً من حرب مظفرة في آسيا الصغرى ، إذ انقض عليه أذينة وهزمه ، وأذينة (Odenathus) هذا ملك عربي على مركز تجارى عظيم في الصحراء هو تدمر (Palmyra) .

وقد ظلت تدمر زماناً قصيراً في عهد أذينة ، ثم في أيام أرملته الزباء (Zenobia) ، دولة ضخمة تمتد كالإسفين بين الإمبراطوريتين . ثم سقطت في يد الإمبراطور أوريليان الذى حمل الزباء مكبلة بالأصفاد لتكون في روما آلة فخار لنصره (٢٧٢) .

ولسنا بمحاولين أن نقفوا تقلبات الحظ بالساسانيين أثناء القرون الثلاثة التالية . ففي طوال ذلك الزمان انهكت حروب فارس وإمبراطورية القسطنطينية بلاد آسيا الصغرى لإنهاك الحمى . وانتشرت المسيحية انتشاراً واسعاً ولكنها كانت موضع الاضطهاد ، إذ أنه بعد أن تنصرت روما لم يعد على الأرض من ملك يدعى الربوبية غير العاهل الفارسي ، فرأى في المسيحية مجرد دعاية لمنافسه البيزنطى . وأصبحت القسطنطينية حامية المسيحيين ، وأضحت فارس حامية الزرادشتيين ، وبمقتضى معاهدة عقدت بين الطرفين ٤٢٢ قبلت إحدى الإمبراطوريتين أن تتسامح مع الزرادشتية على أن تتسامح الأخرى مع النصرانية . وفي ٤٨٣ انفصل نصارى الشرق عن الكنيسة الأرثوذكسية وكونوا الكنيسة النسطورية ، التى نشرت - كما سبق أن ذكرنا - مبشرها في كل أنحاء آسيا الوسطى والشرقية . ولما كان انفصال هذه الكنيسة عن أوروبا

قد حرر الأساقفة النصارى فى الشرق من سيطرة البطارقة البيزنطيين ، وبذا أزال عن كاهل الكنيسة النسطورية ما كان يحوم حول ولائها السياسى من شبهات ، فإنه أدى إلى تسامح تام مع المسيحية فى بلاد فارس .

وابتداءً بحكم كسرى الأول (٥٣١ - ٥٧٩) الملقب أنوشران آخر عهود القوة الساسانية . كان معاصراً لحسنيين وعديلاً مكافئاً له . فأصلح نظام الضرائب وأعاد الزرادشتية السلفية الحققة ، ومد سلطانه على جنوب بلاد العرب (اليمن) ، التى أنقذها من حكم نصارى الحبشة ، ودفع بتخومه الشمالية حتى التركستان الغربية ، وخاض سلسلة من الحروب مع جستينيان . وبلغت شهرته بوصفه حاكماً مستثيراً درجة رفيعة جعلت الفلاسفة الإغريق ينتقلون إلى بلاطه عندما أغلق جستينيان مدارس أثينا . إذ التمسوا فيه الملك الفيلسوف - ذلك السراب الذى أمعن كنفوشيوس وأفلاطون فى البحث عنه فى زمانيهما كما سبق أن ألمعنا . ولكن الفلاسفة وجدوا جو الزرادشتية السلفية أقل ملاءمة لأذواقهم من جو المسيحية السلفية . وفى ٥٤٩ ترفق كسرى بهم بأن أدخل فى هدنة عقدها مع جستينيان فقرة تبيح لهم العودة إلى بلاد الروم ، وتستوثق أنهم لن يضارهم أحد بسبب فلسفتهم الوثنية أو بسبب سلوكهم الذى تجلى فيه مياهم حيناً ما إلى فارس .

ولما لنسمع فى أيام كسرى أنوشروان لأول مرة عن شعب هونى جديد فى آسيا الوسطى ، هم الأتراك الذين دخلوا فيما نعلم فى محالفة معه أولاً ثم مع القسطنطينية .

وتقلبت الحظوظ ألواناً على كسرى الثانى أبرويز (٥٩٠ - ٦٢٨) حفيد كسرى الأول . فإنه فى بداية حكمه أحرز انتصارات باهرة على إمبراطورية القسطنطينية . وقد وصلت جنوده إلى خلقدون ثلاث مرات (فى ٦٠٨ ، ٦١٥ ، ٦٢٦) وهى المدينة المواجهة للقسطنطينية ، واستولى على أنطاكية ودمشق والقدس (٦١٤) . وحمل من القدس صليباً ، قيل أنه الصليب الحقيقى الذى صلب عليه يسوع ، حمله إلى عاصمته المدائن (طيشفون) . (ولكن جزءاً من هذا الصلب الحقيقى أو صليبا ما آخر حقيقياً انتقل قبل ذلك إلى روما . إذ أحضرته من القدس فيما يقال «الإمبراطورة هيلينا» ، وهى أم قسطنطين التى جعلت مثلاً أعلى ورفعت إلى مصاف القديسات ، وهى قصة

أظهر نحوها جيون الشيء القليل من الاحترام^(١) . وفي ٦١٩ فتح كسرى الثاني مصر ذلك القطر الهين اللين . وأخيراً أوقف الامبراطور هرقل (٦١٠) ، هذه الحياة المليئة بالفتوح عند حدّها ، حيث شرع يسترجع قوة القسطنطينية العسكرية المحطمة . وظل ردحاً من الزمن يتجنب الدخول في معركة كبيرة أثناء جمعه قواته . ثم تقدم إلى الميدان بكل جد في ٦٢٣ . فلقى الفرس على يديه سلسلة من الهزائم كللت بمعركة نينوى (٦٢٧) ، ولكن أحداً من الطرفين لم يبلغ من القوة مبلغاً يتيح له أن يهزم خصمه هزيمة ماحقة قاضية . فلما أشرف الكفاح على نهايته ، كان هناك جيش فارسي على ضفاف البسفور لم يهزم ، وذلك رغم وجود قوات بيزنطية مظفرة في أرض الجزيرة .

وفي ٦٢٨ خلع ابن كسرى الثاني أباه وقتله . وتم صلح غير حاسم بين الإمبراطوريتين المنهكتي القوي بعد ذلك بعام أو ما يقاربه ، وبه رجعت لكل من الطرفين حدوده القديمة ، وأعيد الصليب الحقيقي إلى هرقل ، فأرجعه إلى أورشليم محوطاً بجو من الفخامة والحفاوة .

٣- اضمحلال سوريا في عهد الساسانيين

على هذه الشاكلة ، نقدم إليك في إيجاز أهم الأحداث في تاريخ الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية على السواء . بيد أن الشيء الذي يهمننا ويلد لنا ويعسر مع ذلك تسجيله هو تلك التغيرات التي توالى على حياة السكان عامة في هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين أثناء ذلك الزمان . ولا يجد كاتب هذه السطور شيئاً مقطوعاً بصحته إلا النزر اليسير في حديث تلك الأوبئة العظيمة التي نعلم أنها اجتاحت العالم في القرنين الثاني والسادس من هذه الحقبة . ومن المحقق أن تلك الأوبئة أفنت السكان ، والراجع أنها أفسدت النظام الاجتماعي في تلك المناطق على نفس النحو الذي نعرف أنها أحدثته في الإمبراطوريتين الرومانية والصينية .

وقد دبج المرحوم السير مارك سايكس (الذي جاءت وفاته في غير الأوان في

باريس أثناء وباء الأنفلونزا سنة ١٩١٩ ، خسارة لا تعوض على بريطانيا العظمى) في كتابه « آخر ميراث الخلفاء » The caliph's last Heritage ، استعراضاً مشرقاً للحياة العامة وأحداث آسيا الغربية أثناء الفترة التي نحن بصدددها . قال متحدثاً عن القرون الأولى التي افتتحت بها الحقبة الحالية ، « أصبح توجيه الإدارة العسكرية والمالية في الإمبراطورية منعزلاً في أذهان الناس عن الناحية العملية للحكم انعزالاً تاماً ؛ وبالرغم من قيام أبشع أنواع استبداد البلهاء والسكيرين والمعتوهين والطفاعة والمجانين والمتوحشين والنساء الخليعات ، الذين كانوا يتولون زمام الحكم من وقت إلى آخر ، فإن أرض الجزيرة وبابل وسوريا كانت تحوى عددا هائلا من السكان ، وبها قنوات وسدود ضخمة تحظى بالصيانة المستمرة ، كذلك ازدهرت التجارة والعمارة ، بالرغم من زحف الجيوش المعادية اللانهاى ذهاباً وجيشة . وبالرغم من التغير المستمر في جنسية الحاكم . وكانت مصلحة كل فلاح ممركة في المدينة التي يتبعها ؛ كما أن اهتمام كل مواطن كان موجهاً إلى تقدم مدينته ورغدها ؛ كما أن دخول جيش معاد ربما كان أمراً ينظر إليه في بعض الأحيان بعين الرضا والارتياح ، إذا كان نصره مضموناً وكان تسديده لما يتعاقد عليه محققاً .

« ولا بد أن غارات أهل الشمال^(١) كانت من الناحية الأخرى مثار الذعر والهلوع ، إذ كان لابد للقرويين حينذاك أن يعتصموا خلف أسوار المدن ، ومن هناك كانوا يستطيعون أن يبصروا الدخان الذي يدل على ما ينزله الرحل بممتلكاتهم من تدمير وإتلاف . وما دامت القنوات لم تمسها يد المدمرين (والواقع أنها بنيت في مائة وحيدة تضمنان سلامتها) ، لم يكن هناك ضرر يستعصى على الإصلاح .

على أن حالة الحياة في أرمينية وبلاد بزنطس كانت مخالفة لهذه تمام المخالفة . إذ كانت تلك البلاد مناطق جبلية تعمرها قبائل شرسة على رأسها نبلاء أقوياء من الوطنيين . تحت ملوك بيدهم مقاليد الحكم ، على حين كان المزارع المسلم في الوديان والسهول يقدم الموارد الاقتصادية الضرورية . . . وكانت كيليكيا وكبادوكيا خاضعتين

(١) أى الطورانيين من التركستان أو الآفار من القوقاز . (المؤلف)

تمام الخضوع لسلطان الروم ، وقد احتوتا على مدن عديدة غنية راقية الحضارة ، فضلا عن امتلاكهما لبحرية تجارية ضخمة . وإذا نحن انتقلنا من كيليكيا إلى الدردنيل ، ألفينا ساحل البحر المتوسط مزدهما بالمدن الثرية والمستعمرات اليونانية ، وهي الخلطة تماما فكريا ولغة ، مع تجلي روح الرغبة في الاستقلال والنزعات المحلية ، تلك الروح التي تبدو قطعة من طبيعة الخلق اليوناني . وكانت المنطقة اليونانية تمتد من كاريا إلى البسفور ، وتمضي بجذء الساحل حتى سينوب على البحر الأسود ، حيث تأخذ في الانتهاء تدريجيا .



(شكل ١٢٣) خريطة الإمبراطورية الشرقية وإمبراطورية الساسانيين

وتجزأت سوريا إلى أجزاء عجيبة تشبه ستاراً متعدد الرقاع من الإمارات والمدن الملكية ، تبدأ في الشمال بدولتي كوماجين والرها (Edessa)^(١) شبه الهمجيتين . وإلى الجنوب من هاتين كانت بامبيكي (Bambyce) بمعايها الفخمة وحكامها الكهنة . وإلى ناحية الساحل كان يتجمع عدد كثيف من السكان حول المدن المستقلة : أنطاكية وأپاميا وحمص (Emesa) ؛ على حين كانت هناك في البرية مدينة بالميرا (تدمر) السامية التجارية العظيمة ، التي أخذت ترقى مدارج الشهرة والعظمة بوصفها أرض

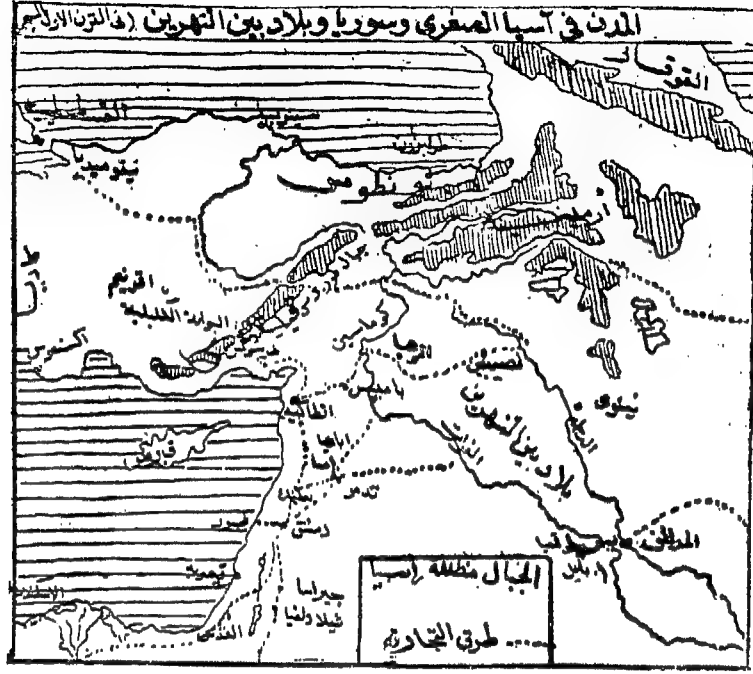
(١) ومكانها الآن مدينة أورفه بتركيا. (المترجم)

التبادل التجاري المحايدة بين پارثيا وروما . ولما لنجد بين جبال لبنان ولبنان الخلفية مدينة بعلبك (هليوبوليس) وهى فى أوج مجدها ، وما تزال بقاياها المحطمة تأخذ حتى الآن بمجامع إعجابنا . . . فلو عرجنا نحو الجليل وجدنا المدن العجيبة جيراش (Gerasa) وفلاذلفيا (عمان) وهما متصلتان بطرق صلبة من الحجر ومزودتان بسقايات مائية^(١) هائلة . ولا تزال سوريا غنية بخرائب ذلك العصر وبقاياها إلى حد لا يصعب علينا معه أن نرسم لأنفسنا عن حضارتها صورة حية . ذلك أن فنون الإغريق التى أدخلت إلى البلاد من أجل بعيد ، قد تطورت إلى درجة من الفخامة قاربت حد الابتذال السوقى . فإن جزالة الحليات والإسراف فى النفقة والمباهاة بالثراء لتدل جميعاً على أن أذواق الساميين الشهويين ذوى الروح الفنية كانت آنذاك على ما هى عليه الآن . ولقد وقفت يوماً فى أهباء الأعمدة بتدمر وتغديت يوماً آخر فى فندق سيسل ، ولولا أن الثانى مبنى من الحديد الملطخ بالخشب والحصن الزائف والمموه بالذهب الزائف والقטיפىة الزائفة والحجر الزائف ، لتوهمت أن تأثير هذا هو نفس تأثير ذاك . أما سوريا فكان بها جموع وفيرة من الأرقاء تكفى لإقامة مبان حقيقية ، غير أن الروح الفنية بها بلغت من الوضاعة دركاً يماثل ما نخرجه الآلات . فأما فى غير المدن ، فلا بد أن سكان القرى كانوا يتخذون مساكنهم بطريقة تدانى ما يفعلونه الآن حيث يبنون جدرانها من الطين والحجر العارى . على حين أنه فى المراعى البعيدة فى الخارج ، كان البدو يرعون قطعانهم بملء حريرهم تحت حكم ملوك النبط^(٢) (Nabatean) من بنى جلدتهم . أو يقومون بوظيفة الحراسة والوساطة فى القوافل التجارية العظيمة .

« ومن وراء الرعاة وأرضهم تمتد الفאות اللافحة ، وتقوم بدور التخوم والحصون المنيعه التى تدفع الشر عن الإمبراطورية البارثية خلف نهر الفرات حيث تقف مدن عظيمة من أمثال طيشقون (المدائن) وسلوقيا وهاترا ونصيبين وحوران ومثا أخرى من المدن ، نسى الناس منها حتى مجرد أسمائها . كانت هذه المدن العظيمة تعيش على ما تغله أرض الجزيرة من وفرة هائلة من الحبوب . وكانت تروى آنذاك بالقنوات التى

(١) السقايات المائية (Aqueducts) هى قنوات مبنية فوق عقود عالية لنقل الماء داخل المدن وهى شبيهة بمجرى العيون الموجود بمنطقة فم الخليج بالقاهرة . (المترجم)

(٢) النبط ، شعب عربى كان يسكن القسم الشمالى من بلاد العرب فى موقع الدولة الأردنية الآن . (المترجم)



(شكل ١٢٤) خريطة المدن في آسيا الصغرى وسوريا وبلاد بين النهرين
(في القرن الأول المسيحي)

توارت أسماء منشئها - حتى في تلك الأيام - في غيابات الماضي السحيق . وكانت بابل ونيوى قد درستا من الوجود . على حين أدخل خلفاء فارس ومقدونيا مكانهم لپارثيا . بيد أن الناس والزراعة كانوا كما هم لم يتغير فيهم شيء عما كان عليه الحال عند ما أخضع البلاد قورش الفاتح لأول مرة . وكانت لغة كثير من المدن الإغريقية ، حتى لربما انتقد مواطنو سلوقيا المثقفون فلسفات أثينا ومآسيتها (تراچيدياتها) . على أن الملايين من السكان الزراع كانوا لا يعرفون عن هذه الأمور فيما يحتمل أكثر مما يعرفه كثير من فلاحي مقاطعة إسكس اليوم عما يجري في العاصمة البريطانية » .

وعلى القارئ أن يقارن هذا كله بالأحوال السارية في نهاية القرن السابع . « وكانت سوريا عند ذاك أرضاً فقيرة منكوبة . ولا بد أن مدنها العظيمة ، وإن كانت لا تزال آهلة بالسكان ، قد تكاثرت فيها الخرائب التي لم تكن الموارد المالية العامة

كافية لإزالتها ، ولم تكن دمشق وأورشليم نفساهما أفاقنا مما أصابهما من ويلات الحصارات الطويلة الفظيعة . وانحطت عمان وجرش إلى مصاف القرى التبعة تحت سلطة البدو وسيادتهم . ولعل حوران كانت لا تزال على شيء من دلائل الرخاء الذى اشتهرت به أيام تراجان . بيد أن مبانى ذلك الزمان التبعة وكتابات الخشنة التى تعوزها البراعة تشير جميعاً إلى اضمحلال محزن مؤلم ، وهناك فى وسط رمال الصحراء ، كانت تدمر تقف خاوية موحشة اللهم إلا من حامية تقيم فى قلعتها . فأما عن الشواطئ وفى لبنان فكان هناك لتقديم التجارة والأعمال والثروة ظل لا يزال مشاهداً ، فأما فى الشمال فلا يد أن الخراب والدمار والإفقار والوحشة كانت الحالة التى تعم أراضيها التى ظلت يغير عليها المغيرون بانتظام لا يفتر طوال مئة سنة ، كما تملكها عدو لها مدة خمسة عشر عاماً . ولا بد أن قد انحطت الزراعة وقل السكان قلة ملموسة بسبب تعاقب الطاعون والمحن وصيها العذاب عليها ألونا .

« وهوت كاپادوكيا إلى درك الهمجية على درجات غير محسوسة . وسويت بسطح الأرض الكنائس العظيمة (البازيليك) والمدن الكبيرة التى لم يستطع الرقيقون البسطاء أن يصلحوها ولا أن يعيدوها إلى سابق عهدها . وطفقت الجيوش الفارسية تذرع شبه جزيرة الأناضول طولاً وعرضاً وتهلك الحرث والنسل ، على حين تعرضت المدن العظيمة للسلب والنهب . »

٤ - أولى رسالة من الإسلام

حدث عندما كان هرقل مشغولاً بإعادة النظام فى سوريا هذه المقفرة المنكوبة بعد وفاة كسرى الثانى أبرويز وقبل عقد الصلح النهائى مع فارس ، أن أحضرت إليه رسالة غريبة . وكان حاملها قد دفعها إلى مخفر إمبراطورى أممى فى البرية الممتدة إلى الجنوب من دمشق . وكانت الرسالة بالعربية ، وهى اللغة السامية غير المعروفة ، لغة الشعوب المترحلة فى الصحراء الجنوبية . ولعل الإمبراطور لم يصل إلى علمه إلا تأويل لها - أضاف إليه الترجمان فيما نعتقد بعض ملحوظات تنم عن الاحتمار والاستهزاء .

كانت تحديداً غريباً بليغاً من شخص يدعو نفسه باسم « محمد نبي الله » . وكان محمد (عليه الصلاة والسلام) على ما يظهر ، يدعو هرقل أن يعترف بالإله الواحد الحق وأن يقوم على خدمته وعبادته . ولم يكن في الوثيقة بعد هذا أى شيء آخر محدد :

وليس هناك سجل أثبت فيه تسلم هذه الرسالة ، ويغلب على الظن أنها ذهبت دون رد . والراجح أن الإمبراطور هزكتفيه ، في شيء من التفكه^(١) بهذه الحادثة .

بيد أن من في المدائن كانوا يعرفون عن محمد قدراً أكبر . إذ قالوا عنه — إفكاً وبهتاناً — إنه نبي مقلق كذاب [كذا ؟ ! ! . .] ، حرص اليمن ، وهى الولاية الغنية في جنوب بلاد العرب ، على الثورة على « ملك الملوك » الفارسي . وكان الملك قبادث منقل العاتق بالأعمال . فقد خلع أباه كسرى الثاني أبرويز وقتله ، وأخذ يحاول أن يعيد تنظيم القوات العسكرية الفارسية . وإليه كذلك جاءت رسالة تطابق تلك الرسالة إلى هرقل . فأغضبه ذلك الأمر . فزق الرسالة وألقى بها في وجه حاملها — وأمره بالانصراف .

ولما أن نبي النبي (صلى الله عليه وسلم) بذلك ، وهو في بلدته النائية الصغيرة المتواضعة « المدبنة » ، غضب غضباً شديداً وصاح قائلاً : « اللهم مزق ملكه شرمزق » (٦٢٨ م) .

(١) ذكر ابن هشام في سيرته أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث دحية بن خليفة الكلبي معه كتاب إلى هرقل . وأضاف ابن سعة في الطبقات الكبرى قال : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دحية ابن خليفة الكلبي إلى قيصر يدعو إلى الإسلام ، وكتب معه كتاباً وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليُدفعه إلى قيصر ، فدفعه عظيم بصرى إليه وهو يومئذ بمحصر ، وقيصر يومئذ ماش في نذر كان عليه إن ظهرت الروم على فارس أن يمشى سافياً من قسطنطينية إلى إيلياء (القدس) ، فقرأ الكتاب وأذن لبعطاء الروم في دسكرة له بمحصر . فقال : « يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت لكم ملككم وتبعمون ما قال عيسى بن مريم ؟ » قالت الروم : « وما ذاك أيها الملك ؟ » قال « تبعمون هذا النبي العربي » قال : فحاصروا حصنة حر الوحش ، وتناجزوا ورفعوا الصليب ، فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من إسلامهم وشافهم على نفسه وملكه ، فسكنهم ثم قال « إنما قلت لكم ما قلت أختبركم لأنظر كيف صلايتكم في دينكم ، فقد رأيت منكم الذي أحب ، فسجدوا له » . جزء ٢ ص ٢٣ - ٢٤ . (المترجم)

٥ - زرادشت وماني

على أنه يجدر بنا قبل أن نواصل الحديث في نشأة الإسلام في العالم ، أن نستكمل بحثنا في حال آسيا عند فجر القرن السابع . ويجب علينا أن نقول كلمة أو ما إليها عن التطور الديني في المجتمع الفارسي أثناء العهد الساساني .

تغلبت الزرادشتية منذ أيام قورش فا بعدها على آلهة نينوى وبابل الأقدمين . وكان زرواستر Zeroaster (وهو الهجاء الإغريقي لكلمة زاراثوسترا Zarathustra^(١)) الإيرانية) آريا مثل بوذا . ولسنا ندرى شيئاً عن العصر الذي عاش فيه ، ويرجعه بعض الثقات إلى سنة ١٠٠٠ ق . م ، ويجعله آخرون معاصراً لبوذا أو كنفوشيوس . ولا يزيده على علمنا هذا ، علمنا بمحل ميلاده أو جنسيته بالدقة . فأما تعاليمه فمحفوظة لنا في الزند أفهستا (Zend Avesta) . ولكن نظراً لأنها لم تعد تلعب دوراً كبيراً في شئون العالم ، فليس في طوقنا أن نعالجها هنا في أي تفصيل . وصفوة القول أن التعارض بين رب الخير وهو أهورا مزدا (هومزد) : إله النور والصدق والصرامة والشمس ، وبين رب شرير هو أهريمان : رب الخفاء والمكر والسياسة والظلمة والليل ، هو محور ديانته . ونجدها في التاريخ محوطة آنفاً بنظام طقوسي وكهنوتي ، وليس لها أصنام ولكن لها كهنة ومعابد وهياكل ، تتقد عليها نار مقدسة وقام عليها الطقوس القربانية . ومن بين خصائصها المميزة ، حظرها دفن الموتى أو إحراقهم . والفرسيين (Parsees) الهنود ، وهم آخر من بقي من الزرادشتيين إلى يومنا هذا ، لا يزالون يلقون موتاهم داخل أبراج معينة مفتوحة ، هي « أبراج الصمت والخشوع » التي تلتها العقبان .

وكانت هذه الديانة هي الديانة الرسمية للدولة إبان حكم بني ساسان من أردشير فن بعده (٢٢٧ م) ، ورئيسها هو ثاني رجل في الدولة بعد الملك ، وطبقاً لأدق

(١) زرادشت بالعربية . (المترجم)

مقتضيات العرف القديم ، كان الاعتقاد السائد أن الملك قدسى أو شبه قدسى وله علاقة مودة صميمة خاصة مع هرمزد .

بيد أن ما كان يجرى في العالم من اختمار ديني لم يترك للزرادشتية السيادة المطلقة على الإمبراطورية الفارسية بغير منازع فلم يقتصر الأمر على توغل النصرانية شرقاً ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك ، بل نشأت طوائف جديدة في فارس حاملة أفكار ذلك الزمان المستحدثة . ولقد سبق أن ذكرنا فرعاً أو نوعاً مبكراً من الزرادشتية هو المثرائية . وهي عقيدة انتشرت في أوروبا في القرن الأول ق . م بعد حملات بومبي الكبير في الشرق . فقال إلهها الجنود والعامه ميلا هائلا ، وظلت حتى عهد قسطنطين الكبير منافسة خطيرة للنصرانية . ومثراً هو إله النور « الذى يصدر » عن أهورا مزدا (هرمزد) ويولد ميلاداً إعجازياً بنفس الطريقة التي يصدر بها الأقنوم الثالث في الثالوث المسيحي عن الأول . ولسنا بحاجة إلى مزيد القول عن هذا الفرع من الجذع الزرادشتي . على أنه نشأت أثناء القرن الثالث (م) ديانة أخرى هي المانوية ، وهي تستحق الآن بعض الالتفات .

ولد ماني مؤسس المانوية في عائلة كريمة بمدينة إكباتانا العاصمة الميدية القديمة (٢١٦ م) . وتلقى تعليمه في طيشفون . وكان أبوه ناسكا ينتمى إلى إحدى الطوائف الدينية ، فتربى في جو من البحث والدراسات الدينية . وانتهى به الأمر إلى الاقتناع بأنه أصبح صاحب النور الكامل ، الذى هو القوة المحركة لكل صاحب رسالة دينية . ودفعته الظروف إلى إعلان مبادئه . إذ أنه شرع يبشر بتعاليمه عند تولى شابور الأول ثاني ملوك بني ساسان في ٢٤٢ م .

ومما يتسق وخصائص تفكير الناس في تلك الأيام ، أن تحتوى تعاليمه على ضرب من مزج الأديان والآلهة (الثيوكرازيا) . فأعلن أنه لا يأتى بأى شئ جديد . ذلك بأن كبار مؤسسى الأديان من قبله كانوا جميعاً على صواب : فإن موسى وزرادشت وبوذا ويسوع المسيح - كانوا جميعاً أنبياء صادقين ، بيد أنه وكل إليه أن يوضح تعاليمهم الناقصة المضطربة ويتوجها . وقد قام بهذا بروح زرادشت وأسلوبه . وهو يفسر ما في الحياة من اضطراب وتناقض بأنه صراع بين النور والظلمة . وأهورا مزدا (هرمزد) عنده هو الإله وأهريمان هو الشيطان ، ولكن كيف خلق الإنسان ؟ وكيف سبق من

النور إلى الظلمة ؟ وكيف يحرر من أغلاله وينقذ من الظلام ؟ ثم ما هو الدور الذى يقوم به يسوع فى هذا الخليط العجيب من الديانات ؟ هذه أمور ما نحن بمستطيعين أن نفسرها هنا وإن رغبتنا . فإن اهتمامنا بالموضوع تاريخى بحت وما هو باللاهوتى .

ولعل أهم ما يثير الاهتمام من الناحية التاريخية أن مانى لم يكتف بالطواف فى إيران مبشراً بأفكاره الجديدة هذه التى بدت له مقنعة تمام الإقناع ، بل دخل التركستان وهبط الهند وعبر الممرات إلى الصين . ولا شك أن حرية التنقل هذه يجب أن تكون موضع الملاحظة . وهى شائقة تثير الاهتمام كذلك ، لأنها تعرض على أرنطانا أن التركستان لم يعد قطر مترحلين خطرين ، بل إقليماً زدهرفيه المدن وينال فيه الرجال من التعليم ووقت الفراغ ما يتيح لهم البحث فى المسائل اللاهوتية .

وقد انتشرت فكرات مانى شرقاً وغرباً فى سرعة عظيمة ، وكانت دوحة مثمرة ظلت تمد العالم المسيحى بأسره بالزندقات (الهرطقات) طوال ما يقارب الألف سنة .

وعاد مانى إلى طيشفون فى زمان يقارب ٢٧٠ م وانضم إليه أنصار كثيرون . فتمخض هذا عن احتكاكه بالدين الرسمى وبرجال الدين . وفى ٢٧٧ م أمر به الملك الحاكم فصلب ، وأمر بحبسه لسبب مجهول فلسخ . ومن ثم أُنْجِدُوا يصبون على أتباعه أعنف الاضطهاد . ومع ذلك فإن المانوية صمدت فى فارس بضعة قرون مع المسيحية النسطورية والزرادشتية السلفية أعنى « المزدكية Mazdaism » .

٦ - الشعوب الهونية فى آسيا الوسطى وبلاد الهند

الآن ينجلي لنا إلى حد ما أنه فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، لم تكن فارس وحدها ، بل الأقاليم التى تعرف الآن بالتركستان وأفغانستان ، - على درجة من المدنية تتجاوز كثيراً فى تقدمها مرتبة الفرنسيين والإنجليز فى ذلك الزمان ، وقد رفعت غشاوة الغموض عن تاريخ هذه الأقاليم فى العشرين سنة الأخيرة ، واكتشف « أدب » (١) ضخماً جداً ، لم يقتصر تدوينه على لغات من المجموعة التركية وخسب ، بل تتجاوزها

(١) يعنى المؤلف بلفظة « أدب » معنى العام للكلمة الذى يدل على جميع ما سطر فى اللغة من كتابات ومؤلفات . (المترجم)

إلى اللغة الصغدية^(١) (Sogdian) وإلى لغة آرية أخرى . وترجع هذه المخطوطات الباقية إلى اليوم إلى القرن السابع وما يتلوه من قرون . والأبجدية فيها مقتبسة من الآرامية ، وقد أدخلها المبشرون المانويون . وإن كثيراً من المخطوطات المكتشفة ليجلبى علينا من آيات الجمل ما يضارع خير ما أنتجه الرهبان البندكتيون . وقد وجد بعض الرق^(٢) (Parchement) مشدوداً في النوافذ مكان الزجاج . وفي هذه المخطوطات ترجمات لأجزاء من الأسفار المقدسة المسيحية والمسطرات البوذية ، وجدت مختطة بمقدار كبير جداً من الأدب المانوي . وما برح الكثير من تلك المواد في انتظار اليد التي تتولاها بالفحص الدقيق .

ويصرح السير دنيسون روس بأن هذا الإقليم الآسيوي الأوسط ، كان لا يزال إلى حد كبير آرياً لغة وثقافة ، وكان منه لا يزال في جل أمره هندي الأرومة أوفارسي الأصول . وتدل كل الدلائل على صحة الزأى القائل بأن هذه القرون التي هي في أوربا قرون كوارث وتأخر ، كانت بالمقارنة عصر تقدم في آسيا الوسطى فما وليها شرقاً حتى بلاد الصين . ولسرف نحصل يوماً على تاريخ متصل الحلقات يسجل الأحداث التي حدثت في ذلك الإقليم أثناء القرون الحالكة التي عمت فيها الفوضى أوربا . إذ حظيت حضارة ذلك الإقليم إبان زمان كان المناخ فيه موئماً ، بدور رق غير عادي . وفي برلين الآن مجموعة من الرسوم الجدارية المنقولة من التركستان في تلك المدة ، وكأنما هي تكهن خارق للمعتاد لما ظهر (بعد ذلك بستة قرون) بفرنسا وألمانيا في القرن الثالث عشر من ثياب ومعدات . فإن الأشكال والرموز المألوفة للملوك والملاكات والغلمان في ورق اللعب مثلاً ، ترى بنصها في هذه الصور الزاهية . فقد كانت هناك حياة تبلغ في جذالتها وامتيازها مبلغ حياة القرون الوسطى . الأوربية . أزهى أحوالها وهي تشابهها مشابهة عجيبة . ويختلط الشقر والسمر في هذه المناظر ، ويكثر الأصهبون^(٣) وهم في العادة نتيجة للتخليطات العنصرية .

(١) الصغدية نسبة إلى صغديانا وهي ولاية من ولايات دولة الفرس القديمة تقابل اليوم مناطق سمرقند وبخارى . (المترجم)

(٢) الرق (بفتح الراء) جلد وقيق يكتب فيه . (المترجم)

(٣) الأصهب هو الأحمر الشمر . (المترجم) تاريخ الإنسانية ج٣

وكانت الشعوب الهونية التي صارت تسمى آنذاك تتاراً وأتراكاً تقوم في شمال بحر قزوين بحركة انتقال مستمرة نحو الغرب توصلت حتى القرن السادس ، ولكن يجدر بنا أن نعدها أيضاً للفائض من القوم لا هجرة لشعوب بأكملها . وكان العالم من الدانوب إلى الحدود الصينية ما يزال في معظم شأنه عالم ترحل وبدعوة تنمو به بلدان ومدن على طرق التجارة الرئيسية . ولسنا في حاجة إلى تفصيل القول ها هنا عن الاصطدام المستمر بين الشعوب التركية بالتركستان الغربية وبين الفرس إلى الجنوب منهم ، وهو النزاع الأبدي بين الطوراني^(١) والإيراني . ولسنا نسمع شيئاً عن أى زحف عظيم للفرس نحو الشمال ، ولكن كانت هناك غارات نحو الجنوب عظيمة خلية بالتذكر قام بها كل من الطورانيين إلى الشرق من بحر قزوين والآلانيين إلى الغرب منه قبل أن بدأت مجموعة الحركات الكبيرة في القرنين الثالث والرابع نحو الغرب ، وهي التي حملت الآلانيين والهون إلى صميم قلب أوروبا . وانتقل المترحلون إلى شرق فارس كما اتجهوا جنوباً مخترقين أفغانستان إلى الهند ، وذلك فضلاً عن هذه الحركة المتجهة نحو الشمال الغربي . فكان هذه الأنهار الجنيشة بالمرحلين كانت تفيض على كل من جانبي فارس . ولقد سبق أن ذكرنا قبيلة « يويه تشى » الذين انحدروا آخر الأمر إلى الهند بوصفهم الهندوإسكيذيين في القرن الثاني . على أن قسماً متأخراً من هؤلاء اليويه تشى ظل مقبياً على بداوته بآسيا الوسطى ، وتكاثر عدداً في سهوب التركستان ، وهم يعرفون باسم الإفتاليين أو الهون البيض . فبعد أن أقاموا ثلاثة قرون وهم مصدر إزعاج وخطر على الفرس ، أخذوا يغيرون آخر الأمر على أرض الهند في إثر أقاربهم حوالى ٤٧٠ ، وكان هذا بعد موت أتيلأ بجوالى ربع قرن . على أنهم لم يهاجروا إلى بلاد الهند ، بل ظلوا ينتهبون في البلاد ذهاباً وعوداً ، ثم يعودون بأسلابهم إلى موطنهم الأصلي ، مثلما فعل الهون فيما بعد إذ استقروا في سهل الدانوب العظيم وأخذوا ثمة يغيرون على كل أوروبا .

وتاريخ الهند أثناء هذه القرون السبعة التي نستعرضها الآن ، يتعاقب عليه على الدوام هذان الغزوان : غزو اليويه تشى أى الهندوإسكيذيين الذين أزالوا كما قلنا آخر آثار الحكم الهليني ، ثم غزو الإفتاليين . وقد دفعت الطائفة الأولى من هؤلاء ،

(١) أطلق الإيرانيون ثم العرب ذلك الاسم على سكان التركستان وآسيا الوسطى ولغاتهم. (المتدرج)

أى الهندوإسكيزيين أمامها ، موجة من السكان المطرودين من أوطانهم هم الساكا (sakas) ، وبذا تكون الهند قد لقيت فى النهاية ثلاث موجات من إغارات البرابرة حدثت قرابة ١٠٠ م وقرابة ١٢٠ م وقرابة ٤٧٠ م . غير أن الثانية من هذه الغزوات ، هى الوحيدة التى غدت فتحاً مستديماً واستقراراً مقيماً . واتخذ الهنود الإسكيزيون مركزهم الرئيسى على الحدود الشمالية الغربية حيث أقاموا أسرة مالكة ، هى أسرة كوشان (Kushan) وهى التى حكمت معظم شمال الهند حتى بنارس شرقاً .

وأهم هؤلاء الملوك الكوشانيين هو كانيشكا (Kanishka) (وتاريخه مجهول) ، وهو الذى ضم إلى شمال الهند كلا من قشغر وبقند ونخوتان . وكان — مثله مثل أسوكا (أو أشوكا) — عاملاً قوياً على رفع شأن البوذية ، ولابد أن هذه الفتوح التى تكونت منها هذه الإمبراطورية العظيمة على الحدود الشمالية الغربية ، أقامت بين الهند والصين والتبت علاقات وثيقة مستمرة

ولن نهم هاهنا بذكر ما ألم بعد ذلك بالقوة المسيطرة على الهند من انقسام واتحاد وتحالف ، لاستعصائها على البحث هاهنا فى هذا الحيز الضيق بين أيدينا . فكانت الهند فى بعض الأحيان مجموعة كبيرة من الدول كرقعة الشطرنج ؛ وربما تغلبت إمبراطورية كليمبراطورية الجويتا (Gupta) على مساحات عظيمة منها . وازدهرت إمبراطورية الجويتا طوال القرون الرابع والخامس والسادس . وفى ظل رعايتها قامت الهندوكية العصرية ، وظهرت فترة من النشاط الأدبى العظيم . على أن هذه الأمور لم تغير إلا قليلاً طريقة الحياة العادية لدى الشعوب الهندية . وصمدت البرهمانية فى وجه البوذية وازدهرت الديانتان جنباً إلى جنب . وكانت كتلة السكان الكبرى تعيش كما تعيش الآن إلى حد كبير جداً ؛ فتلبس الثياب وتزرع الأرض وتبى بيوتها على نفس الشاكلة الحالية

وغارات الإفتاليين جديدة بالذكر ، لا بسبب تولد عنها من آثار مستديمة بل بسبب ما ارتكبه الغزاة من الفظائع . فقد كان هؤلاء الإفتاليون أقرب الناس شهاً بهون أتيل فى بربريتهم ؛ كانت الغارة كل همهم ، فلم ينتجوا أسرة ملكية كأسرة كوشان ؛ واحتفظ رؤسائهم بمركز قيادتهم العليا فى التركستان القريبة . وقد سمي ميهيراجولا (Mihiragula) أعظم زعمائهم كفاية باسم أتيل بلاد الهند : ويروى أن إحدى تبلياته

المحبوبة كانت لعبة غالية كبيرة النفقة ، هي دحرجة الفيلة في الهاويات للتفرج على آلامها . وأثار ما ارتكبه من فظائع أمراء الهند التابعين له فثاروا عليه وخلعوه (٥٢٨) . على أن القضاء النهائي على غارات الإفتاليين على الهند لم يأت من جانب الهنود ، بل جاء نتيجة لتدمير المركز الرئيسي للإفتاليين على نهر سرداريا أو سيحون (Oxus) (٥٦٥) على يد قوة الأتراك النامية ، إذ هاجمهم متحالفين مع الفرس . وما لبث الإفتاليون بعد هذه الهزيمة أن انحلوا انحلالاً سريعاً تماماً وانصهروا في السكان المحيطين بهم ، مثلما فعل الهون الأوروبيون بعد وفاة أتيل قبل ذلك بمئة سنة . ذلك أن البدو المترحطين الذين ليس لديهم أرض مراعى مركزية لا بد أن يتفرقوا ، إذ ليس أمامهم غير التشقت من سبيل . ويقال إن بعض عشائر الراجپوت (Rajput) الرئيسية الموجودة إلى يومنا هذا في راجپوتانا في شمال الهند ، تنحدر من هؤلاء الهون البيض .

وإننا لمضطرون أن نتمسك آسفين تماماً عن الإدلاء بأى بيان عن تطور الفروسية في هذه الولايات الراجپوتية الصغيرة ، وهي عجيبة المائلة لتطور الفروسية المعاصرة لها في أوروبا .

ثم إننا لا نستطيع أيضاً أن نتبع ولو في معالم إجمالية تطور الفن الهندى بين أيام الإسكندر ومحىء الإسلام : إذ لم يبق أى دارس بدراسة تلك الحقبة ولم يمهّد لنا السبيل في هذا الصدد . ولا يخفى أن التأثير الهلّنى



An Ephthalite coin ...

(شكل ١٢٥) عملة إفتالية

في الفن الهندى والعمارة الهندية عميقاً ، والراجع أن الفنانين وعلى الخصوص المصورين منهم كانوا لا ينفكون يغدون ويروحون بين فارس وآسيا الوسطى والهند . وذلك أن الفن البوذى تتجلى فيه روح هليئية قوية . ولما حدث في القرن الثانى

وما يتلوه من قرون ميلادية ، أن انتشرت البوذية في الصين كما سبق أن ذكرنا ، حملت معها شيئاً من رشاقة الفن الهلّنى وطابعه وأدخلته على الأشكال الصينية الممثلة لبوذا وعلى

الفن الدينى الصينى عامة . ولكن للهند مناخاً قتالاً يقضى على كل عمل فى قديم مهجور .
فإن أسرات مالكة من التى كاد النسيان يعفى عليها تماماً ، كانت تعيش بالهند عيشاً
جميلاً مرفهاً ، ولكنها لم تخلف من وراثها إلا القليل مما أوتيت من ألوان الجمال .

وهناك أثر فائن أخذت تبقى عن هذا الزمان ، وهو يرى فى كهوف أجاتنا
(Ajanta) المنقوشة جذرائها التى أخذت صورها تذوى وتتعرس رؤيتها . ومن حسن
الحظ أن قد أخذت لها صور يمكن الاطلاع عليها بواسطة الجمعية الهندية . وتوجد
أجاتنا فى حيلر آباد فى ممر هام بجبال قندهيا ، وقد كان هناك بين القرنين الثانى
والسابع الميلاديين دبر بوذى به كثير من الأبهاء والدهاليز المفرغة فى الصخر ، وفى
هذه الفترة وفى القرنين الخامس والسادس بوجه خاص زينت هذه الكهوف بالنقوش
على حساب ملوك ورجال أثرياء متنوعين ، زينها عدد من الفنانين المهرة الموهوبين .
ولنا لننظر إلى هذه البقايا فى أيامنا هذه ذاهلين ، فإنها بلغت من الفصاحة فى الترجمة
عن ثراء وذكاء وشهوية الحياة فى البلاط كل مبلغ ، فلولا هذه الصور لزلت هذه
الأمور من ذاكرة الناس تمام الزوال ، ولا تزال موضوعات تلك الصور فى كثير من
الحالات موضع نظر وأخذ ورد ، فإن بعضها مناظر تمثل حياة بوذا وأساطير تدور
حولها ، وبعضها تبدو خاصة بالرب إندرا (Indra) ، وبعضها لا يزيد عن صفحة من
حياة البلاط اليومية . وهناك منظر يظن أنه يمثل استقبال بعثة سياسية موفدة من
كسرى الثانى أبرويز . وقد زار هذه الكهوف والنقوش فى أيام محمد (صلى الله
عليه وسلم) يوان تشوانج ، وهو رحالة صينى سنحدثك عنه بالكثير من القول
عما قليل .

٧ - أسرتا هان وتانج بالصين

هذه القرون السبعة التى شهدت بداية ونهاية الأباطرة فى روما ، ورأت حياة
أوروبا الغربية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية ، تتحطم ثم يعاد سبكها ، -
شهدت كذلك تغيرات عميقة الأثر جدياً فى العالم الصينى . ويتسع بين المؤرخين الصينيين
واليابانيين والأوروبيين فرض مفاده أن عهدها أسرة هان التى نجح الصين تحت حكمها فى

بداية هذه المدة وأسرة تانج التي بها انتهت ، يعتبران من عهود الرفعة المتأخرة ،
وأنتهما كانتا تدبران أمور إمبراطورية متشابهة أو تكاد ، وأن قرون الانقسام الأربعة
التي مرت بين نهاية أسرة هان (٢٢٠) وبداية أسرة تانج (٦١٨) ، كانت قرون
اضطراب لأقرون انتقال ضروري . ويخال بعض الناس أن انقسامات الصين إن هي
إلا انقسامات سياسية ومحلية . إذ ينخدعون لأن الصين كانت في نهاية هذه القرون
الأربعة كما كانت في مستهلها ، تشغل نفس المركز في آسيا ، وأنها ظلت طوال تلك
القرون نفس الصين المعروفة ، إذ لم تبرح صاحبة ثقافة مشتركة وكتابة مشتركة ومجموعة
مشتركة من الأفكار — وهم في ذلك يتجاهلون عمليتي الهدم والبناء الجوهريتين اللتين
ظلتا تجريان ، كما نفوتهن أوجه الشبه الكثيرة بين ما مر على الصين وأوروبا من أحداث .

حقاً إن الانهيار الاجتماعي لم يبلغ أبداً في العالم الصيني مبلغه الكامل في العالم الأوربي .
فقد بقيت هناك طوال المدة بأجمعها مساحات مترامية كان من الميسور فيها أن يتواصل
التحسين والإتقان في كل فنون الحياة . فلم يحدث بها تقوض تام في النظافة
والزخرفة والإنتاج الفني والأدبي كالذي علينا أن نسجله في الغرب . وليس هناك مثل
ما حدث في أوروبا من صدوف عن التماس الرشاقة والمتعة . فلما لاحظ مثلاً أن « الشاي »
ظهر في العالم ، وفشا استعماله في كل أرجاء الصين . وبدأت الصين تحتسى الشاي في
القرن السادس الميلادي . وظهر بين الشعراء الصينيين من يكتبون كتابات بهيجة عن
تأثيرات الفنجان الأول والفنجان الثاني والفنجان الثالث ، وهكذا ، واستمرت الصين
تنتج تصويراً جميلاً بعد سقوط أسرة هان بزمن بعيد . ففي القرن الثاني والثالث والرابع ،
نقشت مناظر طبيعية^(١) برية من أروع ما أبدعته يد الإنسان على مر الدهور . واطرد
ظهور العدد الوفير من إنتاج الزهريات والنحاث الحميلة . ولم ينقطع إنشاء المباني
الرشيقة وأعمال الزخرفة . وابتدأت الطباعة عن كتل من الخشب في نفس زمان احتساء
الشاي ، وظهر مع بدايات القرن السابع انتعاش عجيب في الشعر .

وهناك فروق بأعيانها بين الإمبراطوريات العظيمة في الشرق والغرب ساعدت
كلها على ترسيخ قدم الأولى وتثبيت أركانها . فلم يكن للصين عملة عامة . ولذا فإن

(١) المنظر الطبيعي البري Landscape : منظر أرضي كمنظر قرية أو غابة وقد يكون فيها أشخاص

أو حيوانات لا تشغل جزءاً مهماً من الصورة . (المترجم)

ما كان للعالم الغربي من نظام للدفع نقداً وائتماناً^(١) ، وهو النظام الذى يجمع بين الكفاية والخطر فى وقت واحد ، لم يكن مما ابتليت به الصين فى حياتها الاقتصادية . وليس معنى ذلك أن فكرة النقد كانت مجهولة . فقد كانت الولايات المختلفة تستعمل فى صفقاتها الصغيرة « نقداً » مثقوباً من الزنك والنحاس ، فأما فى الكبرى فلم يكن هناك من شىء سوى سبائك مدموغة من الفضة . وإذن فهذه الإمبراطورية العظيمة كانت لا تزال تقوم بغالب أعمالها التجارية على أساس من المقايضة يشبه ذلك الذى كان منتشرأ فى بابل أيام التجار الآراميين^(٢) . وقد استمرت على هذا الحال حتى فجر القرن العشرين .

ولقد رأينا كيف قُضى على النظام الاجتماعى والاقتصادى فى الجمهورية الرومانية بسبب سيولة الملكية ، تلك السيولة الشديدة التى أوجدتها النقود . فأصبحت النقود شيئاً مجرداً قائماً بذاته ، وانقطعت صلتها بالقيم الحقيقية التى كان مفروضاً أنها تمثلها . فوقع الأفراد والمجتمعات فى الدائىن وقوعاً مخالفاً لكل معقول ، ووقع العالم تحت سيطرة طبقة من الأثرياء كانوا هم الدائنين ، وهم رجال كانوا لا يتداولون بينهم أية ثروة حقيقية ، بل كان فى طوقهم أن يطالبوا بالنقود ويسحبوها . فأما الصين فلم يحدث مثل ذلك التطور المالى . بل ظلت الثروة فى الصين حقيقية ومرئية ملموسة . ومن ثم لم تكن بالصين حاجة إلى أى قانون ليسينى (Licinian) ولا إلى تيبيريوس جراكوس يدافع عن حقوق المدينين^(٣) . ففكرة الملكية فى الصين لم تتجاوز كثيراً حدود الأشياء الملموسة . فلم يكن بها « عمال » أرقاء ولا جماعات مستعبدة فى الخدمة . وإن كان هناك بنات إماء يقمن بالأعمال المنزلية ونساء يُبعن ويُشترى ببيع الرقيق ، بيد أن هذا لم يكن إلا توسعة طفيفة لما عليه النساء من مألوف الدل المنزل . وكان شاغل الأرض والمستفيد منها هو فى معظم الحالات المالك الفعلى لها أو يكاد ، ولا يدفع إلا ضريبة الأراضى . وكان هناك قدر معين من نظام ملكية الأراضى فترات الرقاع الصغيرة ، على أنه لم توجد بالبلاد مزارع واسعة . وكان من لا أرض له من

(١) نظام الدفع نقداً وائتماناً Cash & Credit System . (المترجم)

(٢) الآراميون : قبائل رحل يشبه جزيرة العرب . رحلت إلى وادى الفرات فى ١٥٠٠ ق . م .

واقبوا حضارة الأموريين والكنعانيين ونشروها فى سوريا . (المترجم)

(٣) انظر المجلد الثانى من المعالم ص ٥٦٨ ط ٣ . (المترجم)

الرجال يعمل أجيراً مقابل أجر يدفع في غالب الأمر عيناً - شأن ما كان يحدث في بابل القديمة .

وكانت هذه الأشياء من عوامل الاستقرار كما أن شكل الصين الجغرافي كان من عوامل الوحدة ؛ ومع ذلك فإن قوة أسرة هان اضمحلت ، وربما يكون الترف عامل وهنتها ، وعندما حدث آخر الأمر في نهاية القرن الثاني الميلادي أن دكت ذلك النظام الكارثة العالمية كارثة الوباء العظيم ، وهو نفس الوباء الذى بدأ في الإمبراطورية الرومانية قرناً من الارتباك والاضطراب ، انتهت أسرة هان انهيار شجرة نخرة خاوية هبت عليها ريح عاصفة . وتبدى في الشرق والغرب على السواء نفس الاتجاه إلى الانقسام إلى عدد من الولايات المتناحرة ونفس إغارات الحكام البرابرة .

ويعزو المستر فوكثيراً من خور الصين السياسى في تلك المدة إلى انتشار النزعات الأبيقورية التي نشأت - فيما يرى - عن المذهب الفردى المتشكك الذى أنشأه لاوتزى . ويعرف دور الانقسام هذا باسم « عهد الممالك الثلاث » . وشهد القرن الرابع أسرة مالكة من الهون متمدنة نوعاً ما ، وقد فرضوا أنفسهم حكماً على مقاطعة شن سى (Shen-Si) . ولم تشمل هذه المملكة الهونية شمال الصين فحسب ، بل مساحات عظيمة من سيبيريا ؛ وتمثلت أسرتها المدنية الصينية ، وحل نفوذها تجارة الصين ومعرفتها وثقافتها قديماً حتى الدائرة القطبية . ويوازن المستر فو بين هذه المملكة السيبيرية وبين إمبراطورية شلمان في أوروبا التي سنصفها لك من فورنا . فعنها عنده أن البربرى أصبح ذا طابع « صينى » مثلما أن شلمان البربرى أصبح رومانياً .

ونشأت عن امتزاج هؤلاء السيبيريين والعناصر الصينية الشمالية من الأهالى ، أسرة سوى (Suy) التي فتحت الجنوب . وتوذن أسرة سوى هذه ببداية عصر نهضة ببلاد الصين . فالحقت جزائر لوتشو (Lu-chu) بالصين أيام أحد ملوك سوى ، ومرت البلاد بدور من النشاط الأدبى العظيم ، ويحدثوننا بأن عدد مجلدات المكتبة الإمبراطورية في ذلك الزمان زيد إلى ٤٥ ألف مجلد . وشهد فجر القرن السابع استهلال عهد أسرة تانج (Tang) العظيمة التي قدر لها أن تدوم ثلاثة قرون .

ويعبر المستر فو على أن نهضة الصين التي ابتدأت بأسرة سوى وبلغت ذروتها أيام تانج كانت ميلاداً حقيقياً جديداً للبلاد . وهو يكتب قائلاً « لقد ظهرت روح جديدة ، وهى تدمج مدنية تانج بخصائص تميزها تماماً عن كل ما عداها . إذ أن عوامل رئيسية أربعة قد جمعت ثم صهرت بعضها فى بعض ، وهى : (١) الثقافة الصينية المتحررة^(١) ، (٢) المذهب الصينى الكلاسيكى العتيق Classicism ، (٣) البوذية الهندية ، ثم (٤) شجاعة أهل الشمال :

« لقد ولدت صين جديدة : فكان نظام المقاطعات والإدارة المركزية والتنظيم العسكرى عند أسرة تانج مختلفاً تمام الاختلاف عما كان عليه الحال عند أسلافها ، وتأثرت الفنون أيما تأثر واثتمشت كثيراً بفضل مؤثرات هندية وأخرى من آسيا الوسطى . ولم يكن الأدب مجرد استمرار للقديم ؛ بل كان إنتاجاً جديداً . وكانت مدارس البوذية الدينية والفلسفية مظاهر جديدة ، وكان العصر عصر تغيرات جوهرية :

« وربما لئلا لنا أن نقارن تكوين الصين هذا ، بما آل إليه أمر الإمبراطورية الرومانية فى أخريات أيامها . فكما كان العالم الرومانى مقسماً إلى نصفين غربى وشرقى ، كذلك كان العالم الصينى مقسماً إلى شمالى وجنوبى . وقد قام البرابرة فى حالة الصين وحالة روما بإغارات متعاقبة : وأسسوا سيادات أو دولا من نوع واحد : وضارعت لإمبراطورية شلمان إمبراطورية الأسرة السيبيرية (واى Wei) التالية ؛ ويقابل استرجاع الإمبراطورية الغربية المؤقت على يد جستنيان ، استرجاع الشمال مؤقتاً على يند ليويو (Liu-yu) . ويضاهى الفرع البيزنطى الأسرات الجنوبية : على أن العالمين تفارقا من هذه النقطة . فاستعادت الصين وحدتها ؛ على حين لا يزال باقياً على أوروبا أن تحذو حذوها . »

وكانت ممتلكات الإمبراطور تاى تسنج (Tai-Tsung) (٦٢٧) - وهو ثانى ملك فى أسرة تانج - تمتد جنوباً إلى أنام (Annam) وغرباً حتى بحر قزوين . وكانت

(١) Liberal Culture وهى ذلك الغرب المستنير المذهب من الثقافة الخليلق بالسادة المذهبين

والجنبتلعمانية . (المترجم)

في سيان فو (Sianfu) اليوم حجر منحوت يدعونه الأثر النسطوري يرجع تاريخه إلى ٧٨١ م ، وقد سجلت عليه هذه الوقائع باللغة الصينية .

كذلك حضرت إلى بلاط تاي تسنج بعثة أدعى إلى العجب عام ٦٢٨ م قبل مجيء الفساطرة بسبعة أعوام : وكانت تلك البعثة جماعة من العرب انحدروا من ينبع ميناء المدينة ببلاد العرب إلى كنتون بحراً في فلك تجارى . (ومن الشائق أن نلاحظ لهذه المناسبة وجود أمثال تلك السفن التي كانت تعمل في التجارة بين الغرب والشرق في ذلك الزمان) . أرسل هؤلاء العرب محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي سبق لنا ذكره والذي نعت نفسه « نبي الله » . والرسالة التي أحضرها إلى تاي تسنج هي فيما يرجح نفس الدعوة التي أرسلت في السنة نفسها إلى هرقل الإمبراطور البيزنطي وإلى قباد في طيشفون (١) .

على أن ملك الصين لم يهمل الرسالة كما فعل هرقل ، ولا أهان الرسول كما فعل قباد قاتل أبيه ، بل أحسن استقبالهم وترجم عن لغة عظيمة في آرائهم اللاهوتية وساعدهم فيما يقال على بناء مسجد من أجل التجار العرب في كنتون - وهو مسجد باق إلى اليوم وهو من أقدم مساجد الدنيا .

٨ - أغلال الصين الذهبية

كان تحضر (٢) الصين وثقافتها وقوتها في ظل حكم ملوك تانج الأوائل نقيضاً ناصعاً واضحاً للانحلال والفوضى والانقسامات في العالم الغربي ، وهي حال قد تثير على الفور طائفة من أمتع الأسئلة في تاريخ المدنية . فلماذا لم تحتفظ الصين بتلك الزعامة التي فازت بها بفضل عودتها السريعة إلى الوحدة والنظام ؟ فلماذا لا تتسلط إلى اليوم على العالم ثقافياً وسياسياً ؟

لقد ظلت زماناً طويلاً وهي على التحقيق السبابة المتقدمة . وما نستطيع أن نقول مع

(١) هي مدائن كسرى : عاصمة الساسانيين وتقع . ج . ق بغداد . (الترجم)

(٢) يقصد الكاتب بالتحضر أو الحضرية ديانة الأخلاق وحسن الآداب والتهديب وهي صفات

أهل الحضرة . (المترجم)

الثقة والاطمئنان إن العالم الغربي قد شرع يسبق الصين من جديد ، إلا بعد ألف سنة ، وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر وعند اكتشاف أمريكا وانتشار الكتب المطبوعة والتعليم في الغرب وبزوغ فجر الاكتشاف العلمى العصرى . فى عهد أسرة تانج ، وهو أعظم عهودها ، وفى ظل أسرة صنج (٩٦٠ - ١٢٧٩) الفنية النزعة وإن كانت على شئ من التدهور ، ثم كذلك إبان حكم آل منج المثقفين (١٣٦٨ - ١٦٤٤) ، تنجلي الصين للعالم فى مشهد من الرفاعية والسعادة والنشاط الفنى المتقدم أشواطاً بعيدة على أى دولة معاصرة . فإذا راعينا أنها أحرزت ذلك القدر الكبير تساءلنا لماذا لم تحرز المزيد ؟ كانت السفن الصينية تمخر البحار ، وكانت هناك تجارة عظيمة وراء البحار أثناء ذلك الزمان^(١) ، فلماذا لم يكتشف الصينيون قط أمريكا أو استراليا ؟

وهناك رسوم للبوشمن قديمة نقشت على الصخور ، ربما دلت على أن سفناً صينية متفرقة قد وصلت إلى جنوب إفريقيا فى تاريخ ما غير معلوم ، كما يقال إن هناك آثاراً تدل على نزول زوار صينيين فى بلاد المكسيك ، فلئن صح هذا ، فإن واحداً من هذين الاكتشافين العرضيين لا يبدو أنه أثبج بغيره مثلاً لم يتابع أحد طواف القرطاجيين حول إفريقيا أو مثلاً لم تتبع زيارات أهل الشمال (Northmen) لأمريكا بزيارات أخرى . ويقول المستر فوجان : إن هناك أيضاً رسوماً صينية محفورة فى الصخور فى نيوزيلندة ونيوكاليدونيا . على أن توفر العبقرية الفردية والإقدام غير المتواصل ، لا يكفى لتوطيد اكتشاف من الاكتشافات فى يد أحد المجتمعات ولا يضمن أن يؤتى ثماره

(١) من المشكوك فيه أن يكون الصينيون عرفوا البوصلة البحرية . ويستخلص هيرت فى كتابه «تاريخ الصين القديم» ، ص ١٢٦ فما بعدها ، بعد فحص دقيق لكل المصور والأزمته ، أنه ولو أن من المحتمل أن يكون شئ كالْبوصلة عرف فى الأزمنة السحيقة ، فإن العلم به احتواء التسيان لمدة كبيرة بعد ذلك ، حتى ظهر مرة أخرى فى المصور الوسطى كسالة بأيدي اللهادين (وهم الذين يوكل بهم اختيار أفضل المواقع للتبوير الخ) . وأول ذكر واضح لاستعمالها كمرشد للبحارة ورد فى كتاب فى القرن الثانى عشر ، يشير إلى استخدامها فى سفن أجنبية بين الصين وسومطرة . ويميل هيرت الى الاعتقاد بأن الرواد العرب يحتمل أن رأوها فى أيدي لحادين صينيين ثم طبقوا استعمالها على الملاحة ، حتى إنهم استطاعوا بعد ذلك إعادةا إلى الصين فى صورة البوصلة البحرية . (المؤلف)

ويصبح معرفة وطيدة قابلة للاستعمال . ولا بد أن يكون المجتمع نفسه مستعداً لتقبله والإفادة منه .

ومن المحقق أنه ظهر بالصين من ضروب المشاهدات العلمية والمهارة والاختراع - وإن كانت فردية منعزلة متفرقة - ما لا يقل عما في أى جزء من أجزاء العالم . وعرف الصينيون البارود في القرن السادس . واستعملوا التسخين بالفحم الحجرى والغاز استعمالاً محلياً قبل أن تستخدم هذه الأشياء في أوروبا بقرون . فأما إقامتهم للكبارى وهندستهم المائية فدهشة جدية بالإعجاب ؛ وإن معرفتهم بالمواد كما تبدى في الآنية المطلوبة بالميناء واللاكية^(١) لعظيمة جداً . فلماذا لم ينشئوا قط طريقه التسجيل والتعاون في البحث ، تلك الطريقة التى وهبت العلم الحديث للعالم ؟ ولماذا ، بالرغم من مرانهم العام على السلوك الحسن وضبط النفس لم يتسرب التعليم الذهنى إلى كتلة السكان العامة ولم يتخللها ؟ ولماذا كانت جماهير الصين اليوم ، كما كانوا على الدوام أميين بالرغم من المستوى الرفيع للدكاء الطبيعى الاستثنائى المنتشر بينهم ؟

من المؤلف أن تقابل مثل تلك الأسئلة بإجابات غالباً ما تكون جوفاء . فيقال لنا إن الصينى أشد المخلوقات البشرية محافظة ، وإن عقله - على نقيض الأجناس الأوربية - ملفوف نحو الماضى ، وأنه العبد الخاضع بإرادته لآداب اللياقة والتقاليد إلى درجة لا يكاد يتصورها العقل الغربى : وهو يمثل كأنما له عقلية مميزة إلى حد يجعل الإنسان يتوقع غالباً أن يجد في تركيب المخ فارقا يفسر ذلك الاختلاف . والقائلون بهذه الآراء يقتبسون التماس كنفوشيوس لحكمة القدماء لدعم ذلك الزعم .

على أننا لو فحصنا هذا التعميم (الحكم العام) فحصاً أدق وأضبط لتبدد في الهواء هباءً منثوراً . فإن قوة الابتكار والمبادرة الذهنية الفائقة والإقدام العقلى المتحرر والميل إلى التجريب ، تلك المزايا التى نعتقد أنها قوام خصائص الذهن الغربى ، لا تتجلى في تاريخ

(١) اللاكية lacquer دمان محلول الك وهو مادة راتنجية (قلفونية) يفرزها نبات الكوكوس لا Coccus Lacc الذى ينتج صباغاً أحمر زاهياً . (المترجم)

هذا الذهن إلا في أثناء أدوار معينة وتحت ظروف استثنائية . وفيما عدا ذلك ، لا يتجلى العالم الغربى إلا مضارعا للصين في التزام التقاليد والمحافظة على كل قديم . ومن الناحية الأخرى ، فإن العقل الصينى كان إذا حفزه حافظ يبدى قدرة على الاختراع والابتداع وتعددا في المزايا كالأوربي سواء بسواء ، كما أن الذهن اليابانى المجانس له يكاد يفوقه في هذا . فإذا اتخذت من الإغريق مثالا ، وجدت أقصى ما بلغوه من قوة ذهنية واقعا في المدة بين القرن السادس ق . م . وبين اضمحلال متحف الإسكندرية أثناء حكم البطالمة المتأخرين في القرن الثانى ق . م . ولا شك أنه كان هناك إغريق قبل ذلك الزمان وإغريق بعده ، بيد أن تاريخ ألف سنة من سنى الإمبراطورية البيزنطية أظهر أن العالم الهلنسى راكد الذهن كالصين سواء بسواء . ثم إننا قد سبق أن وجهنا النظر إلى عقم الذهن الإيطالى نسبيا أثناء العهد الرومانى ، وإلى وفرة خصبه منذ « نهضة إحياء العلوم » . وكذلك الذهن الإنجليزى ، فقد مر به دور من التوقد في القرنين السابع والثامن ، ثم لم يسطع بعد ذلك حتى القرن الخامس عشر . كذلك ذهن العرب كما سنخبرك من فورنا ، قد تألق تألق النجم طوال ستة أجيال بعد ظهور الإسلام ، ولم يحرز قبلها ولا بعدها أى شىء ذى بال . ومن الناحية الأخرى كان هناك على الدوام قدر عظيم من المقدرة على الاختراع مبعثر في الصين ، وآية ذلك ما يشهد به تقدم الفن الصينى من ظهور حركات جديدة وابتكارات قوية . وإنا لنبالغ في مدى احترام الصينيين لأبائهم ؛ فقد كان قتل الآباء على يد أبنائهم جريمة أكثر شيوعا بين الأباطرة الصينيين ، لدى حكام فارس أنفسهم . وفضلا عن ذلك فالتاريخ يسجل أنه قد حدث بالصين حركات تحريرية كثيرة ، وكفاحات عديدة ضد « الأساليب العتيقة » .

سبق أن أوضحنا أن أدوار التقدم الذهنى الحقيقى فى أى مجتمع من المجتمعات تبدو مرتبطة بوجود طبقة من الرجال بعيدة عن الغرض غير متحيزة العقول ، بلغت من الحرية مبلغا يجعلهم لا يكسحون ولا يحماون هما يستنفذ القوى من أجل حاجاتهم الدنيوية ، ولم يبصل فى ثرائها وسعة سلطاتها إلى حد يغريهم بالإسراف فى الشهوات أو المظاهر أو القساوات . ويجب أن يتوافر لهم شعور بالطمأنينة ، لا غرور بالتفوق . وأسلفنا كذلك أن هذه الطبقة يجب أن تنهى لها القدرة على الكلام بحرية وأن تتواصل بسهولة . ويجب ألا

تراقب لظنة الزندقة أو تضطهد لأية آراء قد تعبر عنها . ولا مرأ أن مثل هذه الحالة السعيدة كانت تغمر بلاد الإغريق في أحسن أيامها . والواقع أن طبقة من القوم الأذكاء الملهدين الأحرار تبدى على صفحات التاريخ حينما ظهرت فلسفة جريئة مدونة أو تقدمات علمية فعالة .

ولا بد أن الصين كانت تضم في أيام تانج وصنج ومنج كثر من القوم المعنمين من نفس الطبقة التي كان منها معظم شبان « أكاديمية » أثينا أو أذكاء إيطاليا النابيين في عصر النهضة أو أعضاء الجمعية الملكية اللندنية ، وهي الجمعية التي كانت بمثابة الأم من العلم الحديث ؛ ومع ذلك فإن الصين لم تنتج في عصور الفرس التي أنبثت لها شيئاً يماثل تلك البدايات العظيمة للحقائق المسجلة المحللة .

فلذا نبذنا الفكرة القائلة بأن هناك بعض الفوارق العنصرية العميقة بين الصين وبين الغرب ، تلك الفوارق التي تجعل الصينيين محافظين بطبيعتهم ، وتجعل الغرب تقدماً بطبعه ، وجب علينا إذن أن نبحث عن السبب الفعال لهذا الفارق في روح التقدم ملتصين إياه في نواحي أخرى . ويميل كثير من الناس أن يبحثوا في اتجاه آخر عن السبب الفعال في تأخر الصين ذلك التأخر العظيم بالرغم مما لها من ميزات أصيلة أثناء القرون الأربعة أو الخمسة الأخيرة — وهم يرون أن تكبيل الذهن الصيني في كتابة وفي صيغ للفكر بلغت من الإحكام التفصيلي والصعوبة حداً جعل طاقة البلاد العقلية مستنفدة استنفاداً عظيماً في تحصيلها هو مرد ذلك كله . وعندي أن هذا الرأي جدير بالفحص والنظر .

وقد سبق أن أعطيناك بياناً عن خاصيات الكتابة الصينية واللغة الصينية . والكتابة اليابانية مشتقة من الصينية كما هو معلوم ، وتتكون من مجموعة من الصيغ أسرع تدويناً . والعدد الكبير من هذه الصيغ « كتابة تصويرية رمزية »^(١) منقولة عن الصينية وتستخدم بالضبط بنفس الطريقة التي تستخدم بها الكتابة التصويرية الرمزية الصينية ، على أن هناك كذلك عدداً من العلامات يستعمل للتعبير عن المقاطع ، وللـيابانيين مجموعة من الأحرف تمثل المقاطع على طريقة مجموعة الأحرف السومرية الممثلة للمقاطع والتي سبق أن وصفناها . ولكن الكتابة اليابانية تظل بعد ذلك طريقة سمجة كالخط المسماى سواء بسواء ، وإن لم تصل بسماحتها وتعقيدها إلى درجة

(١) « كتابة تصويرية رمزية Ideograms » أي رموز كتابية هي كما أسلفنا ج ١ ط ٣ من المعالم ص ١٩٤ صورة أو رمز تستعمل في نظام الكتابة .

الصينية ؛ وقد قامت ببلاد اليابان حركة تطالب باستخدام أبجدية غربية . على أن كوريا تقدمت إلى الأمام خطوة من زمان بعيد ، ونحنت أبجدية حقيقية من المصادر الصينية نفسها .

وفيما عدا هذه الحالات وحدها فإن جميع طرق الكتابة المستعملة الآن في العالم ، تقوم على أبجديات البحر المتوسط ، وهى أسهل حفظاً واتقاناً من الصينية بشكل لا يسمح بأية موازنة . ومعنى هذا أنه بينما الشعوب الأخرى لا تتعلم لتدوين اللغة المألوفة لديها إلا مجرد طريقة سهلة ومستقيمة نسبياً ، فإن الصينى ملزم أن يتمكن من أحشاد عظيمة من رموز الكلمات وجماعات الكلمات المركبة . فليس عليه أن يتعلم العلامات وكفى ، بل التجميع المقرر لتلك العلامات أيضاً ، حتى يتاح له إظهار المعاني المختلفة . فيجب والحالة هذه أن يجعل نفسه ملماً بعدد من المؤلفات القديمة التى تتخذ مثلاً يحتذى . وبناء على هذا ، فبينما أنت واجد فى الصين أعداداً عظيمة من الناس يعرفون معنى حروف معينة مألوفة كثيرة الظهور ، فلن تجد إلا القليلين ممن تقسع معارفهم لإدراك معنى فقرة فى إحدى الصحف ، وأقل من هؤلاء من يستطيعون أن يقرأوا ما قد يرمى إليه الكاتب من مرام دقيقة أو خفية أو أى ظلال ممتازة للمعاني . وهذا يصدق أيضاً على اليابان وإن يكن بدرجة أقل . ولا مرأ أن القراء الأوروبيين وبخاصة أصحاب تلك اللغات التى لا تلتزم نظاماً بعينه والغنية بالألفاظ مثل الإنجليزية والروسية ، يختلفون اختلافاً عظيماً فيما بينهم بالنسبة إلى عدد الكتب التى يستطيعون فهمها ومدى فهمهم لها ؛ فإن قوتهم فى اللغة تختلف باختلاف محصولهم من المفردات ؛ بيد أن ما يقابل ذلك من مستوى الفهم عند الصينيين ، يستدعى تحصيله بذلاً من الجهد والوقت أعظم كثيراً . فان تعليم الموظف (الماندرين Mandrin) فى الصين إنما هو فى معظم شأنه تعلم للقراءة .

وربما كان ما يترتب على ذلك من انشغال بال الطبقة المتعلمة أثناء سنى قابليتها للتعليم والاستيعاب وإكسابها على الآداب القديمة الصينية يجعلها متحيزة لهذه العلوم التقليدية التى ألفقت فيها مثل هذا القدر الكبير من الزمان والطاقة . وقل من الرجال الذين كدحوا فى عقولهم بعلم من العلوم ، من يطرح برضاه ذلك العلم جانباً ، مفضلاً عليه شيئاً آخر جديداً غير مألوف . وغنى عن البيان أن هذا الميل شىء لا ينفرد

به المشرق دون الغرب ، وهو يبدو ظاهراً ملموساً عند كبار علماء الجامعات البريطانية والأمريكية مثلاً يتجلى لدى أى ماندرين صيني . وإن البريطانيين في الزمن المناسـر ، ليرفضون أن يتزحزحوا خطوة عن طريقتهم الحمجية في الهجاء والإملاء ، بالرغم من المرایا العظيمة الواضحة التي ستعود على التعليم الشعبي والدعاية القومية من الانتقال إلى الأبيجدية الصوتية^(١) والهجاء الصوتي . ولا بد أن خصائص الكتابة الصينية والنظام التعليمي المترتب على تلك الكتابة قد قاما عصراً بعد عصر بعملية غريبة قوية تظاهر العقول المفرغة في قوالب جامدة كما تظاهر عقلية الخدلة العملية الجوفاء وتنصرها على الطراز الجامع الخلاق ، وتستبعد هذا الأخير من مراكز النفوذ والسلطان . وعندى أن هذا التفسير مستساغ ومقبول إلى حد كبير .

ومع ذلك فإن نظام الامتحان القديم لم يتوطد بكامل شدته إلا إبان أسرة منج الحديثة نسبياً . وكانت أسرة منج (١٣٦٨ - ١٦٤٤) أسرة وطنية النزعة محافظة على القديم ، استردت الصين بعد حكم المغول . ويقول المستر ل . ي . تشن L. Y. Chen : إن أول أباطرة أسرة منج قال عندما أعاد تنظيم الامتحان على أسس أشد تدقيقاً : « لسوف يجلب هذا إلى مصيدي كل من في العالم من ذوى العقول » . وقد سمجت « الآداب القديمة الخمسة والكتب الأربعة » عقل الصين في محبسها . فعندما يحل الزمن الذي ينتهي فيه أى رجل من شق طريقه فيها كدحاً وكدأً يكون تقدير القيم لديه ، قد بلغ من الصلابة واستعصاء العلاج مبلغه عند علماء الآداب الكلاسيكية القديمة بأكسفورد .

ولقد جرت محاولات عديدة لتبسيط الكتابة الصينية ولإقتباس طريقة أبجدية . ففي أيام البوذية الأولى بالصين ، عندما ترجم قدر عظيم من المؤلفات عن السنسكريتية : أوشكت المؤثرات الهندية على بلوغ تلك الغاية . وقد اخترعت في الواقع أبجديتان صينيتان ، وحظيت كل منهما بشيء يسير من الاستعمال . ولكن الشيء الذي جال دون تعميم استعمال هاتين الأبجديتين ، والذي لا يزال حتى اليوم يقف في سبيل أى « طريقة صوتية » للكتابة الصينية ، هو أنه على حين ترى الكتابة الأدبية وأسلوب العبارة الفصيح واحداً لا يتغير من أقصى الصين إلى أقصاها ، فإن لغة العامة المتداولة تختلف في كل من طريقة نطقها وصيغها الاصطلاحية المألوفة اختلافاً يبلغ من الاتساع حداً يجعل الرجل من أبناء

(١) الطريقة الصوتية **Phonetie** في الكتابة الإنرجية طريقة لا تتسك بالإملاء التقليدي المعروف للكلمات ، وإنما تمثل الكلمات أو تصور أصواتها بعلامات وحروف مميزة . (المترجم) تاريخ الإنسانية ج ٣

إحدى الولايات لا يفهم لغة مواطن له من أبناء ولاية أخرى . وهناك على ذلك « لغة صينية فصحي » . وهى عبارات اصطلاحية تكاد تكون مستظهرة عن الكتب ينطق بها المتعلمون ويفهمونها على وجه العموم ، وتتعلق آمال الكثيرين من المصلحين التربويين بالصين فى الوقت الحاضر على احتمال استخدام طريقة أبجدية للكتابة فى هذه الصينية الفصحى . وقد صيغت أبجدية صينية ، وهى تعلم فى المدارس العامة ، وتشر بها الصحف والنشرات . وقضى على نظام الامتحان الجامد الذى قتل كل ابتكار فكرى خلاق .

كذلك أحدثوا تبسيطاً جسيماً يتمثل فى إدخال صيغ الحديث الاصطلاحية المنطوقة إلى الصينية المكتوبة . وهذا من شأنه أن يتجه بها إلى اليسر والوضوح . فلان مثل هذه الصينية وإن كتبت بالحروف القديمة أسهل قراءة وكتابة ، وهى مكيفة لحاجات التعبير الأدبى العصرى تكييفاً أوفق كثيراً من الصينية الكلاسيكية القديمة .

على أنه ربما كانت هناك كذلك أسباب أخرى حالت دون تقدم الصين إلى مركز زعامة الإنسانية المحقق . فإن ما نالته الصين فى الماضى من النجاح والرخاء القديم والقناعة العامة ، لا بد وأنها عملت عملها بتلك البلاد لتبرير كل ما فطر عليه جنسنا البشرى من طمأنينة نفسية وروح محافظة طبيعيين . فلو نظرنا إلى المسألة من الناحية البيولوجية ، فما من حيوان بمحتاج إلى التغير ، ما حسنت أحواله حسناً يكفل له البقاء فى وقته الراهن . وما يزال الإنسان فى هذا الأمر حيواناً . وقد ظلت الصين ما يربى على الألفى سنة حتى القرن التاسع عشر ، دون أن يخامرها أو يداخل تاريخها إلا أقل إحساس بأى شكوك خطيرة حول تفوق مدنيته بوجه عام على مدنيات العالم كله ، ولم يكن هناك تبعاً لذلك أى سبب ظاهر يحدو بالصينى إلى إحداث أى تغيير . فقد أنتجت الصين فيضاً وفيراً من الفن الجميل وبعض الشعر المتع وطباخة مدهشة وآلاف الملايين من الكائنات البشرية الذكية اللطيفة جيلاً بعد جيل . وكانت وما تزال بلاد ملكيات صغيرة ؛ وكل الأيدى فيها مطلوبة ، ويمكن استخدامها جميعاً أعمال زراعية عتيقة تعود إلى عهد الأجداد . هذا إلى أن هناك منافذ أمام القوى الجانحة إلى الاتساع . إذ لا يزال فى الشمال والغرب متسع عظيم للإقامة والاستيطان وإذن فإن شيئاً ذا بال لم يحدث ، فلم يقم توتر داخلى حاد يشقت شمل العشيرة العائلية الصينية القائمة على نظام الأبوة . وهى العائلة التى تزوج أبناءها فى سن مبكر وتحتفظ بهم فى المنزل

قبل أن يحصلوا على الاستقلال الاقتصادي . هكذا سارت الصين في طريقها عسراً بعد عصر ، وما تزال تسير دون أن يداخلها أى شيء من ذلك التبرم العام ولا تلك العبودية ولا المذلة ولا التعس العام التي كانت تحف بحكم الأغنياء الإمبراطورية الرومانية ، حتى أدت في النهاية إلى انهيارها . أجل كان هناك والحق يقال فقر كثير واستياء كبير . بيد أنه لم يكن فقراً جماعياً لقوم مطرودين من أملاكهم ، ولم يكن استياء شعبياً لا مناص منه . فبعد كل شدة وبعد كل كارثة ، تبرأ نفوس السكان ، وتلتئم الجراح . ولقد عمر النظام الصيني ألف سنة ، لاح فيها ممتنعاً على كل انحلال وإن مرت عليه أيام كان فيها يتأوه ويرنج . أجل حدثت تغيرات في الأسرات المالكة وثورات وأدوار فوضى ومجاعات وأوبئة ، كما حدث غزوان عظيمان نصبا أسرى من أجنبيتين على عرش « ابن السماء » ؛ ولكن لم تحدث تلك الصدمات التي توجد انقلاباً ثورياً في نظام الحياة اليومية . وقد يأتي الأباطرة والأسرات المالكة ويذهبون ، فأما الماندرين والامتحانات والآداب القديمة والتقاليد والحياة العادية فقد ظلت على ما هي عليه . فالمدينة الصينية وإن ظلت منذ أسرة تانج لها بعدها ، تنتشر في ببطء واستمرار في أنام وكبوديا وسيام والتبت إلى نيبال وكوريا ومنغوليا ومنشوريا ، لا تنطوى على شيء نستطيع تسجيله لها عدا ذلك التقدم الجغرافي . وكان صيني القرن السابع الميلادي شعباً ممدناً يعادل في كل من حضارته ونواحيها الجوهريّة ما كانوا عليه بعد ذلك بألف سنة .

٩ - الفن الصيني القديم

ربما جاز لنا هنا أن ندلى بكلمة حول فن الصين وعمارتها في عهد أسرتي هان وتانج وما جاء بينهما من أسرات أخرى . والصينيون ، لأسباب لا نستطيع البتة أن نحللها ، فضلوا على الدوام استعمال الخشب والطوب على استعمال الحجر في المباني . ومع ذلك فإن أحجار البناء الجيدة موفرة ببلاد الصين . ولا يكاد التاريخ يسجل لنا فيما قبل القرن الحادي عشر الميلادي أى خرائب وأطلال ولا أية مباني اللهم إلا السور العظيم . على أن الصور والسجلات تشهد بوجود تراث طويل الأمد يرجع إلى عهد أسرة « تسي إن » أو أبكر منها .

وأقدم أشكال المباني تشتق اشتقاقاً مباشراً من الخيمة المغولية . وأهم مظاهرها هو السقف العظيم الذى قد يكون ثنائياً أو ثلاثياً وبه أشغال خشبية محفورة ومطلية باللك (الجملكتة) . وربما كان السقف نفسه مغطى بقراميد صقيلة ألوانها زاهية ، والمباني على العموم ذات طابق واحد وتنتشر انتشاراً أفقياً . وهناك ظاهرة كثيرة الحدوث فى التصميم الصينى هى الممرات التكريمية ذات العقود . وتكثر القناطر الحجرية ، والكثير منها على درجة عالية من الرونق . والپاجودا^(١) المشيرة إلى السماء طراز ثالث للبناء ، وهذه ومعها الشرفات والدرازينات تكمل الصورة العامة للمباني الصينية . تلك هى الصورة الممثلة للفن المعمارى فى الصين فى أوائل الحقبة المسيحية ، وهى ما تزال على هذا الحال إلى يومنا هذا . ويقال إن الپاجودا — وربما كان ذلك غير صحيح — ترجع إلى بدايات هندية بوذية ، وأنها المعادل الصينى « للإستوبا » التذكارية الهندية .

ولهذا الاستخفاف بالمواد الطويلة الأجل القوية الاحتمال أثره فى معرفتنا بفن التشكيل الصينى قبل أسرة هان . ويكاد البرونز أن يكون هو الاستثناء الوحيد . فلما نعرف بوجود زلع^(٢) وتمائيل من البرونز ترجع إلى أسرة تشو (Chow) بل إلى أسرة شانج . وهى من جمال الشكل ومهارة الصنع إلى حد أنها تدل على وجود عالم بأكمله يعاصرها من المنتجات الماثلة التى لم يبق منها اليوم شئ . ولسنا نصل إلا فى عصر أسرة هان وبعد بداية الحقبة المسيحية ، إلى دور من أدوار الحياة الصينية ترك آثاراً كثيرة فى أى مادة أخرى عدا هذه .

ويحدثنا أهل الذكران « التصوير » كان فن الصين الأساسى ، وكانت تصنع منه أشغال بالغة الجمال والرونق فى عهد أسرة هان . وينوه التاريخ باسم كوكاي تشيه (Ku-kai-chih) (القرن الرابع الميلادى) بأنه من أعظم أساتذة المرقاش^(٣) الصينيين . وما يزال بعض أعماله باقية ، ويتجلى فيها من النضج والأسقاذية ما يشهد بوجود مدرسة راسخة

(١) الپاجودا أو الإستوبا : نصب بوذى على صورة أكمة ذات قبة . (المترجم)

(٢) الزلعة وعاء معروف ، وهو الجرة الكبيرة . (المترجم)

(٣) المرقاش هو ريشة المصور . (المترجم)

القديم في الفن فعلا . والتصوير الصيني يُعمل دائما أبدا بالألوان المائية . وإنما لنجد بدلا من التصوير الحصية الجدارية (الفرسكوهات)^(١) الكبيرة صورا رقت على الحرير والورق ، وهي تختلف عن المنتجات الغربية فيما تظهر من كراهية إيجابية لتمثيل مظهر البروز (Relief) . فهي مسطحة^(٢) هوائية رقيقة ، كما أنها تعالج المناظر الطبيعية البرية أكثر مما تعالج التمثيل الدقيق للجسم البشري . وعصر أسرة تانج يعده كثير من النقاد العصر الذهبي لفن التصوير الصيني .

فأما فن النحت الصيني فإنه لم يواكب بأية حال فن التصوير الصيني ولا يكاد يكون له شأن يذكر إلى جوار الإنتاج الأوربي ، على أن الخزف الصيني من الناحية الأخرى فائق في امتيازه . فقد جرت عادة الصينيين أن يعرضوا خزفهم لارتفاع حرارتها أشد كثيرا مما جرت به العادة في العالم الغربي ، وأنتجوا عند نهاية حكم أسرة تانج خزف البورسلان^(٣) وما لا نظير له من أنواع التزجيج^(٤) ، واتصف خزف أسرة هان بالفعل ببالغ الصلابة والإبداع . وتوجد الآن في المنازل والمجموعات الأوربية أعداد وفيرة من تماثيل خزفية مزججة تمثل الخدم والخيول والجمال وما إليها ، وكلها ترجع إلى زمن أسرة تانج . وقد استخرجت كلها من القبور ، وكان الأصل في وضعها في هذه القبور أن تحمل محل العبدان والحيوان التي كانت تسلك دماؤها في ماض أكثر همجية . واستمرت مذابح القبور هذه التي يقصد بها تزويد الرئيس المغول الراحل بالخدمة والنواب في أرض الظلال : (القبور والموت) ، استمرت في الصين حتى القرن السابع أو السادس ق . م . ثم استبدلت بها التماثيل . على أن الهون في أيام أتيلما برحوا يراعون العادة القديمة ، عادة الذبح الحقيقي . على أنها كانت بادت في مصر قبل أيام أقدم الأسرات الأولى وحلت محلها هناك الصور والتماثيل الجنائزية .

(١) التصوير الحصى أو الفرسكو Frescoe ضرب من الصور وطريقة للتصوير الثابت على بياض الجدران الطرى كثيرا ما تخلط فيه الألوان بزال البيض . (المترجم)

(٢) الصورة المسطحة : هي التي ليس فيها ما يوحى بالعمق والمسافة . (المترجم)

(٣) خزف البورسلان Porcelain : صنف من الصيني أبيض ورقيق وشبه شفاف كان يصنع أولا بالصين . (المترجم)

(٤) التزجيج : وضع غشاوة شبه زجاجية على سطح الخزف . (المترجم)

١٠ - رحلات يوان تشوانج

في عام ٦٢٩ ، وهي السنة التالية لوصول مبعوثي محمد (ﷺ) إلى كنتون وبعد هبوط المبشرين الذين بعث بهم البابا جريجوري إلى إنجلترا بنيف وثلاثين سنة ، قام عالم بوذي مبتدل يدعى يوان تشوانج أو (هيون تسيانج) كما يفضل بعض الثقاق أن يكتبوا اسمه - برحلة عظيمة إلى الهند من سيان فو آى (سيجنان) وهي عاصمة تاي تسنج . غاب عن بلاده في هذه الرحلة ستة عشر عاماً ، وعاد (٦٤٥) وكتب



شكل (١٢٧) خريطة تبين طريق يوان تشوانج من الصين إلى الهند ٦٢٩ - ٦٤٥

عن رحلاته بياناً يعتز به الصينيون كقطعة من الآداب الكلاسيكية القديمة . وإن فيما مر به من تجربة لنقطة أو نقطتين جديرتين بالملاحظة ها هنا ، لأنهما تساهمان بقسط في استعراضنا العام لحالة العالم في القرن السابع الميلادي (١) .

كان يوان تشوانج نظيراً لهرودوت في غرامه بالعجائب وسرعة تصديقه إياها ، وإن أعوزه ما للكاتب الثاني من الحاسة التاريخية الممتازة ؛ فلم يكن ليطبق أن

(١) عن وصف جغرافى تفصيل لتلك المناطق انظر الطبعة الثالثة المجلد الثانى من « المعالم » ص ٦٤٦ (المترجم)

يُمر بنصب أو خرابة دون أن يعلم عنه قصة ماخرافية . وربما تكون نظرة أهل الصين إلى كرامة الأدب ، هي التي منعتهم من إحاطتنا بتفاصيل كثيرة عن كيفية تنقله ، ومن كان برفقته ، وكيف كان يقيم ، أو ماذا كان يأكل ، وكيف كان يدفع نفقاته - وهي تفاصيل لها قيمتها البالغة لدى المؤرخ ؛ ومع ذلك ، فإنه ينفحن مجموعة من ومضات براقة عن الصين وآسيا الوسطى والهند في المدة التي نحن بصدد بحثها .

كانت رحلته رحلة هائلة . ذهب فيها وعاد منها بطريق هضبة الهامير . فذهب بالطريق الشمالى عبراً صحراء جوبي ، مسيراً المنحدرات الجنوبية لجبال تيان شان ، مطوقاً حافة بحيرة إسيك كول (Issik-kul) العظيمة العميقة الزرقاء ، وبذا وصل إلى طشقند وسمرقند ، ثم سار يترسم إلى حد ما خطى الإسكندر الأكبر متجهاً جنوباً نحو ممر خيبر وپيشاور . ثم عاد بالطريق الجنوبي مخترباً الهامير من أفغانستان إلى قشغر ، وبذا يكون قد سار على امتداد خط التراجع الذي اتبعته قبيلة « يويه تشى » في اتجاه مضاد قبل ذلك بسبعة قرون ، ومر بطريق يرقند على امتداد منحدرات الكوين لن ، حتى عاد إلى طريقه القديم قرب النهاية الصحراوية للسور العظيم . وكان سلوك كل من هذين الطريقين يتضمن تسلقاً شاقاً لجبال وعرة . وليس من المستطاع اقتفاء أثره أثناء رحلاته ببلاد الهند ؛ فإنه ظل هناك أربعة عشر عاماً ، اخترق أثناءها كل شبه الجزيرة من نيبال إلى سيلان .

وكان هناك في ذلك الزمان مرسوم إمبراطورى يحرم السفر إلى الخارج ، حتى لقد انطلق يوان تشوانج من سيان فوخفية كأنما هو مجرم هارب . وتعقبته السلطات لمنع من تنفيذه مشروعه . وإن القارئ ليجد في كتابه « الحياة » ، كيف أنه اشترى من رجل أشيب اللحية حصاناً هزلاً أحمر اللون يعرف طرق الصحراء ومسالكها ، وكيف تفادى مخفراً على الحدود بمساعدة « شخص أجنبى » ، صنع له على النهر جسراً من الحسك أذى من ذلك الموضع ، وكيف أنه عبر الصحراء مسرّداً بعظام الموتى من الرجال والماشية ، وكيف رأى سراً ، وكيف نجا بأعجوبة مرتين من السهام عندما كان يتزود بالماء بالقرب من أبراج الخفارة في الطريق الصحراوى . وحدث ذات مرة أنه ضل الطريق في صحراء جوبي ، وظل أربع ليال وخمسة أيام ولا ماء معه ؛ وتجمد

لثنا عشر نفرأ من رفاقه ومانوا بردأ وهو فوق الجبال بين أحضان الجليد . كل هذا أنى رويننا موجود فى كتاب « الحياة » ؛ إذ أنه لا يقول عن ذلك غير القليل فى بيانه الشخصى عن أسفاره .

وهو يعرض علينا الترك - وهم التطور الحديد لمجتمع الهون ، وقد ملكوا لا ما هو الآن التركستان فحسب ، بل كل ما يقوم على امتداد الطريق الشمالى بأكمله . وهو يذكر أسماء مدن جهة ويشير إلى الزراعة واتساع رقعتها . ويولم له الولائم حكام عديدون ، وهم إما من حلفاء الصين أو من أتباعها إلى حد ما ، كما يولم له آخرون من بينهم خان الترك وهو شخص فاخر فى ثياب خضراء من الأطلس ، وقد عقص شعره الطويل بالحرير .

« وكانت هذه الخيمة العظيمة الموشاة بالذهب تشع فخامة وضاءة تغلب الأبصار ؛ وقد جلس الوزراء الحاضرون والقائمون بالخدمة على بسط فى صفوف طويلة على كلا الجانبين ، وكلهم مرتد ثياباً فاخرة من وشى الديباج ، على حين كانت بقية الحاشية صاحبة النوبة تقف من ورائهم . ولقد رأيت أنه وإن كان والياً من ولاية مناطق التخوم ، فلقد أحاطه مع ذلك جو من سمو والظرف . خرج الخان من خيمته زهاء ثلاثين خطوة ليستقبل يوآن تشوانج الذى دخل الخيمة بعد تحية كريمة وبعد فترة وجيزة ، أدخل على الخان رسل من الصين ومن كاو تشانج فقدّموا رسائلهم وأوراق اعتمادهم ، فقرأها الخان وسر منها كثيراً ، وأمر فأجلس الرسل ، ثم أمر لنفسه ولهم بالنبيذ والموسيقى وبشراب العنب للحاج . وعند ذلك تبادل القوم الأتخاب ، وكان ملء كؤوس النبيذ وارتشاف ما فيها وسوسة وحفيف ، بينما ارتفعت أنغام الموسيقى عن آلاتها المتنوعة : ومع أن الألحان كانت أنغام الأجانب الشعبية الشائعة ، فإنها أدخلت السرور على المشاعر وأنعشت الملكات الذهنية . وبعد قليل قدمت إلى الآخرين أكوام من شواء لحم البقر والضأن ، وقدم للحاج الطعام المباح من أمثال الكعك والبن والفواكه المسكرة والشهد والعنب . وبعد انتهاء الوليمة ، قدم شراب العنب مرة ثانية ، ودعا الخان يوآن تشوانج أن ينتهز المناسبة فينفج المجتمعين بعض علمه ، وعند ذلك بسط الحاج لهم مبادئ « الفضائل العشر »

والرفق بالحيوان وكمالات الباراميتا (Paramitas)^(١) وفلك الرقاب . فانحنى الخان رافعاً يديه وأمن مسروراً مغتبطاً وتقبل التعاليم .

وبيان يوآن تشوانج عن سمرقند يصورها مدينة كبيرة ذات رغد ورخاء ، « لأنها مستودع تجارى عظيم ، والمنطقة المحيطة بها عظيمة الحصوية ملتفة الأشجار كثيرة الأزهار ومنتجة لكثير من الخيول الصافيات . وأهلها صناع مهرة ذوو رشاقة ونشاط » ، ومما يجدر ذكره لهذه المناسبة ، أنه لم يكن هناك في ذلك الزمان شيء يمكن تسميته مدينة في إنجلترا الأنجلو سكسون .

ومع ذلك فكلمة اقتربت روايته مما مر به في الهند من خبرات ، تغلبت نزعة الحاج التقى العالم في شخص يوآن تشوانج على نزعة الرحالة ، وعند ذاك يصبح الكتاب مزدحماً بأفاصيص فضيلة تروى معجزات لا سبيل إلى تصديقها . ومع ذلك فإننا نحصل على انطباع عن المساكن والثياب وما إليها ، وكلها وثيقة الشبه بما في الهند اليوم . وإن ما كان بالهند آنذاك ولا يزال بها إلى اليوم ، من شدة تنوع الأشكال والهيئات المختلفة للجواهر ، لهُو نقيض صريح للصين بما يعم جميع جمواهرها من الثياب الزرقاء . ووجود الكتابة والقراءة بالهند أيام بوذا من الأمور المشكوك فيها ؛ فأما آنذاك فقد صارت الكتابة والقراءة من المهارات الشائعة تماماً . ويقدم إلينا يوآن تشوانج بياناً مجتمعاً عن جامعة بوذية عظيمة في نالاندا ، كشفت أخيراً خرائبها ورفعت عنها الأتربة . ويبدو أن نالاندا وتاكسيلا كننا مركزين تعليميين كبيرين في زمان يرجع في قدمه إلى عهد فتح المدارس الفلسفية في أثينا . كذلك زار كهوف أجانا التي مر الحديث عنها . وقد وجد يوآن تشوانج نظام الطوائف كامل الاستقرار هناك بالرغم من كل ما بذله ضده بوذا ، ووجد نجم البراهمة في تألق وصعود لا ريب فيه . وهويذكر الطوائف الأربعة الرئيسية التي ذكرنا^(٢) . بيد أن بيانه عن وظائفها وأعمالها يختلف نوعاً ما . فهو يقول إن السودرا (Sudras) هم حراث الأرض . ويقول الكتاب الهنود إن عملهم كان خدمة الطوائف الثلاثة « المولودة مرتين » الأعلى منهم .

ولكن كما سبق أن ألمعنا فإن بيان يوآن تشوانج عن واقع الأحوال الهندية بغمرة ما كدسه فيه من الأساطير والمخلوقات الورعة . فمن أجل هذه دون غيرها جاء ، وبهذه كان

(١) كمالات الباراميتا : هي فضائل الكمال المطلق مثل : العفاف والاحسان والصبر والحكمة ، التي ينبغي أن يمارسها كل من تنوق نفسه إلى سلوك سبيل الكنبوة البوذية . (المترجم)

(٢) انظر المعالم ج ١ ص ٢٣٤ ط ٣ . (المترجم)

يفرح ويغتبط . فأما ما عدا ذلك نواجب قد ألقي على عاتقه رغباً عنه كما سنرى .
فإن عقيدة بوذا التي ظلت إلى أيام أسوكا ، بل حتى في زمن متأخر يصل إلى عهد
كانيشكا (Kanishka) ، خالصة نقية إلى حد يجعل منها إلهاماً نبيلاً ، تبدى لنا آنذاك
تأثراً في ببداء من الهراء غير المعقول ، حيث تحولت إلى فلسفة تؤمن بوجود سلسلة
لا نهاية لها من البوذوات وإلى أقاصيص كرامات وأعاجيب شبيهة بتمثيلات عيد
الميلاد الايمائية (Pantomime) ، وإلى إناث يحملن حملاً إعجازياً ويلدن فيلة ذوات ستة
أنياب ، وإلى أمراء محسنين يقدمون أنفسهم طعاماً لفرات جائعات ، ومعابد مشيدة
على قلامة ظفر مقدسة وما إلى ذلك من أشياء . ولسنا بقادرين أن ندلى بمثل هاته
الأقاصيص هنا ، فإن كان القارئ ميالاً إلى مثل هذا النوع من الأشياء ، وجب
عليه أن يرجع إلى مطبوعات الجمعية الملكية الآسيوية أو الجمعية الهندية ، حيث يجد
طوفاناً من مثل هذا الهديان . وذلك بينما البرهمانية قد أخذت تكسب الأنصار وتفوز
بالتفوق من جديد في كل مكان في منافستها لهذه البوذية التي تقوضت فكرياً واختنقت
تحت زخارفها المذهبة ، كما لحظ ذلك يوان تشوانج أسفا .

وإلى جوار هذه الشواهد الدالة على وجود اضطحلال فكري كبير في الهند ،
يجوز لنا أن نلاحظ أيضاً تكرار الحديث عن المدن الخربة المهجورة في بيانات يوان
تشوانج . فإن شطراً كبيراً من البلاد لم يبرح يكابد من غارات الإفاثالين وسلبهم
والقوضى المترتبة عليها . فلنا نجد مثل هذه الفقرة مراراً وتكراراً : « لقد ذهب
شمالاً بشرق مخترقاً غابة عظيمة ، وكان الطريق ممراً ضيقاً خطراً يكثر به
الجاموس البرى والفيلة البرية ، ويتربص فيه اللصوص والقناصة على الدوام لقتل
المسافرين ، حتى إذا خرج من الغابة وصل إلى إقليم كوشيه ناكالو
(كوزينا جارا) . وكانت أسوار المدينة حطاماً خربة ، بينما البلدان والقرى قد
هجرها أهلها . وكانت أسس مباني المدينة القديمة المبنية من الطوب ، (أعنى
المدينة التي كانت القصبة) تمتد في دائرة يزيد محيطها على عشرة من الأميال الصينية
(١) Li . فأما عدد السكان فقد تضاعف إلى أقصى حد ، حتى أصبح داخل
المدينة خراباً موحشاً » . ومع ذلك ، فلم يكن هذا الخراب عاماً بأية حال . إذ

(١) Li : هو ميل صيني يساوى على الأرجح أكثر من ثلث ميل إنجليزي . (المترجم)

لا يقل عن ذلك كثيراً ما يذكره الكاتب من المدن المزدهرة والقرى الآهلة والمزارع الناشطة .

ويتحدث كتاب « الحياة » عما لقيه الكاتب من مشاق في طريق عودته : إذ وقع في أيدي اللصوص ؛ وغرق الفيل الضخم الذي كان يحمل غالب متاعه ؛ ولقى صعوبة كبيرة في الحصول على ذابة جديدة . ولكن لا سبيل هنا إلى معالجة هذه المغامرات .

والظاهر أن عودة يوآن تشوانج إلى سيان فو عاصمة الصين كانت نصراً مبنياً . فلا شك أن بشراء يسعون بين يديه كانوا يبلغون الناس بمقدمه . وأعلنت بالبلاد عطلة عامة ؛ وازدانت الطرقات بالأعلام الزاهية وملئت أرجائها سروراً بأنغام الموسيقى . وحف به الناس أثناء دخوله إلى المدينة في موكب فخم حافل . واحتاج حمل مغانم رحلاته إلى عشرين حصاناً ؛ ذلك أنه أحضر معه مئات من الكتب البوذية المكتوبة بالسنسكريتية ، والمصنوعة من خوص النخل ولحاء البتولا المطبق طبقات بعضها فوق بعض ؛ وحمل معه تماثيل حمة لبوذا ما بين كبيرة وصغيرة ، وما بين ذهبية وفضية وبلورية أو من خشب الصندل ؛ وكانت معه صور مقدسة ، وما لا يقل عن مئة وخمسين أثراً حقيقياً مشهوداً بصحة نسبته إلى بوذا . وقُدِّم يوآن تشوانج للإمبراطور ، فعامله معاملة صديق شخصي ، وأخذته إلى القصر يسأله يوماً بعد يوم عن عجائب تلك الأراضي الغربية التي قضى فيها مثل ذلك الزمن الطويل . ولكن بينا الإمبراطور يسأل عن الهند ، كان الحاج ميالا ألا يتكلم إلا عن البوذية .

ويحتوى ما يتلو ذلك من تاريخ يوآن تشوانج على حادثتين تلقيان الضياع على النشاط الفكرى لهذا العاهل العظيم تاي تسنج ، الذي كان فيما يرجع مسلماً بقدر ما كان مسيحياً أو بوذياً^(١) . والعيب في كل المتخصصين في الدين معرفتهم بأكثر مما يلزم من شؤون ديانتهم الخاصة ، ومن أوجه اختلافها عن الديانات الأخرى ؛ ولعل مزية — أو عيب — أولئك الساسة الخلاقين من أمثال تاي تسنج أو قسطنطين الكبير ،

(١) يشيد الكتاب البوذيون بذكر تاي تسنج لاستقباله يوآن تشوانج (٦٤٥) . بيد أن مؤرخي المسلمين فعلوا مثل ذلك بسبب مسجد كنتون ، وكذلك فعل الكتاب المسيحيون من أجل ما لقيه المبعوثون للنساطرة (٦٣١) . ومن هنا جاء استنتاج المؤلف بما اجتمع في عقل هذا الإمبراطور من احترام لهذه الأديان الثلاثة . (المترجم)

أنهم لا يعرفون من تلك الأمور إلا القليل نسبياً . وواضح أن الخير الجوهري الكمين في هذه الديانات جمعاء كان يبدو لعين تاي تسنج خيراً جوهرياً واحداً لا يختلف في إحداها عنه في الأخرى . لذا كان من الطبيعي أن يقترح على يوآن تشوانج أن ينبذ الحياة الدينية ، وأن يلتحق بوزارة الخارجية ، وهو اقتراح لم يقبله يوآن تشوانج لحظة واحدة . وعند ذلك أصر الإمبراطور أن يحصل على بيان مكتوب عن أسفاره ، وبذا حصل على هذا الأثر الأدبي النفيس الذي نكتنزه معترزين به . وأخيراً اقترح تاي تسنج على البوذي المتشبع تماماً بمبادئه أن يستخدم معرفته بالسنسكريتية في ترجمة مؤلفات المعلم الصيني العظيم لاو تزي (Lao-Tse) لينتفع بها القراء الهنود .

ولا مرأ أن الإمبراطور رأى في ذلك ردا عادلا للجميل وخدمة نافعة للخير الجوهري الكامن وراء الديانات جميعاً . ذلك أنه كان يرى بوجه الإجمال أن لاو تزي لا يقل عن بوذا إن لم يكن خيراً منه . وإذن فلو أن عمله (مؤلفه) وضع تحت بصر البراهمة لتلقوه بالترحاب . وبنفس هذا الروح بذل قسطنطين الكبير قصاراه ليحمل آريوس وإثناسيوس على تسوية أمورهما ودياً . وطبعي جداً أن مقترحه هذا قد رفضه يوآن تشوانج . فإنه اعتكف في أحد الأديرة ، وقضى بقية حياته مترجماً بأسلوب صيني رشيق كل ما وسعه جهده من الأدب البوذي الذي أحضره معه .^(*)

(*) عن الدين والفلسفة والتاريخ ببلاد الصين والهند وغيرها من أقطار الغرب والشرق ، أنظر للمترجم : « التاريخ وكيف يفسرونه » : تأليف البان ورجري [نشرته الهيئة العامة للتأليف والنشر بماسيرو] .
(المترجم)

الفصل الثالثون

محمد (صلى الله عليه وسلم) والاسلام

- ١ - بلاد العرب قبل محمد (ص)
- ٢ - حياة محمد (ص) حتى الهجرة .
- ٣ - محمد (ص) يصبح نبيا منافحاً
- ٤ - تعاليم الإسلام .
- ٥ - الخليفة أبو بكر وعمر .
- ٦ - أيام عظمة بني أمية .
- ٧ - انحلال قوة الاسلام في ظل العباسيين .
- ٨ - الثقافة العربية .
- ٩ - الفن العربي .

١ - بلاد العرب قبل محمد (ص)

سبق أن وصفنا كيف حدث في ٦٢٨ م أنه أمّ مجالس بلاط هرقل وقباز وتاي تسنح رسل من العرب ، أرسلهم شخص معين هو محمد ، « رسول الله » ، المقيم في بلدة « المدينة » التجارية الصغيرة ببلاد العرب . وسنخبرك الآن من كان ذلك النبي الذي نشأ بين بدو الصحراء العربية وتجارها .

فند أزمان سحيقة كانت بلاد العرب ، عدا شريط اليمن الخصيب الممتد في الجنوب الغربي ، أرض بدو رحّل ، وهي المنبت الرئيسي للشعوب السامية . فن بلاد العرب وفي أزمان متنوعة اندفعت أفواج من هؤلاء البدو نحو الشمال والشرق والغرب إلى بلاد المدنيات القديمة بمصر وساحل البحر المتوسط وأرض الجزيرة بالعراق . وقد لا حظنا في هذا الكتاب كيف نمرت السومريين بعض تلك الموجات السامية وتغلّبت عليهم ، وكيف مكن الفينيقيون والكنعانيون الساميون لأنفسهم على امتداد شواطئ البحر المتوسط الشرقية ، وكيف اتخذت الشعوب السامية حياة الاستقرار في بلاد بابل وآشور ، وكيف غزا الهكسوس مصر ، وكيف استقر الآراميون تماماً في سوريا متخذين من دمشق عاصمة لهم ، وكيف فتح العبرانيون « أرض الميعاد » فتحاً جزئياً . وقد انتقل

الكلدانيون في تاريخ مجهول من بلاد العرب الشرقية ، واستقروا في الأراضي الجنوبية السومرية القديمة . وكان كل غزو يُدخل في التاريخ هذا القسم من الشعوب السامية ثم ذاك . بيد أن كل واحدة من هذه الجماعات كانت لا تفتأ تترك نواة قبلية من خلفها تزود الغزوات التالية في المستقبل بالرجال .

وتاريخ الإمبراطوريات الأعلى تنظيماً في عهد الحصان والحديد : إمبراطوريات الطرق والكتابة ، يظهر لنا بلاد العرب ممتدة كالإسفين بين مصر وفلسطين وبلاد الفرات والدجلة ، كما يصورها خزاناً للقبائل المترحلة التي تغير وتتجر وتتقاضى الجزية من أجل حصانة القوافل وحمايتها . أجل إنها تعرضت في بعض أيامها للمخضوع لسلطان خارجي ضعيف مؤقت . وإن كلا من مصر وفارس ومقدونيا وروما وسوريا والقسطنطينية ثم فارس من جديد لتدعى على التعاقب شيئاً من السيادة غير الحقيقية على بلاد العرب ، وتعلن عليها ضريباً لا أساس له من الحماية . وكانت هناك في عهد الإمبراطور تراجان ولاية رومانية تسمى « بلاد العرب » ، وكانت تتضمن إقليم حوران الذي كان خصباً آنذاك وتمتد حتى البتراء (Petra) . وكان يحدث بين الآونة والأخرى أن يرتفع أحد مشايخ العرب ومدينته التجارية إلى مرتبة مؤقتة من الرفعة . كذلك كان حال أذينة (أوديناثوس الپالميرى) صاحب تدمر الذي ذكرنا من قبل سيرة حياته القصيرة . وكانت بعلبك كذلك مدينة صحراوية أخرى بلغت رفعة مؤقتة وما تزال خرائطها تدهش السائح .

وبعد تدمير تدمر أخذت السجلات الرومانية والفارسية تسمى عرب الصحراء باسم (Saracens) : أعنى المشاركة .

وفي أيام كسرى الثاني الملقب بأبرويز ، ادعت فارس نوعاً معيناً من السيادة على بلاد العرب ، وبعثت إلى بلاد اليمن بالموظفين وجباة الضرائب . وقبل ذلك الزمان ظلت اليمن بضع سنين تحت حكم النصارى الأحباش ، وظلت قبل ذلك سبعة قرون وهي تحت حكم أمراء من بني جلدتها ، يعتنقون الدين اليهودي ، وهو أمر خليق بالملاحظة .

ولم تكن هناك حتى مستهل القرن السابع الميلادى أية أمارات على وجود أية قوة

غير مألوفة أو طاقة خطيرة في الصحراوات العربية . إذ كانت حياة البلاد تسير على ما كانت عليه منذ أجيال طويلة . فحيثما وجدت رقعة خصبة ، أعنى حيثما كانت هناك عين أو بئر ، كان يعيش سكان زراعيون قليلو العدد في مدن مُسَوَّرة ، محاذرة من البدو الذين يتجولون مع أغنامهم وماشيتهم وخيولهم في الصحراء . وكانت المدن الرئيسية تنشأ على امتداد طرق القوافل المهمة وتبلغ من الرخاء مرتبة ثانوية ، وكانت في طليعتها المدينة (: يثرب) ومكة . وفي بداية القرن السابع كانت يثرب بلداً يحتوى على ما يقارب ١٥ ألف نسمة لا يتجاوزونها أما مكة فكان بها ، فيما يحتمل عشرون أو خمسة وعشرون ألفاً . وكانت يثرب بلداً أفضل نسبياً من حيث المياه ، بها أحراش نخيل كثيرة ؛ وكان سكانها من اليمانية ، أى من أهالى الأرض الحصينة في الجنوب ، أما مكة فمدينة من طراز آخر قائمة حول ينبوع ماء ذى طعم مرير ويسكنها بدو حديثو الاستقرار .

ولم تكن مكة مجرد مركز تجارى ولا كان ذلك أول وأهم صفاتها ، بل كانت بمثابة حج للناس . فكان بين قبائل العرب من زمان بعيد نوع من الحلف يتمركز في مكة وبعض أماكن مقدسة أخرى ؛ وكانت هناك أشهر حُرْم (هذنة) تقف فيها الحروب وتمتنع الثارات ، وعادات مرعية من حماية الحجيج وإكرامهم . وقد نما بالإضافة إلى هذا عنصر أوليبي^(١) في هذه الاجتماعات . إذ كان العرب قد أخذوا يكتشفون في لغتهم مجالى الروعة والجمال ، فكانوا يلقون القصائد الحماسية وأغاني الغزل . وكان مشايخ القبائل يجلسون وعلى رأسهم « أمير الشعراء » للحكم بين الشعراء ومنح الجوائز ؛ وكانت الأغاني الفائزة بالجوائز تغنى في كل بلاد العرب .

وكانت الكعبة بيت مكة المقدس سحيفة القدم آنذاك . وهى معبد مربع صغير من الأحجار السوداء ، حجر الزاوية فيه من الأحجار النيزكية . وكان هذا الحجر النيزكى يعد رباً ، وفى حمايته كل الآلهة القبلية الصغيرة ببلاد العرب . وكان سكان مكة الدائمون قبيلة من البدو ؛ استولوا على هذا المعبد وأقاموا أنفسهم سدنة له . فيأتيهم قى الأشهر الحرم أفواج عظيمة من الناس يسرون حول الكعبة وفق طقوس

(١) نسبة إلى منطقة أوليمبيا اليونانية القديمة التى كانت تقام فيها المهرجانات . (المترجم)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منها مستقرات لليهود . فلم يكن بد إذن من أن تكون مكة والمدينة في حالة منافسة وتنازع .

٢ - حياة محمد (ص) حتى الهجرة

كان مولد محمد مؤسس الإسلام بمكة قرابة ٥٧٠ م . ولد في فقر بالغ ، وكان ضئيل الحظ من العلم ، ولو قدس حتى بمعايير الصحراء لكان أمياً غير متعلم ، ومن المشكوك فيه أنه تعلم الكتابة إطلاقاً^(١) . وظل بضع سنوات يشتغل بالرعي ، ثم دخل بعدئذ في خدمة سيدة معينة اسمها خديجة ، وهي أرملة تاجر موسر . ولعله كان يعني^(٢) بإبلها أو يساعد في أعمالها التجارية . ويقال إنه سافر مع القوافل إلى اليمن^(٣) وإلى سوريا . والظاهر أنه لم يكن تاجراً عظيم النفع لها في تجارتها ، ولكنه أوتي من الحظ نصيباً موفوراً ، فأعجبت به السيدة فتزوجته ، فتضايقت^(٤) من ذلك عائلتها تضايقاً كبيراً . ولم يكن عند ذاك قد تجاوز الخامسة والعشرين . وليس من المحقق أن زوجته كانت أسن منه بكثير ، وإن أجمع التواتر على أنها كانت في الأربعين . والراجح أنه لم يقم بأية رحلات طويلة بعد الزواج . وولد له أطفال عديدون ، كان اسم أحدهم

(١) علام الشك وأميته (عليه الصلاة والسلام) مقطوع بها بنص القرآن في مواضع متعددة منه .
(المترجم)

(٢) المجمع عليه في الكتب الإسلامية أنه (عليه الصلاة والسلام) أشرف على تجارة لها إلى الشام مقابل أجر معلوم .
(المترجم)

(٣) لم يثبت أنه عليه الصلاة والسلام سافر إلى اليمن لا للتجارة ولا لأي غرض آخر . والثابت المعروف من كتب السيرة أنه لم يسافر إلى الشام إلا مرتين ، مرة وهو حدث في حوالى الثانية عشرة من عمره في مصبة عمه أبي طالب وأخرى حينما كان في حوالى الخامسة والعشرين نائباً عن السيدة خديجة (رضى الله عنها) في تجارتها .
(المترجم)

(٤) قال الدكتور هيكل في كتابه « حياة محمد » ص ٨٤ ما نصه « فلم تبطل خديجة أن حددت الساعة التي يحضر فيها مع أعمامه ليجدوا أهلها عندها فيتم الزواج - وزوجها عنها عمرين أشد إذ كان عويلاً قد مات قبل حرب الفجار - مما يكذب ما يروى من أنه كان حاضراً ولم يكن راضياً عن هذا الزواج » .
(المترجم)

عبد مناف^(١) — أى خادم الرب المكي « مناف » ، وهذا يدل على أن محمداً لم يكن قد توصل في ذلك الوقت إلى أية اكتشافات دينية^(٢) .

ثم ظل حتى بلغ الأربعين من عمره يعيش في مكة عيشاً عادياً كبذل لزوجة ثرية . وربما كان هناك أساس للظن بأنه أصبح شريكاً في بعض الأعمال المرتبطة بالإنتاج الزراعى . فلو أن إنساناً زار مكة سنة ٦٠٠ م لرأى فيه فيما يرجع شخصاً أشبه بالمترفين ، شخصاً حياً وسيم الطلعة ، متنقلاً بين المجالس ، منصتاً للحديث ، وشاعراً غير مجيد^(٣) ، ورجلاً ذا مرتبة ثانوية على وجه العموم .

وليس في وسعنا أن نتحدث عن حياته الخاصة إلا على سبيل الظن والتخمين . وقد اعتقد بعض المتوقدى الخيال من الكتاب أنه كانت تلم به أدوار صراع روحى عظيم ، وأنه كان يخرج إلى الصحراء في آلام مبرحة من الشك والرغبة القدسية . « ففى هدأة الصحراء ليلاً ، وفى قيظ ظهيرة الصحراء نهراً ، عزف النوى نفسه كما يفعل الناس جميعاً وأحس الوحدة والانفراد وإن لم يستوحش ، ذلك أن الصحراء لله ، وفى الصحراء لا يستطيع إنسان أن يجحده »^(٤) . وربما كان الحال كذلك حقاً ، ولكن

(١) الثابت قطعاً أنه لم يولد له عليه الصلاة والسلام ولد بهذا الإسم . والثابت أن نفسه الشريفة كانت تنفرد منذ صباه من كل أصنام العرب . ولعل الكاتب قد اختلط عليه الأمر فجعل من عبد مناف الجد الثالث للنبي عليه الصلاة والسلام اسماً لأحد أبنائه . (المترجم)

(٢) وهل قال أحد بأن محمداً عليه الصلاة والسلام قد جاء بجديد من ناحية العقيدة والدين قبل الأربعين عندما جاءه الروح الأمين وهو يتحنث في غار حراء ؟ وهل لا يعتبر نفور محمد (ص) الطبيعى من الأصنام وكل ما يمت إليها بصللة من طقوس وقوانين وتعميم الخ من أمارات السمو الروحى الذى عرف به بين قومه من طريق تمسكه بكامل الصفات والأخلاق حتى لقبوه بالأمين ، والذى حفزه إلى التفكير والتأمل والتحنث بحثاً عن الحق الذى هداه فى النهاية إلى نهجه القويم حتى هبط عليه الروح الأمين بالرسالة والقرآن الكريم . (المترجم)

(٣) معاذ الله أن يتصف النبي بقول الشعر ؛ والله نزهه عن الشعر فى كتابه الكريم ولم ترو كتب السيرة الشريفة قط أنه عليه السلام قال شعراً فى صباه . (المترجم)

(٤) السير مارك سايكس .

لم يقيم أى دليل^(١) على حدوث مثل تلك الرحلات الصحراوية . ومع ذلك فإنه كان ولا مرأى يفكر تفكيراً عميقاً فيما حوله من أشياء . ويحتمل أنه رأى كنائس مسيحية في سوريا^(٢) ، ويؤكد يكون محققاً أنه كان يعرف الكثير عن اليهود وديانتهم ، وأنه استمع إلى سخرتهم من ذلك الحجر الأسود في الكعبة الذى كانت له السيادة على الأرباب القبلية الثلاثمة ببلاد العرب . ورأى جماهير الحجيج ولحظ أمارات الختل وعدم الإخلاص وأنحرافات المتجلية فى وثنية البلدة فضاق بذلك ذرعاً . وربما كان اليهود قد هدوه إلى الاعتقاد فى الرب الواحد الحق ، دون أن يدرك ما حدث له^(٣)

أخيراً لم يستطيع أن يكتفى هذه المشاعر فى نفسه زمناً أطول . فلما بلغ الأربعين شرع يتكلم عن حقيقة الإله إلى زوجته أول الأمر كما هو واضح وإلى نفر قليل من أصدقائه المخلصين . وجاء بآيات معينة ، أعلن أنها قد أوحيت إليه عن طريق ملك من السماء . وكانت تحتوى على الجزم بوحدة الرب وبعض أحكام عامة معقولة عن البر والتقوى . كذلك أصر على وجود حياة فى الدار الآخرة ، وعذاب جهنم للمستبين والشريد ، وجعل الفردوس نُزْلاً للمؤمنين بالإله الواحد . وفى ما عدا دعواه أنه نبي جديد ، لا يبدو أن قد كان فى هذه المبادئ شئ بارز الجدة فى ذلك الزمان ، بيد أن هذه التعاليم كانت فى عرف مكة دعوة إلى الشغب والفتنة ، وهى التى كانت تعتمد فى بعض معاشيها على نخلتها المتعددة الآلهة ، والتى كانت لذلك مستمسكة بالأصنام يوم كان سائر العالم قد أخذ ينبذها . وقد قال محمد ﷺ — كما قال مافى —

(١) المتواتر المجمع عليه أن ذلك حدث منه عليه السلام وإلا فأين حديث غار حراء ؟

(المترجم)

(٢) إطلاق القول بأنه عليه الصلاة والسلام زار سوريا لا يقوم عليه دليل إذ أنه لم يتعد فى زيارته للشام مدينة بصرى محط قوافل المكين وهى فى أقصى الجنوب الشرقى لفلسطين الحالية .

(المترجم)

(٣) لم يكن النبى عليه الصلاة والسلام قبل الرسالة بحاجة إلى تعرف الإله الواحد الحق من اليهود فإن العرب فى جاهليتهم الوثنية كانوا يعرفون الله الخالق وإنما كانوا يتخذون من الأوثان والأصنام فى بداية أمرهم بها شفعاء فى تقرّبهم إلى الله زلى . فلما تقادم عليهم العهد سجدوا لها من دون الله مع ذكرهم لاسمهم ومعرفتهم له وذلك ظاهر فى أشعارهم وخطبهم فى الجاهلية .

(المترجم)

بأن الأنبياء من قبله وبخاصة عيسى وإبراهيم كانوا معلمين قديسين ، ولكنه يكفل تعاليمهم ويختتمها . وهو لم يذكر البوذية بأى حال . وربما كان ذلك لأنه لم يسمع قط باسم بوذا . فإن بلاد العرب الصحراوية كانت غارقة فى الركود والتأخر من الناحية اللاهوتية .

وظلت الديانة الحديدية بضع سنين وهى سر تحتفظ به جماعة صغيرة من البسطاء ، هم : خديجة زوجة النبي ، وعلى ابنه المتبنى ، وزيد وهو عبد ، وأبو بكر وهو صديق معجب به . وظلت بضع سنين نحلة مغمورة فى بيوت قليلة بمكة ، كانت مجرد عبسة وزجاجة خافتة فى وجه عبادة الأوثان ، بلغ من خمول شأنها وضآلة أمرها أن زعماء البلدة لم يعرفوها أدنى اهتمام . ثم أخذت تقوى ويصلب عودها . وأخذ محمد يجهز بالدعوة أكثر ويعلم الناس مبدأ الإيمان بالحياة الآخرة ، ويتوعد عبدة الأوثان والكفرة بنار جهنم . ويبدو أن دعوته كان لها أثر عظيم . فبدأ للكثيرين أنه إنما يهدف إلى إقامة نوع من الدكتاتورية فى مكة وإلى اجتذاب كثير من البسطاء والمتدبرين إلى جانبه . وبذلت قريش محاولة لتثبيط الحركة الحديدية والقضاء عليها .

ومكة كما هو معلوم مثابة للحج وحرم آمن ؛ ولا يجوز سفك أى دم داخل أسوارها ؛ ومع ذلك فإن القوم نغصوا عيش أتباع المعلم الحديد تنغيصاً شديداً إذ استعملوا معهم أساليب المقاطعة والمصادرة . فاضطر بعضهم إلى اللجوء إلى الحبشة المسيحية . على أن النبي نفسه لم يمس بسوء — لما له من عزوة قوية تحميه ، بينما لم يشأ خصومه أن يفتحوا على أنفسهم باب الثأر الدموى . وليس فى إمكاننا تتبع تأرجحات الكفاح فى هذا المقام . بيد أن من الضروري أن نذكر حادثة واحدة محيرة هى حياة النبي الحديد ، يقول عنها السير مارك سايكس « إنها تثبت أنه كان عربياً صميماً » فإنه بعد كل إصراره على وحدانية الله ، عاد فداخله التردد . فجاء ساحة الكعبة وأعلن^(١)

(١) هذه فرية الغرائق ، وإن تعدد الصورة المروية للآيات المزعومة من « تلك الغرائق العلا وإن شفاعتهن هى التى ترتجى » أو « وإن شفاعتهن لترتجى » الخ لما يحمل تصديق الرواية مستحيلاً ناهيك عن أنه لا يعقل أن يمتدح القرآن أصنام قريش فى بعض آيات ثم يعقب ذلك مباشرة بالاستنكار فى نفس الصورة كما هو ظاهر من قوله تعالى « أفأرىم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذن قسمة ضيزى ، إن هى إلا أسماء سيئتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » ، الخ ؛ فإذا وضعنا « أفأرىم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » تلك الغرائق العلا ، وإن شفاعتهن =

أن أرباب مكة ورباتها ، قد تكون قبل كل شيء حقيقية ، وقد تكون ضرباً من القديسين الذين لهم قوة الشفاعة .

قوبل تراجعهم بالحمية والحماسة من قريش ، ولكنه لم يكذب قوله حتى أخذه القدم [كذا ! ...] ، وذلك يدل على أن الخوف من الله - كان لا جرم - يملأ جوانب قلبه ، فما بدر منه في حق الأمانة أكبر دليل على أمانته ونزاهته (١) . ومن ثم بذل كل ما وسعه لإصلاح ما فرط منه [كذا ! ...] . فقال إن الشيطان تلبس لسانه (٢) ، ثم أخذ يسب عبادة الأصنام بقوة وعزم مجددين . وبذلك تجدد الكفاح ضد الآلهة العتيقة بعد فترة سلام وجيزة ، متأججاً على صورة أشد وأعنف ، دون أي أمل آخر في الصلح .

وانقضت فترة من الزمن كانت لقريش وأنصارها فيها اليد العليا . فوجد محمد نفسه بعد عشر سنوات من الرسالة رجلاً قد بلغ الخمسين من العمر ، وأخفق إخفاقاً تاماً في مكة . وكانت زوجته الأولى خديجة قد ماتت ، وكان كثيرون من كبار أنصاره ماتوا أيضاً قبل ذلك بقليل . فخرج يلتمس الحوار في بلدة الطائف القريبة ، ولكن الطائف ردت به بالأحجار والسباب . حتى إذا أظلمت الدنيا في وجهه كأحلك ما تكون ، انفتحت أمامه أبواب الحظ . إذ وجد أنه كان موضع تقدير وإعجاب في مكان لم يكن له بحسبان . ذلك بأن يثرب (المدينة) كانت تمزقها الانقسامات الداخلية شراً ممزقاً ، وكان كثير من أهلها ، اجتذبهم تعاليم محمد أثناء موسم الحج إلى مكة . ولعل

لترتجى (ثم أردفناها بقوله تعالى) « ألستم الذكور له الأنثى ، تلك إذا الخ » لكان المدح والذم لشيء واحد متتابعين ، فليس من المعقول إذن أن يكون ذلك صدر عن محمد الذي لم يرو عنه أحد أقوالاً أو يسند إليه أفعالا متناقضة متضاربة طوال حياته .

ولعل عدم ذكر ابن هشام شيئاً عن هذه القصة يشير إلى شيء هام وهو أنه يحتمل كثيراً أن هذه القصة وأمثالها من الإسرائيليات لم تكن قد وضعت وشاعت في أيامه وبذلك تكون هذه القصة وضعية في تاريخ متأخر حشرت حشراً في التفسير وغيره ، أنها تعليل لنزول آيات أخرى من غير محقق أو تحليل . (المترجم)

(١) وكيف يزل وهو المعصوم من الخطأ والوحي لقوله تعالى « لو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ولقطعنا منه الوتين » وهو بعد ذلك يبلغ القرآن الذي أخذ الله على نفسه حفظه « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » من كل دعاية وكل سوء . (المترجم)

(٢) الواقعة وكل ما تفرع منها محض اختلاق ولم يأت بها إلا مؤرخ واحد هو اليعقوبي . (المترجم)

اليهود الكثيرى العدد فى المدينة زعزعوا فى قلوب الناس مكانة عبادة الأصنام العتيقة . فأرسلت إليه الدعوة للحضور ليحكم المدينة باسم ربه (١) .

على أنه لم يذهب من فوره بل راح يتفاوض سنتين ، ويرسل الصحابة ليعلموا الناس فى المدينة ويحطموا ما بها من الأوثان . ثم أخذ يرسل أتباعه من مكة إلى المدينة لكي يكونوا فى انتظاره عند وصوله ؛ ذلك أنه لم يشأ أن يسلم نفسه لأنصار مجهولين فى مدينة غريبة . واستمر خروج المؤمنين هذا ، حتى لم يبق إلا هو وأبو بكر (٢) .

وبالرغم من أنه كان مفروضا أن مكة حرم آمن ، فانه أوشك أن يقتل هناك . وواضح أن كبار أهل مكة كانوا على علم بما كان يجرى فى المدينة ، فأدركوا ما يحقد بهم من خطر لو تهيأ لذلك النبي الخارج علم أن يسيطر على بلد فى طريق قوافلهم الرئيسى إلى سوريا . فلا بد إذن للعرف أن ينشئ أمام الضرورة القاهرة ؛ فأبغضوا أمرهم على أن محمداً (ص) يجب أن يموت ، سواء أترقب على ذلك ثار أم لم يترقب . فدبروا أن يقتلوه فى فراشه ، ولكي يشتركوا جميعا فى إثم خرق قواعد الحرم الآمن المقررة ، ندبوا جماعة منهم لتنفيذ ذلك يمثل أفرادها كل عشيرة فى البلدة ما خلا بنى هاشم عشيرة محمد . ع أن محمداً كان دبر هجرته من قبل ؛ فلما اقتحموا عليه حجراته فى سدفه الليل ، وجدوا عليا ابنه المتبنى ، نائما أو متناوما فى فراشه .

وكانت الهجرة مليئة بالمخاطر ؛ إذ كانت المطاردة شديدة سريعة . وأخذ المدربون من قصاصى الأثر فى الصحراء يقصون مواطن الجبال فى شمال مكة ؛ على أن محمداً وأبا بكر انطلقا جنسوبا إلى بعض الكهوف حيث كانت الإبل والمؤن مخبأة (٣) ؛ ومن ثم قاما بدورة عظيمة إلى المدينة . حيث وصل النبي ومعه زميله

(١) ليس فى شروطبيعة العقبة ما يؤيد الزعم بدعوته للحكم . (المترجم)

(٢) الصحيح أنه بقى بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام عدد من المؤمنين والمؤمنات ، ما لبثوا أن نزحوا إلى المدينة بعد الهجرة . (المترجم)

(٣) ما للمؤلف يتقاضى عما لابس الهجرة من آيات بينات أسهب فيها كتاب السيرة ولم يشذوا فى تفاصيلها ؟ أين نشاط المكين فى تعقب الفارين ، وأين قصة الغار وبقائها به أياماً ثلاثة ، وأين ذكر وقوف جماعة من المطاردين بباب الغار وارتدادهم عنه بفضل من الله الذى يتحدث عنه القرآن =

الصدّيق ؛ واستقبلاً بحماسة كبيرة في ٢٠ سبتمبر ٦٢٢ . وكان في ذلك خاتمة ابتلائه وبداية صولته وسلطانه .

٣ - محمد (ص) يصبح نبياً منافحاً^(١)

لقد ظلت شخصية نبي الإسلام حتى الهجرة ، أى حتى أتم الحادية والخمسين من عمره ، موضوع الخدس والتخمين والتجاذب والتنازع بين أهل الرأي . فبات من بعدها يسطع عليه ضياء التاريخ . وإنا لنستبين فيه رجلاً أوتى قوة تصورية هائلة ، وإن كانت عرجونية على طريقة العرب ، ولها أغلب مزايا البدوى ونقائصه^(٢) .

وكان ابتداء حكمه « بدوياً محضاً » . فإن حكم الإله الواحد إله الأرض طراً — حسب تفسير محمد — بدأ بسلسلة من السرايا على قوافل^(٣) مكة ، دامت أكثر من

« إن لا تنصروه فقد نصره الله من قبل : ثانی اثین إذ هما فی النار ، إذ یقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » وأین حدیث سراقۃ الذی جد فی طلبه هو وأبی بکر وما کان من غوص قوائم فرسه فی الرمل وارتمائه من فوقها وطلبه الأمان من فريستیه المرموقین لما وضع لرأسهما من مكافأة مجزية ، عل أن یتكفل برد الطلب ؟ ولكن لیس ینتظر منه — وهو غیر المؤمن — أن یورد ما یشهد لمحمد علیه الصلاة والسلام الرسالة والنبوة ؟ (المترجم)

(١) عن غزوات الرسول وسراياه انظر كتاب « المغازی » للواقدي طبع جامعة أكسفورد وكلمة **Fighting** التي استعملها المؤلف لا تعني بالضرورة دائماً كلمة « مقاتل » وقد اخترنا منافحاً لأنه أكثر الألفاظ انطباقاً على حالة النبي صل الله عليه وسلم وأصحابه وأنصاره في المدينة ، إذ كانوا يذودون عن حقوقهم المسلوبة التي أنكرها عليهم المكيون ، فقد أخرجوهم من ديارهم عنوة واستباحوا دماءهم وما كان لهم من مال وعتاد ، وما كان للنبي صل الله عليه وسلم ومن ورائه المهاجرون ليمعأوا بحطام الدنيا ومتاعها ، لكنهم والأنصار معهم في صعيد واحد ، ما كانوا لتهدأ لهم ثائرة حتى يفتزعوا من المكين بالسلم أو بالحرب ، بالمفاوضة والإقناع أو بالتهديد والبطش ، حقوقهم المقررة كسائر الناس في حرية الرأي وحرية العقيدة وحرية العودة إلى الوطن .

(المترجم)

(٢) حاشا أن تكون للنبي نقائص . فلئن كان البدوى إنساناً عادياً ، فإن النبي هو رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى .

(المترجم)

(٣) أنكر بعض المتعصبين من كتاب أوروبا هذه السرايا وسوها « غارات » وهي هي صفة المصادرة بينما التي أقرها « القانون الدولي » وعمل بها قادة الجيوش في جميع العصور ورائنا تطبيقها في الحرب الحاضرة والحرب الماضية — عبقرية محمد للأستاذ العقاد ص ٦٤ . (المترجم)

عام كامل دون أن تلقى واحدة منها أى توفيق . ثم حدث حادث جليل ، هو نقض الهدنة العتيقة المسنونة ، هدنة الحلف العربى فى شهر رجب الحرام . فإن جماعة من المسلمين فى موسم السلم الأصيل هذا ، هاجموا غدرآ قافلة صغيرة وقتلوا رجلا . وكان ذلك هو النجاح الوحيد الذى أصابوه ، وقد أتوه بأمر النبى (١) .

ثم نشبت فور ذلك معركة . فإن قوة مكونة من سبعة رجل خرجت من مكة لتستقبل فى الطريق قافلة أخرى وتوصلها إليها ، فالتقوا بفئة مغيرة كبيرة عدتها ثلثمائة : وحدث بين الطرفين قتال ، هو معركة بدر التى انهزم فيها لليون وخسروا خمسين أو ستين من القتلى وما يعادلهم من الجرحى . وعاد محمد إلى المدينة منتصراً وقد ألهمه الله وهذا النجاح ، أن يأمر بقتل عدد من خصومه اليهود فى المدينة الذين كانوا قابلوا أقواله النبوية باستخفاف غير محمود .

على أن مكة صممت على الانتقام لبدر ، وأنزلت بأتباع النبى فى معركة « احد » بالقرب من المدينة ، هزيمة غير حاسمة . وقد وقع النبى وكاد يقتل ، وهرب كثيرون من أتباعه . ومع ذلك فإن المكين لم ينتفعوا من ميزة غلبتهم بدخول المدينة (٢) .

(١) ينقل المؤلف هاهنا بعض أقاويل المستشرقين فى سرية عبد الله بن جحش التى قال فيها الأستاذ العقاد ما نصه « فهى سرية استطلاع لم تؤمر بقتال ولم يؤذن لها فيه وقفل عبد الله بن جحش ومن معه إلى المدينة وقد حمزوا للنبي عليه السلام الخمس من غنيمتهم ، فأباه عليه السلام وقال لم : ما أمرتك بقتال فى الشهر الحرام . وعنفهم إخوانهم لمخالفة النبى وساءت لقيامهم بين أهل المدينة » . ص ٧٨ عبقرية محمد . وظاهر من هذا أن هذه الفعلة لم تكن بأمر من النبى صلى الله عليه وسلم . وتجمع كتب السيرة كلها على أن السرايا لم يكن القصد الأول والأخير منها غير دفع مكة إلى التسليم للمسلمين بالمدينة بحقوقهم التى ذكرناها آنفاً .

(المترجم)

(٢) ما الذى يدل عليه انتصار موتور ثم تقاعسه عن أن يتابع المهزوم حتى يقضى عليه قضاء مبرماً لا تقوم له بعده قائمة ؟ ألم يكن المسلمون شوكة فى ظهر المكين وهذا النصر فرصة ذهبية للخلاص منهم نهائياً ؟ لا تحسب القارئ ، وقد أغضى المؤلف عن هذه المسائل ، إلا مدركاً لما بين السطور من أن المكين قد تكلفوا فى هذا النصر خسارة جسيمة أجبرتهم على الرضاء من الغنيمة بالإياب . وجدير بنا أن نقرر هنا أن المعركة فى بدايتها وعندما حوى وطيسها كانت تتطور لمصلحة المسلمين وكانت الأحوال كلها توحى بأن المسلمين لا بد منتصرون ، لولا أن الرماة بالنبل ، وكان النبى عليه الصلاة والسلام قد أوقفهم على رهوة خلف المسلمين لحماية ظهورهم وأوصاهم ألا ينادروا مكانهم حتى ولو رأوا أن المسلمين يقتلون =

ثم تركزت كل طاقات النبي رديحاً من الزمان في استئثاره أتباعه الذين كانت هزائمهم على ما يبدو قد أصابها الكثير من الفتور ويسجل القرآن الكريم المحنة التي كانت تمر بها المشاعر في تلك الأيام . يقول السير مارك سايكس : « وسور القرآن التي ترجع إلى هذه الفترة ، تبرز نظيراتها كلها تقريباً في جلالها وروعها وبقينها الرائع » ، وإني لأقدم للقارئ هنا مثالا يحكم عليه من تلك الآيات الجلييلة نقلته عن الترجمة الصحيحة الحديثة التي قام بها مولانا محمد علي^(١) : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين . سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وماؤاهم النار ، وبئس مثوى الظالمين . ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسبونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تُضعفون ولا تملكون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ، فأثابكم غمّاً بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، والله خير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم آمناً نعاساً يغشى طائفةً منكم ، وطائفةً قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر شيء ، قل إن الأمر كله لله ، يخضعون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور . إن الذين

= قتلنا ، نسوا وصيته عليه الصلاة والسلام حينما أبصروا المكين ينزحزون إلى الوراء تحت ضغط المسلمين فظنوا أن الهزيمة قد حلت بهم وأنه أول بهم أن ينزلوا إلى الميدان إلى جنب إخوانهم ، وعندها فطن خالد بن الوليد - وكان لا يزال على الوثنية وعلى رأس فرسان مكة - إلى أهمية الربوة فاستدار بقوسائه وفجأ المسلمين برجاله من الخلف ، وكذلك وقع المسلمون بين نارين ، ومع ذلك فلم يهنوا ولم يضعفوا بل قاتلوا قتالاً مجيداً وأنزلوا بأعدائهم خسارة أعجزتهم كلية عن السير في الشوط إلى نهايته . وهكذا يكون هذا النصر أشبه شيء بالهزيمة إذ لم يقض منه المكيون وطرا ، ولم يشف لهم غلة ، اللهم إلا قتل نفر من المسلمين وتروهم في بدر في كثير من أقيالهم .

(المترجم)

(١) وهي التي أصدرتها المجلة الإسلامية .

تولوا منكم يوم التقي الجمعان إنما اشتراهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور رحيم » (آل عمران) .

واستمرت المناجزات سجالات غير فاصلة بضع سنين ، وأخيراً بذلت مكة آخر جهودها لكي تخمد إلى الأبد قوة المدينة النامية . فجمعت قوة مختلطة لا تقل عن عشرة آلاف مقاتل - وهي قوة هائلة بالنسبة للزمان والإقليم . وكانت بطبيعة الحال قوة غير نظامية تماماً من المشاة والفرسان والحمالة ، ولم تكن مستعدة لأى شىء عدا مناوشات الصحراء العادية . وكان كل ما لديها من سلاح هو القسي والحراب والسيوف . فلما أن وصلت آخر الأمر وقد أثارت غمامات هائلة من النقع وأصبحت بمراًى من أكواخ المدينة وبيوتها ، فبدلاً من أن تجد قوة أصغر منها ومن نفس صنفها مستعدة للنزال كما كان منتظراً ، وجدت ظاهرة جديدة أفسدت عليها خططها وحيرتها : هي خندق وسور . ذلك أن محمداً احتفى وراء خندق أنشأه حول المدينة بمشورة فارسي أسلم^(١) .

فيما ذلك الخندق لعين الخليط البدوى أشد الأشياء مخالفة لأصول النزال الشريف والروح الرياضية القويمة . فداروا حول المكان راكبين . وأخذوا يتصايحون معبرين للمحصورين عن رأيهم فى الأمر كله . وأطلقوا بضع سهام ، ثم خيموا آخر الأمر لبحث هذه الإساءة الفاحشة . غير أنهم لم يصلوا فى شأنها إلى قرار حاسم . فإن محمداً لا يريد أن يبرز إليهم ؛ وأخذت الأمطار تهطل ، وابتلت خيام الأحلاف وأصبح الطهى عسيراً ، ودب دبيب الخلاف بينهم فى الرأى وأخذ صبرهم ينفد ، ثم ذوى ذلك الحشد العرمم مرة ثانية متفرقاً شراذم وثلاثاً ، دون أن يتلاحم مع المسلمين فى معركة (٦٢٧) . فتفرقت الجماعات شمالاً وشرقاً وغرباً وجنوباً ، وأصبحت ظلالاً من القتام وزال كل خطر لها . وكان بالقرب من المدينة قلعة لليهود ، كان محمد مغضباً من قبل عليهم ، بما أبدوه من عدم احترام لعقيدته^(٢) . وكانوا أظهرها ميلاً

(١) عن وصف إعداد ذلك الخندق وكيف شارك الرسول عليه السلام فى حفره بنفسه أنظر كتاب « المغازى » للأوقدى طبع جامعة أكسفورد ص ٤٤٢ - ٤٤٥ .

(المترجم)

(٢) الواقع أنه كان بين الرسول عليه السلام وبين قريظة عهد نقضه أولئك عندما أحاطت الأحزاب بالمدينة إذ ترأسوا مع قريش وأخذوا يلقون الرعب فى المدينة وأعدوا جيوشهم للانقضاض على =

إلى الانضمام إلى من خيل إلههم أنهم أصحاب الكفة الراجحة المحتملون في هذا الصراع النهائي ، هنالك أطبق محمد عليهم ، وذبح كل الرجال وكانوا تسعمتة ، وسبي النساء والأطفال . ويحتمل أن يكون الكثيرون من أحلافهم قبل ذلك بقليل ، من بين المساومين على مشترى هؤلاء السبايا والعبيد . ولم يحدث قط بعد ذلك الإخفاق العجيب أن انبعثت مكة بتحدٍّ فعَّال لمحمد ، وأخذ كبار رجالها ينضمون إليه واحداً بعد الآخر .

ولسنا بحاجة إلى تتبع دورات الهدنة والمعاهدة التي انتهت آخر الأمر بمد سلطان النبي إلى مكة . وكانت خلاصة الاتفاق أن يتجه المؤمنون نحو مكة عندما يُصلَّون ، بدل أن يولوا وجوههم شطربيت المقدس ، كما كانوا يفعلون حتى ذلك الحين ، وأن تكون مكة مركز الحج للدين الجديد . وما دام رجال مكة قد ضمنوا استمرار تدفق الحجيج إلى بلدهم ، فالظاهر أنهم لم يكن يعنهم كثيراً ، هل يجتمع الناس باسم إله واحد أم آلهة كثيرة . وأخذ اليأس من تحويل أى عدد كبير من المسيحيين واليهود إلى الإسلام يدب إلى محمد ديباً متزايداً ، فأنشأ يكف عن التشديد على فكرته القائلة بأن كل هذه العقائد إنما تعبد في الحقيقة ربا واحداً . « فآله » قد أخذ يصبح شيئاً فشيئاً ربه الخاص به ، وخاصة وقد أصبح الآن بهذه المعاهدة مقيداً بحجر الكعبة النيزكى ، كما أخذ يبعد قليلاً عن أن يكون رباً وأباً للبشرية جمعاء (١) .

== جيوش المسلمين من الخلف . حياة محمد ص ٣٠١ طبعة أولى . سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٩ - ٢٧٤ ، وفيها ذكر العهد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبني قريظة ونقضهم لعهد الذي عاهدوا عليه وانحيازهم إلى الأحزاب وتهديمهم مؤخرة المسلمين بفتح ثغرة في تحصيناتهم للأحزاب ليشبوا منها على المسلمين وكل ذلك خيانة عظمى ، ومع أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بعث إليهم يدكرهم بالعهد ويطلب إليهم التقيد به فقد أجابوا رسله بخلع النقاب والتنكر للمسلمين وسب الرسول علناً وإصرارهم على موازنة الأحزاب أحلافهم بالحدود ضد المسلمين ، فهل يرجى من أحد بعد هذا كله أن ينسى هذه الفعلة الشنيعة وألا يعاقب عليها بمثلها ؟ .

(المترجم)

(١) إن هذا الذى نقله المؤلف هو رأى المستشرقين ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يحدث عن قصص التنزيل التى تنص جميعها على الاعتراف بالأنبياء جميعاً وأن الله رب العالمين كافة . وكيف يسوغ لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يختص نفسه بإله ربا من دون الناس ، وهو الذى يخفّض جناحه للمسيحيين واليهود على السواء . ويستثنى من وصمة الكفر ويدعوهم أهل الكتاب أى (التنزيل من عند الله) . وما ذلك إلا لأنهم يقرّون لله بالعبودية كالمسلمين سواء بسواء . وإن يكن المؤلف يقصد قوله تعالى « لقد كفر الذين =

وكان النبي أظهر بالفعل ميلا إلى أن يعقد مع مكة صفقة ، وها قد تمت الصفقة آخر الأمر . وكانت السيادة على مكة تستحق بذل هذا التساهل^(١) . ولسنا بحاجة إلى الكلام عن الغدوات والروحات وعن نزاع أخير حدث بين الطرفين . وصفوة القول أن محمداً دخل مكة في ٦٢٩ سيّداً مطاعاً وحطّم صنم مناف - وهو الرب الذي سمي ابنه يوماً ما باسمه - فهوى تحت قدميه وهو يدخل الكعبة^(٢) .

ومن ثم أخذ سلطانه يمتد ، وحدثت معارك وخدع ومذابح ؛ بيد أن الغلبة كانت له على الحملة ، حتى دانت له في النهاية بلاد العرب قاطبة ؛ حتى إذا تمت له السيادة على كل بلاد العرب في ٦٣٢ ، انتقل إلى الرفيق الأعلى وهو في الثانية والستين .

وليس في سيرته أثناء السنوات الإحدى عشرة التي ختمت بها حياته بعد الهجرة

= قالوا إن الله ثالث ثلاثة » فذلك هو ما يتفق تماماً مع وحدانية الله المجردة التي ظل يدعو إليها طوال رسالته والتي خاطب بها القرآن المسيحيين واليهود في مجتمع المدينة في قوله تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

(المترجم)

(١) نسجل على المؤلف هنا هذا الاعتراف الصريح إذ أن ذلك يبين بجلاء ما كان النبي عليه أفضل الصلاة والسلام يحرص عليه جد الحرص من حقن الدماء وغلبة العقل والحكمة فشوب مكة إلى رشدتها وتخلّى بين المسلمين وبين حقوقهم المشروعة المباحة لغيرهم من حرية الرأي والعبادة دون عنت ولا إعنات . فلما وجد عليه الصلاة والسلام أن مكة قد أصمت آذانها وأعمهاها الكبر وصدها عن السبيل القويم وتمادت في طغيانها حتى حاولت قتله فلما فاتها ذلك أهدرت دمه ، هجر موطنه وهاجر إلى المدينة ، وفيها حاول بكل ما أوتي من قوة أن يظهر لمكة أن المسلمين قوة تستطيع التنكيل بها وبمصالحها المادية عساها تفتيق من غفلتها وتتصالح مع المسلمين وتكف عن أذاهم وتتركهم وشأنهم يدعون إلى دينهم ويحاولون عبادة الله وحده على طريقتهم المشلى ، ولكنها أبت إلا الاسترسال في غيها والمبالغة في كيدها وتأليب العرب لنصرتها ولم يسع النبي صلى الله عليه وسلم مع هذا إلا أن يرد القوة بالقوة وما زال يفعل حتى تخضعت شوكة مكة وتقوضت دعائم شركها وبان ضعفها فخفف لها جناح رحمته وبسط لها يد السلم التي انقبضت عنها من قبل يدها حمية واستكباراً . ولعل القارئ إذا رجع إلى صليح الحديبية وما تم فيه واجد فيما ظهر به النبي عليه الصلاة والسلام من روح الإنسانية الكاملة ما يؤكد له إفاضة ما أوجزناه هنا .

(المترجم)

(٢) ليس بين أبناء النبي كما أسلفنا من يسمى بعبد مناف قط ولا ندرى من أين جاء المستشرقون الذين نقل عنهم المؤلف بهذه الفكرة . (راجع مقدمة أسد الغابة في أخبار الصحابة وميرة النبي وذكر أولاده وأزواجه) .

(المترجم)

غير القليل مما يفرق سلوكه العام عن سلوك أى شخص يجمع شتات الشعوب في كنف حكم ملكى موحد . والفارق الوحيد هو استعماله الدين الذى جاء به ، مادة يشد بها أجزاء مملكته بعضها إلى بعض . كان يستخدم الدبلوماسية وبدارى تارة ويقسو ويشدد أخرى ، أو يتساهل ويلين ، حسبما تقتضى المناسبة والظرف^(١) ، كأى ملك^(٢) عربى قد يوجد في مكانه ؛ وكانت ملكيته تضم بصورة فريدة قدرأ طفيفاً من الروحانية^(٣) . كذلك لم تكن حياته المنزلية إبان فترة سلطانه وقدرته على التصرف ،

(١) ما كانت الإدارة ولا القسوة من صفاته البتة صلوات الله عليه ، وإن المؤلف ليناقض نفسه في فصل تال حين يذكر قدرة الرسول عليه الصلاة والسلام على اجتذاب صداقة الأصدقاء والاحتفاظ بهم ، وهذا لعمرى أمر لا يتأتى إلا لمن كان حقاً على خلق عظيم أبعد ما يكون من الإدارة والقسوة . ولستنا نجد أبلغ في الرد على هذا القول من قول العلي الكريم في مخاطبة نبيه الأمين : « فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » ، وقوله تعالى وهو أصدق القائلين : « وإنك لعل خلق عظيم » .

(المترجم)

(٢) ليس أدل على خطأ هذه الفكرة من قصة الأعرابى الذى قال للنبي « أنت سيدنا » فأجابه عليه السلام « السيد الله تبارك وتعالى » .

(المترجم)

(٣) هذه تهمة يجب المبشرون أن يلصقوها بالإسلام مكابرة منهم وتعصبا وقد دحضها الأستاذ الإمام محمد عبده ، فليرجع القارئ إلى ما كتبه فيها رحمه الله ، ويتزود به . وأية روحانية أكبر من أخذ الناس جميعهم ، غنيهم وفقيرهم ، قويهم وضعيفهم ، أميرهم وحقيرهم بما شرعه القرآن الكريم من إقامة الصلاة والصوم وإيتاء الزكاة والجهاد في سبيل الله ونمى بذلك جهاد النفس الأمارة بالسوء بالإضافة إلى جهاد الكفار أعداء الله ، وتطهير النفس من أدران الفساد المادى وحلهم حلا على نبل الرذائل والتحل بالفضائل وبخاصة الصدق والحلم والعلم والتواضع والرخة والإخاء في الله والمساواة المطلقة والصبر وإنكار الذات ونبل المادة وما تغرى به ، إلا بما يقوم بالأود ويقضى ضرورات الحياة ، والإيمان بالله إيماناً صادقاً صادراً من أعماق قلب عامر بحبه عالم بأنه معه في السر والعلن « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » ، « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين » كما أن رسول الله عليه الصلاة والسلام ظل طوال حياته لا ينى لحظة ولا يترك فرصة إلا ويذكر الناس فيها بالله والآخرة والحساب والثواب والعقاب ويضرب لهم الأمثال بنفسه قولاً وعملًا فهو الصادق الأمين البر الرحيم الصابر المتوكل الخافض جناحه للمؤمنين ، المؤثر على نفسه ، الكاظم الغيظ ، الواثق بربه ، العامل بوحيه وأوامره . وقصارى القول إنه كان الإنسانية الكاملة حية ناطقة وقد لخصها الله تعالى في قوله « وإنك لعل خلق عظيم » . ومن ثم حصه تعالى الناس على اقتفاء أثره وترسم خطاه : « ولهم في رسول الله أسوة حسنة » . ولعمر الحق إن ذلك كله لقليل من كثير مما كان عليه الرسول صلوات الله عليه وما كان عليه أصحابه الأقار الثيرة من قوة روحية لا تغالب ، بما استحقوا به أن يحظوا بملكوت السموات الذى لا نجد له في الإنجيل والتوراة مؤهلات روحية أبلغ وأسمى وأبعد أثراً مما جاء به عليه الصلاة والسلام وأخذ به نفسه وأهله وأصحابه =

خير أنواع الحياة ولا أسعدها . وهو يبدو حتى وفاه خديجة ، يوم كان في الخمسين ، الزوج المخلص لامرأة واحدة - ولكنه عاد عند ذلك - كما يفعل الكثيرون من الرجال عندما تعلق بهم السن^(١) - فأظهر بالنساء اهتماماً قوياً .

فزوج زوجتين بعد وفاة خديجة ، كانت إحداها الصغيرة عائشة ، التي أصبحت وظلت شريكته الأثيرة صاحبة السلطان الأكبر عليه . ثم أضاف إلى أهل بيته عدداً من نساء أخريات ، ما بين زوجات وإماء . وأدى هذا إلى كثير من المتاعب والاضطراب ، وبالرغم من نزول آيات كثيرة حول هذا الموضوع ، فإن هذه التعقيدات ما تزال تستلزم من المؤمنين الكثير من التفسير والنقاش .

وقد كان هناك مثلاً قصة حول السيدة عائشة ؛ فإنها خلُفَتْ في ظرف ما على حين تابع الهودج والجمل السير بينما كانت تبحث عن عقدها بين الشجيرات ؛ ولذا صار لزاماً أن ينزل الله الآيات القوية ويدمغ المتقولين بالإفك^(٢) . ثم نزلت

= ومن دخل في دينه دون تفريق أو تمييز .

(المترجم)

(١) « ولو كانت لذات الحسن هي التي سيطرت على زواج النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة خديجة لكان الأحسب بإرضاء هذه الشبهوات أن يجمع النبي إليه تسماً من الفتيات الأبنكار اللاتي اشتهرن بفتنة الجاهل في مكة والمدينة والجزيرة العربية ، فيسرعن إليه راضيات فخورات ، وأولياء أمورهن أرضى منهم وأفخر بهذه المصاهرة التي لا تملوها مصاهرة . لكنه لم يتزوج بكرة قط غير عائشة رضي الله عنها ، ولم يكن زواجه بها مقصوداً في بداية الأمر حتى رغبته فيه خولة بنت حكيم التي عرضت عليه الزواج بعد وفاة خديجة .

أما سائر زوجاته عليه الصلاة والسلام فما من واحدة منهن - رضي الله عنهن - إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحسن المزعومة » (هبونية محمد للعقاد ، ص ٢٠٠ - ٢٠٢) .

(٢) يقول السير وليم موير تعليقاً على هذا الحادث ما ترجمته : « إن حياة عائشة قبل هذا الحادث وبعده تدعونا إلى القطع ببراءتها وعدم التردد في دحض أية شبهة أثيرت حولها » . (حياة محمد » . على أننا لا نجد رداً أبلغ ولا أقطع للشك بيقين من قوله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين . لولا

الآيات أيضاً فيما غلب علي بيت النساء هذا من تلهف على « الحياة الدنيا وزينتها » وعلى « التمتع بالرفاهية ». ثم هبت عاصفة جدل قوية لأن النبي زوج في البداية ابنة عمته زينب بنت جحش من ابنه المتبنى زيد ، « فلما قضى زيد منها وطراً » أخذها النبي وتزوجها - ولكن الأمر كما يوضحه التنزيل ، إنما كان فقط بقصد إظهار الفرق بين الابن المتبنى والابن الحقيقي . « زوجناكم كي لا يكون على المؤمنين جرح في أزواج أدعيائهم ، إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولاً » ومع ذلك فن المحقق أن آية بسيطة في القرآن^(١) كانت تُغنى عن هذه المظاهرة العملية الشديدة . وحدث بالإضافة إلى هذا تمرد في الحريم بسبب المحبة الزائدة التي أظهرها النبي لجارية مصرية ، ولدت له غلاماً^(٢) - وهو غلام كان يحنو عليه حنواً شديداً ، ذلك أن لم يعيش له واحد من أبناء خديجة . وكل هذه المتاعب المنزلية تتمزج أعظم امتزاج

= جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه ميناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون . (سورة النور) (المترجم)

(١) لم يكن الرسول كما تصور المبشرون « رجلاً يأخذ بعقله الهوى . . . فلم يعرف عنه في حياة خديجة ولم يعرف عنه قبل زواجه منها أنه كان ممن تفرهم مفاتن النساء في وقت لم يكن فيه على النساء حجاب . (حياة محمد) للدكتور هيكل .

ويقول الأستاذ العقاد ما نصه : وكانت للنبي زوجة أخرى وممت بالوضاء والفتاء وهي زينب بنت جحش ابنة عمته عليه السلام التي زوجها زيداً بن حارثة بأمره وعلى غير رضى منها ، لأنها أنفت - وهي ما هي في الحسب والقراية من رسول الله - أن يتزوجها غلام حقيق . هذه أيضاً لم يكن « للذات الحس » المزعومة سلطان في بناء النبي بها بعد تطبيق زيد لإياها وتعذر التوفيق بينهما ، ولو كان للذات الحس سلطان في هذا الزواج لكان أيسر شيء على النبي أن يتزوجها ابتداء ولا يروضاها على قبول زيد وهي تأباه . فقد كانت ابنة عمته يراها من طفولتها ولا يفاجئه من حسناتها شيء كان يحمله يوم عرض عليها زيداً وشدد عليها في قبوله . فلما تجافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من إرضائها عنه رتفها عليه وإغلاظها بالقول له كان زواج النبي بها « حلاً لمشكلة » بيتية بين ربيب في منزلة الابن وابنة عمه أملاعه في زواج لم يقرن بالتوفيق . (عبقرية محمد ص ٢٠١) للعقاد .

(٢) أنظر الرد على ذلك في حياة محمد ص ٤١٦ ، ٤١٧ . للدكتور محمد حسين هيكل .

بتصورنا لشخصية النبي . وكانت -- صافية -- إحدى زوجاته يهودية^(١) ، تزوجها ليلة المعركة التي قبض فيها على زوجها وقتل . إذ استعرض السبايا في آخر النهار ، فرأى نظره وحملت إلى خيمته .

هذه وقائع بارزة في هذه الإحدى عشرة سنة من حياة محمد .

هذا وليس عدلاً أن نتخذ الغلو لنا رائداً ، فمن الناحية الأخرى هل تراك علمت قط بأن رجلاً على غير كريم السجايا مستطيع أن يتخذ له صديقاً ؟ ذلك أن من عرفوا محمداً أكثر من غيرهم كانوا أشد الناس إيماناً به . وقد آمنت به خديجة طوال حياتها -- على أنها ربما كانت زوجة محبة . وأبو بكر شاهد أفضل ، وهو لم يتردد قط في إخلاصه . كان أبو بكر يؤمن بالنبي ، ومن العسير على أى إنسان يقرأ تاريخ تلك الأيام ألا يؤمن بأبي بكر . وكذلك على ، فإنه خاطر بحياته من أجل النبي في أحلك أيامه . لم يكن محمد دجالاً بأية حال ، وإن كان اعتداده بنفسه يدعوه في بعض الأحيان أن يتصرف كأنما كان الله رهن إشارته ؛ وكأنما أفكاره بالضرورة أفكار الله^(٢) .

(١) « وكان إعزاز من ذلوا بعد عزة سنة النبي عليه السلام في معاملة جميع الناس ولا سيما النساء اللاتي تنكسر قلوبهن في الذل بعد فقد الحياة والأقرباء ، ولهذا خير صفية الإسرائيلية سيدة بنى تريمطة بين أن يلحقها بأهلها أو أن يعتقها ويتزوج بها فاختارت الزواج منه عليه السلام » عبقرية محمد ص ٢٠٤ . فكانه عليه السلام لم يتصرف إزاءها تصرفاً يتنافى مع ما فطر عليه من خلق كريم وذوق سليم ورحمة بالضعفاء .

(٢) المفروض أن المؤلف لا يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأينا أن نترك هذا القول وغيره ليطلع عليه المسلمون ويتجهوا إلى دحضه والرد عليه بما يعرفون عن نفس الرسول صلى الله عليه وسلم من روحانية وقدسية وتواضع ورحمة إلى غير ذلك مما جمعه الله جلّ جلالته في نعتة نبيه العظيم بأنه لا ينطق عن الهوى ، ولو رجعت إلى تاريخ الرسول بأكمله لرأيت أن المؤلف قد تنكب طريق الحق والإنصاف إذ لم تكن للنبي عليه الصلاة والسلام صفة واحدة مما تفضل بها المؤلف عليه ، بل الأمر على النقيض من ذلك إذ كان النبي صلوات الله عليه الفضائل الكونية كلها في صورة حية كما أن القرآن الكريم الذي أنزل عليه قد نهى جزمياً وصراحة عن الرذائل كلها ومن بينها تلك التي عددها المؤلف ولا يمكن لعقل بشر أن يتصور خروج محمد عليه الصلاة والسلام على ذرة مما نزل به القرآن خاصة وهو القائل « أدبني ربى فأحسن تأديبى » . فضلاً عن أن أحداً من الرواة لم يرو البتة أنه عليه السلام نذ يوماً عما أدبه به ربه ، ولا أن أحداً من صحابته أخذ عليه يوماً شيئاً من هذا الذي ينتقده المؤلف ، فكان كل أعماله صلوات الله عليه كانت مما يقبله الذوق السليم في عصره .

(المترجم)

ولئن كانت رغبته في صافية يوم مقتل زوجها تدهش عقولنا العصرية ، فإن حبه لإبراهيم الصغير ابن مارية المصرية وحزنه المفرط عندما توفي الطفل ، ليحله مكانة الزمالة مع كل أولئك الذين خبروا عاطفة الحب ولوعة الحرمان . وهو حين سوى التراب فوق القبر الصغير بيديه قال « إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تقر عين الحى وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه » .

٤ - تعاليم الإسلام

على أن سمات محمد الشخصية^(١) شىء ، وصفة الإسلام — تلك الديانة التي أسس — شىء آخر . لم يناصر محمد يسوعاً أو مانى أى عداً . ولكن الإسلام هو الذى ناهض مسيحية القرن السابع الفاسدة ، وتقاليد الجوس الزرادشتية المنحلة ، وهى الأمور التي يعنى بها المؤرخ أعظم ما يعنى وسواء أكان الأمر بفضل النبى صلى الله عليه وسلم ، أم بسبب صدف وملابس معينة لنشأة الإسلام وصفات بعينها فى الصحراء التي منها نشأ ، فلا مجال هناك لإنكار أن الإسلام يمتاز بكثير من الصفات الممتازة النبيلة .

وقد حج محمد حجة الوداع من المدينة إلى مكة قبل وفاته بعام فى آخر السنة العاشرة للهجرة . وعند ذاك أتى على شعبه موعظة عظيمة ، ينقلها إلينا التواتر كما يلى . وبديهي أن هناك خلافاً حول الألفاظ . . ولكن ليس ثمة نزاع فى أن عالم الإسلام ، وهو عالم به مع ذلك ثلاثمئة مليون نفس ، يتقبلها حتى اليوم قاعدة لحياته ويعمل بها إلى حد كبير . وسيلحظ القارئ أن أول فقرة فى الخطبة تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء . وتجعل الفقرة الأخيرة منها ، الزنجى المؤمن عِدلاً للخليفة . وربما لم تكن تلك الكلمة رفيعة^(٢) رفعة بعض أقوال يسوع التاصرى ، بيد أنها أسست فى العالم تقاليد عظيمة ، للتعامل العادل الكريم ، ولأنها لتنفخ فى الناس روح الكرم والسباحة ، كما أبها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ .

(١) أسلفنا الرد على مزاعم المؤلف والمستشرقين فيما يتعلق بشخص الرسول عليه السلام وما نرى داعياً إلى تأكيد أن الرسول هو روح الإسلام وقائده وهاديه فجميع أعماله هى السنة وجميع تصرفاته هى الأسوة وجميع أقواله هى الأحاديث النبوية الشريفة ولا يمكن عقلاً الفصل بين نبى رسول وبين رسالته النبوية . (المترجم)

(٢) القارئ أن يحكم بعد أن يقرأ الخطبة ، على روعة ألفاظها وعباراتها وما اشتملت عليه من جوامع الأخلاق ونبل الأفكار ورفيع المبادئ . (المترجم)

وقد أنشأت مجتمعاً أكثر تحراً من أى مجتمع آخر سبقه ، مما غمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعى . قال : -

« أيها الناس : اسمعوا قولى ؛ فلانى لا أدرى لعلى لا ألتاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً . أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا كحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل رباً موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس [من] أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطلع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم . أيها الناس إن النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلون به عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم - ثلاثة متوالية ، ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان . أما بعد أيها الناس فإن لكم على نساءكم حقاً ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن ألا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلتم فروجهن بكلمات الله . فاعقلوا أيها الناس قولى ، فلانى قد بلغت ؛ وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا به أبداً ، أمراً بيناً : كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم . اللهم هل بلغت ؟ » .

فهذا الإلحاح على تبادل الرفق والرعاية بين الناس في الحياة اليومية إنما هو واحد من فضائل الإسلام الكبرى ، بيد أنه ليس الفضيلة الوحيدة فيه ، ويعادل هذا في الأهمية التوحيد الذى لا هوادة فيه ، والذى يتجرد من كل ما جاء به اليهود من استئثار بالله ، وهو توحيد يدعمه القرآن الكريم . وكان الإسلام منذ البداية قاطعاً مانعاً إلى حد بعيد لكل الإضافات والتفصيلات اللاهوتية التى أربكت المسيحية وفرقت كلماتها وغطت بالدخان على روح يسوع . وكان مصدر قوته الثالث تحديده الدقيق لطرائق الصلاة والعبادة ، وبيانه الصريح عن المغزى العرفى المحدود للأهمية المنوطة بمكة . وأقفل دون المؤمنين باب كل قربان ؛ ولم يترك اسم خياط مفتوحاً ينفذ منه كاهن القربان فى الغفران القديم ويعود بذلك إلى مسرح العقيدة الجديدة . لم تكن مجرد عقيدة جديدة ولا ديانة نبوية خالصة ، كما كانت عقيدة يسوع أيام يسوع . أو ديانة جوتاما فى أيام حياة جوتاما ، ولكنها وضعت بحيث تظل على حالها دون تغيير . ولا يزال للإسلام حتى يومنا هذا فقهاء معلمون ووعاظ . ولكن ليس له كهنة ولا قساوسة .

كان ديناً مليئاً بروح الرفق والسماحة والأخوة ؛ وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم ؛ كان دين فطرة تحوى ما للصحراء من عواطف الفروسية ؛ وكان يتوجه بمناشدته المباشرة إلى أشيع الفطر الغالبة على تكوين الرجال العاديين . وقد ناصبته اليهودية عداء مريئاً ، وهى التى اتخذت من الرب كنزاً عنصرياً تكتنزه بلجنسها . كما تألبت عليه المسيحية وهى التى كانت تتكلم وتبشر آنذاك وبلا نهاية بالتثاليث وقوانين الإيمان والهرطقات التى لم يكن أى رجل عادى يستطيع أن يميز فيها الرأس من الذنب ؛ كما حاربت المزدكية نحلة المحوس الزرادشتيين الذين أوحوا بصلب مانى . ولم تكن كتلة الناس الذين جاءتهم دعوة الإسلام وتحديه يهتمون إلا بشئ واحد هو أن ذلك الرب (الله) الذى كان يبشر به الرسول ، كان بشهادة الضمير المنطوية عليه قلوبهم ، رب بر وهدى وتقوى ، وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته يفتح الباب على مصراعيه — فى عالم طافح بالتقليل والخيانة والانقسامات التى لا تسامح فيها — على أخوة عظيمة متزايدة بين رجال جديرين بالثقة فى هذه الدنيا ، وعلى فردوس لا يأخذ الناس فيه أنفسهم بالسرمذى المتواصل من التسبيح والعبادة ، على حين يكون فيه القديسون والقسوس والملوك المعمدون ما يزالون يحظون

بالدرجات العلا ، وإنما تقوم فيه الزمالة المتكافئة والملاذات البسيطة اليسيرة الفهم من أمثال تلك التي تغلف عليها نفوسهم . وقد أوصل محمد (صلى الله عليه وسلم) هذه المبادئ الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية ، دون أن يلجأ إلى أية رمزية مبهمة ودون أى تعميم للهياكل ولا ترتيب للقصوس .

٥ - الخليفةان أبو بكر وعمر

إن روح الإسلام الحقة لم تتجسد في محمد ﷺ فقط ، وإنما في صديقه الحميم ونصيره أبى بكر . ولا يقوم أدنى شك في أنه إن كان محمد هو العقل المفكر والخيال الخصب للإسلام البدائي ، فقد كان أبو بكر ضميره وإرادته . ففي كل أيام حياتهما معاً كان محمد هو الذى يقول الشيء ، فيؤمن به أبو بكر أوثق الإيمان . فإذا داخل محمداً شيئاً من التردد^(١) سارع أبو بكر إلى مساندته . كان أبو بكر رجلاً عامر النفس باليقين خلوها من الشكوك ، وكانت معتقداته تقطع قطعاً حاسماً وتمخض كسكين شاحذة - عن أفعال جازمة . وما يجالحن إلا شديد التأكد في أن أبى بكر ما كان ليدارى أو يصانع خيال أرباب مكة الأصاغر ولا كان بحاجة إلى الوحي ليفسر للناس تصرفاته في حياته الخاصة^(٢) . فلما أن مرض النبي بالحمى في السنة الحادية عشرة للهجرة (٦٣٢) وانتقل إلى الرفيق الأعلى ، كان أبو بكر هو الذى أعقبه خليفة له وإماماً للناس ، وكانت ثقة أبى بكر التى لا تتزعزع في الله وبره وهده . هى التى منعت الشقاق بين مكة والمدينة ؛ وهى التى أخذت فتنة واسعة النطاق أثارها الأعراب البدو على ضريبة الزكاة المحبة للصالح العام ، وهى المسماة « حرب الردة » ؛ وهى التى دعت أن ينفذ إلى سوريا حملة غزو كان النبي الراحل أعدها . ثم أنشأ أبو بكر ، بذلك الإيمان الراسخ الذى يرحز الجبال وتلك البساطة النقية والعقل الراجح ، ينصب نفسه لتنظيم إخضاع العالم بأسره لحكم الله وإرادته - بجيوش صغيرة يتألف كل منها من ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ عربي - أخذت بتلك الرسائل التى بعث بها النبي ﷺ من المدينة في (٦٢٨) لكل ملوك العالم .

(١) سبق أن رددنا على المؤلف في مثل هذه النقاط فلا داعى للتكرار والعصمة للأئمة في أداء الرسالة مكفولة بجميع النصوص المنزلة . (المترجم)

(٢) كل هذه أمور سبق الرد عليها فليرجع إليها القارئ .
ثم إننا لا ندرى ما دخل هذا كله بالرسول عليه السلام أو بالعقيدة التى جاء بها الرسول ما دامت

وأوشكت المحاولة أن توثى ثمارها . ولوقيض للإسلام عشرون رجلاً من طينة أبي بكر ومن يصغرونه سنّاً فواصلوا عمله لنجح على التحقيق في بلوغ تلك الغاية . وما قارب الإسلام هذا النجاح وأوشك أن يبلغه إلا لأن بلاد العرب كانت آنذاك مركزاً للإيمان والعزيمة ، ولأنه لم يكن هناك في أى مكان آخر في العالم حتى حدود الصين ، اللهم إلا في سهوب روسيا أو التركستان ، مجتمع آخر من رجال أحرار الأرواح لهم أى قوة من إيمان بحكامهم وزعمائهم . ذلك أن عظيم الإمبراطورية البيزنطية هرقل قاهر كسرى الثانى (أبرويز) ، قد انحدر عن أوج مجده ونالته علة الاستسقاء ، وأنهكت الحرب الفارسية الطويلة إمبراطوريته . وكانت فارس متردية في الحضيض الأوهـد من دركات انحطاط الملكية . فإن قباز الثانى قاتل أبيه لى حتفه بعد حكم دام أشهراً قليلة ، وحدثت سلسلة من المؤامرات على العرش ومن أحداث الاغتيال المثيرة للمشاعر فلات حياة القصر نشاطاً ، ولكنها أضعفت قوة البلاد . ولم تنته الحرب بين فارس والإمبراطورية البيزنطية بصفة رسمية إلا قرابة بداية حكم أبي بكر . وكان كلا الطرفين يستخدم الجنود المرتزقة العرب أوسع استخدام ؛ وانتشرت في أرجاء سوريا عدد من المدن والمستقرات للعرب المتصرين ممن يدينون للقسطنطينية بولاء ليس له من أساس ؛ وكانت مناطق التخوم الفارسية الممتدة بين أرض الجزيرة والصحراء تحت نفوذ أمير عربى تابع للفرس ، مقر إمارته الحيرة . وكان سلطان العرب قوياً في مدن من أمثال دمشق ، حيث كان السادة من مسيحيي العرب يقرأون وينشدون أحدث ما ينتجه المتبارون من الشعراء في الصحراء من القصيد . وبهذا كانت في متناول الإسلام مقادير وفيرة من المواد اليسيرة التمل مهياة لتقبل دعوته .

والحملات العسكرية التى بدأت عند ذاك من ألمع ما خلّد تاريخ العالم . فقد أصبحت بلاد العرب على الفجاءة بستاناً مونتاً من رجال ممتازين . وبرز اسم خالد بننهم أزكى نجم وأسطعه في نخبة من القواد المسلمين المقتدرين الأتقياء . فحيثما حل قائداً لجيش كان النصر حليفه ، ولما أن دفعت الغيرة الخليفة عمر بن الخطاب إلى خلعه — ظلماً منه لا يغتفر — لم يحدث أية ضجة ، بل راح يخدم الله في سرور وإخلاص

= العقيدة لم تتأثر أولاً وأخيراً بأى شيء مما يأخذه المؤلف ويديه المستشرقون وأعداء النبى والإسلام في قديم الزمان وحاضره . إن محمدا هو رسول الإسلام وفكره وملتقى وحيه وصاحب سنته ، ولا يمكن أن تفضل القروع الأصول . (المترجم)

تحت إمرة الذين كان كبيراً عليهم^(١) . ولسنا بمستطيعين أن نتبع قصة هذه الحروب هاهنا ؛ وبحسبنا أن نقول إن الجيوش العربية وجهت ضرباتها في نفس الوقت إلى سوريا البيزنطية ومدينة الحيرة على التخوم الفارسية ، وكانوا في كل مكان يخبرون الناس بين أمور ثلاثة : فإما أن تدفع الجزية ، وإما أن تؤمن بالله الحق وتنضم إلينا ، وإما أن تقتل . فالتقوا بجيوش كثيرة ، جيوش كبيرة ومنظمة ولكنها جيوش جوفاء لا روح فيها فهزموها . ولم يحدث في أي مكان أن قوبلوا بشيء اسمه المقاومة الشعبية . فإن سكان أراضي الري والزراعة الآهلة في أرض الجزيرة بالعراق ، لم يكن ليعنيهم قلامة ظفر أيدفعون الضرائب إلى بيزنطة أو پرسپوليس^(٢) أو المدينة ؛ فإن فاضل الناس بين البلاط الفارسي وبين العرب ، كان العرب ، أعنى عرب السنين العظيمة ، أنظف الطرفين وأظهرهما بشكل ظاهر ؛ وكانوا أوسع رحمة وأكثر عدلاً . وانضم العرب المسيحيون دون تردد إلى الغزاة كذلك انضم إليهم كثير من اليهود . وكما كان الحال في الغرب كان كذلك في الشرق ، إذ كان الغزوي يتحول إلى ثورة اجتماعية . ولكنها كانت هاهنا ثورة دينية أيضاً لها حيوية ذهنية جديدة متميزة .

(١) يقول شورتز في تاريخ العالم (هلموت) إن حياة ذلك البطل الخاصة كانت تنطوي على وصمة . فإنه ارتكب الفسق وهى خطيئة خطيرة في مجتمع يبيع تعدد الزوجات . (المؤلف)
ولكن المعلوم أن هذه الحادثة التي يعدها ولزفساً قد عرضت على أبي بكر الصديق رضى الله عنه وهو من تعلم في ورعه وتقواه فلم يرها كذلك وأقر خالداً على تصرفه . وفصلاً عن هذا لم يكن ما حدث من عمر رضى الله عنه عن غيره ولا ظلم ؛ ذكر ابن الأثير أن عمر رضى الله عنه استدعى خالداً إلى المدينة بعد العزل ، فلما وصلها وفد على عمر شكاه ، وقال قد شكوتك إلى المسلمين ، فبلائك في أمرى لغير مجمل ، فقال له عمر « من أين هذا الثراء ؟ قال من الأفضال والسهمان ما زاد على ستين ألفاً فلك ، فقوم عمر ماله فزاد عشرين ألفاً فجعلها في بيت المال ، ثم قال « يا خالد ؟ والله إنك على لكريم وإنك إلى لحبيب » وكتب إلى الأمصار « إني لم أعزل خالداً عن سخطه ولا خيانة ولكن الناس فخموه وقتلوا به ، فحفت أن يتواكلوا إليه ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكون بمعرض فتنة » وعوضه عما أخذ منه .

تاريخ الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٦٤ (الطبعة الأولى بالمطبعة الأهلية المصرية سنة ١٣٠١ هـ) .
(المترجم)

(٢) مدينة فارسية قديمة تقع على بعد أربعين ميلاً إلى الشمال الشرق من مدينة شيراز الحالية ، غير بعيد من مجرى نهر البلوار واسمها عند المؤرخين العرب اصطخر .

(المترجم)

وكان خالد هو الذى قاد المعركة الحاسمة (٦٣٦) ضد جيش هرقل على ضفاف اليرموك ، وهو أحد روافد الأردن . إذ كانت الكتائب - شأنها على الدوام - خلواً من القدر الكافى من الفرسان الصالحين ؛ فكان طيف كراسوس الشيخ على سبع قرون وهو يتردد على بلاد الشرق عبثاً دون أن يتعظ بمصرعه أحد ؛ فكانت الجيوش الامبراطورية تعتمد فى أعمال الخيالة على الجنود العربية المسيحية الخليفة ، وانحاز هؤلاء إلى المسلمين عندما التقى الجيشان . وأقام الجيش البيزنطى موكباً عظيماً من القساوسة والرايات المقدسة والصور والآثار القدسية ، وساعدهم فوق ذلك الرهبان بترائيلهم . ولكن الآثار لم يكن لها أى سحر ، كما أن الاعتقاد فى الترتيل كان ضئيلاً . فأما فى الجانب العربى ، فإن الأمراء والشيوخ استحثوا الجيوش بخطبهم وانطلقت أصوات النساء فى المؤخرة بالزغاريد تشجيعاً لرجالهن حسب العادة العربية القديمة . وكانت صفوف المسلمين مليئة بالموثمين الذين كان يتلأأ أمام نواظرهم أمران : النصر أو الفردوس . ولم يعد فى نتيجة المعركة أدنى ريب بعد انحياز الراكبة غير النظامية . وانقلبت محاولة العدو للتراجع إلى تشتيت شمله تشعيتاً لم يلبث أن تحول إلى مذبحه . وكان الجيش البيزنطى يحارب وظهرة إلى النهر ، الذى أصبح للوقت مليئاً بأشلاء قتلاه .

ومن بعدها أخذ هرقل يتخلى عن سوريا شيئاً فشيئاً لأعدائه الجدد ، بعد إذ لم يمحض على استرداده لها من يد الفرس إلا زمن قصير . وسرعان ما سقطت دمشق ، وبعد ذلك بسنة دخل المسلمون أنطاكية . ثم اضطروا أن يتخلوا عنها مرة أخرى بعض الزمان نتيجة لجهد آخر بذلته القسطنطينية لاستردادها ، على أنهم ما لبثوا أن عادوا فدخلوها تحت قيادة خالد ماكثين بها إلى آخر الدهر .

وفى نفس الوقت حدث فى الجهة الشرقية ، بعد أن أصاب العرب نجاحاً ابتدائياً سريعاً استولوا به على الحيرة ، أن اشتدت مقاومة الفرس . وكان النزاع على العرش قد انتهى آخر الأمر بتولية ملك ملوك جديد ، واكتشاف قائد ذى مقدرة هورستم . فالتحم بالعرب قرب القادسية (٦٣٧) . وكان جيشه جحشاً مغلطاً كالذى اقتاده دارا إلى تراقيا أو الذى هزمه الإسكندر فى إسوس . كان خليطاً من المجندين ، وكان لديه ثلاثة وثلاثون فيلاً حربياً ، وجلس على عرش ذهبي من فوق منصة مرتفعة خلف



(شكل ١٢٩) خريطة بدايات الدولة الإسلامية

الصفوف الفارسية وهو يلاحظ المعركة ويشرف عليها ، وهذا العرش يذكر القارئ
بهيرو دوت والهلنس بونت وسلاميس قبل ذلك بما يزيد عن الألف سنة . واستمرت
المعركة ثلاثة أيام . وكان العرب في كل يوم يهجمون ، فيصمد الجيش العظيم الفارسي
في مكانه ، حتى يسدل الليل ستاره آمراً بالهدنة ، وتلقى العرب في اليوم الثالث
أمداداً ، وحاول الفرس قرابة المساء أن يصلوا بالحرب إلى نهاية حاسمة ، بأن قاموا
بهجوم بالفيلة . ولقد جرفت تلك الوحوش الهائلة في مبدأ الأمر كل شيء أمامها ،
ثم جرح أحدها جروحاً أليمة ، فجن جنونه وأخذ يندفع هنا وهناك بين الجيشين ،
وانتقل الزعر منه إلى الفيلة الأخرى ، واستمر الجيشان مصعوقين فترة من الزمان في
أصل شمس الغروب ، وهما يلاحظان الجهود الجنونية التي تبذلها هذه الوحوش

الشهباء الصارخة كى تهرب من جموع الرجال المسلحين المعذبة لها والتي أحاطت بها من كل جانب . وقد حدث بمحض الصدفة أن الفيلة خاضت في الجيش الفارسي آخر الأمر ولم تختص صفوف العرب ، وأن كان العرب هم الذين قيص لهم أن يهجموا هجمة فعالة في الصميم على أثر الفوضى التي وقعت في صفوف أعدائهم . وبعد الغسق أطبقت ظلمة الليل ، ولكن الجيوش لم تتباعد هذه المرة . وظل العرب الليل كله يكيلون الضربات لأعدائهم باسم الله ، ويضغطون على الفرس الحطيين المتقهقرين . وبزغ الفجر وقلول جيش رستم تفر مبتعدة عما يملأ ميدان القتال من الفوضى وبقايا المعركة المتناثرة . وكانت تلك القلول تمضي في طريق مملوء بالأسلحة المتناثرة والأدوات الحربية ، وكثير من دواب ومعدات الحمل والموتى والذين في النزاع . فأما المنصة والعرش الذهبي فقد تكسرا ، وكان رستم صريعاً بين كومة من الموتى .

وكان أبو بكر قد مات من قبل في ٦٣٤ ، فتولى الخلافة من بعده عمر وكان حَمًا للنبي^(١) . وقد انجزت أعظم فتوح المسلمين في عهد عمر (٦٣٤ - ٦٤٤) . فطردت الإمبراطورية البيزنطية من سوريا طرداً تاماً . على أن زحف المسلمين أوقف عند جبال طوروس . واجتاحت أرمينية وفتحت كل أرض الجزيرة ، كما فتحت فارس وراء النهرين . وانتقلت مصر انتقالاتاً يكاد يكون سلبياً من يد الروم إلى العرب^(٢) ، وبذلك استطاع المجلس السامي في بضع سنين ، باسم الله ورسوله ، أن يسترد تقريباً كل الأقاليم التي خسرها للفرس الأريين قبل ذلك بألف سنة . وسقطت بيت المقدس في وقت مبكر ، إذ عقدت معاهدة دون أن تحتل الحصار ، وبذلك حدث أن

(١) ورد في الأصل Brother-in-Law أى عديل النبي أو شقيق زوجته وهذا خطأ والصحيح هو ما أثبت هنا ، حيث تزوج النبي (ص) حفصة بنت عمر . (المترجم)

(٢) إن فتح العرب لمصر عزل الحبشة عن سائر العالم المسيحي ، ثم يظل العالم يعد ذلك ألف عام دون أن يسمع شيئاً عن هذه البلاد النائية التي بقيت على المسيحية . وفي منتصف القرن الخامس عشر ظهرت في روما فجأة بعثة حبشية تستعلم عن بعض نقاط معينة تتعلق بالمعقيدة المسيحية . وكانت تشيع في العالم المسيحي أسطورة عن بلاد مسيحية عظيمة في الشرق هي بلاد پريسترجون أى القديس يوحنا . والظاهر أنها قامت على قصص محرفة عن الحبشة ومختلطة بأقاصيص أخرى عن زعماء من المغول تنصروا على أيدي النساطرة

« الصليب الحق » الذى حمله الفرس قبل ذلك باثنتى عشرة سنة ، ثم أعاده هرقل بمشقة كبيرة انتقل مرة ثانية من دائرة حكم دولة النصارى . على أنه ظل باقياً فى أيد مسيحية ؛ ونصت المعاهدة نفسها أن ينعم النصارى بالتسامح فى مقابل دفع الجزية على الروم فقط ؛ وتركت الكنائس بأسرها والآثار والذخائر المقدسة بأجمعها فى حوزتهم .

واشترطت بيت المقدس مقابل تسليمها شرطاً عجيباً . فإن المدينة أثبت أن تسلم إلا للخليفة عمر نفسه . وكان الخليفة حتى ذلك الحين مقبياً فى المدينة ينظم الجيوش ويدبر شئون القتال عامة . فحضر إلى بيت المقدس (٦٣٨) ، على أن طريقة حضوره والحالة التى وجدها عند مجيئه تبين مبلغ السرعة التى أوهرن النجاح بها بساطة البداية الإسلامية الأولى وقوتها . جاء فى رحلة طويلة أمدها ستمئة ميل ومعه تابع واحد ليس غير ؛ وكان راكباً جملاً ، وكانت عدته فى السفر كبساً صغيراً من شعر وآخر من تمر وقرية ماء وجفنة من خشب . واستقبله قواده الكبار خارج المدينة ، وهم يرتدون أثواباً فاخرة من الحرير ويمتطون صهوات جياذ مزركشة السروج والأعينة . وتملك الغضب الشديد الرجل الشيخ لهذا المنظر الغريب . فانزلق من رحله ، وجمع يديه الثرى والأحجار ، ثم طلع هؤلاء السادة المتأقنين وهو يصيح بهم سباباً . فلماذا كانت هذه الإهانة ؟ وما معنى هذا التأنيق ؟ وأين المقاتلون الأشداء ؟ وأين رجال الصحراء الحشنون ؟ إنه ليأبى على هؤلاء « الطواويس » المتأقنين المعجبين بأنفسهم أن يسيروا فى معيته . فواصل المسير مع تابعه ، وسار الأمراء المتأقنون من خلفه عن بعد — خارج مجال قذفه إياهم بالأحجار . التى منفرداً ببطريك بيت المقدس ، وهو الذى تملك المدينة فيما يظهر من حكامها البيزنطيين . وأخذ يتعامل والبطريك على ما يرام فطافاً معاً بالأماكن المقدسة ، وأنشأ عمر ، وقد هدأت ثائرته بعض الشيء ، يوجه النكات الساخرة الماكرة إلى أتباعه ذوى الثياب الفاخرة . ومما له دلالة كذلك على نزعة ذلك الخليفة رسالة عمر إلى أحد عماله — وكان ابنتى لنفسه قصرآ بالكوفة — يأمره فيها أن يهدمه ثانية .

كتب إليه يقول : « بلغنى أنك شئت أن تحاكي إيوان كسرى^(١) ، وأنتك شئت أن تحيط نفسك بالأبواب التى كانت له ، أفترغب كذلك أن يكون لك ما كان لكسرى

من حراس وحجاب ؟ أم تريد أن تباعد بينك وبين المؤمنين وتجعل بين مجلسك وبين الفقراء حجاباً ؟ أم تريد أن تخالف سنة « النبي » ، وتصير إلى ما كان عليه ملوك الأعاجم من الأبهة والفخامة ، فتردى في نار جهنم كما تردوا ؟ » (١) .

٦ - أيام عظمة بنى أمية

كان أبو بكر وعمر بن الخطاب (٢) أعظم شخصيتين في تاريخ الإسلام . لا يتسع المجال هنا لوصف الحروب التي تم بها في خمس وعشرين ومئة من السنين أن نشر الإسلام لواءه من نهر السند إلى المحيط الأطلسي وأسبانيا ، ومن قشعر على حدود الصين إلى مصر العليا . وبحسبك خريطين لتبيان المدى الذي دفع به الباعث القوى للعقيدة الجديدة الفكرة العربية والقرآن العربي قبل أن استطاعت الزعة الدنيوية أى روح التجارة والنهب القديمة وبريق الرداء الحريرى ، أن تستعيد كامل سلطانها القاتل لذكاء العرب وإرادتهم . وسيلحظ القارئ كيف سار المد العربي العظيم في آثار خطى يوان تشوانج ، وكيف تم في سهولة بإفريقية أن فوج الوندال السهلة قد كُورت في الانجاء المضاد أعنى من الجنوب إلى الشمال ، وإذا خامرت القارئ أية أوهام مضللة في أن حضارة من الحضارات الممتازة سواء أكانت فارسية أم رومانية أم هليينية أم مصرية ، نغمرها هذا الفيضان الجديد ، فإنه كلما سارع إلى نبذ مثل هاته المفكرات من عقله كان ذلك خيراً له . فإن الإسلام ساد لأنه كان خير نظام اجتماعى وسياسى استطاعت تلك الأيام تقديمه . لقد ساد لأنه كان يجد في كل مكان شعوباً قبلد حسبها سياسياً ، تُسَلَّب وتُظلم وتُخَوَّف ولا تُعَلِّم ولا تُنْظَم ، كما وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين شعوبها بأية حال . كان أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية كان لها نشاط فعلى في العالم حتى ذلك اليوم ، وكان يهب الجماهرة الغفيرة من البشرية عامة نظاماً أفضل من أى نظام آخر سبقه . وكان النظام الرأسمالى الاسترقاقى في الإمبراطورية الرومانية ، والأدب والثقافة والتقاليد الاجتماعية في أوروبا ، قد انحلت انحلالاً تاماً وانهارت قبل أن نشأ الإسلام . ولم يحدث

(١) نقلنا عن : schurtz in Helmolt's History of the World.

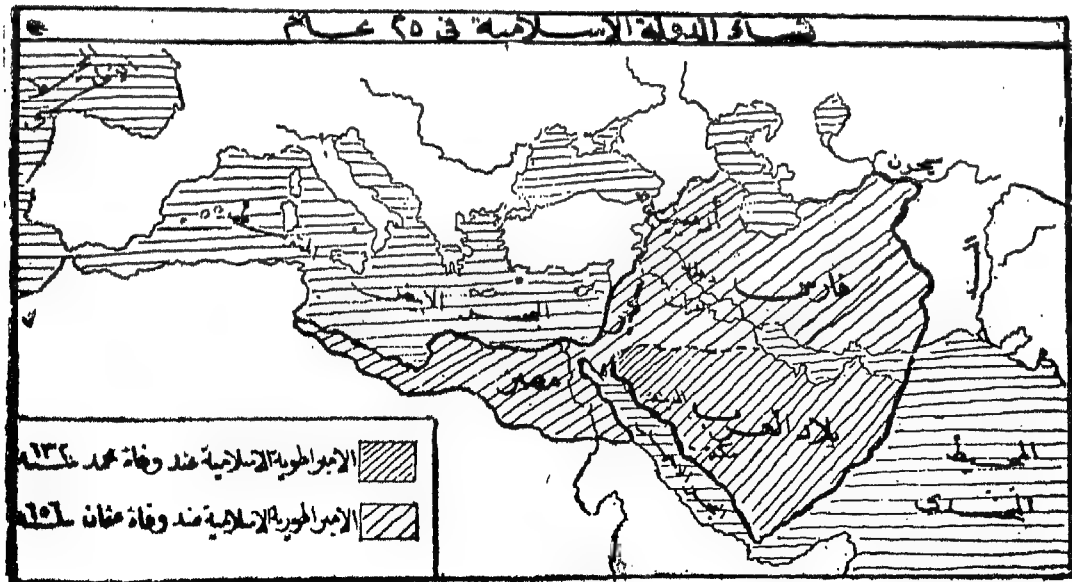
(٢) درج كتاب الغرب على تبسية هذا الخليفة باسم عمر الأول ، وتسمية عمر بن عبد العزيز

(١١٢٠)

الحفظة الأولى من تاريخ

أن دب ديب الانحلال في الإسلام أيضاً ، إلا عندما ضاعت ثقة البشرية في إخلاص ممثليه .

ولقد تبددت معظم طاقته في غزو بلاد فارس والتركستان وتمثلهما . وكانت أقوى طعناته هي الموجهة من فارس نحو الشمال والمنطلقة إلى الغرب عبر مصر . ولو أنه ركز قوته الأولى على الإمبراطورية البيزنطية ، فلا شك في أنه كان مستطيعاً انتزاع القسطنطينية حوالى القرن الثامن والوصول إلى قلب أوروبا بنفس السهولة التي وصل بها إلى هضبة الهامير . حقاً إن الخليفة معاوية حاصر تلك العاصمة سبع سنوات (٦٧٢ - ٦٧٨) ، وكذلك فعل سليمان (٧١٧ ، ٧١٨) ؛ بيد أن الضغط لم يدعم ولم يتواصل ، وظلت الإمبراطورية البيزنطية ثلاثة أو أربعة قرون بعد ذلك حصناً متداعياً يدفع الشرق عن أوروبا . ولا جدال أن الإسلام كان يستطيع على التحقيق أن يجد في المنتصرين حديثاً أو الباقيين على الوثنية من آفار وبلغاريين وصربيين وصقالبة وسكسون - رجالا مستعدين للانصواء تحت رايته استعداد أتراك آسيا الوسطى . ومع أنه بدلا من الاستمسك



(شكل ١٣٠) خريطة نشأة الدولة الإسلامية في ٢٥ عاما

بالاستيلاء على القسطنطينية ، دار إلى أوروبا أولاً بطريق إفريقية وأسبانيا الملتوى البعيد ، فإنه لم يصادف إلا في فرنسا في نهاية خط مواصلات هائل البعد عن بلاد العرب قوة كافية البأس لإيقاف تقدمه .

وقد تسلط سادة مكة البدو على الإمبراطورية الجديدة منذ البدايه . فإن أبا بكر الخليفة الأول انتخب في المدينة للخلافة بطريقة شكلية غلب فيها الصباح ، وهكذا كان شأن عمر بن الخطاب وعثمان الخليفة الثالث ، على أن ثلاثهم كانوا مكين من أسر عريقة . ولم يكونوا من رجال المدينة . ومع أن أبا بكر وعمر كانا رجلى بساطة وتقشف مطلق واستقامة ، فقد كان عثمان أدنى منهما مرتبة ، وهو رجل من طراز أصحاب الثياب الحريرية . فلم يكن الغزو لديه من أجل الله بل من أجل بلاد العرب ، وبخاصة من أجل مكة ببلاد العرب ، وبالأخص لنفسه هو وللمكين ولعشيرته الأقربين بنى أمية . كان رجلاً ذا مكانة شريفة ، نصب نفسه لخدمة وطنه وبلدته وقومه . ولم يسلم مبكراً كما فعل سلفاه الأولون^(١) . وانضم إلى النبي لأسباب سياسية في عملية أخذ وعطاء عادلة [كذا . . .] وبتوليته يكف الخليفة عن أن يكون رجلاً عجيباً له شخصية مدهشة متوقدة ، ويصبح ملكاً شرقياً ، ككثير من الملوك الشرقيين من قبل ومن بعد ، ملكاً لا بأس به إذا قيس بالمعايير الشرقية حتى ذلك الحين ، ولكنه لا يزيد على ذلك شيئاً .

وإن حكم عثمان ومقتله ليرزان بوضوح عواقب ما حدث في عهد النبي^(٢) ، بمقدار ما شهدت حياة أبي بكر وعمر بما انطوت عليه تعاليمه من جذوة قدسية . إذ كان محمد صلى الله عليه وسلم يلجأ إلى الديبلوماسية في أوقات كان أبو بكر يمنح فيها إلى الصلابة ، وكان العنصر الجديد من الجشع الأرستقراطي الذي ظهر بتولية عثمان أحد

(١) الصحيح أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال وأن عثمان أسلم قبل عمر وثلاثهم من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وكلهم من المهاجرين المخلصين لله والرسول ولم يكن لأحدهم بغية خاصة من وراء إسلامه فقد فسحى كل منهم في سبيل الإسلام بالنفس والنفيس وتحمل آلام التعذيب والتشريد والفقر والمهانة من أجل عقيدته ودينه . وعن عثمان بن عفان وفضله على الإسلام والثورة التي أدت إلى مقتله ، انظر الموسوعة العربية الميسرة . (المترجم)

(٢) أسلفنا عليك القول في تفنيد تلك المزاعم بما فيه الكفاية . (المترجم) .

ثمرات تلك التصرفات الدبلوماسية . وكانت عواقب ذلك الحريم ، حريم النبي المتجمع من غير تمحيص ، والمنازعات والغيرات العائلية التي استكثت خلف أمور المسلمين أثناء حكم الخليفين الأولين ، قد أخذت تتسلل إلى ضوء النهار . فإن علياً وهو ابن عم النبي وابنه المتبنى^(١) وزوج ابنته فاطمة ، كان يعد نفسه صاحب الحق في الخلافة دون سواه . وكانت ادعاءاته تياراً خفياً يترقرق معبراً عن امتعاض المدينة ، وعشائر مكة المنافسة لارتفاع شأن بنى أمية . ولكن عاتشة زوجة النبي الحظية ، كانت تغار على الدوام من فاطمة وتعادى علياً . فأنحازت إلى عثمان . . . وبذلك تنهار بداية قصة الإسلام البديعة فجأة في حمأة هذا النزاع والمناوشة بين الوراثة والأرامل^(٢) .

(١) لم يتبن النبي صلى الله عليه وسلم علياً وإنما هو قد ضمه إليه ؛ وهو ابن عمه أبي طالب ، في أيام اشتدت فيها الأزمة على الناس وفعل مثل ذلك العباس بمجفر بن أبي طالب تخفيفاً عن أبي طالب لكثرة عياله حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ولم يزل على نعم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعته الله نبياً فاتبعه وآمن به وصدقته . (المترجم)

(٢) إن كان هذا القول من جانب المؤلف هو بسبب تاخر على كرم الله وجهه عن بيعة أبي بكر بما عده الشيعة سنداً لأحققيته في الخلافة دون أبي بكر وعمر وعثمان ؛ فإننا نبادر إلى القول بأن شيئاً إنما تاخر عن بيعة أبي بكر لأنه يرى أحقيته في الخلافة ، وإلا لظل طوال حياته دون مبايعة ، وإنما كان ذلك منه لأنه استنكر أن يبرم الأمر من دونه ومن دون بنى هاشم فلما تبين له إجماع المسلمين دخل في الجماعة وبايع . فاما أمهات المؤمنين فما أبعد هذا القول فيهن عن الصحة ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعتقد على واحدة من زوجاته إلا لسبب هام وذلك ظاهر من كتب السيرة والتفسير ، فبعضهن كان زواجه منها بسبب التشريع كما حدث في حالة زينب بنت جحش مثلاً ، وبعضهن كان زواجه منها للتأليف وإحكام الروابط كما حدث في حالة حفصة . وبعضهن للوفاء لهن بما يكفين شر العيلة مثل أم حبيبة مثلاً الخ . فإن أردت الاستزادة فعليك بكتب السيرة ففيها تفصيل ذلك بما يشهد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتزوج دون غرض تقتضيه الرسالة السمحة أو تمحيص ، وإنما كان له من زواجه من كل واحدة من زوجاته رضى الله عنهن غرض يهدف إليه ، ويضاف إلى ذلك أن واحدة من أمهات المؤمنين لم تتدخل في شؤون الدولة إطلاقاً في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولا بعده . وما كان خروج عاتشة رضى الله عنها مع الزبير وطلحة عن كراهية لعلى كرم الله وجهه ولكن لأن الزبير وطلحة أوهماها أن علياً لم يكثرث لدم عثمان المظلوم فمخرجت مهماً . حتى إذا مرت بالحوأب واشتد ذابح كلابها سأل سائل عن اسم المكان فلما ذكر على مسمع منها وتذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيتكن تنبعها كلاب الحوأب الخ » صرخت وأبركت الحمل وهمت بالرجوع وظلت مكانها حتى تصايح الناس بإشراف على كرم الله وجهه على اللحاق بهم فسارت معهم إلى الصرة . =

وفي ٦٥٦ رجم جماعة من الرعاع عثمان - وهو شيخ في الثمانين - بالأحجار في شوارع المدينة ثم طاردوه إلى منزله وقتلوه . وأصبح على آخر الأمر خليفة لكى يقتل بدوره هو أيضاً (٦٦١) . وفي إحدى معارك هاته الحرب الأهلية مزرت عائشة نفسها وقد أصبحت سيدة عجوزاً شجاعة حادة الطبع ، بأن قادت (١) ضد على معركة وهى فى هودج على جمل . فأسرت وأحسنّت معاملتها .

وبينما كانت جيوش الإسلام تتقدم منصوره فى غزوها المظفر للعالم ، أصبحها هذا الداء ، داء الحرب الأهلية بضربة على أم رأسها . ماذا كانت قيمة « حكم الله فى العالم » لدى عائشة ، ما دامت تستطيع أن تقضى على فاطمة الممقوتة ؟ وماذا كان يعنى الأمويون وأتباع على على السواء من وحدة البشرية ، وقد قام بينهم مثل ذلك الثأر العظيم الحار الذى يتلهون به ويتسلون والذى الخلافة هدفه وغنيمته فى النهاية (٢) ؟ لقد انقسم العالم الإسلامى شطرين ، قسمته الضغائن والجشع والسخافة الحزبية لحفنة من رجال ونساء فى المدينة . ولا يزال هذا الشقاق قائماً إلى اليوم . فلما هناك حتى يومنا هذا قسماً رئيسياً من المسلمين هم الشيعة ممن يدينون بفكرة حق على الوراثة فى الخلافة « كمادة رئيسية فى عقيدتهم » ! وهم منتشرون فى فارس والهند . ولكن شطراً آخر يعادل هؤلاء فى الأهمية هم « السنيون » ، الذين لا يسع المراقب المحايد إلا أن يوافقهم على آرائهم ، ينكرون هذه الإضافة العجيبة إلى عقيدة محمد البسيطة . ونحن - على قدر ما نستطيع أن نستنتج على بعد الزمان بيننا وبينهم - نرى أن علياً كان فرداً عادياً جداً .

ومراقبة هذا الصدع يتمشى فى بداية الإسلام البديعة الرائعة ، أشبه الأشياء بملاحظة حالة مريض يتطرق إلى عقله الضعف . ولما لنحيل القارئ إلى « الأدب » (٣)

= وهذا الخروج من جانب عائشة رضى الله عنها لم يكن منها إلا حفاظاً على الدم المطلوب ومطالبة بمعاقبة المجرمى وإن كانت قد خدعت بهذا الأمر وعييت عليها الأغراض الحقيقية للذين حقروها على الخروج معهم . والواقع أن مرد الفتنة الكبرى كلها هو شيخوخة عثمان وتسلط بنى أمية فى أقامه على شئون المسلمين تسلطاً أسخط الناس (انظر الموسوعة العربية الميسرة) . (المترجم)

(١) هى لم تقدر المعركة وإنما كان هودجها فى وسطها لأن أنصار طلحة والزبير أبوا إلا الالتفاف حول الهودج بزعم الدفاع عنه (المترجم)

(٢) يبلغ من شدة إعجاب المؤلف ببداية الإسلام واندفاعته الأولى وهى معجبة فعلاً ، أن يتسخط هذا السخط البالغ على الخلافات التى نشبت بين كبار القادة . ولكن المؤلف يغلو ويقسو وينسب الأشياء إلى غير أسبابها الحقيقية كاعتقاده الخاطئ فى غيرة عائشة من فاطمة . (المترجم)

(٣) يفصّل المؤلف بالأدب الكتب والمؤلفات التى ظهرت حول ذلك الموضوع ، فالأدب هنا مستخدمة بمعناها العام الواسع . (المترجم)

الكثير المدون في هذا الموضوع إذا هو شاء أن يعلم كيف أن الحسن بن علي سمته زوجته ، وكيف قتل أخوه الحسن . ولسنا نتجاوز أن نذكر اسميهما في هذا المكان ، لأنهما لا يبرحان يمدان قسماً كبيراً من البشرية بمجال مضمع بالعواطف التشيعية والامتعاض المتبادل . وهما أعظم الشهداء مكانة لدى الشيعة . وقد أحرقت الكعبة البيت العتيق بمكة بين غدو المصادمات الناشبة بين مختلف الأطراف ورواحها ، وطبيعي أن تبتدئ لشأنها في إثر ذلك منازعات لا نهائية بين المسلمين : فهل يجب أن يعاد بناؤها في نفس هيئتها القديمة بالضبط أو على مقياس أكبر كثيراً ؟

لقد رأينا مرة أخرى في هذا القسم وسابقه ، كيف أن الكفاح الحتمي لهذا الدافع الجديد ، الذي هو أحدث الدوافع وآخرها ، والذي يدعو إلى الوحدة في الشئون العالمية ، والذي يكافح ما ركب في البشرية من نزعات دنيوية ؛ ورأينا كذلك كيف أن دار النبي بما سادها من تقلقل وتعقيد كانت منذ البداية أشبه الأشياء بتركة مثقلة بالأعباء في العقيدة الجديدة^(١) . ولكن لما كان هذا التاريخ ينحدر بعد ذلك إلى الجرائم العادية والمواثبات التي تحدث في أية أسرة مالكة شرقية ، فإن دارس التاريخ سيدرك نقطة جوهرية ثالثة في إصلاحات محمد العالمية . فإنه كان عربياً أمياً ، غير ملم بالتاريخ ، ولا بكل تجارب روما وبلاد الإغريق السياسية ، ويكاد يكون غير ملم كذلك بتاريخ بلاد اليهودية الحقيقي^(٢) ؛ فترك أتباعه من غير خطة لحكومة مستقرة تنظم إرادة المؤمنين العامة وتركزها^(٣) ، وخلفهم من غير صورة فعالة للتعبير عن الروح الديمقراطية الحقة التي هي الطابع الغالب على تعاليم الإسلام الجوهرية (مع استعمالنا للكلمة بمعناها العصري) .

(١) وما دخل دار النبي بإدارة دفة سياسة الدولة بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ؟ الحق إننا لا نجد مبرراً لهذا الإقحام الغريب . وكل ما في الأمر أن بقاء أمة انهمزوا فرصة ضعف عثمان وقرايتهم منه فوطدوا مركزهم في الدولة . وكانوا قوماً تجاراً دنيويين ، ذوي نزعة جاهلية ولم يجدوا تلقاهم سوى حل بن أبي طالب وهو رجل زاهد لم يؤث قدرتهم على الختل والحداء . (المترجم)

(٢) هذه الأمية وهدم الإمام بخبرات روما والإغريق السياسية وبتاريخ أهدس اليهودية الحقيقي هي البرهان الأول على صحة النبوة وقد أشار القرآن إلى ذلك في مواضع متعددة منها على سبيل المثال : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذا لارتاب المبتلون » (سورة العنكبوت) . « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي من نشاء من عبادنا وإنك تهيء إلى صراط مستقيم » . (سورة الشورى) . (المترجم)

(٣) لعل المؤلف يشير بهذه العبارة إلى أن النبي لم يستغلف أحداً من بعده ، وفاته أن الشورى من النقاط الأساسية في حكم الإسلام بنص القرآن . وذلك ما تم في انتخاب الخلفاء الأربعة الأول . (المترجم)

وكان حكمه حكماً فردياً مطلقاً ، ومن ثم ظل الإسلام حكومة فردية مطلقة . وبذا لا يعد الإسلام من الناحية السياسية تقدماً بل تراجعاً^(١) عن الحريات التقليدية وقوانين الصحراء العرفية . وكان نقض هذنة الحجج^(٢) الذي أدى إلى معركة بدر أبشع وصمة للإسلام الناشئ . والله هو المدبر الأعلى للإسلام نظرياً ، ولكن سيده الفعلي كان على الدوام أى رجل يبلغ من القوة ومن موت الضمير ما يجعله يسلب الخلافة ويستمسك بها . وإذا أن رجلاً كهذا يصبح عرضة لشبوب الثورات عليه والإقدام على اغتياله ، فإن قانون الإسلام النهائي كان لإرادة ذلك الرجل .

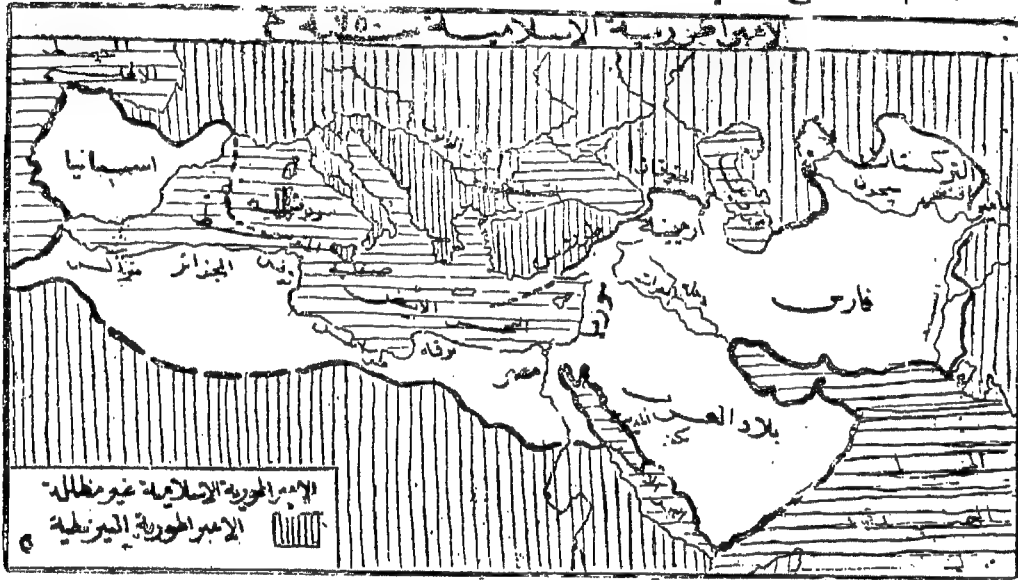
وقد ارتفع شأو أسرة بني أمية زماناً بعد موت علي وظلت قرناً من الزمان تقريباً تعطى الإسلام حكامه وولاته .

وبيلغ من انشغال مؤرخي العرب بالمنازعات على العرش وبجرائم ذلك العصر أن

(١) إن كان الانصراف عما كانت عليه الجاهلية من إباحية وتغفلت وخروج عن السمة الإنسانية ومنافاة لروح كل قانون وخلق وعدم وجود حكومة موحدة ولا نظام معمول به ، يعد في نظر المؤلف تراجعاً فانه به من تراجع . (المترجم)

(٢) يشير المؤلف هنا إلى سرية عبد الله بن جحش ويتخذ عنها مفسراً على الإسلام ؛ وتنتهي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرسل عبد الله بن جحش وأصحابه لغزو أو شيء من أعمال القتال . وإنما أرسله للاستطلاع فقط ؛ وذلك ظاهر تماماً من كتابه (ص) لعبد الله ، كما أن المؤلف أغفل غضب النبي من القوم عند هودتهم بقوله ؛ « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » ووقف العير والأميرين وبأن يأخذ من ذلك شيئاً ، وكذلك سقط في أيدي القوم وظنوا أنهم هلكوا واختلعتهم المسلمين لهم حتى أنزل الله تبارك وتعالى « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر من القتال » (سورة البقرة) وفي هذا أبلغ رد على المؤلف الذي يتخذ من هذه السرية وسيلة لأخذ المآخذ على الإسلام في بدايته متناسياً صد الكفار المسلمين عن سبيل الله ، وعن المسجد الحرام ، وإخراج المسلمين منه وهم أهله ، وفتنتهم للمسلمين مع أن كل واحدة من هذه أشد من القتل وأنكى من القتال وتستدعيهما . هذا ، وزيادة في الإيضاح نقول إن سرية عبد الله بن جحش لا علاقة لها بغزوه بدر الكبرى لأن المسلمين هم الذين خرجوا لاعتراض عير قريش القادمة من الشام فخرج جيش قريش لحماية عيرهم . ولكن العير حين أفلتت من المسلمين عز على كفار قريش وأقبلها ان يرجعوا فاستعمل بعضهم دم الحضرمي (الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش) وسيلة للتحريض على من قال منهم بالعودة دون قتال ، وبذلك كانت قريش البادئة فجعله الله فكالا عليها ونصر المسلمين نصراً مبيتاً . (المترجم)

أصبح من العسير علينا أن نتتبع التاريخ الخارجى لتلك الفترة . ومهما يكن الحال فلما نجد سفنا إسلامية تمخر البحار وتهزم الأسطول البيزنطى فى قتال بحرى عظيم بإزاء ساحل ليكيا (Lycia) (وهى إقليم جبلى ج . غ . آسيا الصغرى) (٦٥٥ م) ، ولكن كيف احتاز المسلمون هذا الأسطول المظفر فى هذا الوقت المبكر من تاريخهم ؟ ذلك أمر لسنا نعرفه بوضوح . والراجح أنه كان فى معظمه مصريا . ولا شك أن الإسلام ظل بضع سنين متحكما فى شرق البحر المتوسط ، وفى ٦٦٩ ثم فى ٦٧٤



(شكل ١٣١) خريطة الإمبراطورية الإسلامية عام ٧٥٠ م

قام معاوية (٦٦١ - ٦٨٠) أول خليفة أموى عظيم بهجومين بحريين على القسطنطينية . وكان لزاما أن يكون الهجومان بحريين لأن الإسلام طالما كان تحت الحكم العربى ، لم يتغلب قط على حاجز جبال طوروس^(١) . وفى نفس المدة ظل المسلمون يدفعون كذلك بغزواتهم أبعد فأبعد فى صميم آسيا الوسطى . وعلى حين كان الإسلام آخذاً فى الاضمحلال فعلا فى منطقته المركزية ، كان لا يفتأ مع ذلك يضم إليه حشوداً عظيمة من الأتباع الجدد ويوقظ روحاً جديدة بين الشعوب التركية التى كانت حتى ذلك الزمان منقسمة على نفسها هائمة لا وجهة لها فى الحياة . ولم تعد المدينة بعد

(١) وفى عهد معاوية أيضاً استولى العرب على معظم جزر شرق البحر المتوسط مثل رودس وإقريطش وإروداد وقبرص بقيادة مقدم الجند جنادة بن أمية وعبد الله بن أبى السرح وغيره من أمراء البحر المظفرين . (المترجم)

مركزاً صالحاً لمغامرات الإسلام الهائلة في آسيا وإفريقية والبحر المتوسط ، وبهذا أصبحت دمشق العاصمة الطبيعية للخلفاء الأمويين .

ومن أعظم هؤلاء - يوم تبددت إلى حين سحب المؤامرات على العرش - عبد الملك (٦٨٥ - ٧٠٥) والوليد الأول (٧٠٥ - ٧١٤) اللذان ارتفع شأوا الأسرة الأموية في عهديهما إلى ذروة المجد والعظمة . فانتقل الحد الغربي إلى جبال البرانس ، على حين كانت ممتلكات الخليفة في الشرق تتأخم حدود الصين . وأنفذ الخليفة سليمان بن الوليد^(١) (٧١٥) سلسلة ثانية من هجمات المسلمين على القسطنطينية ، كان أبوه^(٢) قد وضع خططها وأعد العدة لها . وكان الهجوم بجرأ شأن ما حدث أيام الخليفة معاوية قبل ذلك بنصف قرن من الزمان - وذلك لأن آسيا الصغرى كما أشرنا من تونا لم تكن غريت بعد . وقد أخذت السفن بصفة رئيسية من مصر . وأبدى الإمبراطور ليو الإيسوري^(٣) - وهو مغتصب للعرش - في الدفاع مهارة وعناداً خارقين للمعتاد فخرج من داخل أسوار المدينة خروجاً مباغتاً رائعا تمكن به من إحراق معظم سفن المسلمين ، وقطع خط الرجعة على الجيوش التي كانوا أنزلوها على الناحية الآسيوية من البسفور ، وبعد حملة دامت سنتين في أوروبا (٧١٦ - ٧١٧) دُحر المسلمون . ثم جاء شتاء لا نظير له في القساوة فأكمل هزيمتهم .

ومن هذه الآونة فصاعداً يبدأ مجد السلالة الأموية في الأفول . لقد تسدد عند ذاك الدافع الأول الهائل للإسلام . فلم يحدث بعد ذلك أى توسع فضلاً عن ظهور أضمحلال يبين في الحماسة الدينية . وكان الإسلام قد ضم إليه الملايين ، ولكن هضمه هؤلاء

(١) سليمان هو ابن عبد الملك وهو أخو الوليد وليس ابنه . (المترجم)

(٢) ظاهر أن المقصود بابيه هنا الوليد بن عبد الملك وهو أخوه كما نوهنا قبل . (المترجم)

(٣) انظر كتاب « الحضارة البيزنطية » تأليف رانسيمان (ص ٣٩ - ٤٥) وقد حربه المترجم لإدارة الترجمة والألف كتاب [مكتبة النهضة المصرية] .

والإمبراطور لاوون (ليو الإيسوري) (٦٨٠ - ٧٤٠) جتدى اغتصب العرش في ٧١٧ ، ونجح في الدفاع عن القسطنطينية على العرب . (المترجم)

الملايين كان هضماً ناقصاً وسيئاً . فإن إمبراطورية خلفاء محمد الهائلة الجديدة هذه ابتعلت المدن والشعوب والطوائف والأجناس بأكملها والوثنيين العرب واليهود والمسيحيين والمناوية والزرادشتيين والوثنيين الطورانيين . وحتى ذلك الحين ، كان من الخصائص المشتركة بين جميع عظماء أصحاب الرسالات الدينية ، الداعين إلى توحيد العالم ، الوقوع في خطأ شائع ، هو قبولهم المثل العليا الأخلاقية والدينية التي مال الناس إليها قبل زمانهم كما لو كانت مثلاً علياً عمومية . فكانت دعوة محمد مثلاً متجهة إلى الفروسية التقليدية ، وإلى ما وقر في نفوس أذكى العرب في زمانه من إحساسات بالوحدة الربانية . وكانت هذه الأمور كامنة في طوية مكة والمدينة وضميرهما . فكان كل ما فعله أن أخرجهما من مستقرها (١)

فلما انتشرت التعاليم الجديدة وتكيفت في قلبها الخاص ، اضطرت أن تعمل على أسس ظلت على الدوام أبعد ما تكون عن المجانسة لطبيعتها ، والتزمت أن تنمو في تربة أخرجتها عن صورتها السوية وحولتها عن طريقها القويم . وكان مرجعها الوحيد هو القرآن . وهذا الكتاب كان يبدو للعقول التي لم تتذوق نغمات اللغة العربية ، أعنى كما يبدو لكثير من العقول الأوروبية اليوم حليطاً من البلاغة الرائعة المعنى الممتازة الروح التي يمازجها - ولنقلها صراحة - قعقة غامضة لا كيف لها (٢) . وقد عاب مغزاه الحق

(١) لو صح هذا الزعم لكان لزاماً أن تسير دعوة محمد صلى الله عليه وسلم في يسر وسهولة ، مع أن الواقع أنها لقيت في مكة مهدداً ، معارضة قوية وعداوة مرة أليمة وأذى شديداً من المكيين المسلمين ومهم النبي صلى الله عليه وسلم ، ولبت المسلمون يتجرعون كؤوس العذاب ألواناً ولم يسلم من ذلك أحد منهم ، كما تعاقد المكيون على مقاطعة الهاشبيين وحرمانهم اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً من كل ما هو مقرر لغيرهم ، لقاء نصرتهم مد عليه الصلاة والسلام وعدم تسليمه لهم ليقتلوه ويستريحوا مما كاله لأصنامهم من السب ولتسفيه أحلامهم ونيله من حقوقهم ومداركهم ، بل إنهم عقدوا الخصاص بعد أن أعجبهم فيه الحيلة ، على قتله وتفريق دمه في القبائل إصناً لبني هاشم وإعجازاً لهم عن إشهار السيف للشار . وهندئذ هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب وتفتحت بذلك الآفاق للدعوة الحرة وجعل الدين ينتشر بالطرق الطبيعية التي كان أهمها وأنجحها الإقناع بالحجة الدامغة والمنطق السليم المعجز . (المترجم)

(٢) هذا رأى لا نستغربه على رجل انعدم إلمامه باللغة العربية أصلاً ، ناهيك بتذوق أدبها وبلاغتها تلك المؤهلات التي احتازها الوليد بن المنيرة أحد أقيال مكة زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، والتي نؤمله =

عن عدد لا يحصى من المسلمين الجدد غياباً تاماً . ذلك عندنا هو مرد ما أظهرته العناصر الفارسية والهندية من المسلمين من استعداد للانضمام إلى صفوف الشيعة بسبب نقطة خلاف كانوا عن الأقل يستطيعون إدراكها والإحساس بها . وإلى نفس المحاولة للتوفيق بين ذلك الشيء الجديد وبين التراث القديم . يرجع ذلك الغلو الفقهي الذي سرعان ما نهض يتساءل : أكان القرآن - ولم يبرح منذ الأزل - قديماً قديماً لله (١) ؟ وإنما لتأخذنا الدهشة حيال خروج هذه الفكرة عن كل معقول إذا نحن لم نتبين فيها على الفور محاولة حسنة القصد لمسيحي من رجال العلم أسلم ، وأراد أن يُسبغ صبغة إسلامية على اعتقاده القديم بأنه : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة عند الله وكان الكلمة الله (٢) » .

ولم يحدث قبل ذلك أن واحداً من عظماء أصحاب الرسائل الدينية الداعين إلى وحدة العالم قد أظهر يوماً أدنى فهم للواجب التعليمي العظيم ، واجب الشرح الواضح المنوع فضلاً عن التنظيم الفكري الذي تنطوي عليه مقدماتها وقضاياها الأولية : بل تراهم جميعاً يكررون نفس القصة ، قصة الانتشار السريع الذي نشبهه بقليل من الماء صب فوق مسطح عظيم ، مصحوبة بكل ما يعقب ذلك من سطحية وفساد :

ولا ينقضي طويل زمن حتى نسمع الأفاضل عن خليفة أموي هو الوليد الثاني (٧٤٣ - ٧٤٤) ، الذي هزأ بالقرآن وأكل الخنزير وشرب الخمر ولم يُتم الصلاة . وربما كانت هذه القصص صحيحة أو ربما كانت تشاع لأسباب سياسية . ومهما تكن الحال فقد نشأت في مكة والمدينة حركة تطهيرية رجعية تقاوم استخفاف دمشق وترفعها . وثمة عائلة عربية أخرى عظيمة هي عائلة العباس (العباسيين) ظلت تدبر الخطط زمناً طويلاً للاستيلاء على صولجان الحكم ، فأنشأت تستغل التذمر العام . والنزاع بين بني أمية

= أن يتذوق ما في القرآن من فصاحة وبلاغة ومعاني فذة . إذ يصف ما سمع من محمد عليه الصلاة والسلام من القرآن « والله إن لقوله الذي يقول خلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لشر أعلاه ، ومفدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته » البداية والنهاية ج ٣ ص ٦١ . (المترجم)

(١) سير مارك سايكس .

(٢) إنجيل يوحنا ، الأصحاح الأول : آية ١ .

وبنى العباس أقدم من الإسلام . وكان متصل الحلقات قبل ميلاد محمد . وحمل هؤلاء العباسيون لواء « شهداء » الشيعة : عليّ وابنيه الحسن والحسين ، وأقاموا الدليل على أنهم والشيعة سواء (١) . وكان علم بني أمية أبيض ؛ فاتخذ العباسيون علما أسود حداً على الحسن والحسين ، وأسود لأن السواد أشد تأثيراً في النفوس من أى لون آخر . وفضلاً عن ذلك أعلن العباسيون أن كل خليفة بعد عليّ مغتصب . وفي ٧٤٩ قاموا بثورة محكمة التدبير ، وطاردوا آخر خليفة أموى وقتلوه بمصر . وكان أبو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين ، فبدأ حكمه بأن جمع في سجن واحد كل ذكر حى من سلالة أمية استطاع أن يضع يده عليه ، وأمر بهم جميعاً فذبخوا . وقد جمعت أجسامهم فيما يقال ، ومد من فوقها بساط من آدم (جلد) وعلى هذه المنضدة الفظيعة الكئيبة ، جلس أبو العباس ومستشاروه يطعمون (٢) . زد على ذلك أن قبور خلفاء بني أمية نبشت وأحرقت عظامهم وذريت بين مهب الرياح الأربعة . وهكذا انتقموا آخر الأمر لما حل بعلى من مظالم ، وزالت أسرة أمية من التاريخ .

ومن الأمور المشائقة الجديرة بالملاحظة ، أن ثورة مناصرة للأمويين قامت بخراسان وكان لإمبراطور الصين يشد أزرها .

٧ — انحلال قوة الإسلام في ظل العباسيين

على أن ذرية على لم يقدّر لها أن تسهم في هذا النصر طويلاً . فإن العباسيين كانوا مغامرين وحكاماً من طراز أقدم من الإسلام . فلما قضوا من قصة علىّ وطهرهم المنشود ، كان ثانی لإجراء قام به الخليفة الجديد أن يتصيد الأحياء من عترة على وفاطمة ويذبحهم .

(١) ليست الشيعة عليا وابنيه الحسن والحسين ، وإنما هي حركة ينتصر أهلها لعلى وابنيه وأبنائهم على أنهم أصحاب الحق الأول في الخلافة أى أنهم كانوا يناصرون مبدأ الوراثة وهذا هو المبدأ الذى أكد العباسيون أنه يبرئهم من حق الأمويين لأنهم أبناءهم النبى . وهنا بالذات يضع المؤلف يده دون أن يدرك على أساس الصدق الذى ظهر في الإسلام بسبب شيخوخته الخليفة عثمان ، وهو الشقاق القديم في الجاهلية بين الهاشميين والأمويين . (المترجم)

(٢) ليس هذا عمل أبى العباس وإنما هو عمل عمه عبد الله وقائد جيشه وواليه على الشام . (المترجم)

وواضح أن التقاليد القديمة في فارس الساسانية وفي فارس قبل الإغريق كانت في طريق عودتها إلى العالم . وبارتقاء العباسيين عرش الخلافة أفلتت السيادة البحرية من قبضة الخليفة وذهبت معها شمال إفريقيا وأشبانيا التي نشأت فيها دول إسلامية مستقلة ، وكانت أשבانيا من نصيب رجل من بنى أمية أفلت من الموت .

وانتقل محور الأهمية في الإسلام عبر الصحراء من دمشق إلى أرض الجزيرة . وشيد المنصور الذي تولى الخلافة بعد أبي العباس عاصمة جديدة لنفسه في بغداد بالقرب من خرائب المدائن (طيشقون) (Ctesiphon) العاصمة الساسانية القديمة . وأصبح الأتراك والفرس أمراء مع العرب سواء بسواء ، وأعيد تنظيم الجيش على النظم الساسانية . ولم يعد للمدينة ومكة آنئذ من أهمية قط إلا كمركرزين للحج بولي المؤمنون وجوهم شطرهما في الصلاة^(١) . على أن العربية استمرت في انتشارها وحلت محل اللغة الرومية وأصبحت لغة المتعلمين في كل أرجاء العالم الإسلامي لأنها كانت لغة ممتازة ولأنها كانت لغة القرآن .

ولن ندلى إليك إلا النزر اليسير عن ملوك العباسيين بعد أبي العباس . وكانت تنشب سنة بعد سنة في آسيا الصغرى حرب مناوشات سريعة رجراجة ، لم تفر فيها بيزنطة ولا بغداد بأي كسب دائم ، وإن وصل المسلمون في غزوهم مرة أو مرتين إلى البسفور . وظهر نبي كذاب هو المقنع ، ادعى الألوهية واستمر مدة قصيرة الأمد ، ولكنه أتعب الدولة وشغلها . ودبرت مؤامرات وشبت ثورات ترقد اليوم في أسفار التاريخ هزيلة باهتة كما ترقد الزهرات الميتة بين دفتي سفر قديم . وثمة خليفة عباسي آخر لا مندوحة لنا من ذكر اسمه ، وذلك لما يدور حوله من الأساطير وماله من أهمية حقيقية سواء بسواء ، ذلك هو هرون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) . لم يكن فحسب خليفة لإمبراطورية ظاهرها الرخاء في عالم الحقيقة ، بل كان كذلك خليفة لإمبراطورية

(١) حج المسلمين هو للبيت الحرام ، وللحج مناسك مثل عرفة والصفا والمروة وغيرها وكلها بجوار مكة ، كما أن قبلة المسلمين للصلاة هي المسجد الحرام بمكة ؛ والمدينة حرمها الخاصة في نظر المسلمين ؛ فهي في نظرهم فقط مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشواه الأخير بعد الوفاة ، ومن ثم كانت زيارتهم لها قبل الحج أو بعده واجبة للتزود عن قرب بزيارة قبر صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام . (المترجم)

خالدة لا تغرب لها شمس في عالم القصة السرمدي ، فهو هرون الرشيد في « ألف ليلة وليلة » .

ويدبح السير مارك سايكس في وصف إمبراطوريتيه الواقعية بيانا نقتبس منه فقرات معينة^(١) ، كتب يقول : « كان البلاط الإمبراطوري مهذباً مترفاً غنياً غنى لا حد له ؛ وكانت العاصمة بغداد ، مدينة تجارية هائلة تحيط بقلعة ضخمة هي مقر الحكم والادارة ، كان فيها لكل مصلحة من مصالح الدولة ديوان عام منظم على قواعد صحيحة ومرتب ترتيباً تاماً ؛ وفيها كثرت المدارس والكلليات ؛ ولها نقاط الفلاسفة والطلاب والعلماء والشعراء والفقهاء من كل أنحاء العالم المتمدن . وكانت العواصم الإقليمية مزدانة بالمباني العمومية الضخمة ؛ وتتصل فيما بينها بخدمة سريعة فعالة من بريد وقوافل ؛ وكانت التخوم منيعة وفيها الحاميات الكافية ، وكان الجيش مخلصاً للمخيفة وفيها ذا اقتدار وشجاعة ؛ وكان الحكام والوزراء شرفاء رحماء . وكانت الإمبراطورية تمتد بقوة متعادلة وهيمنة سليمة من بوابة قيليقية^(٢) إلى عدن ، ومن مصر إلى آسيا الوسطى . وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة . وكانما اختفى المقتصبون للعروش والقواد المتمردون والأنبياء الكذبة من الديار الإسلامية اختفاء تاماً . وحلت حركة التبادل والثراء محل الثورة والمجاعة . . . وكانت الأوبئة والأمراض تواجه بالمستشفيات الإمبراطورية وأطباء الحكومة . . فأما في أعمال الحكومة ، فإن طرائق الادارة العربية الفعيجة الارتجالية أدخلت مكانها لنظام معقد من الدواوين نقل عن الروم منه جزء ، ولكنه أخذ في الغالب من النظام الحكومي الفارسي . فكان البريد والمال وديوان الخاتم وأراضي التاج ومرافق العدالة والشئون العسكرية تدار كل منها من دواوين منفصلة على أيدي وزراء وموظفين ، وكان جيش من الكتبة والناسخين والمنشئين والمحاسبين المحتشدين في هذه الادارات يجمعون كل قوة للحكومة في أيديهم هم رويداً رويداً ، وذلك بإبعادهم أمير المؤمنين عن أى اتصال مباشر برعاياه . كان القصر الإمبراطوري ومن به من حاشية ، مؤسسين بالمثل

(١) كتاب آخر تراث الخلفاء The Caliph's Last Heritage

(٢) بوابة من قيليقية (جوليك بوغاز) مر ضيق يتحرق سلسلة جبال طودوس بآسيا الصغرى ، والطريق الرئيسي منه يمتد من الغرب ، في منحدر طويل وعر يبدأ من الحضبة الوسطى ، إلى وادي أطنه (أدنه) وطرسوس . واتساع الطريق عند البوابة نفسها ٢٥ قدماً . (المترجم)

على سوابق وتقاليد رومية وفارسية . وكان الخصيان ودور الحریم المنزلة والمفروض عليها الحجاب الشديد والحراس والجواسيس والوسطاء والمضحكون والشعراء والأقزام يتزاحمون حول شخص أمير المؤمنين ، كل في مكانته يحاول أن يحظى بالعطف الملكي ويشغل العقل الملكي بطريقة غير مباشرة عن شئون العمل والدولة . وفي نفس الوقت كانت تجارة الشرق تصب الذهب في بغداد صبا ، وتضيف إلى سيل النقود الهائل المأخوذ من فيئ الأسلاب والغنائم المرسل إلى العاصمة من لدن قواد القوات المغيرة المظفرة ، التي كانت تسلب آسيا الصغرى والهند والتركستان . وثمة معين آخر للثراء كان يبدو كالفيض الذي لا نهاية له ، وهو المالك والأتراك والنقود المعدنية البيزنطية ، وكان يزيد دخل العراق ثراء ، كما كان - بالإضافة إلى حركة التبادل التجاري الضخمة التي كانت بغداد مركزاً لها ، يخلق طبقة كبيرة قوية من ذوى اليسار : تتألف من أبناء القواد والموظفين وأرباب الأملاك وأحظياء الملك والتجار ومن إليهم ، ممن شجعوا الفنون والأدب والفلسفة والشعر بالقدر الذي تحملهم عليه أمزجتهم ، بانين القصور لأنفسهم ، متنافسين فيما بينهم في بذخ ترفهم ، محرضين الشعراء على مديحهم والإشادة بذكورهم مبتلهين بالفلسفة ، معضدين مدارس للفكر متنوعة ، باذلين الصدقات وسالكين في الحقيقة نفس الطريق الذي يسلكه الأثرياء في كل العصور .

« ولقد قلت إن الإمبراطورية العباسية في أيام هرون الرشيد كانت ضعيفة واهنة إلى درجة ما ولعل القارئ يعد هذا فكرة حمقاء عندما يضع في اعتباره أنى وصفت الإمبراطورية بالنظام ، والإدارة بالدقة والاستقرار ، والجيش بالاقتدار ، والثروة بالوفرة . ويرجع ذهابي لهذا الرأي إلى أن الإمبراطورية العباسية قطعت صلتها بكل شيء أصيل وحبوى في الاسلام ، وأنها أقيمت بكليتها على تجميع أشلاء الامبراطوريات التي حطمها الاسلام من قبل . ولم يكن في الامبراطورية شيء يستثير في قادة الشعب أسمى الغرائز ، إذ أن الجهاد أو الحرب المقدسة قد انحط وتحول إلى استيلاء منظم على الغنائم . وبات الخليفة إمبراطوراً أو ملكاً للملوك مترفاً فاخراً . على حين انتقلت الإدارة من النظام « الأبوى » إلى نظام مركزى بيروقراطى . وأخذت الطبقات الكبيرة الغنى تفقد كل إيمان بديانة الدولة . بينما أخذ التأمل والنظر الفلسفى والمعيشة الراقية يحلان محل العقيدة القرآنية السلفية والبساطة العربية . وقد أهمل كل من الخليفة

ومستشاريه إهمالا تاما صرامة الاسلام وبساطته ، وهما الرابطة الوحيدة التي كان في وسعها أن تربط بين أجزاء الامبراطورية . . وكان هرون الرشيد نفسه من معاقري النبيذ^(١) وكان قصره مزيّنا بصور وتماثيل للطير^(٢) والحيوان والانسان .

وإننا لتتوقف هنية ذاهلين أمام عظمة الممتلكات العباسية ؛ ثم لا نلبث أن ندرك فجأة أنها لا تزيد عن غلالة برّاقة تستر رفات المدينيات الغابرة ورمادها .

مات هرون الرشيد سنة ٨٠٩ . وما أن مات حتى هوت لإمبراطوريته العظيمة في حمأة الحرب الأهلية والاضطرابات . والحادثة الكبرى التالية ذات الأهمية البارزة في هذا الجزء من العالم ، تأتي بعد ذلك بمئتي سنة عندما انثال الترك من التركستان جنوبا بقيادة رؤساء آل سلجوق العظام ، ولم يقهروا فحسب إمبراطورية بغداد ، بل آسيا الصغرى كذلك . ونظراً لانحسارهم من الشمال الشرقي ، فإنهم استطاعوا أن يتجنبوا الحاجز العظيم وهو جبال طوروس ، التي ظلت حتى ذاك الحين تصد المسلمين . وكانوا ما يزالون الكثير من شأنهم نفس أولئك الذين أعطانا عنهم يوان تشوانج لحظة سريعة قبل ذلك بأربعمئة سنة ، ولكنهم كانوا الآن قد أسلموا ، وكانوا مسلمين من الطراز البدائي ، أى رجالات من كان أبو بكر يرحب باعتناقهم الاسلام . فأحدثوا في قوة الاسلام انتعاشاً عظيماً ، وأداروا أذهان العالم الاسلامي من جديد صوب الجهاد (الحرب الدينية) ضد المسيحية . ذلك أنه حدث ضرب من الهدنة بين هاتين الديانتين العظيمتين بعد انقطاع التقدم الاسلامي واضمحلال شأن الأمويين . أما تلك الحروب التي دامت بين المسيحية والاسلام فكانت بالأخرى مناوشات في منطقة التخوم أكثر منها حرباً متصلة الحلقات . ولم تصبح كفاحاً مريراً تعصبياً من جديد إلا في القرن الحادى عشر .

(١) ذكروا أن هرون الرشيد كان يحضر مجالس الشراب وأنه كان يشرب ولكنهم اختلفوا في نوع شرابه من حيث الاختيار والتأثير على العقل فجعلوه النبيذ غير المحرم عند أبي حنيفة والظاهر أن هرون الرشيد كان مموّداً وكان الشراب ضرورياً له لتيسير الهضم وبهذا لا يكون معاقراً للنبيذ المحرم .

(٢) انظر « حضارة الإسلام » لجرونيباوم وترجمة المترجم ، (الألف كتاب ومكتبة مصر بالفضالة ص ٤٤ - ٤٥) في اقتباس عن البغدادى في وصف الشجرة الذهبية وطيورها المعدنية المفردة وأروقة قصر الخلافة وفخامته . (المترجم) .

٨ - الثقافة العربية

على أننا قبل أن ننتقل فنحدثك عن الأنراك والصليبيين ، وعن الحروب العظيمة التي ابتدأت بين المسيحية والاسلام ، والتي خلفت من ورائها حالة جنونية شديدة من عدم التسامح بين هذين النظامين العظيمين دامت حتى العصر الحاضر ، نرى من الضروري أن نوجه مزيداً من عنايتنا للحياة الفكرية في العالم الناطق بالعربية الذي كان آخذاً عند ذاك في الانتشار انتشاراً يزداد سعة أكثر فأكثر فوق الأقاليم التي تسلطت عليها الثقافة الهلنسية يوماً ما . فقد كان الذهن العربي ، قبل محمد ﷺ ببضعة أجيال متقدماً بنار تسرى تحت الرماد ، فكان ينتج الشعر والشئ الكثير من الجدل الديني . وما لبث ذلك العقل - بتأثير ما أحرز من النجاح القومي والعنصري - حتى تأجج في تألق لا يفوقه إلا ما كان للاغريق في أزهى عصورهم . فأحيا من جديد بحث الانسان وراء العلم . فلئن كان الاغريق أباً للطريقة العلمية ، فلقد كان العربي أباً روحياً لها وشريكاً له في أبوتها . فن العربي ، وليس عن طريق اللاتين ، تلقى العالم العصري تلك المنحة من النور والقوة .

على أننا عندما نكتب كلمة العرب هاهنا ، يجب أن نكتبها في قدر معين من التحفظ . فإن ثقافة الإسلام العربية تتصل بالعربي القح بصلة تشابه إلى حد ما صلة الثقافة الهلنسية^(١) بعد أيام الإسكندر بالإغريق الأوربي الأصلي . إذ لم تعد تلك الثقافة نقية من الناحية العنصرية . بل ضمت بين دفتيها مجموعة من الثقافات السابقة عليها ، هي ثقافة فارس في عهد الأسرة الأرشكية^(٢) والثقافة القبطية لمصر المهلنة . إذ لم تلبث فارس ومصر أن تعلمتا الحديث بالعربية في سرعة عظيمة على أنهما ظلتا في جوهرهما فارس ومصر .

(١) يفرق المؤرخون بين الثقافة الهلنسية وهي الإغريقية بصفة عامة شاملة والثقافة الهلنسية أي اليونانية بعد عصر الإسكندر انظر للمترجم كتاب « الحضارة الهلنستية » (تارن) مكتبة الأجلو والألف كتاب . (المترجم)

(٢) الأرشكيون Arsacide : هم أسرة حكمت إحدى دول الطوائف بعد الإسكندر الأكبر أو هي الأسرة الغالبة على أمر دول الطوائف خيمها ومنها أردوان الأصفر الذي نازعه السيادة أردشير بن بابك وقتله وتلقب بشاهنشاه ، وأردشير هذا هو مؤسس الدولة الساسانية في فارس . (المترجم)

وكانت فتوح العرب الأولى قد أتاحت للثقافة العربية صلة وثيقة بالتقاليد الأدبية الاغريقية . حقا إن ذلك لم يحدث في الاغريقية الأصلية ولكن عن طريق الترجمات السريانية المنقولة عن الكتاب الاغريق . ويلوح أن المسيحيين النساطرة ، وهم المسيحيون المقيمون إلى الشرق من الأرثوذكسية ، كانوا أكثر ذكاء وأنشط ذهنًا من علماء اللاهوت في بزنطة ، كما كانوا من حيث مستوى التعليم العام أعلى كثيرًا من مسيحي الغرب الناطقين باللاتينية . وحظوا بالتسامح في الأيام الأخيرة للدولة الساسانية ، كذلك تسامح معهم الاسلام حتى يوم ارتفاع شأن الترك في القرن الحادى عشر . كانوا العمود الفقري لثقافة العالم الفارسي . وكانوا احتفظوا بكثير من علم الطب الهلينستي ، بل لعلهم أضافوا إليه أشياء . ففي عصر بنى أمية كانت غالبية الأطباء في دولة الخلافة من النساطرة ، ولا مرأ أن الكثيرين من علماء النساطرة اعتنقوا الاسلام دون أن يلم بهم أى ندم خطير أو أى تغير عظيم في مرتزقهم أو أفكارهم . ومن فضلهم على العلم احتفاظهم بالكثير من مؤلفات أرسطو في كل من الاغريقية والترجمات السريانية . وكانت لديهم مؤلفات كثيرة في الرياضيات . ولا شك أن عتادهم من العلم يجعل ما لدى كل من القديس بندكت أو كاسيودوراس من موارد معاصرة ، يبدو في حالة إعواز تستحق الرثاء . وإلى هؤلاء المعلمين النسطوريين وفد من الصحراء العقل العربي الغفل متوقدا مستطعا ، فاستوعب كثيرا ورفع قيمة ما تعلم بزيادته قدرا وتحسينه نوعا . تعلم كثيرا واستوعب كثيرا . ومن قبل ذلك كانت فارس قرونا عدة ميدانا لنشاط لاهوتي وفكري عميق دقيق . فعندئذ تدثر هذا النشاط بدثار الأساليب العربية وأصبح سبيلا للزندقة والانقسام في الديانة الاسلامية . وكان الانقسام الشيعي فارسيا في جوهره .

على أن الفرس ومعهم العلم الهليني لم يكونوا المعلمين الوحيديين الذين أتبحوا للعرب . فقد كان ذوو قرباهم اليهود منتشرين في كل مدن الشرق الغنية ومعهم أدبهم وتقاليدهم الخاصة المميزة لهم . وأثر العقل العربي والعقل اليهودي كل منهما في صاحبه تأثيرا عاد بالمنفعة المشتركة عليهما جميعا : فاستفاد العربي من ذلك علما وأفاد اليهودي من ذلك مزيدا من الشحنة الفكرية . ولم يحدث قط أن كان اليهود متحذلقين في أمر لغتهم . فلقد ذكرنا من قبل أنهم كانوا قبل ظهور العرب بألف سنة ، يتكلمون الاغريقية في الاسكندرية المهلنة

وهاهم الآن في كافة أنحاء هذا العالم الإسلامى الجسد يد يتكلمون العربية ويكتبونها . فكتبت في العربية طائفة من أعظم الآداب : (المؤلفات) اليهودية ، منها على سبيل المثال ، كتابات ابن ميمون (Maimonides) الدينية^(١) . والواقع أن من العسير أن نقول ، في حالة هذه الثقافة العربية ، متى ينتهى المؤثر اليهودى ويبدأ العربى ، فإن عواملها اليهودية بلغت من الجوهرية والأهمية حداً كبيراً .

وفضلاً عن ذلك ، فثم مصدر ثالث للإلهام ، هو بلاد الهند - وقد تجلى على الأخص في علم الرياضيات ، ويعسر علينا في الوقت الحاضر أن نقدره حق قدره . وليس هناك إلا القليل من الشك في أن الذهن العربى إبان فترة روعته كان على اتصال وثيق فعال بالأدب السنسكرى وبعلم الفوزيقى « الهندى الفارسى » Indo-persian .

وقد تجلت نواحي النشاط الذهنية التى يمتاز بها العقل العربى منذ أيام بنى أمية وإن لم تظهر بأحسن مظاهرها إلا في عهد العباسيين . والتاريخ هو بداية ولباب كل فلسفة سليمة وكل أدب عظيم ، وكان أول من برز من الكتاب العرب الممتازين هم المؤرخون وكتاب التراجم والشعراء شبه المؤرخين . وتبع ذلك ظهور رواية المغامرة العاطفية (الرومانس) والقصة القصيرة عندما نشأ جمهور من القراء يريد أن يتسلى . حتى إذا كفت القراءة عن أن تكون امتيازاً خاصاً ، وأصبحت ضرورة لكل رجال الأعمال ولكل شاب مهذب ، نشأ التطور المنظم لنظام تعليمى وأدب تعليمى . وعند حلول القرنين التاسع والعاشر لم يكن لدى المسلمين مؤلفات في قواعد اللغة (أجروميات) فحسب بل معاجم عظيمة وكتلة ضخمة من الدراسات في فقه اللغة . وقد سبق العالم الإسلامى الغرب بقرن أو ما يقاربه ، إذ نمت به مجموعة من الجامعات العظيمة في عدد من المراكز في البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وفي قرطبة ، تطورت عما كان في مبدأ الأمر مدارس دينية تعتمد على المساجد . فأضاء نور هاته الجامعات خارج العالم الإسلامى إلى مسافات بعيدة ، واجتذب إليها الطلاب من الشرق والغرب . وكانت قرطبة بصفة خاصة تحتوى أعداداً كبيرة من الطلاب المسيحيين ، وكان تأثير الفلسفة العربية الوافدة عن طريق أسبانيا على جامعات باريس وأكسفورد

(١) هو أبو عمران موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤) فيلسوف وطبيب يهودى وبصنف قوانين . ولد بقرطبة ، وانبج فلسفة دينية لها وزنها وعمل طبيباً لصالح الدين وأرلاده بمصر ، وله مؤلفات منها « مشنة التوارة » و « دليل الخاترين » (المترجم)

وشمال إيطاليا وعلى الفكر الأوربي الغربي عامة ، — جسيماً جداً ولا جرم . ويبرز اسم ابن رشد القرطبي (١١٢٦ — ١١٩٨) ممثلاً لأقصى ما بلغه تأثير الفلسفة العربية من سلطان على الفكر الأوربي . وهو الذى طور تعاليم أرسطو على أسس فصلت الصديق الدينى عن الصديق العلمى فصلاً تاماً ، وبذا مهد الطريق لتحرير البحث العلمى من المذهب الاعتقادى (Dogmatism) اللاهوتى الذى كان يقيد فى ظلال كل من المسيحية والإسلام . وهناك اسم عظيم آخر هو ابن سينا أمير الأطباء (٩٨٠ — ١٠٣٧) الذى ولد فى الطرف الآخر من العالم العربى ببخارى ، وتنقل فى خراسان^(١) وازدهرت صناعة نسخ الكتب فى الإسكندرية ودمشق والقاهرة وبغداد ، وقراءة سنة ٩٧٠ كانت هناك سبع وعشرون مدرسة مجانية فى قرطبة لتعليم الفقراء .

ويقول ثاتشر وشوبل^(٢) : « شاد العرب ما شادوه فى الرياضيات على الأسس التى أقامها الرياضيون الإغريق . وأصل ما يسمى بالأعداد العربية يغشاها الإبهام . وقد حدث فى عهد ثيودوريك الأعظم أن استعمل بويثيوس (Boëthius) علامات معينة ، كانت من ناحية جزئية شبيهة جداً بالأرقام التسعة التى نستعملها الآن » . وكذلك استخدم أحد تلاميذ جربرت علامات كانت أشد شها بأرقامنا ؛ على أنه يقال إن الصفر ظل مجهولاً حتى القرن الثانى عشر ، عندما اخترعه رياضى عربى اسمه محمد بن موسى^(٣) ، الذى كان كذلك أول من استعمل العلامات العشرية ، وأعطى الأرقام القيمة الوضعية فى مخاناتها . على أن هذا ينازع فيه الكثيرون من الهنود الذين يدعون لأنفسهم الصفر والطريقة العشرية بوصف كونهما مساهمة فعالة وفضلاً للهند على الثقافة .

« ولم يصف العرب إلى ما ابتكره إقليدس فى الهندسة إلا الشئ القليل ، ولكن الجبر يكاد يكون من خلقهم ؛ وكذلك أدخلوا تحسينات على حساب المثلثات الدائرى مخترعين جيب الزاوية (Sine) وظل الزاوية (tangent) وظل تمام الزاوية (contangent) ، واخترعوا فى « علم للفوزيقى » البندول وكتبوا فى علم البصريات (optics) بعض الكتب .

(١) خراسان : هى منطقة شمال شرق إيران المتاخمة لبلاد التركستان . (المترجم)

(٢) فى كتابهما : « A General History of Europe »

(٣) هو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمى (ت ٨٥٠) رياضى وفلكى وجغرافى ، عربى عاصراً للمؤول . (المترجم)

وتقدموا بعلم الفلك . فبنوا مراصد عديدة وركبوا كثيراً من الآلات الفلكية لاتزال تستعمل حتى اليوم . وحسبوا زاوية سمت الشمس (Ecliptic) والموضع الدقيق لنقطتي الاعتدالين . وكانت معرفتهم بالفلك بجسيمة ولا مراء .

« وتقدموا في الطب أشواطاً بعيدة على الإغريق . ودرسوا علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وعلم تدبير الصحة ، ويكاد علم الأقرباذين^(١) (المادة الطبية materia medica) لديهم أن يكون هو نفس ما لدينا اليوم . ولا يبرح كثير من طرق العلاج عندهم مستعملاً بين ظهرانينا إلى اليوم . وكان جراحوهم يفهمون استعمال التخدير ، ويقومون بطائفة من أصعب العمليات المعروفة . وفي نفس الوقت الذي كانت فيه الكنيسة تحرم ممارسة الطب انتظاراً منها لإتمام الشفاء على يد المناسك الدينية التي يقوم بها الفساوسة ، كان لدى العرب علم طبي حق .

« وابتدأوا في الكيمياء بداية حسنة . واكتشفوا كثيراً من المواد الجديدة ، من أمثال البوتاس . ونترات الفضة والسليمانى وحمض النتريك والكبريتيك . وكلمة « الكحول » عربية ؛ وإن كانت المادة معروفة باسم « أرواح الخمر » عند بليني (١٠٠م) . فأما في الصناعة فإنهم بزوا العالم في تنوع الصنف وجمال التصميم وإتقان الصنعة . كانوا يشتغلون في جميع أنواع المعادن : الذهب منها والفضة والنحاس والبرنز والحديد والصلب . ولم يفقههم أحد أبداً الدهر في صناعة المنسوجات . وصنعوا زجاجاً وخزفاً من أرق الأنواع وأشدها امتيازاً . وعرفوا أسرار الصباغة ، وصنعوا الورق . وكانت لديهم طرائق عديدة لتهيئة الجلود ، وكانت مصنوعاتهم الجلدية شهيرة في كافة أرجاء أوروبا . وأنتجوا الأصباغ والعطور والأشربة . وصنعوا السكر من القصب ، وأوجدوا أصنافاً كثيرة ممتازة من الخمر . ومارسوا الزراعة بطريقة علمية ، وكانت لديهم طرائق جيدة للرعى . وعرفوا قيمة المخصبات ، وكيفوا محصولاتهم حسب نوع التربة . وتفوقوا في فلاحة البساتين وعرفوا كيف يطعمون النباتات وكيف ينتجون أضرباً جديدة من الفواكه والأزهار . وأدخلوا إلى الغرب أشجاراً كثيرة ونباتات متعددة اجتلبوها من الشرق ، وكتبوا رسائل علمية في الزراعة » .

(١) الأقرباذين : فرع الطب الذي يبحث في مصادر الأدوية وطبيعتها وخصائصها وتحضيرها .
(المترجم)

وثمة عنصر في هذا البيان يجب أن يبرز هنا بسبب أهميته في حياة البشرية الفكرية ، وهو صناعة الورق . ويلوح أن العرب تعلموا تلك الصناعة من الصينيين بطريق آسيا الوسطى ؛ وأخذها الأوروبيون عن العرب . وكان لزاما حتى ذلك الزمان أن تكتب الكتب على الرق^(١) أو البردى ، حتى إذا فتح العرب مصر ، انقطع عن أوروبا مورد البردى . وما كان فن الطباعة بكبير الغناء ، ولا كانت الصحف والتعليم الشعبي العام بوساطة الكتب من الأمور الممكنة ، حتى أصبح الورق وفيراً . وربما كان هذا عاملاً أعظم أثراً في تأخر أوروبا القسبي أثناء العصور المظلمة ، مما يبدو أن المؤرخين يميلون إلى الاعتراف به . . .

وتواصلت حلقات هذه الحياة العقلية في العالم الإسلامي على الرغم مما شمله من فوضى سياسية ذريعة . ولم يحاول العرب من البداية إلى النهاية أن يعالجوا المشكلة التي لا تزال تنتظر الحل ، ألا وهي مسألة الدولة المستقرة التقدمية ؛ فقد كان نظام الحكم عندهم في كل مكان مطلقاً وعرضة للهزات والتغيرات والمؤامرات والقتل ، وهي أمور كانت على الدوام ولا تزال من خصائص الملكيات الشديدة التطرف . ولكن روح الإسلام ظلت تضع قرون تحفظ للناس عامة بقدر من الاستقامة وضبط النفس من وراء آثام القصور والمعسكرات ومنافساتها ، وكانت الإمبراطورية البيزنطية أعجز من أن تحطم هذه المدنية ، كما أن الخطر التركي في الشمال الشرقي لم يفتأ يشتد قوة ولكن في بطن كبير . واستمرت حياة الإسلام الذهنية نابضة بالحياة ، حتى أطبق التورك عليها . ولعلها كانت تمنى نفسها في طويتها بأنها قادرة على البقاء بالرغم مما كان يتبدى في توجيهها السياسي من آيات العنف والمخالفة لكل معقول . وقد كان هذا . حتى ذلك الحين ، هو الخاصة المميزة للعلم والأدب في كافة الأقطار . إذ كان الرجل ذو العقلية والفكر المثقف نافراً من الاصطدام برجل العنف والقوة . وكان على الحملة رجلاً ممن حذقوا خدمة البلاط والمداورة مع مقتضيات الزمان . ومن المحتمل أنه لم يكن قط تام الثقة بنفسه . وإلى ذلك الحين ، لم يكن لأهل الحكمة والمعرفة شجاعة المتعصب الديني (الفنطلي) وثقته بنفسه . ولكن لا يكاد يساورنا أدنى شك في أنهم قد تجمعت لديهم

(١) الرق يفتح الراء جلد رقيق يكتب فيه - معجم الوسيط . (المترجم)

عقائد ثابتة ، واستجمعوا الثقة في أنفسهم أثناء القرون القليلة الأخيرة ، فاهتدوا في ببطء إلى سبيلهم إلى القوة والسلطان بفضل تطور التعليم الشعبي العام والأدب الرائج بين الناس عامة ، وها هم اليوم أشد ميلاً إلى التحدث عن الأشياء بصراحة ووضوح ، وإلى المطالبة لأنفسهم بحق التسلط على تنظيم الشئون البشرية أكثر مما سبق لهم من قبل في أى عصر من عصور تاريخ العالم .

الفن العربي

ترتبط الفتوح الإسلامية بطرز جديدة في العمارة ، وهى تسمى بأسماء متنوعة هى : المشرقية أو الإسلامية والمحمدية والعربية . على أن العربى الحق فيما يقول « جاييت Gayet » لم يك قط فنانا . وإنما شيد العربى المساجد والقصور والقبور والمدن ، لأنه اضطر أن يبتنيها بحكم الحاجة . على أنه وجد عماله ومهندسيه ومعاريه بن المصريين والسوريين والفرس الذين أنضجهم . فلم يكن الفن العربى فى فارس إلا مجرد استمرار للفن الفارسى ، ولكن حدث فى مصر وسوريا تكييف حقيقى يساير الظروف الجديدة ، وظهر طراز جديد وخصيصة جديدة فى المبانى والزخرفة . كان هذا هو الفن « العربى » بأدق معانيه . وإلى الغرب فى شمال إفريقيا وأسبانيا نشأ تنوع خاص جديد يتميز بعقد حدوده الفرس . وكانت سوريا ومصر قبل مجئ العرب بزمان طويل ، قد انحرفتا عن الأشكال البيزنطية باستبدال العقد المستدير بالعقد المدبب ؛ وكانتا تقدمتا على الفن البيزنطى كثيراً بإهمال الأشكال المصنوعة نماذج بحسبة ذلك بأنهم كانوا يفضلون الروح الواقعية الهلينية ويستبدلون بها التزيين الزخرفى بالرسوم والنقوش . وكان المزاج العربى المفطور على التأمل والنشوة ميالاً بكليته إلى تقوية هذه العملية . « ولا يرجع ذلك - كما يقول جاييت - إلى الرغبة فى إطاعة ناموس دينى - لأن هناك كثيراً من التصاوير العربية المبكرة التى تمثل الأشكال الحية - بل إلى غريزة فطرية ركبت فيهم » . والعربى يبدى فى شئون الحياة العادية ، وبصرف النظر عن أية ثقافة ، كراهية شديدة لتعرية جسده أو النظر إلى جسد عار . وحدث تدريجياً فى ثانيا تطور الفن العربى أن انتقلت الزخرفة من صور الحيوان والنبات المتواضع عليها إلى المنشايات الهندسية المسماة « بالنسق الزخرفى تاريخ الإنسانية ج ٣ »

العربي Arabesque « وتصبح السقوف والأقبية مغطاة بطبقة مشككة لا يبرح تشكيلها يزداد عمقا ، فيتكاثر التلبس بالأسرار المثقبة ، بل إن الشكل الخارجى نفسه يصير مجسما متعدد السطوح ، وتغدو الأقبية مغطاة بمجانات (studs) مستديرة ومتعددة الأضلاع (polygonal) تتدلى آخر الأمر تدلى المعلقات الكنسية^(١) . ويتمخض هذا الخفض والرفع والبروز والتوهد عن جمال جديد سحرى شبيه بجمال البلورات والتوجات المائية والإيقاعات الساحرة الغامضة لغير الأحياء من الأشياء ، ولكنه جمال يضاد على خيط مستقيم تلك الحريات المطلقة والسوقيات الفخمة والحيوية المتدفقة للفن الهلنى .

وتقرن هذه التطورات البنائية بخصائصها العربية فى أذهاننا بالمتذنة والقبة البصيلية واستعمال جميل للقراميد المزججة التى غالبا ما تكون جزلة الحلقات . وتمة توسع هائل فى استعمال الزخرفة المكونة من آيات وفقرات قرآنية بالخط العربى الانسيابى الجميل .

(١) المعلقات الكنسية : (Stalactites) : تكوينات كلسية مدبة تنشأ فى الكهوف الطبيعية من رشح المياه الجيرية وتبدو متدلية كالثرنات والشموع من سقوف الكهوف . (المترجم)

الفصل الحادى الثلاثون

عالم المسيحية والحروب الصليبية

- ١ - العالم الغربى فى أشد دركات تدهوره
- ٢ - نظام الإقطاع .
- ٣ - مملكة الميروثنجيين الفرنجية .
- ٤ - تنصير البرابرة الغربين .
- ٥ - شرلمان يصبح إمبراطوراً على الغرب .
- ٦ - شخصية شرلمان .
- ٧ - الفن والمهارة الرومانسكيان .
- ٨ - الفرنسيون والألمان يتم انفصالهم .
- ٩ - النورمانديون والعرب والمجريون .
- ١٠ - كيف استفادت القسطنطينية بروما .
- ١١ - الحروب الصليبية .
- ١٢ - الحروب الصليبية اختبار للمسيحية .
- ١٣ - الإمبراطور فردريك الثانى .
- ١٤ - معاييب البابوية وتحدياتها .
- ١٥ - قائمة بأسماء البابوات العظام .
- ١٦ - المهارة والفن القوطيان .
- ١٧ - موسيقى العصور الوسطى .

العالم الغربى فى أشد دركات تدهوره

علينا الآن أن نحول التفاتنا مرة ثانية من هذه النهضة الفكرية التى قامت فى مهد المدنيات القديمة إلى شئون العالم الغربى .

ولقد وصفنا لك الانهيار التام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى الذى ألمّ بالنظام الإمبراطورى الرومانى فى الغرب ، وبيننا الارتباك والظلمة اللذين أعقبا ذلك إبان القرنين الخامس والسادس ، وكفاح رجال من أمثال كاسيودوراس فى سبيل حفظ شعلة العلوم الإنسانية متقدة وسط هذه الارتباكات العاصفة . وتمر فترة من الزمان يكون من البلاد أن يكتب المرء عما قام فيها من الدول والحكام إذ لا دول هناك ولا حكام . وكل ما فى الأمر أن بعض المغامرين الصغار أو الكبار كانوا يستولون على قلعة أو ناحية من الريف ويحكمون منطقة غير ثابتة الحدود حكماً غير مستقر . فكانت الجزر البريطانية مثلاً . مقسمة بين حشد كبير من الحكام ؛ وكان هناك زعماء كلتيون عديدون

في إيرلندة واسكتلندة وويلز وكورنوال ، يتقاتلون ويتغلبون أحدهم على الآخر أو يخضعون بعضهم لبعض . وكان الغزاة الإنجليز مقسمين أيضاً إلى عدد من الممالك غير المستقرة ، وهي كنت ووسكس وساسكس وإسكس ومرسيا ونورثمبريا وأنجليا الشرقية ، وهي دول لا تنقطع الحرب بينها أبداً .

وكذلك كان شأن معظم أقطار العالم الغربي فأنت واجد هنا أسقفاً يتولى الملك ، كما كان جريجورى الكبير في روما . وواجد ها هنا مدينة أو مجموعة من المدن تحت حكم دوق أو أمير لهذه أو لتلك . وكنت تجد بين الخرائب الهائلة بمدينة روما ، أسرات نصف مستقلة من مغامرين شبه نبلاء ، كل يزود عن حياضه ومعه أتباعه . وكان للبابا نوع من السيادة العامة هناك ، ولكن كان ينافسه في تلك السيادة ويرجحها تماماً في بعض الأحيان شخص يطلق على نفسه « دوق روما » . وقد حُوِّلَ المجتلد^(١) العظيم في الكولوزيوم إلى حصن يملكه فرد ، وكذلك حُوِّلَ قبر الإمبراطور هادريان الهائل المستدير ؛ وكان المغامرون الذين استولوا على تلك المعاقل يقطعونهم وأنصارهم الطريق بعضهم على بعض ، ويتقاتلون ويتناوشون في الشوارع الخربة للمدينة التي كانت يوماً ما حاضرة الإمبراطورية . وكان قبر هادريان يعرف بعد أيام جريجورى الكبير باسم قلعة سانت أنجيلو أى حصن الملاك المقدس ، لأنه عندما كان البابا جريجورى يعبر الجسر من فوق التبر في طريقه إلى كنيسة القديس بطرس ليصلى لله طالباً رفع الوباء العظيم الذى كان يعيث في المدينة دماراً ، أطافت به رؤيا مَلَكٍ عظيم واقف فوق كتلة الضريح الدكناء وهو يغمد سيفاً . وعند ذلك عرف أن دعواته ستستجاب . وقد لعبت قلعة سانت أنجيلو هذه دوراً عظيماً للغاية في الشؤون الرومانية أثناء هذا العصر المضطرب .

وكانت أسبانيا على نفس التمزق السياسى الشديد الذى كانت عليه إيطاليا وفرنسا وبريطانيا ، وكان النزاع القديم بين القرطاجى والرومانى ما يزال مستمراً في أسبانيا متمثلاً في العداء المرير بين أخلافهم وورثتهم من يهود ومسيحيين . حتى أنه

(١) المجتلد (Arena) هو كما سبق أن ذكرنا الجزء المتوسط من مدرجات الألعاب العنيفة ، وهو مفروش بالرمال للمصارعات . انظر المجلد الثانى من ٥٦٣ [ط ٣] . (المترجم)

لما جرفت قوة الخليفة ما أمامها على امتداد الساحل الإفريقي الشمالى إلى مضيق جبل طارق ، وجدت في يهود أسبانيا أعواناً متأهبين لمعاونتها في غزوها لأوروبا . فإن جيشاً عظيماً من العرب والبربر (وهم الشعوب الحامية المترحلة في الصحراء الإفريقية والأراضي الجبلية الداخلية الذين اعتنقوا الإسلام) ، قد عبر البحر وهزم القوط الغربيين في معركة عظيمة (٧١١) . وأصبحت البلاد بأجمعها في قبضة أيديهم في بضعة سنين (١) .

وما حلت (٧٢٠) حتى كان الإسلام قد بلغ جبال البرانس ، واندفع من حول نهايتها الشرقية إلى فرنسا ؛ وانقضت فترة من الزمان لاح للناس أثناءها أن الدين الحديد موشك أن يخضع بلاد الغال (: فرنسا) بنفس السهولة التي أخضع بها شبه الجزيرة الأسبانية . على أنه ما لبث أن اصطدم من فوره بشيء صلب ، هو مملكة جديدة للفرنجة ، أخذت أجزاؤها تماسك طوال قرنين تقريباً في أرض الراين وشمال فرنسا (٢) .

ولدينا الشيء الكثير نقوله الآن عن هذه المملكة الفرنجية ، المبشرة بظهور فرنسا وألمانيا ، والتي كانت الحصن الغربي لأوروبا ضد دين محمد ، كما كانت الإمبراطورية البيزنطية خلف جبال طوروس حصنها الشرقي ؛ على أننا نرى لزماً علينا أولاً أن نقدم إليك بياناً عن النظام الحديد لتلك التجمعات الاجتماعية التي نشأت منها تلك المملكة .

(١) صحيح أن اليهود في أسبانيا كانوا يسامون سوء الخسف ويعاملون معاملة سيئة أيام القوط الغربيين بأسبانيا . ولكنه صحيح كذلك أن لذريق ملك أسبانيا عند الفتح العربى لما كان مفتصباً للعرش وكان أولاد غيطشة وكثير من أمراء القوط ثائرين عليه نفسياً متحفزين للإيقاع به . ومع ذلك فهذه عوامل نتمسكها لهزيمة القوط في شريش ويمكن أن يكون منها قوة جيش الخليفة المنوية ومهارة قواده العسكرية واستماتة الجيش والقواد في نصرة الدولة والدين . (المترجم)

(٢) يشير المؤلف هنا إلى موقعة تور أو بلاط الشهداء التي منى فيها جيش العرب بالهزيمة أمام جيش شارل مارتل وهو في إشارته يمزو الهزيمة إلى قوة الفرنجة وصلابتها بدرجة تحطمت على صخرتها قوة الغافق وجيشه ، ولكنه من العدل أيضاً أن نجلو أن جيش المسلمين كان قد توغل إلى مسافة بعيدة داخل حدود بلاد غالة وطلت خطوط تموينه ومدده وقلت عدته وعدده بسبب الحاميات التي اضطرت إلى تركها خلفه كما أن كثرة يعتن بها من رجال الجيش كانوا أفتلتهم الغنائم وأهمهم أمرها حتى شغلهم عن لقاء عدوهم بنفس القوة والحماسة التي كانت لهم في المشاهد والملاحم السابقة فكان ما كان من هزيمة وهى أمور أشار إليها المؤلف في فصل سابق . (المترجم)

٢ - نظام الإقطاع

من الضروري أن يكون لدى القارئ فكرة محددة عن أحوال أوروبا الغربية في القرن الثامن . فإنها لم تكن على همجية بربرية . أجل كانت أوروبا الشرقية ما تزال متبربرة ومتوحشة ؛ ولم تتقدم الأمور هناك إلا قليلا عن حالها التي وصفها جيبون في بيانها عن بعثة بريسكوس إلى أثينا (راجع الفصل ٢٧ قسم ٦ ص ٦٦٠) . على أن أوروبا الغربية لم تكن إلا حضارة محطمة ، لا قانون فيها ولا إدارة ، وطرقها تالفة وتعليمها غير منظم ، ومع ذلك فكان بها أناس كثيرون لهم أفكار وعادات وتقاليد ممدنة .

كان الزمان زمان فوضى ولصوصية وجرائم تذهب دون عقاب وأمن منعدم على وجه العموم . ومن الشائق الممتع أن نتتبع ذلك التفتت والعراك الشامل الصاحب وتبين كيف تمخض عن ظهور بواكير نظام جديد . فلو أن انهياراً حدث في عصرنا هذا لثم على الراجح تكوين جمعيات للإدارة والمراقبة المحلية ، تتحد فيما بينها وتقيم إدارة بوليسية وحكماً ديمقراطياً بدائياً خشناً . ولكن أفكار الناس في عهد حطام الإمبراطورية الغربية المنهارة إبان القرون السادس والسابع والثامن ، كانت أكثر اتجاهاً صوب الزعماء والقادة منها إلى الجمعيات واللجان ، وكانت المراكز التي تبلورت حولها شئون الناس هي أحسد رؤساء البرابرة هنا أو أسقفاً قوياً هناك أو مدعياً لوظيفة رومانية قديمة ، وهنا تجدد مالك أرض قديم طال اعتراف الناس به أي رجلاً من أسرة عريقة ، وتعرّ هتاك على قوى مغتصب للسلطان ، وهي حال لم تدع لرجل بمفرده مجالاً للاطمئنان والأمن .

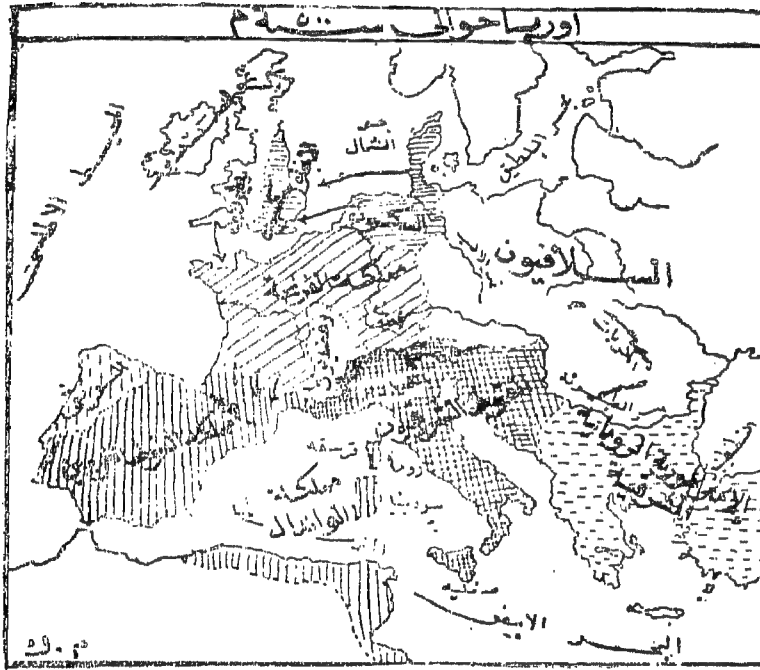
لذلك اضطر الرجال أن يربطوا أنفسهم بغيرهم ، مفضلين في ذلك من كان أقوى منهم من الرجال . وكان الرجل الفرد يختار أقوى وأنشط رجل في إقليسه ويصبح رجله وتابعه . وكان الرجل الحر أو المالك الصغير لقطعة أرض صغيرة يربط نفسه بسيد أقوى منه . وكانت حماية ذلك السيد (أو خطر عداوته) تزداد جساماً كلما تكاثرت المنضموون تحت جناحه . وبذلك استمرت بسرعة شديدة عملية تبلور سياسي ، في خضم الارتباك وانعدام القانون الذي هوت إليه الإمبراطورية الغربية . وهذه

الارتباطات والمخالفات الطبيعية تماماً بين الحامى والأتباع سرعان ما تدرجت في النمو فأصبحت نظاماً هو « نظام الإقطاع » ، الذى لا تزال آثاره باقية في التركيب الاجتماعى لكل مجتمع أوربي غرب روسيا . وكان يختلف اختلافاً بينا في مظاهره الخارجية .

ولم تلبث هذه العملية أن اتخذت لنفسها صوراً فنية وأصولاً وقوانين خاصة بها . فكانت في قطر كبلاد الغال متقدمة تقدماً حسناً أيام القلاقل وانعدام الأمان السابقة لانقضاء قبائل البرابرة على الإمبراطورية الغربية ، ولما أن هبط الفرنجة بلاد الغال جلبوا معهم نظاماً سبق أن لحظناه لدى المقدونيين ، وكان على الراجح واسع الانتشار إلى حد كبير بين الشعوب النوردية الشمالية ، وهو اجتماع هيئة من شبان الأسر العريقة حول الزعيم أو حول الملك المحارب ، وهم رفقائه أو لداته وبطانته من النبلاء (comitatus) (الكونتات) أو قواده . فكان من الطبيعي في حالة الشعوب الغازية أن تتخذ علاقات السيد الضعيف بالسيد القوي شكل العلاقة بين الكونت ومليكه ، وأن يوزع الرئيس الفاتح على رفاقه المزارع والممتلكات المستولى عليها والمصادرة . وتسربت من الإمبراطورية المنحلة إلى نظام الإقطاع فكرة التجمع بغية الحماية المتبادلة للناس والممتلكات ، وجاءت من الجانب « القيوثوني » فكرات جمعيات الفرسان ، والإخلاص والخدمة الشخصية . وكانت الأولى هي الناحية الاقتصادية للنظام ، على حين كانت الثانية ناحية الفروسية فيه .

والمماثلة بين التجمع في الإقطاع وبين عملية التبلور مماثلة وثيقة جداً . وبيننا المؤرخ يراقب أثناء القرنين الرابع والخامس مراحل الارتباك ودواماته تدور وتهدر في أوروبا الغربية ، فإنه يبدأ في ملاحظة ظهور هذه التكوينات الهرمية المكونة من رؤساء وأتباع ، وأتباع أتباع ، وهي تندفع إحداها مع الأخرى أو تنفرع أو تنحل من جديد أو تلتحم . ولما لنستعمل مصطلح « نظام الإقطاع » من أجل اليسر والسهولة ، ولكن في شيء من عدم الدقة إذا كانت لفظة نظام تحمل إليك معنى « الترتيب والنظامية » . فنظام الإقطاع في أزهر عصوره أبعد ما يكون عن فكرة الترتيب والنظامية . إذ لم يكن الأمر فيه إلا فوضى واضطراباً نظم على أخشن وجه ، وكان التباين والاختلاف العظيم بين أشكاله منتشراً في كل مكان . ومن ثم فلن يدهشنا

وجود تباين في الوقائع والعرف والعادات المقررة بين إقطاعية وأخرى . وقد وصل نظام الإقطاع الأنجلو نورماندى في القرنين الحادى عشر والثانى عشر على شدة ما أوتى من اتساع الرقعة إلى اكتمال منطقي واتساق في الممارسة والعرف كان منقطع النظر في صميم العصر الإقطاعي نفسه .



(شكل ١٣٢) خريطة أوروبا حوالي عام ٥٠٠ م

« والأصل في العلاقة الإقطاعية الصحيحة هو الإقطاعية (Fief) التي كانت في المادة أرضاً ، ولكنها ربما كانت أى شيء مرغوب فيه كالوظائف ، أو الدخل نقداً كان أم عيناً ، أو حق جمع مكس أو (فرضة مالية) ، أو إدارة طاحون . وكان الرجل يصبح في مقابل الإقطاعية تابعاً^(١) (vassal) لمولاه ؛ فكان يبحث أمامه ، ويعده

(١) ويسمى أيضاً بالمقطوع [بضم الميم وفتح الطاء] أو الفصّل (Vassal) . (المترجم)

— ويداه بين يديه — بالولاء والخدمة وكان الإخلاص في تنفيذ كل الواجبات التي اضطلع بها التابع في عهد الولاء قوام حقّه في التمتع بإقطاعه : فإذا أدت الواجبات ، احتفظ هو وورثته من بعده بالإقطاع ملكاً حلالاً لهم من الناحية العملية وبالنسبة إلى كل من دونهم من المستأجرين كأنهم هم الملاك . وفي حفلة الولاء والتخويل التي هي الركن الأساسي في عقد الإقطاع ، كانت الالتزامات التي يضطلع بها الطرفان ، غير محددة في العادة تحديداً دقيقاً . وكان العرف المحلي هو الذي يحددها . وكانت خدمات التابع تختلف اختلافاً بيناً في كثير من دقائق التفاصيل بين أجزاء عالم الإقطاع المختلفة . على أننا نستطيع أن نقول مع هذا بأنها تنقسم إلى طبقتين ، عامة وخاصة . فأما العامة منها فتضم كل ما تشمله فكرة الولاء : من المحافظة على مصالح السيد ، وكتّان أسواره ، وإفشاء خطط أعدائه ، وحماية عائلته وهكذا ، والخدمات الخاصة يمكن أن تصاغ في عبارات أشد تحديداً ، ويحددها عادة تعريفات مضبوطة يقررها العرف أحياناً والوثائق المكتوبة في بعض الأحيان الأخرى . وكانت أبرز نواحيها هي الخدمة العسكرية ، التي كانت تتضمن الخروج إلى الميدان عند النفير بقوة معينة من الجند ، غالباً ما تكون مسلحة بأسلحة من نوع محدد . وتبقى فيه زمناً معلوماً . وكانت كثيراً ما تشمل كذلك واجب حراسة قلعة السيد ، ووضع حصن التابع (المقطع) تحت تصرف السيد وفق خططه في الدفاع عن إقطاعه (Fief) وإذا نظرنا إلى نظام الإقطاع من الناحية النظرية ، ألفيناه يماًلاً أوروبا بشبكة من هذه الإقطاعات التي تتدرج إحداها فوق الأخرى في مراتب مدرجة بادئة من أقلها شأنًا في القاع ، وهي أجز الفارس ، حتى الملك في القمة ، وهو مالك الأرض الأعلى ، أو هو الذي وهبه الله المملكة » (٣١) .

على أن هذه هي النظرية التي فرضت على الحقائق المقررة . ولكن الحقيقة الواقعية في نظام الإقطاع كانت تقوم فيما هو عليه من تعاون اختياري .

٣ - مملكة المير وقنچين الفرنجية

[illegible]

(شكل ١٣٣) خريطة حدود ممتلكات الفرنجة في عهد شارل مارتل

وكانت مملكة الفرنجة دولة بربرية أخرى نشأت في أول الأمر فيما هو الآن بلجيكا ، ثم امتدت جنوباً حتى اللوار ، بيد أنها أظهرت من لقوة والتماسك ما يفوق كثيراً ما كان لدى الأخريات . وكانت أول دولة حققة تخرج من غمرة الدمار العام . ولم تلبث حتى أصبحت آخر الأمر حقيقة سياسية قوية متسعة الرقعة . ومنها نبعت دولتان عظيمتان في أوروبا العصرية ، هما فرنسا والإمبراطورية الألمانية . وكان مؤسسها هو كلوفيس (Clovis) (٤٨١ - ٥١٤) الذي بدأ أمره ملكاً صغيراً في بلجيكا وانتهى وحدوده الجنوبية تكاد تتأخم البرانس . وقد قسم مملكته بين أبنائه الأربعة . على أن الفرنجة احتفظوا بعرف من الوحدة بالرغم من هذا التقسيم ، وثارت بين الإخوة حيناً من الدهر حروب تسهدف الانفراد بالسيادة فوحدتهم أكثر مما فرقت بينهم . على أنه نشأ بعد ذلك تصدع أشد خطورة بسبب اصطباغ الفرنجة الغربيين بالصيغة اللاتينية ، بعد أن احتلوا بلاد الغال الرومانية الصبغة ، وتعلموا اللاتينية الشوهاء المحرفة ، لغة السكان المقهورين ، على حين احتفظت فرنجة إقليم الراين بلغتهم الألمانية الدنيا^(١) . وتولد عن الاختلافات اللغوية عند وجود مستوى خفيض للمدنية ، توترات سياسة قوية للغاية . وأقام العالم الفرنجي مئة وخمسين سنة وهو منشق شطرين ، هما نوستريا (Neustria) ، وهي نواة فرنسا وتتكم لغة مصطبغة باللاتينية أصبحت آخر الأمر اللغة الفرنسية التي نعرف الآن ، وأوستراسيا وهي أرض الراين التي ظلت ألمانية . وكان الفرنجة يختلفون عن السوابيين وسكان جنوب ألمانيا ، ويقاربون الأنجلوسكسون كثيراً لأنهم كانوا يتكلمون لهجة ألمانية دنيا لا لهجة ألمانية عليا . وكانت لغتهم تشبه اللغة الألمانية^(٢) الدنيا (Plattdeutsch) والأنجلوسكسونية ، وهي الأم المباشرة للهولندية والفلمنكية . والواقع أنه حينما لم يصطبغ الفرنجة بالصيغة اللاتينية كانوا يتحولون إلى فلمنك ويصبحون هولندي جنوب هولندا (فأما هولندا الشمالية فلا تزال فريزية Friesisch أي أنجلوسكسونية) . « والفرنسية » التي كان يتكلمها الفرنجة والبرجنديون ذوو الصبغة اللاتينية في القرن السابع إلى

(١) ، (٢) الألمانية الدنيا (Low German) واسمها الألماني (Plattdeutsch) : هي لغة سكان المنخفضات بشمال ألمانيا . والألمانية العليا هي لغة سكان المرتفعات الجنوبية بها . (المترجم)

العاشر ، كانت عجيبة الشبه بلغة سويسرا الرومانشية (Rumansch) ، — استنتاجاً منا من البقايا الباقية في الوثائق القديمة^(١) .

ولسنا بمحدثيك هاهنا عن انحلال الأسرة الميروفنجية التي أسسها كلوفيس ، ولا كيف حدث في أوستراسيا أن موظفاً بعينه في البلاط ، هو محافظ القصر (Mayor of the Palace) ، أصبح بالتدريج ملكاً فعلياً ، واتخذ من الملك الحقيقي العوبة طيعة . ثم أصبح منصب محافظ القصر وراثياً أيضاً في القرن السابع ، وفي (٦٨٧) كان من يدعى پيپن المرسنالى محافظ القصر في استراسيا قد غزا نوستريا ووجد كل الفرنجة تحت لوائه . وأعقبه في (٧٢١) ابنه شارل مارتل ، الذى لم يكن يحمل كذلك إلا لقب محافظ القصر . (فأما سادته الملوك الميروفنجيون التافهون المساكين ، فلا يعنينا أمرهم هنا في قليل ولا كثير) وشارل مارتل^(٢) هذا هو الذى أوقف المسلمين العرب . وكانوا قد وصلوا إلى « تور » عندما التقى بهم ، وهزمهم هزيمة كاملة في معركة عظيمة بين ذلك المكان وبين پواتيه (٧٣٢) وقلّ من عزيمتهم . ومن ثم ظلت جبال البرانس أقصى حد لهم . فلم يتقدموا بعد ذلك في أوروبا الغربية .

وقسم شارل مارتل دولته بين ولديه ، ولكن أحدهما اعتزل الملك وترهب . تاركاً أخاه پيپن حاكماً وحيداً على الدولة . وپيپن هذا هو الذى قضى نهائياً على أحفاد كلوفيس . إذ أرسل إلى البابا يسأله من هو ملك الفرنجة الحق ، صاحب القوة والسلطان أو صاحب التاج ؟ وكان البابا في حاجة إلى ناصر يعينه ، فقضى لصالح محافظ القصر . وبذلك انتخب پيپن ملكاً في جمع من نبلاء الفرنجة في العاصمة الميروفنجية ، سواستون (Soissons) ثم مسح بالزيت المقدس وتوج . وكان ذلك في (٧٥١) . وقد قوى ابنه شارلمان من أواصر التماسك بين البلاد الفرنجية والألمانية التي وحدها پيپن . وظلت الدولة موحدة متماسكة إلى عهد حفيده لويس (٨٤٠) ، ثم انفصلت فرنسا وألمانيا إحداهما عن الأخرى من جديد — مما أنزل بالإنسانية أبلغ الضرر

(١) الرومانشية هي اللغة التي يتكلمها الناس ببعض المناطق الشرقية لسويسرا . (المترجم)

(٢) عن هذا الموضوع بالتفصيل أنظر المترجم « ميلاد العصور الوسطى » تأليف موص (الآلف

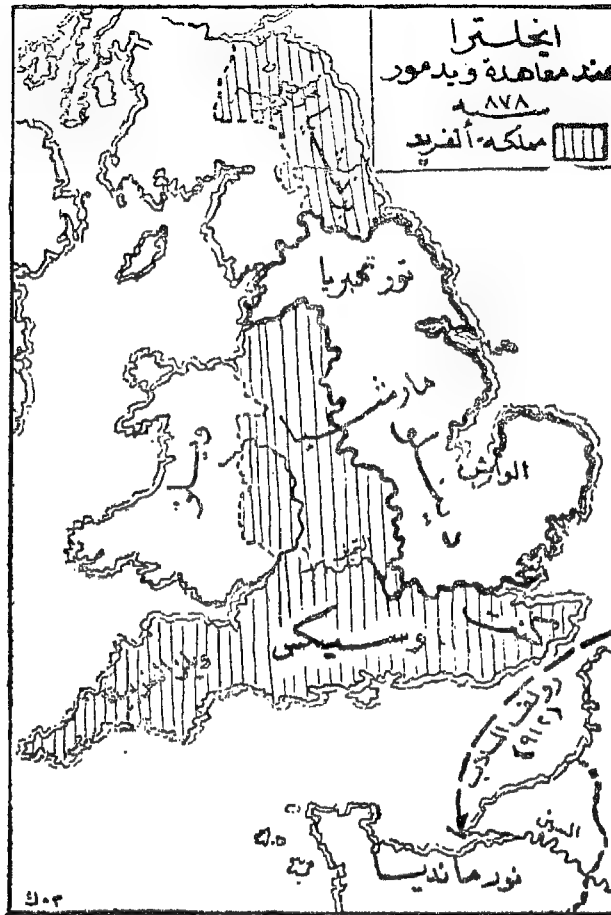
كتاب ، ومكتبة عالم الكتب) .



(شكل ١٣٤) خريطة إنجلترا عام ٦٤٠ م

ولم يكن ما فصل بين هذين الشعبين الفرنجيين فارقاً في الجنس ولا المزاج ، بل فارقاً في اللغة والتقاليد .

ولا يزال ذلك الانفصال القديم بين نوستريا وأوستراليا يشمر ثماراً مريرة إلى يومنا هذا . ففي ١٩١٦ كان لهيب ذلك النزاع التليد بين نوستريا وأوستراليا قد تأجج من جديد حرباً ضروساً . وفي أغسطس من تلك السنة ، زار كاتب هذه السطور مدينة سواسون ، وعبر الكوبرى الخشبي الموقت الذي بناه الإنجليز بعد معركة الإين (Aisne)



(شكل ١٣٥) خريطة إنجلترا عند معاهدة ويدمور عام ٨٧٨

مطرزة . وكان الإله جوبيتر يتمثل عند الألمان في الإله أودن (Oden) . والإله مارس (المريح) يمثل ثور (Thor) والربة الزهرة تمثلها لديهم الربة فرييا (Freya) وهكذا . وتواصل إبان القرنين السابع والثامن تنصير هذه القبائل إلى الديانة المسيحية (الصقلبية) .

وربما كان من الشائق القراء الناطقين بالإنجليزية أن ينسبوا إلى أن أشد المبشرين حماساً ونجاحاً بين السكسون والفريزيين جاءوا من إنجلترا . وقد وضعت بذور المسيحية

مرتين في الجزر البريطانية . فكانت موجودة بها فعلاً حين كانت بريطانيا جزءاً من الإمبراطورية الرومانية . إذ يذكر أن شهيداً اسمه القديس ألبان (Alban) خلع اسمه على مدينة سانت ألبانز ، ولا شك أن كل زائر لكاتدربرى ، لن يفوته أن يزور كذلك كنيسة القديس مارتن الصغيرة القديمة التي كانت تستعمل لإبان العهد الرومانى . وانتشرت المسيحية من بريطانيا — كما أسلفنا — خارج حدود الإمبراطورية إلى أيرلندة — وكان أهم المبشرين القديس باتريك — وحدثت حركة رهبنة قوية تتصل بها أسماء القديس كولبا والمستوطنات الدينية بجزيرة أيونا (Iona)^(١) . ثم جاء الإنجليز المتوحشون الوثنيون في القرنين الخامس والسادس ، ففصلوا كنيسة أيرلندة القديمة عن جسم المسيحية الرئيسى . وفي القرن السابع أخذ المبشرون المسيحيون ينصرون الإنجليز في كل من شمال إنجلترا ، حيث أتوا من إرلندة ، وفي الجنوب وافدين من روما . وقد أوفد بعثة (إرسالية) روما البابا جريجورى الكبير عند نهاية القرن السادس بالضبط . وتقول الرواية إنه رأى غلماناً من الإنجليز يباعون في سوق الرقيق بروما ، وإن كان من العسير علينا إلى حد ما أن نفهم كيف وصلوا إلى هناك . كانوا شديدي الشقرة ووسامة الطلعة . فلما أن تحرى عنهم أبلغوه أنهم من الإنجليز . فقال « إنهم ليسوا إنجليز (Angles) وإنما هم ملائكة (Angels) »^(٢) لو أن لديهم الإنجيل .

وظلت البعثة الدينية تعمل طوال القرن السابع . وقبل أن ينتهى ذلك القرن كان معظم الانجليز قد تنصروا ، وإن أبدت مرسيا (المملكة الانجليزية الوسطى) نحو القساوسة مقاومة شديدة ، دفاعاً عن العقيدة والطرائق القديمة . وأصاب أولئك المتنصرون الجحود تقدماً سريعاً في العلوم . فأصبحت أديرة مملكة نورثمبريا في شمال إنجلترا مركزاً للنور والعرفان . وكان ثيودور الطرسوسى من أوائل رؤساء أساقفة كاتدربرى (٦٦٨ — ٦٩٠) . وعلى حين كانت الإغريقية مجهولة جهلاً تاماً في غرب أوربا ، كان بعض تلاميذ ثيودور يجيدونها . وكانت الأديرة تضم كثيراً من الرهبان الذين بلغوا من العلم الذروة . وكان أشهرهم جميعاً بيد (Bede) ، المعروف باسم بيد الوقور (٦٧٣ — ٧٣٥) ، وهو

(١) هى جزيرة من جزر الهبريدس الداخلية باسكتلندة نصرها كولبا في ٥٠٣ م . (المترجم)

(٢) هنا يلعب الكاتب على الجنس بين لفظي (Angles) أى الإنجليز و (Angels) أى الملائكة .

(المترجم)

راهب من چارو (Jarrow) على نهر التاين (Tyne) . وتتلذذ عليه رهبان ذلك الدير
الستمئة ، فضلا عن الأجانب الكثيرين الذين كانوا يفدون لسماعه . ولم يرح ببلد
حتى أتقن بالتدريج كل علوم زمانه ، وترك عند وفاته خمسة وأربعين مجلداً من
كتاباتة ، أهمها « تاريخ الإنجليز الكنسي »^(١) وترجمة لإنجيل يوحنا إلى اللغة الإنجليزية .
وزادت شهرة مؤلفاته واستعملها الناس في كافة أنحاء أوربا . ثم إنه جعل ميلاد المسيح
بداية لكل تواريخه ، وبفضل مؤلفاته أصبح استخدام التواريخ الدقيقة للأحداث
المسيحية شائعاً بكل أوربا . ونظراً لكثرة الأديرة والرهبان في نورثمبريا ، تقدم
ذلك الجزء من بريطانيا حينئذ من الدهر تقدماً كبيراً على الجنوب في المدنية^(٢) .

ولما لنجد المبشرين الإنجليز في القرنين السابع والثامن يعملون ناشطين على
الحدود الشرقية للمملكة الفرنجية . وأهم هؤلاء هو القديس بونيفاس (٦٨٠ - ٧٥٥) ،
الذي ولد في كريديتون بمقاطعة ديفونشير والذي نصّر الفريزيين والثورنجيين والهيسيين
(Hessians) ثم استشهد في هولندا .

وفي كل من إنجلترا والقارة الأوروبية ، كان الحكام الذين أخذ نجمهم يعلو
يستمسكون بالمسيحية ويتخذونها قوة موحدة لتشد أجزاء فتوحاتهم بعضها إلى بعض .
وبذلك أصبحت المسيحية لواء يرفعه كل زعيم ينزع إلى العدوان - شأنها في أوغندا
بأفريقية في الأيام الدامية قبل أن يلحق ذلك القطر بالإمبراطورية البريطانية .

وخلف بين الذي توفي ٧٦٨ ولداه ، شارل وأخوه ، فاقتسما مملكته ، ولكن
أخا شارل توفي (٧٧١) ، وعندئذ انفرد شارل بالحكم (٧٧١ - ٨١٤) في مملكة
الفرنجة النامية . ويعرف شارل هذا في التاريخ باسم شارل الكبير أو شارلمان ،
وكما حدث في حالة الإسكندر الأكبر وبوليوس قيصر ، فإن الخلفاء بالغوا
الإشادة بذكراه . فإنه جعل من حروبه العدوانية حروباً دينية لاشك فيها !!
وظل عالم شمال غربي أوربا بأجمعه الذي هو الآن بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا

(١) «The Ecclesiastical History of the English»

(٢) انظر : «A General History of Europe» تأليف ثاتشر وشويل .

والدانمارك والنرويج والسويد طَوَّال القرن التاسع ، معتركا لصراع مريير بين العقيدتين القديمة والجديدة . وأجبرت شعوب بأسرها على اعتناق المسيحية بحد الحسام ، كما فعل الإسلام قبل ذلك بنحو قرن حين اضطر شعوباً بأسرها في بلاد العرب وآسيا الوسطى وأفريقية إلى اعتناقه .

فاستخدم شرلمان السيف والنار في التبشير بإنجيل الصليب لدى السكسون والبهيميين ، بل توغل حتى الدانوب فيما هو الآن بلاد المجر ؛ وحمل نفس التعاليم منحدراتها حتى سواحل الأدريات ، خلال ما هو الآن دالماتيا^(١) ؛ ودفع المسلمين خلف البرانس حتى برشلونة .

زد على ذلك أنه هو الذي آوى إيجبرت (Egbert) ، يوم نفى من ويسيكس بإنجلترا ثم ساعده من فوره في أن يقيم نفسه ملكاً في وسكس (٨٠٢) . وأخضع إيجبرت البريطون^(٢) في كورنوال ، مثلاً أخضع شرلمان البريطون في بريتانى (بفرنسا) ، ثم تهباً له بقيامه بسلسلة من الحروب التي والاها بعد وفاة نصيره الفرنجى ، أن يجعل نفسه آخر الأمر أول ملك لإنجلترا بأسرها (٨٢٨) .

على أن هجمات شرلمان على آخر معاقل الوثنية أحدثت حركة مضادة قوية من جانب الذين لم يقتصروا . وكان الإنجليز المنتصرون لم يحتفظوا إلا بالنذر اليسير من فن الملاحة الذى جاء بهم من أرض القارة الأوروبية ، ولم يكن الفرنجة أصبحوا بعد من البحارة . وبينما كانت دعاية شارلمان تنساق نحو شواطئ بحر الشمال وبحر بلطيق ، فقد دفع الوثنيون دفعاً إلى البحر . وكان ردهم على اضطهادات المسيحية ، القيام بغارات سلب ونهب وحملات على سواحل فرنسا الشمالية وعلى إنجلترا المسيحية .

وهؤلاء السكسون والإنجليز الوثنيون في أرض القارة الأصلية وذوو قرباهم من الدانيمركة والنرويج هم الدانيمركيون وأهل الشمال (Northmen) الذين تذكرهم

(١) دالماتيا : هى القسم المطل من يوغوسلافيا على شرق الأدريات . (المترجم)
(٢) البريطون : سكان بريطانيا القدماء الاصليون ، أو سكان إقليم بريتانى بفرنسا . (المترجم)

كتب تاريخنا القوي . وكانوا كذلك يسمون بالفيك إنجز (Vik-ings) ^(١) ومعناها رجال الخلدجان أو الفيوردات ، لأنهم جاءوا من النيايا العميقة في الشاطئ الاسكندناوى . حضروا في سفن طويلة سوداء تسمى القوادس ^(٢) ، مستعملين الشراع استعمالاً طفيفاً . ومعظم معلوماتنا عن حروب وغارات الفيك إنجز الوثنيين مستقاة من مصادر مسيحية ، ولذا فإن لدينا معلومات مستفيضة عما كانوا يرتكبونه في غاراتهم من المذابح والفظائع ، ونزراً يسيراً عما حلّ بإخوانهم الوثنيين السكسون من قساوات على يد شرلمان . وكان عداؤهم للصليب والرهبان والراهبات شديداً متطرفاً . ولشد ما كان يهيجهم إحراق أديرة الرهبان والراهبات وذبح من بها من الأحياء .

وظل هؤلاء الفيك إنجز أو أهل الشمال طوال الفترة بين القرن الخامس والقرن التاسع يتعلمون فن البحرية ، ويزيدون جرأة ويوسعون مجال نشاطهم . ثم اجتروا على البحار الشمالية حتى أعدت شواطئ جرينلندة الثلجية مراتداً مألوفاً لديهم ، وكانت لهم عند حلول القرن التاسع مستقرات في أمريكا (لم تعرف أوروبا عنها شيئاً) ولم يكن لأهل الشمال أى مستقر دائم في أمريكا ، وفي زمان ما يقارب (١٠٠٠ م) قاموا بمحاولة للاستقرار في جزء ما من أمريكا اسمه فن لاند (Vinland) ، على أنهم لم يملكوا الأرض سوى سنتين اثنتين ، فإن قارباً من الجلد ظهر في أحد الأيام مليئاً بالهنود المنقوشى البشرة ، فدار بخلد رجال الشمال أنهم ضيوف سوء شديدو القبح . ويلوح أن الطرفين تبادلوا نظرات التفحص الصامت ، ولكن لم يحدث بينهما تجارة ولا نزاع ، لقد حماق العالم الجديد في وجه القديم . وحدثت المتاعب فيما بعد ، وإذا أن رجال الشمال كانوا أقل عدداً وبعيدين عن أوطانهم ، فلمهم جمعوا متاعهم واعتلوا سفنهم عائدين إلى بلادهم . ولا يسجل التاريخ أى مستقر آخر لرجال الشمال على الأراضي الأمريكية . وفي القرن الثاني عشر ، بدى بكتابة كثير من ملاحهم (Saga) في إيسلندة ، ذلك أنهم كانوا ينظرون إلى العالم بوصفه مسرحاً للمغامرة الجريئة .

(١) تنبيه : تنطق هذه الكلمة فيك إنجز وليس في كنجز . ومعنى فيك : vik هو فيورد أو خليج . (المؤلف)

(٢) القادس Gally : سفينة قديمة طويلة ذات سطح واحد تسير بالمجاديف والشراع . (المترجم)

فلطالما هاجموا كلب البحر والدب والحيوت . وقد انتسج في خيالهم صورة ضخمة لمدينة عظيمة غنية في الجنوب - وهي ضرب من الخليط بين روما وبيزنطة وسموها ميكلاجارد (Miklagard) أو ميكلاجارث (أي المدينة العظيمة) - (قارن هذه بكلمة ميكلاباير (Miklabaer) الإيسلندية ومعناها المزرعة العظيمة) . وبلغ من قوة جاذبية الميكلاجارث هذه أن اجتذبت أحفاد رجال الشمال هؤلاء إلى البحر المتوسط بطريقتين ، أولهما من جهة الغرب ، وثانيهما عبر روسيا من بحر البلطيق كما سنبين ذلك فيما بعد . وبالطريق الروسي ذهب كذلك أقرباؤهم السويديون .

ولم يكن الفيك إنجز إلا مجرد مغيرين ما عاش شارلمان وإجبرت ، ولكن مع تقدم الأيام بالقرن التاسع ، تطورت هذه الغارات فأصبحت غزوات منظمة . ففي كثير من نواحي إنجلترا ، لم يكن مركز المسيحية حتى آنذاك وطيدا بأي حال . إذ كان رجال الشمال الوثنيون يلاقون في مرسيا على وجه الخصوص كل عطف ومعاونة . وما أن وافت (٨٨٦) حتى كان قسم كبير من إنجلترا في قبضة الدانيمركيين ، وحتى كان الملك الإنجليزى الفريد الكبير ، قد اعترف بحكمهم لما فتحوه ، (وهو ما يسمى بالقانون الدانيمركى Dane-Law) في الحلف الذى عقده مع جوثرام زعيمهم .

وبعد ذلك بقليل فى (٩١١) وطدت حملة أخرى بزعامة رولف العداء (Rolf the ganger) ، أقدامها على ساحل فرنسا فى الإقليم الذى عرف منذ ذلك الحين باسم نورماندى (أى ببلد رجال الشمال Northman-dy) .

على أننا لا نستطيع أن نحدثك بأى تطويل عن كيف حدث على الفور غزو جديد لإنجلترا على يد الدانيمركيين ، ولا كيف أصبح دوق نورماندى آخر الأمر ملكاً على إنجلترا . والفوارق العنصرية والاجتماعية بين الإنجليز (الأنجل) ، والسكسون والحيوت والدانيمركيين أو النورماندين ضئيلة لا تكاد تذكر ؛ ومع أن هذه التغيرات ترتسم ضخمة فى أخيلة الإنجليز ، إلا أنها والحق يقال تبدو مجرد تموجات طفيفة جدا فى مجرى التاريخ عندما نقيسها بمعايير عالم أكبر .

وسرعان ما اختفت من مشهد النزاع مسألة الخلاف بين المسيحية والوثنية . إذ قبل

الدانيمركيون بمعاهدة ودمور (Wedmore) أن يعتنقوا النصرانية ، إذا ضمن لهم بقاء ما غزوا بأيديهم ، ولم يقف الأمر بأحفاد رولف في نورمندی عند حد التنصير ، بل إنهم تعلموا الكلام بالفرنسية من الشعب المحيط بهم الأكثر منهم تمدناً ، ناسين لسانهم الشمالى (النورسى Norse) الخاص على أن هناك شيئاً . له شأن أعظم قدراً في تاريخ البشرية ، هو علاقات شلمان بجيرانه في الجنوب والشرق ، وعلاقاته بالتقاليد الإمبراطورية .

٥ - شلمان يصبح إمبراطورا على الغرب

أعيدت تقاليد القيصر الرومانى إلى الحياة في أوربا على يد شلمان . كانت الإمبراطورية الرومانية قد ماتت وأخذت تتعفن ؛ وكانت الإمبراطورية البيزنطية ممعنة في الاضمحلال ؛ على أن تعليم أوربا وعقليتها كانا تردبا إلى درك كاد معه كل فكر سياسى جديد خلاق أن يكون ضرباً من المحال . ولعل أوربا بأكملها لم تكن لتحتوى مثقال ذرة من قوة النظر والتفكير التى نجدها في الأدب (١) الأثني في القرن الخامس ق . م . ولم تكن هناك قوة تتصور على سبيل الفرض قيام حالة جديدة أو تضع منهجاً سياسياً جديداً وتنظمه فكراً .

تعمدت المسيحية الرسمية أن تسدل منذ أمد بعيد ستاراً كثيفاً على تلك التعاليم العجيبة الرائعة ، تعاليم يسوع الناصرى التى منها انبعثت - كما أنها روضت. نفسها على تجاهاها . فأما الكنيسة الكاثوليكية فهى حين تشبثت ذلك التشبث الشديد بملكيتها للقب الحبز الأعظم (Pontifex Maximus) ، قد تنكرت منذ ذلك الزمان البعيد لواجبها الذى خلقت من أجله ، وأعنى بذلك بلوغ مملكة السماء . ذلك بأنها كانت مشغولة بإحياء عزة الرومان على الأرض ، التى تصورت أنها تراثها التليد . لقد أصبحت هيئة سياسية ، تستغل إيمان بسطاء الناس وحاجاتهم للمضى قديماً بمشروعاتها وخططها . وتشبثت بتقاليد الإمبراطورية الرومانية وبفكرة أنها هى الطريق الطبيعى لوحدة أوربا .

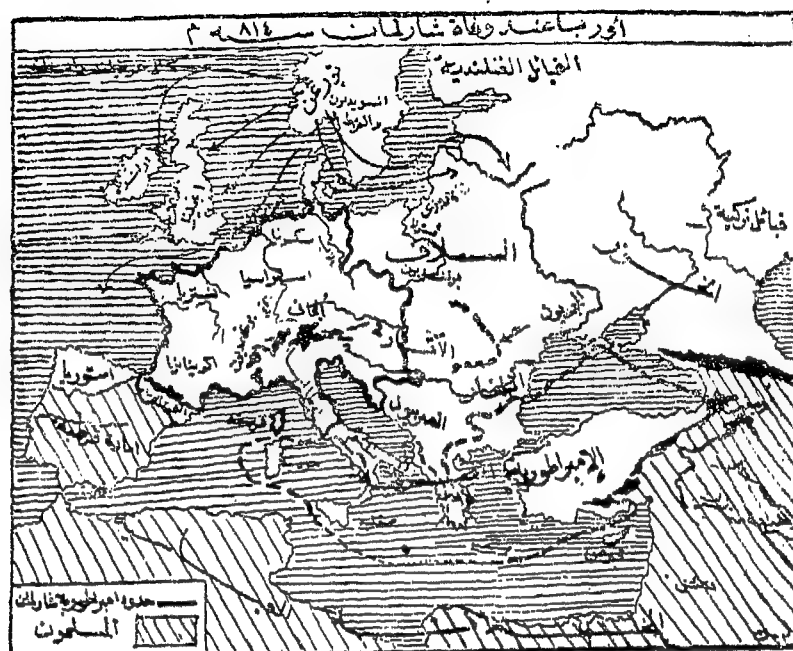
(١) المؤلف هنا كمادته يستخدم لفظة الأدب بمعناها العام الشامل ويقصد بها كل ما ظهر في اللغة من أبحاث ومؤلفات أيا كان نوعها . (المترجم)

على أن أوروبا في ثانيا محاولاتها المتكررة لإعادة تلك الإمبراطورية إلى الوجود ، قد انخرقت إلى تزييف ماثل لها شائه ممسوخ : وإلى ابتعاث كبوات الماضي وسقطاته التي أساءت تصورها .

وانقضت أحد عشر قرناً من عهد شرلمان فما بعده ، و « الأباطرة » و « القياصر » من هذه الأسرة أوتلك يظهرون على مسرح التاريخ الأوربي ثم يتوارون كأنهم خيالات سقيمة تراءى لذهن مضطرب . ونحن على أن نخبرك عن عملية عظيمة من انقو العقلى في أوروبا ، وعن اتساع الآفاق وتجمع القوى ، بيد أنها كانت عملية سارت في طريقها مستقلة عن الأوضاع السياسية للعصر وبالرغم منها ، حتى ترامت آخر الأمر إلى تحطيم تلك الأوضاع تحطياً مطلقاً . وكانت أوروبا أثناء حقبة الأحد عشر قرناً من القياصر الزائفين التي افتتحت بشرلمان ، والتي لم تنته إلا بمجزرة (١٩١٤ - ١٩١٨) الرهيبة الوحشية ، - أشبه شيء بمصنع مزدحم يملكه رجلا مصاب بالتجول أثناء النوم ، فهو في بعض الأحيان تافه لا أهمية له مطلقاً ، وهو في أحيان أخرى معطل للأعمال تعطيلاً ينذر بالشر المستطير . بل لعلنا نشبهها بما هو أقرب إليها من ذلك المتجول في نومه : فنمثلها بجثة هامدة تتخذ بالسحر سببا الحياة . فأنت تشهد الإمبراطورية الرومانية تترنح ثم تنطح على الأرض ، ثم يقذف بها خارج المسرح ثم تعود فتظهر ، كل هذا وكنيسة روما - إن جاز لنا أن نتقدم بهذه (الصورة الخيالية) خطوة أخرى إلى الأمام - هي التي تقوم بدور الساحر وتبث في هذه الجثة سببا الحياة .

ويتواصل طوال تلك القرون كفاح متصل الحلقات ، حول التحكم في الجثة يظل ناشبا بين القوى الروحية ومختلف القوى الزمنية . وقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى الروح التي ينطوى عليها كتاب « مدينة الله » للقديس أوغسطين . وهو كتاب نعرف أن شرلمان طالعه ، أو استمع لتلاوته - إذ أن معارفه الأدبية تكاد تكون موضع الشك . وكان يرى أن هذه الإمبراطورية المسيحية شيء يحكمه ويصون سلامته في أمثل صورة وأسلمها ، قيصر عظيم مثله ، وأن له أن يحكم حتى البابا نفسه .

على أن وجهة نظر روما في شأن الإمبراطورية المبتعثة ، كانت تختلف قليلا عن ذلك . إذ أن الرأي المتخذ هناك هو أن القيصر المسيحي يجب أن يمسه البابا بالزيت



(شكل ١٣٦) خريطة أوروبا عند وفاة شريمان عام ٨١٤ م

المقدس ويهديه سواء السبيل - بل هو الذى تكون له حتى سلطة حرمانه وعزله .
وكان هذا التضارب فى وجهات النظر واضحا حتى فى أيام شرمان نفسه . على أنه
ازداد حدة فى القرون التالية .

ولا شك أن فكرة الإمبراطورية المبتعثة لم تدر بخلد شرلمان فجأة ، بل بغاية البطء والتدرج . فإنه كان في مبدأ الأمر مجرد حاكم على مملكة أبيه الفرنجية ، وكان منهما كلاً بكل قواه في الكفاح مع السكسون والبافارين ومع الصقالبة في شرقهم ، ومع المسلمين في أسبانيا . وفيما شب في ممتلكاته نفسها من ضروب العصيان . وحمله شقاق دب بينه وبين حبيبه ملك لومبارديا على فتح لومبارديا وشمال إيطاليا . وقد رأينا استقرار اللومبارد في شمال إيطاليا قرابة (٥٧٠) بعد الوباء العظيم ، وبعد خلع جستنيان الملوك القوط المشرقيين . كان هؤلاء اللومبارد على الدوام مصدر خطر وخوف للباپاوات ، وقد

أبرمت ضدهم محالفة بين البابا وملك الفرنجة في زمن پپن. والآن أخضع شرلمان لومبارديا تمام الإخضاع (٧٧٤) ، وأرسل حماه إلى أحد الأديرة وحمل فتوحاته إلى ما وراء الحدود الشمالية الشرقية لإيطاليا : إلى دالماتيا (٧٧٦) . وفي (٧٨١) جعل ابنه پپن (الذى لم يعيش بعده) ينصب ملكاً على إيطاليا ويتوج في روما .

وجاء بابا جديد هو ليو الثالث في (٧٩٥) ، وقد عقد العزم منذ البداية على ما يظهر على جعل شرلمان إمبراطوراً . وكان لبلاط بيزنطة حتى ذلك الحين شيء من السلطان غير المحدود على البابا . وكان أقوياء الأباطرة من أمثال جستنيان يخيفون الباباوات ويجبروهم على المثول إلى القسطنطينية ؛ وكان الأباطرة الضعفاء يضايقونهم مضايقة غير ذات أثر . ولطالما خامرت قصر اللاتيران^(١) فكرة الانفصال عن القسطنطينية انفصالا علمانياً ودينياً ، كما تمثل له في الدولة الفرنجية السند الذى لا يد منه إذا أريد تحدى القسطنطينية .

ومن ثم أرسل البابا ليو الثالث إلى شرلمان عند توليته البابوية مفاتيح قبر القديس بطرس ولواء ، رمزاً لسيادته في روما بوصفه ملكاً لإيطاليا . وسرعان ما اضطر البابا إلى الالتجاء إلى الحامى الذى اختار . ذلك أنه كان مكروهاً في روما ؛ فهوجم في شوارعها وأسبثت معاملته أثناء مسيره في أحد المواكب ، واضطر أن يهرب إلى ألمانيا (٧٩٩) . ويقول إجنهارد إن عينيه سملتا وأن لسانه قطع . ويبدو مع ذلك أنه كانت له كل من العينين واللسان مرة ثانية بعد ذلك بسنة من الزمان . فإن شرلمان أعاده إلى روما وردّه إلى منصبه (٨٠٠) .

ثم حدث مشهد بالغ الأهمية . ففي يوم عيد الميلاد (٨٠٠) ، وبينما كان شرلمان ينهض من الصلاة في كنيسة القديس بطرس ، وضع البابا (وكان قد جهز كل شيء) ، تاجاً على رأسه وحياه قيصرأ وأوغسطس . وعج الشعب بالاستحسان العظيم . ولكن إجنهارد صديق شرلمان والمترجم لسيرته ، يقول إن الإمبراطور الحديد لم تسره فعلة

(١) واللاتيران هو قصر الباباوات الأول في روما . ثم احتلوا الفاتيكان فيما بعد . (المؤلف)

البابا المفاجئة هذه بأية حال . فإنه قال : « لو أنه عرف أن هذا سيحدث لما دخل الكنيسة ، مهما بلغ العبد من الجلال ! » . ولا شك في أنه كان يفكر ويتكلم عن جعل نفسه إمبراطورا ، ولكن من الواضح أنه لم يكن يريد أن يجعله البابا إمبراطورا . وكان يحول في خاطره أن يتزوج من الإمبراطورة إيريني ، التي كانت تحكم في القسطنطينية في ذلك الزمان ، وبذا يصبح عاهلا لكل من الإمبراطوريتين الشرقية والغربية . ولكنه أصبح آنثذ مضطرا إلى قبول اللقب على الشاكلة التي رسمها ليو الثالث ، أى بوصفه هبة من البابا وبطريقة أغضبت القسطنطينية وأكدت انفصال روما عن الكنيسة البيزنطية . وكانت بيزنطة في بادئ الأمر غير راغبة في الاعتراف بلقب شارلمان الإمبراطورى . ولكن حدث في ٨١١ أن حلت بالإمبراطورية البيزنطية كارثة عظيمة . فإن البلغار الوثنيين بقيادة أميرهم كروم (Krum) (٨٠٢ - ٨١٥) ، دحروا وشتتوا جيوش الإمبراطور نقفور الذى أصبحت جمجمته كأسا لكروم . وفتح هؤلاء القوم القسم الأكبر من شبه جزيرة البلقان . (وبذلك يكون الشعبان البلغارى والإنجليزى ظهرا كوحدين سياسيتين في وقت واحد تقريباً) . وبعد هذه الكارثة لم تبد بيزنطة أى اعتراض على هذا الابتعاث للإمبراطورية في الغرب ، وفي (٨١٢) اعترف رسمياً بشرلمان إمبراطورا وأوغسطس على يد مندوبين بيزنطيين .

وبذلك تكون إمبراطورية روما التى ماتت على يدى أودواكر (Odoacer) في ٤٧٦ ، قد بعثت من جديد في ٨٠٠ م باسم « الإمبراطورية الرومانية المقدسة » ، وعلى حين أن جسمها وقوتها الجثمانية كانت في شمال جبال الألب ، فإن مركز فكرتها كان روما . فكانت من ثم ، منذ بدايتها شيئا موزعا له قوة غير محددة ، كانت دعوى وجدلا أكثر منها حقيقة لا يستغنى عنها . كيف كان صليل السيف الألمانى يسمع على الدوام في مسيره من فوق جبال الألب إلى إيطاليا ، وكانت بعوث المبشرين والقاصدون الرسوليون يدلّفون من فوقها في الاتجاه المضاد . على أن الألمان لم يتهبأ لهم البتة أن يحتفظوا بإيطاليا باستمرار ، إذ لم يكن في طوقهم تحمل الملاريا التي كانت تلك البلاد المحرقة المهمة غير المصرفة المياه مباءة لها . وثمة تقليد قديم كانت جذوته تنقد خلل الرماد في

روما وفي مدن إيطالية أخرى عديدة ، تقليد أصرق منبتا ، هو أحد التقاليد المتوارثة عن الجمهورية الأرستقراطية ، تلك التقاليد المعادية للإمبراطور والبابا على السواء .

٦ - شخصية شرلمان

من العسير علينا أن نتمثل خلق شرلمان وشخصيته ، وبالرغم من أن لدينا سيرة مكتوبة عنه كتبها معاصره إجنهارد^(١) . ذلك أن إجنهارد يعوزه الإشراق والنصاعة . نعم إنه يدل إلينا بتفاصيل كثيرة ، ولكنها ليست التفاصيل التي تبعث الحياة في صورة الرجل المسجلة . وهو يقول إن شرلمان كان رجلا طويل القامة ، له صوت ضعيف أو يكاد ، وكانت له عينان هراقتان وأنف طويل . « وكانت قمة رأسه مستديرة » ، (وما ندرى لذلك القول معنى) . وكان أشيب الشعر . وكانت رقبتة غليظة قصيرة نوعاً و « بطنه شديد البروز » . وكان يلبس لإزارا Tunic^(٢) مطرز الحواشي بالفضة وجوريا له أربطة للساق . وكانت له عباءة زرقاء ، وكان على الدوام متقلدا سيفه ، وكان مقبضه وحامله من الذهب والفضة .

وواضح أنه كان رجلا جم النشاط - وإن الإنسان ليتصوره يتحرك بسرعة - ولم تحمل غرامياته العديدة قط دون قيامه بأعماله الحربية والسياسية التي لم تنقطع . كانت له زوجات عديدات وخليلات كثيرات . وكان يكثر من مزاولة الرياضة ؛ وكان مغرمًا بالأبهة والحفلات الدينية ، كريماً يجزل العطاء . كان رجلا متعدد نواحي النشاط عظيم الإقدام الذهني ، وكان على ثقة بالنفس تكاد تذكر المرء بغليوم الثاني إمبراطور ألمانيا السابق الذي هو آخر - وربما كان ذلك إلى الأبد - هذه المجموعة من القياصرة الزائفين بأوربا الذين يقوم على رأس قائمتهم شرلمان .

والحياة العقلية التي يسجلها عنه إجنهارد شائقة لا تخلو من متعة ، لأنها لا تقف عند إعطائنا لمحات عن شخصه مستطلعة ، ولكنها تمثل لنا نموذجا من عقلية ذلك الزمان . كان له إلمام بالقراءة ؛ والراجح أنه كان أثناء تناوله الطعام « يصغى إلى

(١) انظر : «Life of Karl the Great» تأليف إجنهارد (جلايستر) .

(٢) هوردا روماني يشد بنطاق حول الخصر . (المترجم)

الموسيقى أو القراءة » ، ولكن يحدثنا مؤرخه بأنه لم يتعلم فن الكتابة ؛ « وكان من عادته أن يضع دفتره وألواحته تحت وسادته ، حتى يمرن يده على كتابة أشكال الحروف إذا تهيأت له فسحة من وقت الفراغ ، ولكن تقدمه كان طفيفاً في ذلك الفن الذى ابتدأه في وقت متأخر جداً من حياته » . ومع ذلك فقد كانت نفسه تنطوى على احترام حق للعلم ورغبة صادقة في المعرفة ، وبذل قصارى جهده ليجتذب رجال العلم إلى بلاطه . ومن بين الكثيرين الذين وفدوا عليه الكوين (Alcuin) وهو عالم إنجليزى .

وكان كل هؤلاء العلماء بالطبع من رجال الكنيسة (الإكليروس) ، إذ لم يكن هناك أى علماء آخرين ، وطبعاً أنهم كانوا يصبغون المعلومات التى يقدمونها لسيدهم بصبغة قوية من الدين . وكان مقر بلاطه في العادة لكس لاشابل أو مايانس ، فإذا حلت شهور الشتاء أقام فيه مؤسسة غربية تسمى « مدرسته » ، وفيها كان يتظاهر هو وخلطاؤه اللوذعيون أنهم يبنذون جانباً كل تفكير في المراكز الدنيوية ، ويتخذون لأنفسهم أسماء مستقاة من كتاب الآداب الكلاسيكية القديمة أو من الأسفار المقدسة ، ويتناقشون في اللاهوت والأدب . فأما شارلمان نفسه فكان يتسمى باسم « داود » . فأفاد علماً غزيراً ومعرفة جسيمة باللاهوت ، وإليه ينبغي لنا أن ننسب اقتراح إضافة عبارة : « وعن الابن أيضاً Filio que » إلى قانون إيمان العقيدة النيقية^(١) — وهى إضافة انتهت آخر الأمر بانفصال الكنيستين اللاتينية واليونانية إحداهما عن الأخرى . ولكننا نشك كثيراً في أنه كان يرى إلى مثل هذه الفقرة . فإن كل ما أراد أن يضيف إلى قانون الإيمان المسيحى كلمة أو ما إليها ، كما شاء الإمبراطور غليوم الثانى بالضبط أن يكتب المسرحيات الغنائية (الأوبرات) وأن يدبج الصور ، وكان بذلك يتخذ لنفسه ما كان في الأصل بدعة أسبانية . فلم يقبل تلك الإضافة أحد إلا بعد زمن طويل ؛ واقتضت حكمة البابا ليومعارضتها . وعند ما تم قبولها آخر الأمر ، كان ذلك على الأرجح عمداً بقصد إحداث الانفصال عن الكنيسة اليونانية . والنقطة التى ينطوى عليها الموضوع ، نقطة دقيقة خفية ولكنها حيوية ، غير أن كاتب هذه السطور

(١) يشير كما أسلفنا إلى المجمع الذى عقده قسطنطين (٣٢٥ م) وأصدر قانونه (إيمان) نظراً

إلى أنه شائع بيننا في هذا

(ص ٧٤١) . (المترجم)

لا يستطيع أن يدلى فيها برأى . فالمسيحية اللاتينية تعتقد أن « الروح القدس » ينبثق من الآب « وعن » الإبن ، على حين يعتقد المسيحيون اليونان والشرقيون بأن « الروح القدس » إنما ينبثق من الآب دون أى ذكر للإبن . وهذا الاتجاه الثانى يبدو كأنما يميل هوئلاً ما نحو وجهة النظر الآريوسية . ولن نسوق إليك هنا إلا القليل من القول فى تنظيم شرلمان للإمبراطورية . فقد كان من شدة القلق وعدم الاستقرار وكثرة المشاغل بحيث لم يتهياً له أن يدرس صفة خلفه أو يبحث فى شروط الاستقرار السياسى ، وأجدر الأمور بالذكر فى هذا الصدد هى أنه أوصى ابنه وخليفته ، لويس الورع (٨١٤ - ٨٤٠) ، بأن يأخذ التاج من المذبح « ويتوج نفسه بنفسه » . على أن لويس الورع كان أتقى من أن يتمسك بهذه التعليمات عتد ما اعترض البابا .

وتأثر تشريع شرلمان أعظم التأثير بقراءته للكتاب المقدس ؛ فإنه أصبح مع تقدم الزمن ، جيد المعرفة بالكتاب المقدس ، ومن خصائصه الماثورة أنه بعد ما توج لإمبراطوراً ، طلب إلى كل ذكر من أفراد رعيته تجاوز الثانية عشرة أن يحدد له قسم الولاء والطاعة ، وأن يتعهد بأن يكون لا مجرد فرد طيب من أفراد الرعية بل مسيحياً صالحاً . وكان رفض التعميد والارتداد بعد التعميد جرائم عقوبتها الإعدام .

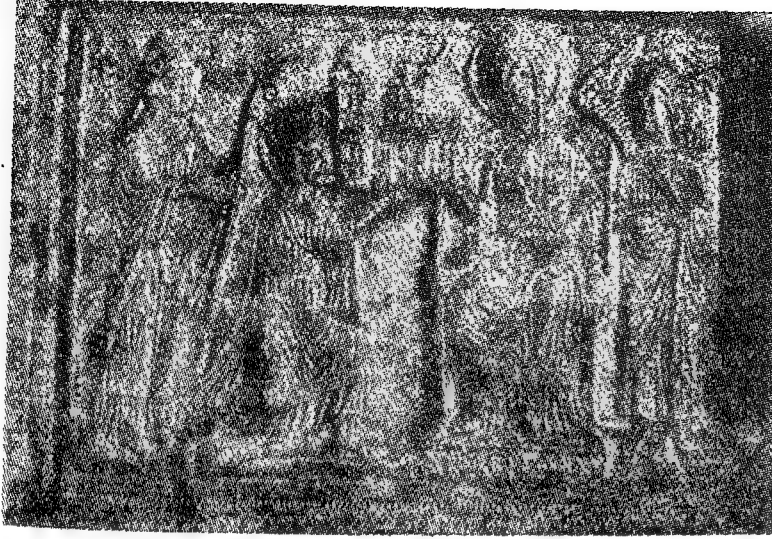
فعل الشئ الكثير لتشجيع فن العمارة ، فاستحضر معماريين إيطاليين عديدين ، من رافننا (Ravenna) بصفة خاصة ، ونحن مدينون لهم بكثير من المباني الجميلة التى ما زالت تبهج السائحين فى ورمز وكولونيا (كولن) وغيرهما من بلدان أرض الراين . وبذل جهداً كبيراً للنهوض بفن العمارة « الرومانسكى »^(١) الذى سنصفه فى القسم التالى . وأسس عدداً من الكاتدرائيات ومدارس الأديرة ، وفعل الشئ الكثير لتشجيع دراسة اللاتينية (الكلاسيكية) القديمة ، وكان هاوياً ممتازاً شديد الولع بموسيقى الكنيسة . على أن احتمال تحدته باللاتينية وفهمه للإغريقية مسألة فيها جدال ونظر ؛ ولعله كان يتكلم اللاتينية الفرنسية . ومع ذلك فإن الفرنجية (Frankish) هى لغته العادية . وقام بجمع مجموعة من الأغاني والأفاصيص الألمانية القديمة . على أن خلفه لويس الورع دمر هذه لوثنيتها .

(١) الرومانسكى طراز من فن العمارة وسط بين الطرازين الرومانى والقوطى . انتشر بغرب أوروبا بين القرن التاسع والثالث عشر . (المترجم)

وتبادل الرسائل وهرون الرشيد الخليفة العباسي ببغداد ، الذي يحتمل أن مودته له لم تتأثر قط بما لقيه العرب الأمويون في أسبانيا على يديه من شديد النكال ويرى جيبون أن هذه « المراسلات العلنية كانت تقوم على الغرور » ، وأن « مركزيهما المتباعدين لم يتركأ أى مجال لاحتكاك المصالح » . ولكن لما كانت الإمبراطورية البيزنطية تقوم بينهما في الشرق ، والخلافة المستقلة بأسبانيا في الغرب ، والخطر المشترك من أترك السهول العظيمة ، فقد كانت لهما أسباب ثلاثة قوية تدعو إلى تبادل المودة القلبية . ويقول جيبون إن هرون الرشيد أرسل إلى شرلمان على يد سفرائه فسطاطاً فاخراً وساعة مائة وفيلاً ومفاتيح الناووس المقدس . والهيئة الأخيرة تشير إلى أن المليك العربي كان يعدّ شرلمان إلى حديقاً ، حامى المسيحيين والممتلكات المسيحية في مملكته ، ويعلن بعض المؤرخين صراحة — أنه قد كانت هناك معاهدة بهذا الصدد .

٧ - الفن والعمارة الرومانسيان

كان يحدث في الشرق بدافع المؤثرات المسيحية ، أن فن عمارة الإمبراطورية الرومانية الفاخر الاتزان والجمود ، أى فن العمارة الذي يوجد في تدمر وبعبك . قد ألم به تحوير سريع عميق تحول به نحو جمود الجزالة الأثرية التي للطراز البيزنطى ؛ أما في الغرب فكانت تلم به تطورات مشابهة وإن لم تكن مناظرة لتلك تماماً . وقد شاع إطلاق اسم « الرومانسكى » على أضرب جمّة من المباني تتبدى فيها جميعاً صفة مشتركة ، لأنها مشتقة جميعاً من التقاليد الفنية الرومانية ، التي أوهن قوتها وكبحها انتشار الفقر بصفة عامة في أرجاء العالم ، ولكتها تشهد أيضاً في كل مكان بوجود تأثيرات عنصرية جديدة وضرورات اجتماعية جديدة . فلم تعد هناك بعد أية مدرجات ولا أية سقايات عظيمة للماء ولا أى أقواس نصر ولا معابد تقام للآلهة . بل كانت هناك حصون وقللاع ضخمة مستديرة أو مربعة ، وكنائس وأبراج . ويصبح البرج آنذاك لأول مرة مهما في أوربا ؛ ذلك أن فن العمارة أخذ يعلو صُعُداً . وقد كنا حتى الآن لا نشاهد



(شكل ١٣٧) رسم بارز من قبر شلمان في إيكس لاشابل يمثل وهو يكرس كنيسة للعدراء

الأبراج إلا في أرض الجزيرة بالعراق . ولم تحاول المباني في العالم المصرى ولا الهلنئى ولا الرومانى أن تشق عنان السموات . حقاً إنه توجد أبراج في التحصينات الرومانية والهلنئية وفي سور الصين العظيم ، وهى أجزاء من الاستحكامات الدفاعية ، ولكن هذا يكاد يكون كل مظهر من الأبراج حتى الحقبة المسيحية . ثم يصبح البرج ضرورة لا بد منها في عالم يغير عليه الهون والعرب وقراصنة البحر من كل الأنواع . وسنجد ذلك في قسم قابل عن أهل الشمال (Northmen) والعرب والمجريين . وتصبح الكنيسة ضرورة أخرى بسبب صلاة الجماعة التى يدعو إليها الدين الجديد ، وطبعى أن يظهر الاثنان جنباً إلى جنب .

وتشترك ديانتا « الكتاب والفكرة » الجديدتان : النصرانية والإسلام ، في هذه الصفة ؛ فإنهما جهدتا أن تصلا إلى قلب كل إنسان . فكان لابد من حشد الناس في مكان العبادة والقربان ؛ وكان لابد من تذكيرهم بالصلاة والعقيدة . ولذا أطلق فن العمارة الإسلامى أرق زهراته ، وهى المئذنة التى يمكن من فوقها دعوة الناس

وهذا بهم . ولم تعد المسيحية تستطيع الاكتفاء بالمعبد المظلم الصغير الخاص بالآلهة الأقدمين ؛ فكان لزاماً أن تبنى الكنائس كبيرة متسعة الجنبات ، لتضم كل من في الناحية من المؤمنين . وكان لابد من دعوة الناس بوج الجرس . فهاجر طراز المعبد الإمبراطوري ، ودعت الحاجة إلى المباني القسيجة المعماريين المسيحيين للتحويل بوجهتهم إلى نموذج دور القضاء الرومانية وأعنى بها الباسيليكا (Basilicas) ^(١).

ومن المستحيل علينا في هذا المجال المتاح لنا أن نقفوا الفن « الرومانسكى » بمختلف أنواعه وأشكاله الجملة ، فراه وهو ينتقل متحولاً إلى فن بيزنطى ناحية الشرق ثم وهو يُعدّل على يد النورمانديين والسكسون والفرنجة . على أن عهد الاستقرار الذى حل لبان حكم شارلمان جمع تحت رعايته كل ما فى أوربا الغربية من قوى فنية ، وإنما يصل الطراز للرومانسكى إلى أبرز مستويات تعبيره عن ذاته فى مباني كاتدرائية لكس لاشابل (آخن) وأمثالها .

وكما حدث من اختفاء الأشكال المجسمة المثلثة للكائنات الحية الذى لاحظناه فى الفنين البيزنطى والعربى ، تواصل فى أوربا الغربية أثناء تلك العصور المضطربة ، اختفاء مناظر له وإن لم يكن تاماً . حتى أن المثال الذى كان يستطيع أن يعالج بقوة أوضاع الإنسان أو الحيوان ، لم يعد له وجود على ظهر البسيطة فى أية منطقة غربى بلاد الهند . والتجأ فن النقش والتصوير إلى الأديرة . إذ أن تحلية الكتب بالصور ارتفعت إلى مستويات عالية من الإنقان فى الإمبراطوريتين الرومانية والهلينية ، ولم تندثر قط اندثاراً تاماً . وإنما أبقاها على قيد الحياة غدوات الرهبان المسيحيين وروحانهم ، كما كان يتجدد فيها النشاط بتبادل الأساليب والفكرات . وكانت الأديرة الإيرلندية تخرج منذ عصر مبكر يتناهى إلى القرن السابع مخطوطات ذات جمال أخاذ . ويرجع كتاب الرقائق ^(٢) (The Book of Kells)

(١) الباسيلة، أو البازيليك أصلها عند الرومان قاعات مستطيلة ذات صفي من الأعمدة ولها محراب نصف دائرى فى نهايتها ، تستخدم فى الشؤون القضائية والمالية - وتحول أكثرها فيما بعد إلى كنائس مسيحية . (المترجم)

(٢) كلمة معناها الخلد الرقيق أو الغشاء أو المشبكات (على نحو ما يراه الإنسان فى الشبكة من خيوط متقاطعة تاركة بينها ثقوباً أو منافذ) وعليه يمكن تسمية هذا الكتاب باسم « كتاب الرقائق أو المشبكات » (المترجم)

الذى هو نسخة من الأناجيل بكلية ترينتى (Trinity College) بدبلن ، إلى ذلك العهد . ويمثل الإنتاج الكلتى الانتاج العربى الأول مماثلة غربية فى امتناعه عن استخدام صور الأشكال الحية فى زخارفه . وألوانه وتصميماته بدیعة ، ولكن الرسم فيه زرى حقیر . واختلطت المؤثرات الكلتية بالمؤثرات الكلاسيكية والبيزنطية فى النهضة الفنية ببلاط شلمان . وهناك ارتفعت المخطوطات المحلاة بالصور المثقلة بالذهب إلى أبدع وأروع مستوياتها .

على أن بعض المنتجات الإنجليزية والنورماندية تبدى شيئاً من التمرد بإظهارها ميلا إلى الفن التمثيلى ورسم الأشكال بالخط المحيطي^(١) Outline ، وسرعان ما تنطلق نحو عمل الصور المصغرة Miniatures أو المنمنمات . على أن الانحطاط التدريجى الذى لحق فن تحلية المخطوطات بالصور ، واختفاء روح المبادهة والاختراع فيها بسبب انحراف الطاقة الفنية إلى أوساط Media أخرى^(٢) ، لم تصبح ملموسة إلا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

— الفرنسيون والألمان يتم انفصالهم

لم تعش إمبراطورية شلمان بعد ابنه وخليفته لويس الورع ، فلإنها انشطرت إلى أجزائها الرئيسية الأصلية . ذلك أن سكان بلاد الغال من الكلت والفرنجة ذوى الصبغة اللاتينية يأخذون عند ذاك فى أن يتميزوا تحت اسم فرنسا ، وإن كانت فرنسا تلك منقسمة إلى عدد من الدوقيات والإمارات انقساماً لم يجعل لها معه فى معظم الوقت إلا وحدة إسمية ؛ وشرعت الشعوب الناطقة بالألمانية بين نهر الراين وبين الصقلية فى الشرق تكون بالمثل صورة لألمانيا أشد من صورة فرنسا القسماً . حتى إذا ظهر آخر الأمر إمبراطور حقيقى فى أوروبا الغربية (٩٦٢) ، فإنه لا يكون فرنجيا بل سكسونيا فقد أضحي المغلوبون فى ألمانيا هم السادة .

ولما لئرى هاهنا أول الإشارات إلى صنف جديد من أصناف التجمع السياسى فى أوروبا ، وهو فجر ما نسميه الآن « بالقومىة Nationalism » . وهى شىء أشبه ما يكون ببداية إحدى عمليات التبلور ، أو قل لأنها عملية تخارج وفرز حدثت فى الخلط المتلاطم التام الاضطراب الذى جاء فى أعقاب تحطم النظام الإمبراطورى .

(١) الخط المحيطى : طريقة فى الرسم تبرز فيها الخطوط الخارجة للشيء من غير تظليل . انظر

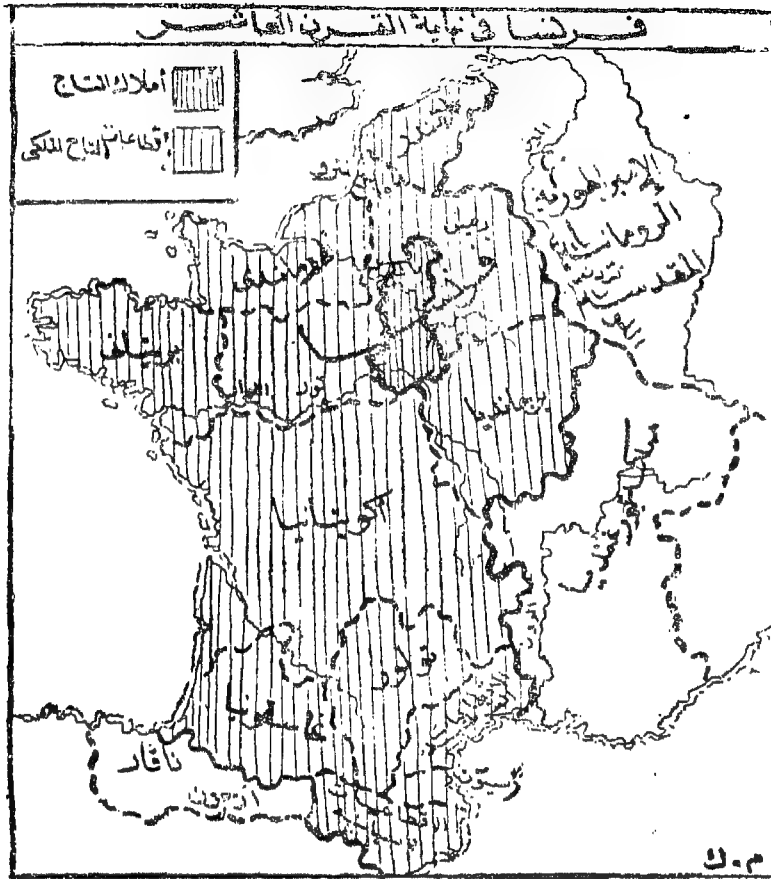
للمترجم كتاب « التربية عن طريق الفن » لهربرت ريد (الألف كتاب)

(٢) الوسط : المواد والأساليب والوسائل الفنية والمادية والتقنيكية للتعبير الفنى . (المترجم)

ومحال أن نفقو في هذا المقام أحداث القرنين التاسع والعاشر بأى قدر من التفصيل ، سترسمين ما جرى فيه من المخالفات والخيانات والادعاءات وصنوف الضم والاستبلاء . فقد كانت تعم أوروبا حالة من الفوضى والخروج على القوانين وحروب وكفاحات من أجل القوة والسلطان . وفي (٩٨٧) انتقل ملك فرنسا الإسمى من أيدى الكارلوفنجيين ، وهم آخر سلالة شرلمان إلى يد هيو كاپيت ، الذى أسس أسرة ملكية جديدة . وكان معظم أتباعه المزعومين مستقلين فى الحقيقة ، نزاعين إلى خوض غمار الحرب على الملك لأقل استفزاز . فكانت ممتلكات دوق نورماندى مثلاً أشد سعة وأعظم قوة مما كان يملكه هيو كاپيت نفسه . وتكاد الوحدة الوحيدة التى تجمع شتات فرنسا هذه ، التى كان للملك عليها سلطة إسمية ، تنحصر فى عزم ولاياتها الكبرى جميعاً على مقاومة أى اندماج فى أية إمبراطورية يتسلط عليها حاكم ألماني أو يسودها البابا . وفيما عدا ذلك التنظيم البسيط الذى كانت تملبه تلك الإرادة المشتركة ، فإن فرنسا لم تزدد عن رقعة شطرنج مكونة من نبلاء مستقلين أو يكادون . كانت الحقبة حقبة بناء قلاع وإقامة تحصينات ، وفترة ما يسمونه « بالحرب الخاصة » فى كل أرجاء أوروبا .

وتكاد حالة روما فى القرن العاشر أن تعجز القلم عن أى وصف . فإن انحلال إمبراطورية شرلمان ترك البابا ولا حامى له : تهدده بيزنطة والعرب (الذين استولوا على صقلية) ، ويتحرش به نبلاء روما الشرسون . ومن أقوى هؤلاء النبلاء امرأتان ، هما تيودورا وماروزيا وهما أم وابنتها^(١) ، تعاقبتا فى الاحتفاظ بقلعة سانت أنجلو (انظر ص ٨٣٠) ، التى استولى عليها ثيوفيللاكت زوج تيودورا النبيل ، كما استولى على معظم سلطة البابا الزمنية . وكانت هاتان المرأتان من الجراة وموت الضمير للخلاعة كائى أمير ذكر فى ذلك الزمان ، والمؤرخون يسبونهما كأنما كانتا أسوأ من الأمراء عشر مرات . وقبضت ماروزيا على البابا يوحنا العاشر وسجنته (٩٢٨) ، وسرعان ما توفى فى ظل رعايتها ! ! . فأما أمها تيودورا فكانت خيلة له . ثم نصبت ماروزيا بعد ذلك ابنها غير الشرعى على عرش البابوية ، باسم يوحنا الحادى عشر .

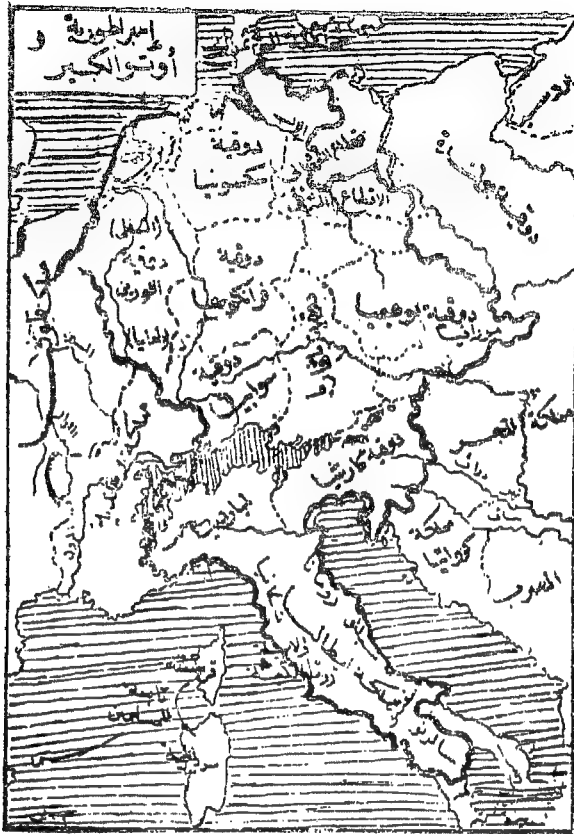
(١) ويذكر جييون اسم تيودورا أخرى ، هى شقيقة ماروزيا . (المؤلف)



(شكل ١٣٨) خريطة فرنسا في نهاية القرن العاشر

ومن بعده شغل كرسي القديس بطرس حفيدها يوحنا الثاني عشر. وإن ما سطره جيهون عن سلوك يوحنا الثاني عشر وأخلاقه ، ليتوارى آخر الأمر خجلا وراء ستار من الهوامش اللاتينية . وقد جرد هذا البابا يوحنا الثاني عشر من منصبه على يد الإمبراطور الألماني الحسدريد أوتو ، الذي عبر جبال الألب وانحدر إلى إيطاليا ليتوج (٩٦٢) .

وهذه السلالة الجديدة من الأباطرة السكسون ، التي ارتفعت على هذا النحو إلى



(شكل ١٣٩) خريطة لإمبراطورية أوتو الكبير

وتبة الصدارة ، تنسب إلى شخص معين اسمه هنري الصياد ، انتخبته ملكاً لألمانيا جمعية من النبلاء والأمراء والأحبار الألمان في (٩١٩) . وفي (٩٣٦) خلفه في الملك ابنه أوتو الأول الملقب بالكبير ، الذي انتخب كذلك خليفة له في إكس لاشابل ، وهو الذي انحدر آخر الأمر إلى روما بدعوة من يوحنا الثاني عشر لكي يتوجّه إمبراطوراً في (٩٦٢) . وقد أجبره على تجريد يوحنا فيما بعد خيانة ذلك البابا له . ولما تسلم

أوتو الأول مقاليد سلطته الإمبراطورية ، لم يكن ذلك منه تغلباً على روما قدر ما كان إعادة للنزاع القديم على السلطان بين البابا والإمبراطور إلى حالة تداي الاعتدال والكرامة . وتبع أوتو الأول على العرش أوتو الثاني (٩٧٣ - ٩٨٣) ، الذي أعقبه أوتو الثالث (٩٨٣ - ١٠٠٢) .

وربما جاز لنا أن نشير هنا أنه ظهرت ثلاث أسرات من الأباطرة في أوائل القرون الوسطى - هي السكسونية : من أوتو الأول (٩٦٢) إلى هنري الثاني ، وتنتهي في (١٠٢٤) ؛ والساليانية^(١) : من كونراد الثاني إلى هنري الخامس وتنتهي

(١) كلمة **Salian** مشتقة من سالو **Salii** وهم كهنة إله الحرب مارس **Mars** عند قدماء الرومان . والمقصود هنا من كلمة ساليان هو النسبة إلى قبيلة من قبائل الفرنجة استوطنت الراين الأدنى . (المترجم)

قراية (١١٢٥) ، ثم أسرة هوهنشتاوفن ، كونراد الثالث إلى فردريك الثاني ،
وتنتهى فى (١٢٥٠) . وكانت أسرة هوهنشتاوفن سوابية الأصل . ثم جاءت أسرة
هابسبرج ، مبتدئة برودلف الأول فى (١٢٧٣) ، واستمرت حتى (١٩١٨) .
ولما نتكلم عن الأسرات المالكة هنا ، وإن جرت العادة بإقامة احتفال عظيم
لانتخاب كل إمبراطور عند تولّيه العرش .

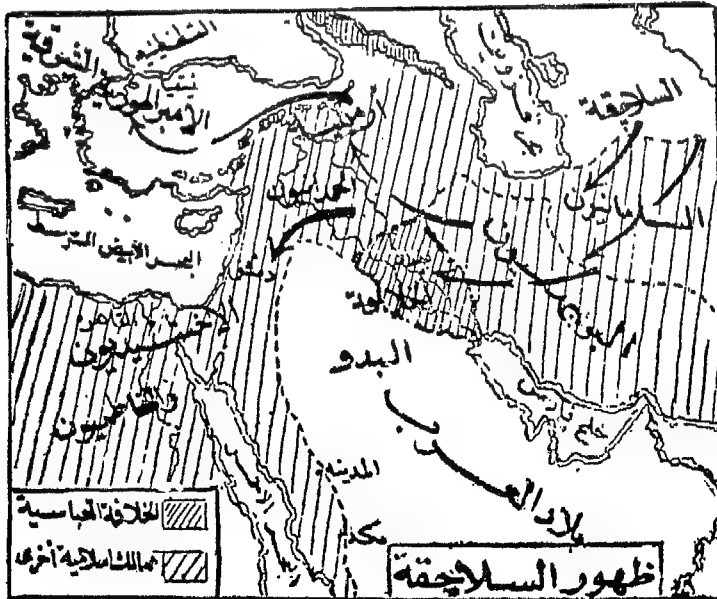
ويلعب الكفاح بين الإمبراطور والبابا على السيادة فى الإمبراطورية الرومانية
المقدسة دوراً كبيراً فى تاريخ الشطر الباكر من القرون الوسطى ، وسرسم لك
من فورنا صورة تخطيطية لأدواره الرئيسة . ومع أن الكنيسة لم تنحدر بعد ذلك
أبدأ إلى مستوى يوحنا الثانى عشر ، فإن تاريخها يتقلب بين أدوار من القسوة
العظيمة والقوضى الشديدة والمؤامرات الجاحمة .

ومع كل هذا فإن التاريخ الظاهرى لعالم المسيحية ، ليس التاريخ الكامل
لذلك العالم . فإما أن قصر اللاتيران كان يضارع فى الدهاء والحمق والإجرام
معظم البلاطات المعاصرة له ، فشىء لا مناص من تسجيله . على أننا إن
أردنا أن نحافظ على التناسب التام اللازم فى هذا السفر التاريخى ، فواجبنا
يحتّم علينا ألا نشطّ فى توكيد ذلك . وينبغى لنا أن نتذكر أنه على إكر
تلك العصور جميعاً ، ظل ما لا حصر له من رجال ونساء لهم أثرهم العميق فى
هذه الدنيا ، وإن لم يخلفوا من ورائهم أن أثر تسجيله صفحة المؤرخ ،
أقول ظلوا يعيشون متأثرين بتلك الروح الصادرة عن يسوع الناصرى التى بقيت
حية بل لن تبرح حية فى لباب المسيحية وسويداتها ، يعيشون متأثرين بذلك تأثراً
حملهم على اتخاذ سبيل للحياة كريم فى جملته ينطوى على متبادل العون ، كما دفعهم
إلى بذل كل عمل يتجلى فيه الإخلاص وعدم الأنانية . كانت مثل تلك الأنفس
بركة تزيل من جو تلك العصور كل ما علق به من أدران ، ونعمة تتيح للناس
حالماً أفضل . وكان ذلك على غرار ما كان فى العالم الإسلامى حيث أنتجت روح
الإسلام جيلاً بعد جيل ثمارها من الشجاعة والأمانة والرفق

٩ - النورمانديون والعرب والمجريون والأتراك السلجوقيون

وبينما كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة وشعوب فرنسا وإنجلترا تظهر كما ترى في وسط التمزق السياسي البالغ الذي أصاب مدينة أوروبا الغربية ، فإن كلا من هذه المملكتين والإمبراطورية البيزنطية قد تعرضت لهجوم مثلث الجوانب : من دول العرب ، ومن أهل دول الشمال ، ثم من شيء ثالث هو أبطؤها جميعاً تطوراً وأشدّها بأساً : من زحف جديد نحو الغرب قامت به الشعوب التركية خلال جنوب روسيا ، ومن آسيا الوسطى كذلك بطريق أرمينية وإمبراطورية بغداد .

فبعد أن أسقط العباسيون خلافة الأمويين ، تناقصت قوة الدافع العربي ضد أوروبا . لم يعد العالم الإسلامي متحداً : إذ كانت أسبانيا تحت حكم خليفة أموى منفصل ؛ على حين أن شمال أفريقية وإن كان خاضعاً بالاسم للعباسيين ، كان في حقيقته مستقلاً ؛ وما لبثت مصر أن أصبحت في (٩٦٩) دولة منفصلة لها خليفة شيعي خاص بها ، وهو رجل ادعى الانتساب إلى علي وفاطمة « وأسس الخلافة الفاطمية » .



(شكل ١٤٠ خريطة ظهور السلجوق)

وكان هؤلاء الفاطميون المصريون ، وهم المسلمون ذوو العَلَم الأخضر ، متعصبين بالمقارنة إلى العباسيين ، وفعلوا الشيء الكثير لتشويه ما بين الإسلام والمسيحية^(١) من صلات طيبة . فاستولوا على بيت المقدس ، وتدخلوا في زيارة المسيحيين للمقبر المقدس ، وكانت هناك كذلك في الناحية الأخرى من الأملاك العباسية المتقلصة ، مملكة شيعية مقرها فارس . وكان أهم فتح قام به العرب في القرن التاسع هو صقلية ؛ ولكن ذلك الفتح لم يتم اجتياحاً على الطراز الرائع القديم أى في سنة أو ما يقاربها ، بل تم إخضاعها في جهد جهيد خلال قرن كامل من الزمان ، ومع نكسات كثيرة في كفة الحرب ، وكان عرب أسبانيا يتنازعون في صقلية مع عرب إفريقية . وكان العرب في أسبانيا ينهزمون ويتخلون عن أرضها أمام نهضة جديدة بذلها المسيحيون . ومع ذلك فلم الإمبراطورية البيزنطية وعالم المسيحية الغربية كانا ما يزالان من الضعف في البحر المتوسط بحيث استطاع المغربون والقراصنة العرب من شمال إفريقية ، أن يغيروا على جنوب إيطاليا والجزر اليونانية دون أن يجروا أحداً على تحديهم .

على أن قوة أخرى جديدة أخذت تظهر آنذاك في البحر المتوسط . وقد سبق أن أشرنا أن الإمبراطورية الرومانية لم تبسط نفوذها مطلقاً على شواطئ البلطيق ، ولا كان لديها قط القوة لدفع سلطانها إلى بلاد الدانيمرك . وتعلمت الشعوب الآرية النوردية في تلك الأقاليم المهمة الشيء الكثير من الإمبراطورية التي لم تستطع إخضاعهم ؛ وقد استطاعوا كما أسلفنا النهوض بفرن بناء السفن وأصبحوا ملاحين ذوى إقدام ؛ فانتشروا عبر بحر الشمال غرباً ، وعبر بحر البلطيق وأعلى الأنهار الروسية إلى صميم ما هو الآن روسيا . وكانت نوفاجورود الكبرى من أقدم مستعمراتهم فيها .

ولأن دارس التاريخ لا يفتأ يجد في حالة هذه الشعوب الشمالية ما كان يثقله من المشقة والربكة لدى دراسته للإسكيذيين في الأزمان القديمة ، والشعوب التركية

(١) أطلق هنا المؤلف القول على عواهنه ، إذ المعروف حقيقة أن تسامح الفلطيبيين مع السنين والكتابيين كان مضرب الأمثال ، فقد اتخذوا من المسيحيين واليهود على السواء وزراء وكاتبى أسرار وتزوجوا منهم ، وكان بعض خلفائهم من أمهات كتابيات . (المترجم)

الهلونية في آسيا الشرقية والوسطى . فلأنها تظهر تحت عدد وفير من الأسماء ، كما أنها تتغير وتتخالط . ففي حالة بريطانيا مثلاً ، ترى أن الإنجليز والسكسون والحث قد غزوا معظم ما هو الآن بريطانيا في القرنين الخامس والسادس ، وجاء في أعقابهم في القرنين الثامن والتاسع الدانيمركيون وهم موجة ثانية من نفس الشعب تقريباً ؛ وفي (١٠١٦) حكم في إنجلترا ملك دانيمركي ، هو كانوت الكبير ، ولم يقتصر ملكه على إنجلترا بل تعداها إلى الدانيمرك والنرويج . وكان رعاياه يمحرون البحر بسفنهم إلى أيسلندة وجرينلندة وربما إلى القارة الأمريكية ، وجاء حين من الدهر تبدت في الأفق فيه إبان حكم كانوت وأبنائه ، بوادر احتمال إنشاء اتحاد عظيم من أهل الشمال .

ثم انشلت في (١٠٦٦) موجة ثالثة من نفس الشعب إلى إنجلترا ، من دولة « النورمان » في فرنسا ، حيث كان أهل الشمال مستقرين منذ أيام رولف العداء (٩١١) ، وحيث تعلموا أن يتكلموا الفرنسية . وأصبح وليم دوق نورماندى وليم الفاتح (١٠٦٦) في التاريخ الإنجليزي .

وإذا نظرنا إلى هذه الشعوب من زاوية التاريخ العام ، وجدناها جميعاً تكاد تكون شعباً واحداً ، وألفينها موجات من أرومة نوردية (شمالية) واحدة . ولم تكن هذه الموجات تتجه غرباً فحسب بل شرقاً كذلك . ولقد سبق لنا أن سجلنا حركة جد شائقة قبل هذه لنفس الشعوب تحت اسم القوط تتجه من البلطيق إلى البحر الأسود . وتبعنا تفرع هؤلاء القوط إلى القوط الشرقية والقوط الغربية ، كما تأثرنا التجولات المليئة بالمغامرات التي انتهت آخر الأمر بتكوين مملكة القوط الشرقيين في إيطاليا ودويلات القوط الغربيين في أسبانيا . في القرن التاسع ، كانت لأهل الشمال حركة ثانية عبر روسيا في نفس الوقت الذي كانت فيه مؤسساتهم في إنجلترا ودوقيتهم في نورماندى قد أخذت تظهر إلى عالم الوجود .

ولاشك أن بين سكان جنوب اسكتلندة وإنجلترا وشرق إيرلندة وفلاندر ونورماندى والدول الروسية من العناصر المشتركة ما لا يكاد يخطر ببالنا بحكم الإلف

والعادة . فهم جميعاً من الناحية الأساسية شعوب قوطية ونوردية . وإن القرابة بين الروس والإنجليز لنلاحظ حتى في موازين الطرفين ومكاييلهم . فإن لدى كل منهما البوصة والقدم الشماليين (Norse) ، كما أن كثيراً من الكنائس النورماندية الأولى في إنجلترا قد بنيت على مقياس بين استعمال الساجيني (وهو يعادل ٧ أقدام) وربع الساجيني ، وهو مقياس نورسي (شمالى) لا يزال مستعملاً في روسيا . وكان أهل الشمال « الروسيون » هؤلاء يسافرون زمن الصيف ، مستعملين الطرق النهرية الوفيرة في روسيا ؛ وكانوا يحملون سفنهم على الأراضي الفاصلة بين الأنهار المتجهة شمالاً وتلك التي تنساب جنوباً . وقد ظهروا على صورة قرصان أو مغيرين و تجار في كل من بحرى قزوين والأسود . وذكر المؤرخون العرب ظهورهم على بحر قزوين ، وتعلموا أن يسموهم الروسين . وقد أغاروا على فارس ، وهددوا القسطنطينية بأسطول عظيم من الزوارق الصغيرة (في ٨٦٥ ، ٩٠٤ ، ٩٤١ ، ١٠٤٣ م) (١) .

وفي عام ٨٥٠ م تقريباً نصب روريك أحد أهل الشمال هؤلاء ، نفسه حاكماً على نوفجورود ، واستولى خليفته الدوق أوليج (Oleg) على مدينة كييف وبذلك وضع أسس روسيا الحديثة . وسرعان ما قدرت القسطنطينية ما لدى الفيك لإنجز الروس من صفات حربية ؛ وكان الروم (اليونان) يسموهم القارانجيين (Varangians) ، وأنشئ من هؤلاء القارانجيين حرس إمبراطورى خاص . وبعد غزو النورمانديين لإنجلترا (١٠٦٦) دُفع بعدد من الدانيمركيين والإنجليز إلى المنفى فلحقوا بهؤلاء القارانجيين الروسين ؛ وواضح أنهم لم يجدوا إلا شيئاً لا يكاد يذكر من الفوارق في اللغة والعادات يحول دون اختلاطهم بعضهم ببعض .

وفي نفس الوقت كان النورمانديون النازحون من نورماندى كذلك يكتشفون طريقهم إلى البحر المتوسط من الغرب . فهبطوه بادية ذى بدء مرتزقة ، ثم مغيرين

(١) هذه التواريخ منقولة عن جيبون بينما يحددها يزلى ٨٦٥ ، ٩٠٤ - ٩٠٧ ، ٩٣٥ ، ٩٤٤ ، ٩٧١ - ٩٧٢ (History of Russia) مطبعة كلارندن . (المؤلف)

لحسابهم الخاص فيما بعد ؛ ويهمننا أن نسجل هنا أن انتقامهم الرئيسي لم يكن بطريق البحر ، بل في شراذم متناثرة بطريق البر . جاءوا مخترقين أرض الراين وإيطاليا ، يبحثون من ناحية عن الخدمة الحربية والأسلاب ، ومن ناحية أخرى بوصفهم حجاجاً . ذلك أن القرنين التاسع والعاشر شهدا إقبالا عظيماً على الحج ؛

وحين بلغ هؤلاء النورمانديون مبلغ القوة ، تنهبوا لأنفسهم وإذا بهم لصوص سلابون ذوو بأس ، حتى لقد أرغوا الإمبراطور الشرقي والبابا أن يرما ضدهم معاهدة ضعيفة غير فعالة (١٠٥٣) . فهزموا البابا وأسرّوه ثم عفا عنهم . وثبتوا أنفسهم في كالابريا وجنوب إيطاليا وانتزعوا صقلية من العرب (١٠٦٠ - ١٠٩٠) ، ثم هددوا الإمبراطورية البيزنطية نفسها (١٠٨١) تحت إمرة روبرت جويسكارد ، الذي هبط إيطاليا حاجاً مغامراً وبدأ حياته قاطعاً للطرق في كالابريا . كان جيشه يضم كتيبة من الصقليين المسلمين ، فعبر به البحر من برنديزي إلى إبيروس (Epirus) في اتجاه مضاد لذلك الذي عبره الملك بيروس لمهاجمة الجمهورية الرومانية ، قبل ذلك بثلاثة عشر قرناً (٢٧٣ ق . م) . فألقى الحصار على مدينة دورازو البيزنطية المنيعه ؛

وفتح روبرت دورازو (١٠٨٢) . على أن خرج الحالة في إيطاليا استدعى عودته إليها ، ووضع حداً نهائياً لهذا الهجوم النورماندي الأول على إمبراطورية بيزنطة ، مهيباً بذلك فرصة لحكم أسرة آل كومنين^(١) القوية نسبياً (١٠٨١ - ١٢٠٤) . وحدث أن روبرت جويسكارد تمكن في أثناء منازعات أشد تعقيداً من أن يتسع لها المقام هاهنا - من محاصرة روما ونهبها (١٠٨٤) ؛ ولهذا المناسبة ينه جيون المعادى للمسيحية في غبطة واطمئنان - إلى وجود تلك الكتيبة من مسلمي صقلية بين الناهبين . ثم حدثت في القرن الثاني عشر ثلاث هجمات نورماندية أخرى على الدولة الشرقية ، إحداها على يد ابن روبرت جويسكارد ؛ والأخريان من صقلية مباشرة بطريق البحر

ولكن لم يقيض للعرب ولا للنورمانديين أن يدقوا الإمبراطورية العجوز في بيزنطة

(١) انظر لترجم في مجموعة الألف كتاب ومكتبة النهضة كتاب «المغامرة البيزنطية» تأليف ستيفن رانسيان .

أو الإمبراطورية الرومانية المقدسة تلك الإمبراطورية الشيخة المتصافية في الغرب ،
يمثل تلك القوة التي جاءت بها الطعنة المزدوجة من المراكز الطورانية في آسيا
الوسطى ، التي يجب أن نتحدث عنها الآن .

لاحظنا فيما سلف حركة الآفار نحو الغرب والمجريين الأتراك الذين ترسموا
خطاهم . فبند أيام بين الأول فما بعدها ، كانت الدولة الفرنجية وما خلفها من
دول في ألمانيا ، في نزاع مع هؤلاء المغيرين الشرقيين على امتداد أراضي الحدود
الشرقية بأسرها . وقد صدهم شرلمان وأنزل بهم النكال وأسس لنفسه ضرباً من
السيادة العليا بمنطقة امتدت شرقاً حتى جبال الكربات ؛ ولكن هذه الشعوب
عادت في فترة الضعف الذي تلا وفاة شرلمان - وقد تخلطت عند ذاك تخطأ
بأرواح زيادة ونقصاناً وتسمت في البيانات التاريخية باسم الهنغارين - عادت
فاستردت بقيادة المجريين حريتها كاملة غير منقوصة وأخذت تغير كل عام إغارات
كانت تصل أحياناً إلى نهر الراين ، ويذكر جييون أنهم دمروا دير القديس جال
(G) بسويسرا ومدينة بريمن بألمانيا . وكانت أعظم فترات غاراتهم بين ٩٠٠ ،
٩٥٠ . كما أن أقصى جهدهم بذلوه هو الذي توغلوا به خلال ألمانيا إلى فرنسا ، ثم
ساروا من فوق جبال الألب ، عائدين إلى وطنهم ثانية بطريق شمال إيطاليا وذلك
في ٩٣٨ ، ٩٣٩ . ولما كان هذا الشعب من اللصوص في خارج بلاده ، فقد كان
يستمتع في موطنه بحرية عظيمة جداً . إذ يقال إنهم كان لهم في القرن العاشر دستور
سياسي تقليدي موروث .

وإذ أن هذه الاضطرابات وأخرى سئلحظها من فورنا دفعت بالبلغار جنوباً -
فإنهم وطموا أقدامهم كما ذكرنا آنفاً بين الدانوب والقسطنطينية تحت إمرة كُروم
(Krum) . والبلغار شعب تركي الأصل ولكنهم منذ ظهورهم لأول مرة في شرق
الروسيا ، كادوا يصبخون بالتخليط المتكرر صقالبة تماماً في جنسهم ولغتهم . وأقاموا
على الوثنية حيناً بعد استقرارهم الأول في بلغاريا . وقد أولم ملكهم بوريس
(٨٥٢ - ٨٨٤) الولائم لمبعوثين من المسلمين ، ويلوج أنه فكر في اعتناق الإسلام ،
على أنه تزوج آخر الأمر أميرة بيزنطية ، وسلم نفسه وشعبه للعقيدة المسيحية .

ومن أدب الهنغارين (المجر) حتى أخذوا يحترمون الحضارة الغربية بعض الشيء هنري

الصيناد ملك ألمانيا المنتخب وأوتو الأول أول إمبراطور سكسوني في القرن العاشر . بيد أنهم لم يوطنوا النفس على اعتناق المسيحية حتى قرابة ١٠٠٠ م . وهم وإن تنصروا ، فإنهم احتفظوا بلغتهم التركوفنلندية (المجرية) ، ولا يزالون يحافظون عليها إلى يومنا هذا . واحتفظوا كذلك بقدر معين من الحرية تحت الملكية التي فرضت عليهم . ودستورهم المكتوب « الخاتم الذهبي Golden Seal » يرجع تاريخه إلى ١٢٢٢ ، وهو عدل « شرق » (للماجنكارتا) أي العهد الأعظم الإنجليزي في تقييده لسلطة الملك المطلقة . واشترط الملك استيفن أول ملوك المجر عندما قبل المسيحية رسمياً ، أن المجر — على عكس بوهيميا وبولندا — يجب ألا تدخل في نطاق الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

ومع ذلك فإن البلغار والهنغارين ليسوا آخر الشعوب الذين كانت تحركاتهم نحو الغرب قوام الزحف التركي عبر جنوب روسيا . إذ اندفع الخزر من خلف الهنغارين والبلغار ، والخزر شعب تركي اختلطت به نسبة عظيمة جداً من اليهود المطرودين من القسطنطينية ، فاختلطوا بهم واجتذبوا إلى دينهم عدداً كبيراً منهم تحولوا عن الوثنية . وإلى هؤلاء الخزر اليهود يجب أن تنسب مستوطنات اليهود العظيمة في بولندا وروسيا . ثم جاء في أعقاب الخزر أيضاً فغلبوا عليهم وعمرهم قوم هم البتشيغ (أو الباتشيناك) ، وهم شعب تركي متوحش نسمع عنهم لأول مرة في القرن التاسع ، وقد كتب لهم أن ينحلوا ويختفوا كما فعل ذووقرباهم الهون قبل ذلك بقرون خمسة .

وعلى حين كانت كل هذه الشعوب تسير غرباً ، فإن علينا عند ما نفكر في سكان تلك الأقاليم الروسية الجنوبية ، أن نتذكر أيضاً غدو أهل الشمال ورواحهم بين البلطيق والبحر الأسود ، وتوثق صلاتهم بالمهاجرين الأتراك توثق السدى باللحمة ، وأن لا يغيب عنا أيضاً أنه كان هناك عدد ضخم من السكان الصقالبة ، ورثة وخلفاء الإسكيديين والسرماطين^(١) ومن شابههم ، الذين استوطنوا آنفاً تلك المناطق الحصبة

(١) Sarmatians سلامة تنتمي إلى فصيلة تكلمت نفس اللغة التي كان يتكلمها الإسكيديون ، ويعتقد أنها انحدرت من أصل ميدي ، ولذلك فهي من الجنس الإيراني ؛ ولو أن بعض الباحثين يظن أنها تنتمي إلى الجنس الآرال الطائي Ural-altaic : ويطلق الناس في حديثهم أحياناً لفظة سمراتيو على البولنديين .

المضطربة المحرومة من كل قانون . اختلطت كل هذه الأجناس أحدها بالآخر وتفاعلت بعضها مع بعض . ويدلك انتشار اللغات الصقلية (السلافونية) انتشاراً عاماً في كل مكان عدا بلاد المجر ، على أن السكان ظلوا يغلب عليهم العنصر السلافي . فأما ما هو الآن ورومانيا ، فعلى الرغم من تكرار مرور الشعوب ومن الغزو تلو الغزو . ظلت تقاليد وراث الولائتين الرومانيتين داكيا ومويسيا السفلى تحافظ على بقاء لغة وذكريات لاتيانية .

على أن هذا التوغل المباشر للشعوب التركية ضد المسيحية في شمال البحر الأسود لا يكاد في النهاية يبلغ في الأهمية درجة توغلهم غير المباشر في جنوبه خلال دولة الخلافة . وليس في إمكاننا أن نتناول هنا قبائل الشعوب التركية التركستانية وانقساماتها ولا الأسباب الخاصة التي أبرزت إلى مكان الصدارة القبائل التي كانت تحت حكم العشيرة السلجوقية . ففي القرن الحادى عشر انطلق هؤلاء الأتراك السلجوقيون بقوة لا تقاوم لا في جيش واحد ، بل في مجموعة من الجيوش وتحت إمرة أخوين ، — وأطبقوا على الحطام المتداعى للإمبراطورية الإسلامية .

ذلك بأن الإسلام كف من زمن بعيد عن أن يكون إمبراطورية واحدة . فإن الحكم العباسى السنى انكمش حتى لم يعد يشغل إلا رقعة الأرض التي كانت تسمى « بابل » يوماً ما ، وحتى في بغداد نفسها لم يكن الخليفة إلا كائناً يدين بمنصبه لحراس قصره الأتراك . فإن تركيا ذا سلطان كسلطان « محافظ القصر » كان الحاكم الحقيقى . وإلى الشرق من الخليفة في فارس وإلى الغرب منه في فلسطين وسوريا ومصر ، كان في الحكم طوائف شيعية متزندقة (١) .

وكان هؤلاء الأتراك السلجوقيون سنيين يأخذون بالعقيدة السلفية ، فأطبقوا عند ذاك على الحكام الشيعيين ومغتصبى السلطان ، وغلبوهم ، وأقاموا أنفسهم حماة للخليفة البغدادى ونقلوا لأنفسهم سلطة « محافظ القصر » الزمنية . وانتزعوا أرمينية من يد الروم في زمن مبكر جداً ، وإذ تهيأ لهم النفاذ من الحدود التي صدت قوة الإسلام أربعة قرون ، اندفعوا لغزو آسيا الصغرى إلى ما يدانى أبواب القسطنطينية . فقد نتج

(١) لا إخال السنيين يمدون الشيعة من الكفرة ، اللهم إلا عند بعض المتحمسين ، وذلك لأنهم في الواقع مسلمون يؤمنون بالله ونبيه وكتبه . (المترجم)

عن غزو أرمينية أنهم داروا من الشمال الشرق حول حاجز قيليقية الجبلى الذى طالما صد جيوش المسلمين . ثم ما لبث الترك تحت قيادة ألب أرسلان الذى وحّد في يده كل قوة السلجوق ، أن حطموا الجيش البيزنطى تحطيماً تاماً في موقعة ما نزيكرت (Manzikert) أو ملازجرد (Melasgird) (١٠٧١) . وكان تأثير هذه المعركة في أخيلة الناس عظيماً جداً . ذلك أن الإسلام الذى بدا عليه الانحلال البالغ والذى كان منقسماً على نفسه دينياً وسياسياً ، قد تنبه الناس إليه فجأة ، وإذا به قد نهض ثانية من كبوته ، وكانت الإمبراطورية البيزنطية المعجوز الآمنة هى التى لاح أنها على شفا الانهيار .

كان فقدان آسيا الصغرى سريعاً جداً . واستقر السلاجقة في قونية (Iconium) ، فيما هو الآن بلاد الأناضول . ولم يمض طويل زمن حتى آلت إليهم قلعة نيقيا المقابلة للعاصمة .

١٠ - كيف استغاثت القسطنطينية بروما

سبق أن تكلمنا عن هجوم النورماندين على الإمبراطورية البيزنطية من الغرب ، وعن معركة دورازو (١٠٨٢) ؛ كما ألمعنا إلى أن القسطنطينية كانت لا تزال تعى ذكريات قوية وحية عن الغارات الروسية البحرية (١٠٤٣) . لا جرم أن بلغاريا روّضت ونصّرت . ولكن حرباً ضروساً غير فاصلة كانت تدور رحاها بينها وبين البتشنج (البشناق) . وكانت يدا الإمبراطور ملبثتين بالمشاغل في الشمال والغرب . وها قد جاء من الشرق ذلك التهديد الخطير الذى زاد الطين بلة . ولا بد أن تقدم الأتراك السريع في تلك البلاد التى طال بها العهد بأيدي بزنطة قد لاح لها في صورة النذير النهاى بكارثة قاضية . لذلك اتخذ الإمبراطور البيزنطى ميخائيل السابع بدافع هذه الأخطار التى تناوشته من كل جانب ، خطوة يرجح أنها بدت له ولروما على السواء ذات أهمية سياسية قصوى . فإن العالم اليونانى تطلع إلى أخيه اللاتينى الذى دب فيه دبيب الحياة من جديد . واتمس المساعدة من البابا جريجورى السابع . وما لبث خلفه (١٣-مالم)

ألكسيوس كومنينوس أن كرر ذلك الرجاء على البابا إربان الثانى فى مزيد من الإلحاح والاستحثاث .

ولا بد أن هذه الاستغاثة بدت فى أعين مستشارى روما نهزة نادرة لتأكيد رئاسة البابا على العالم المسيحى بأسره .

ولقد تبعنا فى هذا التاريخ نمو هاته الفكرة الذاهبة إلى إنشاء حكومة دينية لعالم المسيحية — وللبشر كافة من خلال عالم المسيحية ذاك — وأظهرنا كيف أنه كان من الأمور الطبيعية التى تقتضيها الضرورة أن تجد تلك الفكرة فى روما مركزاً لها بسبب ما اختصت به من متوارث التقاليد عن فكرة الإمبراطورية العالمية . كان بابا روما هو البطريك الوحيد فى الغرب ؛ وكان رئيساً دينياً لمنطقة مترامية الأطراف ، لغتها السائدة هى اللاتينية ؛ فأما بطاركة الكنيسة الأرثوذكسية الآخرون فهم قوم يتكلمون اليونانية ، وبذا كان صوتهم غير مسموع فى كل أرجاء ممتلكاته ؛ هذا إلى أن إضافة عبارة « ومن الابن أيضاً Filio pue » إلى العقيدة اللاتينية أدت إلى فصل المسيحيين البيزنطيين بواسطة إحدى النقاط الدقيقة الخفية التى يتعذر معها كل توفيق . (وتم الانفصال النهائى فى ١٠٥٤) .

كانت حياة قصر اللاتيران دائمة التغير من كل نواحيها بتغير شاغل كرسى القديس بطرس ؛ فكانت روما البابوية فى بعض الأحيان مباءة فساد وذنس ، شأنها أيام يوحنا الثانى عشر ؛ وكان يظلمها فى أحيان أخرى سلطان رجال يفكرون تفكيراً رجباً ونبيلاً . على أنه كان من وراء البابا جمعية الكرادلة والقساوسة وعدد كبير من الموظفين ذوى التعليم الراقى ، الذين لم يغيب عن أبصارهم قط حتى فى أحلك الأيام وأظلمها ، تلك الفكرة العظيمة الفاخرة القائلة بمملكة دنيوية مقدسة ، وبسلام من المسيح يعم أرجاء الأرض قاطبة ، وهى الفكرة التى ترجم عنها القديس أوغسطين . ظلت هذه الفكرة طوال العصور الوسطى هى القوة الهادية التى توجه روما . أجل إنه حدث أحياناً أن سادتها بعض العقول الخبيثة ، وعندئذ تلعب روما فى شئون العالم دور عجوز شره خؤون ماكراً مكرراً جنونياً ؛ وربما جاء فى إثر ذلك دور رجولة

ودهاء ذنوبى كامل أو دور رفعة وعظمه . ثم قد تأتى بين هذا وذاك فترة تعصب أو تقعر وادعاء للعلم ، يوم يغدو الاهتمام كله منصباً على الدقة المذهبية . أو ربما حدث انهيار خلقي ، يصبح معه اللاتيران عرشاً لأحد المستبدين بأمرهم المنغمسين فى المملكات أو المغرزين بالجمال المستعدين لبيع كل ما تستطيع الكنيسة أن تقدمه من أمل أو شرف مقابل نقود ينفقها على المملكات والمظاهر . ومع ذلك فإن سفينة البابوية كانت على الحملة تسير فى طريقها ، ولا تلبث حتى تبرز بعد ذلك أمام الريح ثانية .

وفى هذه الفترة التى وصلنا إليها الآن ، وهى مدة القرن الحادى عشر ، كانت وما تحت نفوذ شخصية سياسى عظيم نادر المثال ، هو هلدبراند (Hildebrana) ، الذى تولى مناصب متنوعة تحت رياسة مجموعة متعاقبة من البابوات ، ثم أصبح آخر الأمر بابا باسم جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) . ولنا لنجد أن الرذيلة والتوائى والفساد قد بحيث بفضلهم من الكنيسة تماماً ، وأن طريقة انتخاب البابوات قد أصلحت ، وأن كفاحاً عظيماً قد استعر لهيبه مع الإمبراطور على مسألة ذات حيوية بارزة ، هى مسألة « التعيينات Investitures » . فهل كان البابا أو العاهل الزمنى هو صاحب القول الفصل فى تعيين الأساقفة على أبرشياتهم ؟ ولنا لنذكر على وجه أحسن كم كانت تلك المسألة حيوية بالغة الأهمية إذا تذكرنا أن ما يزيد عن ربع الأراضى كان فى كثير من الممالك ملكاً لرجال الكنيسة . وكان رجال الكنيسة الكاثوليكية يستطيعون حتى ذلك الحين أن يتزوجوا ؛ ولكن العزوبة فرضت آنذاك على جميع القسس رغبة فى فصلهم فصلاً فعالاً عن العالم وجعلهم أداة طيعة فى يد الكنيسة على وجه أكمل

على أن النزاع على مسألة « التعيينات » حال بين جريجورى السابع وبين الاستجابة الفعالة لأول استصراخ جاءه من بيزنطة ؛ غير أنه ترك فى شخص إربان الثانى خليفة له ذا فضل وجدارة (١٠٨٨ - ١٠٩٩) ؛ فلما جاءته رسالة أليكسيوس ، استمسك إربان على الفور بالفرصة التى هيأتها له لضم كل الأفكار والقوة فى أوروبا الغربية فى تيار واحد من الحمية والهدف . وكان يرجو من وراء ذلك أن يقضى على « الحروب الخاصة » السائدة فى أوروبا ، ويجد المخرج المناسب الذى تنصرف إليه طاقة النورماندين

المائلة . ورأى فيها كذلك فرصة لتنحية الدولة والكنيسة البيزنطية عن مكانتهما ؛ وبسط سلطان الكنيسة اللاتينية على سوريا وفلسطين ومصر .

وسمعت أقوال مبعوثي أليكسيوس في مجلس كنسي دُعى على عجل بمدينة پياتشيزا (بلاشنتيا) . وفي السنة التالية عقد إربان في كليرمونت (١٠٩٥) مجلساً عظيماً ثانياً ، نظمت فيه كل قوى الكنيسة التي تجمعت في بطء للقيام بدعاية للحرب عامة ضد المسلمين . وكان لزاماً أن تقف الحرب الحصوية ويخمد كل ما بين المسيحيين من حروب ، حتى يطرد الكافرون [كذا ! ! !] وتصبح أرض القدر المقدس في الأيدي المسيحية من جديد .

وإن حجة الاستجابة التي قوبلت بها تلك الدعوة لممكننا من أن نفهم ذلك العمل العظيم من التنظيم البناء الذي تم في أوروبا الغربية في القرون الخمسة السالفة . فإنا في بداية القرن السابع ، رأينا أوروبا الغربية خليطاً متناثراً من الحطام الاجتماعية والسياسية ، لا تجمعها فكرة مشتركة ولا أمل مشترك ، وألفيناها نظاماً قد تحطم حتى كاد أن يصبح ذرات من أفراد لا يبحثون إلا عن أنفسهم ومصالحهم . فأما الآن ، ونحن في ختام القرن الحادى عشر ، فيسرى بين الناس في كل ناحية اعتقاد مشترك : أعف فكرة جامعة ، قد يستطيع الناس أن يهبوا أنفسهم ، وبها يستطيعون أن يتعاونوا معاً في مسعى جماعى عام . وإنا لرى بأنفسنا هنا ما صنعتها الكنيسة المسيحية بعملها وجدها ، بالرغم من وجود كثير من الضعف وعدم السلامة الذهنية والأخلاقية . وإنا لنستطيع أن نقدر الأدوار السيئة التي تردت فيها روما أثناء القرن العاشر وما حوت من الفضائح والنجاسات والقتل والعنف ، — قدرها الحق إذا وزناها بميزان هذه الحقيقة الجديدة . ولا شك كذلك في أنه كان يوجد في كل أرجاء العالم المسيحى قساوسة كثيرون من الكسالى والشريرين الحمقى ، ولكن من البين أن عبء التعليم والتنسيق لم يتم إلا بواسطة عدد غفير من القسيسين والرهبان والراهبات الذين كانوا يعيشون عيش الصلاح . ذلك بأن حلفاً عظيماً جديداً ، هو حلف العالم المسيحى قد ظهر في هذا العالم ، وقام بينائه آلاف من الأنفس المخلصة المجهولة .

ولم تقتصر هذه الاستجابة لدعوة إربان الثانى على من قد نسميهم بالمتعلمين . فلم يكن الأمر مجرد فرسان وأمراء يرغبون وحدهم فى الانخراط فى تلك الحروب الصليبية . وإلى جوار شخص إربان يجب أن نضع شخص بطرس الناسك ، وهو طراز من الرجال جديد فى أوربا ، وإن كان يذكرنا بعض الشيء بالأنبياء العبرانيين . قام هذا الرجل يدعو للحروب الصليبية بين عامة الناس . وكان يقص على الناس — إن صدقاً وإن كذباً ، إذ أن ذلك أمر لا يكاد يعنينا فى هذا المقام — قصة حجه إلى بيت المقدس ؛ ويحدثهم عن التدمير المنطوى على الاستهانة البالغة ، الذى أنزله بالقبر المقدس الأتراك السلجوقيون ، الذين أستولوا عليه فى زمان ما يقارب (١٠٧٥) " (إذ ما يزال تاريخ هذه الفترة مبهماً جداً) ؛ ويحدثهم عن ضروب الغضب والابتزاز الجائر والفظائع الوحشية والقساوات المتعمدة التى ينزلونها بالحجاج المسيحيين إلى الأماكن المقدسة . طوّف هذا الرجل ، حافى القدمين وفى ثياب خشنة وممتطياً حماراً وحاملاً صليباً ضخماً ؛ أنحاء فرنسا وألمانيا ، وهو يخطب فى كل مكان جماهير حاشدة فى كنيسة أو شارع أو سوق .

وإننا لنبين أوربا هنا وقد ألفت بينها لأول مرة فكرة واحدة وروح جامعة ! وإننا لنلمس هنا استجابة عامة من الغضب من قصة ظلم يقع فى مكان سحيق ، ونشهد تفهماً سريعاً لهدف مشترك يجمع بين الغنى والفقير على السواء . وليس فى طوقك أن تتصور حدوث ذلك الشيء فى إمبراطورية أوغسطس قيصر ، ولا فى أية دولة سابقة لها فى تاريخ العالم . وربما كان شيء من هذا القبيل ممكناً فى عالم « هيلاس » الأصغر حجماً بكثير ، أو فى بلاد العرب قبل الإسلام : فأما هذه الحركة فكانت تؤثر فى الأمم والممالك والألسن والشعوب . فمن الجلى إذن أننا نعالج هنا شيئاً جديداً ظهر فى العالم ، هو ارتباط جديد واضح بين المصلحة المشتركة وبين وعى الرجل العادى من العامة .

١١ - الحروب الصليبية

كانت هذه الحماسة المتأججة مختلطة منذ بدايتها بعناصر أكثر انضاعاً . فقد كانت هناك الخطة الهادئة المضبوطة التقدير التي رسمتها الكنيسة اللاتينية الطموحة الحرة لإخضاع الكنيسة البيزنطية الخاضعة للإمبراطور والحلول محلها . وكانت هناك غريزة النهب الذي لا حد له لدى النورماندين الذين كانوا يمزقون إيطاليا إرباً ويبعثونها أشلاء . وسرعان ما حولت وجهتها آنذاك إلى عا مغام جديد أوفر ثراء . وكان يخيم على الجميع التي ولّت عند ذاك وجهها شطر الشرق ، شيء أعمق في التكوين البشري من عاطفة الحب ، وأعني به الكراهية الناجمة عن الخوف تلك الكراهية التي أجبتها دعوات الدعاة الخائفة والمبالغة في فظائع وقساوات الكفرة [كذا ! ! . . .] ناراً حامية .

وكانت هناك فضلاً عن ذلك قوى أخرى تعمل عملها ؛ ذلك بأن السلاجقة والفاطميين غير المتسامحين كانوا آنذاك عقبة كأداء في سبيل تجارة جنوا والبندقية صوب الشرق ، وكانت حتى ذلك الحين تلساب بطريق بغداد وحلب أو بطريق مصر . فلم يكن بد من فتح هذه المسالك المغلقة عنوة ، إلا إذا احتكر طريق القسطنطينية والبحر الأسود التجارة الشرقية احتكاراً تاماً . وفضلاً عن ذلك فقد حدث في (١٠٩٤ ، ١٠٩٥) وباء ومجاعة امتدا من نهر الشلت (Scheidt) إلى بوهيميا ، وترتب عليهما اختلال اجتماعي بليغ .

يقول المستر أرنست بارك « لا عجب إذن أن ينطلق نحو الشرق تيار من الهجرة ، شأن ما يحدث في الأزمنة الحديثة من انسياب الناس نحو منطقة للذهب حديثة الكشف - تيار يحمل في أمواجه العكرة أدراً كثيرة من المشردين والمفلسين ومتبعي المعسكرات والباعة المتجولين والرهبان اللاجنين والأشرار الفارين ، موسوم بنفس سمة الخليط المتعدد الألوان ، ونفس حمى الحياة ، ونفس التآرجحات بين الثراء والإدقاع التي تميز الاندفاع إلى منطقة الذهب اليوم » .



(شكل ١١١) خريطة الحرب الصليبية الأولى

على أن هذه كانت أسبابا ثانوية مساعدة . فأما الحقيقة ذات الأهمية البالغة لدى مؤرخ البشرية فهي هذه « الإرادة النازعة إلى شن حرب صليبية » المتعجلة فجأة على صورة إمكانية جماهيرية جديدة في الشؤون الإنسانية .

وقصة الحروب الصليبية مليئة بتفاصيل رومانسية رائعة الجمال يلتزم إزاءها كاتب معالم تاريخ أن يغفر لقلمه إذا هو انساب منه عند منعطف ذلك الميدان الجذاب . وكانت أول القوات التي سارت شرقا جماهير صغيرة من أناس غير منظمين أكثر منها جيوشا ، وقد حاولوا أن يتخذوا من وادي الدانوب طريقا لهم ، ثم ينحرفوا جنوبا إلى القسطنطينية . وكانت هذه هي « الحملة الصليبية الشعبية » . ولم يحدث البتة من قبل في تاريخ العالم بأسره أن كان هناك مثل ذلك المشهد من الجماهير التي لا قائد لها أو تكاد والتي تحركها فكرة ؛ بيد أنها كانت فكرة بالغة الفجاجة .

فلما أن أصبحوا بين ظهراني الأجانب ، لم يبد عليهم أنهم أدركوا أنهم لم يصلوا بعد إلى بلاد الكفرة^(١) . وقد ارتكبت جماعتان عظيمتان من الغوغاء ، هما مقدمة الحملة ، من ضروب الخروج عن الاعتدال في بلاد المجر (حيث كانت اللغة - لاريب - غير مفهومة لهم) ما استثار المجريين (الهنغارين) إلى القضاء عليهم . فأعملوا فيهم السيف ذبحاً وتقتيلاً . وابتدأ حشد ثالث عمله بمذبحة كبيرة أعملها في يهود أرض الراين - ذلك أن الدم المسيحي كان فائراً - ثم تمزق ذلك الجمع أيضاً في هنغاريا . واخترق حشدان آخران أوربا بقيادة بطرس ووصلا إلى القسطنطينية ، وكم كانت دهشة الإمبراطور أليكسيوس وجزعه بالغين ! ! . . . ذلك أنهم دأبوا على طول الطريق ينهبون وينتهكون الحرمات ، فحملهم الإمبراطور آخر الأمر بالسفن عبر البسفور ، وهناك لم يهزمهم السلاجقة فقط بل ذبحوهم على بكرة أبيهم (١٠٩٦) .

ومما يؤسف له أن ظهور « الشعوب » لأول مرة كشعوب في تاريخ أوربا الحديث ، كان ظهوراً تعسفاً غير موفق ، وقد أعقبه مجيء القوات المنظمة ١٠٩٧ المخصصة للحملة الصليبية الأولى . جاءوا من طرق شتى : - من فرنسا ونورماندى وفلاندر وإنجلترا وجنوب إيطاليا وصقلية ، وكان النورمانديون عصب الحملة وعزيمتها ، فعبروا البسفور واستولوا على نيقيا التي اختطفها أليكسيوس منهم قبل أن ينهبوها .

ثم واصلوا مسيرهم على نفس الطريق الذي اتخذه الإسكندر الأكبر في الغالب مخترقين البوابة القيليقيّة ، تاركين الأتراك في قونية غير مهزومين ، ومجتازين ميدان معركة إيسوس ثم مواصلين السير إلى أنطاكية التي استولوا عليها بعد حصار قارب السنة . ثم هزموا جيشاً عظيماً جاء من الموصل لنجدتها .

وظل قسم كبير من الصليبيين في أنطاكية ، وتقدمت قوة أصغر تحت قيادة جودفري البويوني (نسبة إلى بويون Bouillon من أعمال بلجيكا) أماماً إلى بيت المقدس .

(١) غريب أن يشير الكاتب إلى المسلمين بالكفرة فإن كان ذلك منه متابعة لأهل العصر الذي يكتب فيه فما كان أحرأه أن ينزه نفسه عن مثل هذا الجهل بالإسلام وأهله ، وأنهم يعبدون الله وحده فلا شرك ولا كفران . (المترجم)

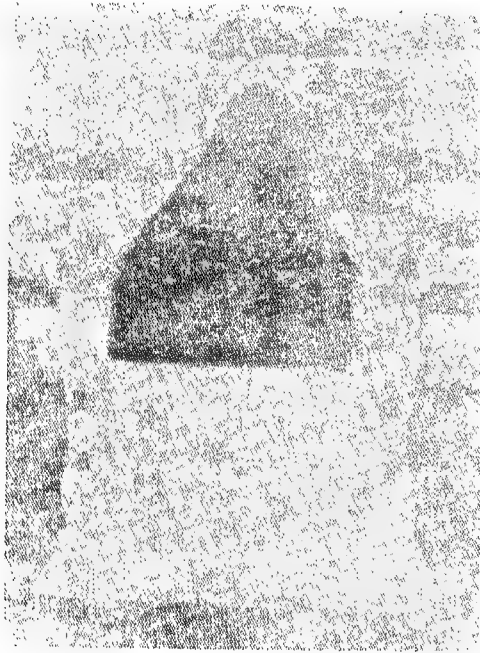
« وبعد حصار دام أكثر قليلا من شهر ، استولوا على المدينة نهائياً (١٥ يولية ١٠٩٩) . كانت المذبحة رهيبة ؛ وكان دم المقهورين يجرى فى الشوارع حتى لقد كان الرجال يصيبهم رشاش الدم وهم ركوب . وعند ما أرخى الليل سدوله ، جاء الصليبيون وهم « يكون من فرط الفرح » إلى النافوس المقدس بعد حوضهم فيما أريق من دم سال كالخمر من معصرة العنب . ورفعوا جميعاً أيديهم المملوطة بالدماء يصلون شكراً لله . وبذلك انتهت الحرب الصليبية الأولى فى ذلك اليوم من شهر يولية » (١)

وسرعان ما استحوذ رجال الدين اللاتينيون المرافقون للحملة على سلطة بطريرك بيت المقدس ، ووجد المسيحيون الأرثوذكس أنفسهم تحت الحكم اللاتينى فى حال يكاد يكون أسوأ منه تحت حكم الأتراك . وكان أن تأسست إمارات لاتينية فى أنطاكية والرها Edessa ، وابتدأ النزاع على السلطان بين مختلف هؤلاء الملوك والقصور ، كما أخفقت محاولة كانت غايتها جعل بيت المقدس ملكاً للبابا . على أن هذه أمور معقدة تخرجنا عما بين أيدينا من مجال .

ومع ذلك فلنقتبس فقرة عامرة بما يتميز به جييون من خصيصة : « وربما ملت فى أسلوب أقل وقاراً مما يليق بالتاريخ ، إلى تشبيه الإمبراطور أليكسيوس بابن آوى ، الذى يقال إنه يتعقب خطى الأسد ويلتهم ما يفضل منه . ومهما يكن مبلغ مخاوفه وعنائه أثناء مرور الحملة الصليبية الأولى ، فإنه قد جوزى عليها أوفى جزاء بما اجتناه بعد ذلك من وراء مغامرات الفرنجة . فإن مهارته ويقظته أتاحت له احتياز نيقيا أولى فتوحهم ، ومن نقطة التهديد هذه اضطر الأتراك إلى إخلاء ما يجاور القسطنطينية من أرض .

« وعلى حين كان الصليبيون بشجاعتهم العمياء يتوغلون فى داخل أقطار آسيا ، انتهز اليونانى الماكر الفرصة المواتية وأفاد من استدعاء الترك أمراء ساحل البحر ليلتفوا حول لواء السلطان . فدفع الأتراك من جزائر رودس وخيوس ؛ وأعيدت مدن

إفيسوس وأزمير وسارديس وفيلادلفيا^(١) واللاذقية إلى الإمبراطورية التي وسع أليكسيوس رقعتها من المجلس بونت (الدردنيل) إلى ضفتي نهر المياندر وإلى شواطئ پامفيليا^(٢) الصخرية . وعادت الكنائس إلى سابق أمتها ؛ وأعيد بناء المدن وتحصينها ؛ وعمّر القطر القاحل بمستقرات من المسيحيين اللذين نقلوا برفق من التخوم النائية الخطرة .



(شكل ١٤٢) قبر صلاح الدين

« وربما اغتفرنا كل أخطاء أليكسيوس من أجل هذه الرعايات الأبوية ، إذا نحن تناسينا خلاص الناووس المقدس ؛ ولكنه كان في نظر اللاتين موصوما بتهمة الخيانة والغدر القبيحتين ! وكانوا أقسموا يمين الولاء والطاعة لعرشه ؛ بيد أنه وعد

(١) فيلادلفيا : مدينة باقليم « ليديا » القديم بآسيا الصغرى واسمها الحديث « الأشهر » . (المترجم

(٢) پامفيليا : منطقة تقع بجنوب آسيا الصغرى . (المترجم)

بأن يساعدهم في مغامرتهم بشخصه أو على الأقل بجنوده وأمواله ؛ فأحلهم نكوصه الدفء من يمينهم ؛ وعندئذ صار السيف الذي أبلغهم ذرا النصر ، هو الكنيل بضمان استقلالهم العادل عنه . ولا يبدو أن الإمبراطور حاول أن يبحث من جديد مدعياته القديمة البالية على مملكة بيت المقدس ، على أن عهده بامتلاك حدود قيليقية وسوريا كان أحدث كما أنهما كانا أقرب إلى ذراعيه منالا . وكان أن أبعد جيش الصليبيين العرمرم أو تشتت ؛ وكان أن شغرت إمارة أنطاكية وأصبحت بلا رئيس ، بمباغثة بوهمند وأخذه أسيراً ؛ وأبهظت الفدية كاهله بالدين ؛ ولم يكن لاتباعه النورمانديين كثرة في العدد كافية لدفع عدوان الروم والترك .

« وقد أضمر بوهمند أثناء هذه المحنة عزمًا كريمًا على ترك الدفاع عن أنطاكية لقريبه المخلص تانكريد ؛ وعلى تسليح الغرب ضد الإمبراطورية البيزنطية ، وعلى تنفيذ الخطة التي ورثها درساً ومثلاً عن أبيه جويسكارد . وأحيط نزوله إلى السفينة بالكتمان ؛ ولئن وثقنا بقصة تروها الأميرة أنا ، فإنه مرّ في البحار المعادية محتباً اختباءً شديداً في تابوت . (وتضيف أنا كومنيننا^(١)) إلى ذلك أنه رغبة في استكمال الخدعة ، أقفل عليه التابوت مع ذلك ميت ؛ ثم تنازل أنا فتعجب كيف استطاع الهمعجي المتبربر أن يتحمل الحبس وريح التعفن الرمي . على أن هذه القصة السخيفة مجهولة لدى اللاتين) . واستقبل في فرنسا بحفاوة لم يشها أى مساس وذلك بفضل حسن استقبال الشعب له ، وزواجه من ابنة الملك ؛ وكانت عودته مجيدة ، إذ أن أشجع رجال العصر قد انضوا تحت إمرة العسكرية الخيرة ؛ وعاد فعبّر الأدرياتي على رأس خمسة آلاف من الفرسان وأربعين ألفاً من المشاة ، اجتمعوا من أقصى أرجاء أوربا ومختلف أجوائها . غير أن مناعة دورازو ، وحصافة أليكسيوس واشتداد المجاعة واقتراب الشتاء فوتت عليه آماله الطموحة ؛ وقد أغرى الروم حلفاءه من المرتزقة على التخلي عن رايته . وعقدت مخالفة سلام كانت حداً مؤقتاً لمخاوف الروم » .

عالجنا الحرب الصليبية الأولى على هذه الشاكلة من التطويل لأنها تبين تبياناً تاماً صفات هذه الحملات جميعاً . وأخذت حقيقة النضال بين النظامين اللاتينيين

(١) أنا كومنيننا : (و ١٠٨٣) هي ابنة الإمبراطور أليكسيوس ومؤرخة حياته ، ولعلها أول مؤرخة في التاريخ .
(المدرج)

واليزنطى تتجلى للعيان شيئاً فشيئاً . وفى (١١٠١) وصلت الأمداد التى لعبت فيها أساطيل الجمهوريتين التجاريتين البندقية وجنوا دوراً بارزاً ، وامتد سلطان مملكة بيت المقدس .

وشهدت (١١٤٧) حملة صليبية أخرى ، اشترك فيها كل من الإمبراطور كونراد



(شكل ١٤٣) كنيسة القديس مارك بالبندقية ، وقد شادها فى القرنين ١١ و ١٢ فنيون معظمهم من اللومبارد والشرقيين

الثالث والملك لويس الفرنسى . كانت حملة أكثر فخامة وأقل نجاحاً وحماسة من سابقتها . وكان الدافع إلى إرسالها هو سقوط الرها فى يد المسلمين فى (١١٤٤) . وكان فيها فصيلة ضخمة من الألمان عمدت ، بدلا من أن تتجه إلى الأراضى المقدسة ، إلى مهاجمة وإخضاع شعب الوند (Wend) ^(١) شرقى نهر الإلب وكانوا لا يزالون وثنيين . فوافق البابا على ذلك واعتبره من الحروب الصليبية ، وكذلك كان شأن

(١) شعب الوند أو القند : شعب من مجموعة الشعوب الصقلية كالبولنديين . ولغتهم صقلية وأبجديتهم لاتينية الأصل عددهم ١٥٠ ألفاً . ويحيط بهم الألمان ، ومع ذلك يحافظون لأن على تقاليدهم ولغتهم .
(المترجم)

الاستيلاء على لشبونة ، وتأسيس الفصائل الإنجليزية والفلمنكية لمملكة البرتغال المسيحية .

وفي (١١٦٩) أصبح مغامر كردى اسمه صلاح الدين حاكماً على مصر ، ذلك القطر الذى قام فيه السنيون بثورة أسقطت الزنقة [كذا ! !] الشيعية التى أسسها الفاطميون بها . فوحد صلاح الدين هذا جهود مصر وبغداد ودعا إلى « الجهاد » ، أى الحرب المقدسة ، أو الحرب الصليبية المضادة ، مستنهضاً جميع المسلمين على المسيحيين . وقد أثار هذا « الجهاد » فى ديار الإسلام من المشاعر القوية ما يدانى ما أثارته الحرب الصليبية الأولى فى عالم المسيحية تقريباً . وتغير الحال آنئذ وإذا هو حال صليبي ينازل نظيراً له « صليبياً » (حسب تعبير المؤلف) ؛ واستعبدت بيت المقدس (١١٨٧) .

وأثار هذا الأمر الحرب الصليبية الثالثة (١١٨٩) . وكانت هذه أيضاً حملة فاشلة وضع خطتها الإمبراطور فردريك الأول (الشهير باسم فردريك بربروسا^(١)) بالاشتراك مع ملك فرنسا وملك إنجلترا الذى كان يملك فى ذلك الوقت كثيراً من أجمل المقاطعات الفرنسية) . ولعبت البابوية دوراً ثانوياً فى هذه الحملة ؛ مذ كانت فى أحد أدوار الضعف ؛ وكانت هذه الحملة الصليبية أشد الحملات دمارة وفروسية ورومانية . إذ خفت من حدة مرارة التعصب الدينى روح الشهامة الفروسية التى غمرت كلا من صلاح الدين وريتشارد الأول (قلب الأسد) (١١٨٩ - ١١٩٩) ملك إنجلترا . فما أجدر محبى الرومانس أن يتوجهوا إلى الروايات الرومانية المدبجة عن هذه الفترة ليتذوقوا طعمها وشذاها . وقد أنقذت هذه الحملة إمارة أنطاكية إلى حين . ولكنها أخفقت دون استرداد بيت المقدس . ومع ذلك فإن المسيحيين ظلوا مسيطرين على سواحل فلسطين .

ولما وا زمان الحملة الثالثة ، كان عنصرا العجب والسحر قد زالا من هذه الحركات زوالاً تاماً . فإن عامة الناس كانوا عرفوا خباياها . ذلك أن الرجال كانوا يذهبون ، فلا يعود إلا الملوك والنبلاء فرادى مشردين ؛ وغالباً ما يكون ذلك بعد فرض ضرائب باهظة على الناس لجمع الفدية اللازمة .

لقد ابتذلت فكرة الحروب الصليبية لكثرة ما استعملت وتفاهة ما استخدمت فيه . فكلما تنازع البابا مع شخص من الناس ، أو إذا شاء هو أن يضعف من قوة الإمبراطور الخطرة بتوجيه مجهوداته وراء البحار ، راح يدعو إلى حرب صليبية ، حتى لقد كفت الكلمة عن أن يكون لها أى معنى إلا محاولة وضع شيء من النكهة في حرب غير مستساغة الطعم . فهناك حرب صليبية أعلنت على المراتقة في جنوب فرنسا ، وثانية على جون (ملك إنجلترا) ، وأخرى على الإمبراطور فردريك الثاني . فلم يكن الباباوات يفهمون أن الكرامة ضرورية للبابوية . أجل إنهم بلغوا في صدارتهم لعالم المسيحية أوج الرفعة الخلقية . ثم أخذوا بعد ذلك يبددون شئناً فشيئاً . ولم يقتصروا على ابتذال فكرة الحرب الصليبية وتضييع قيمتها ، بل جعلوا ما في أيديهم من قدرة هائلة على الحرمان (أى طرد الناس من الرحمت القدسية ، والآمال والسعادات التي يكفلها لهم الدين) - مثار السخرية باستعمالها في المنازعات السياسية البحتة . ولم يقتصر الأمر على إعلان الحرب الصليبية على فردريك الثاني بل إنه « حُرِّم » أيضاً - دون أن يعود عليه ذلك بأى ضرر ظاهر . ثم حرم مرة ثانية في (١٢٣٩) ، وجدد ذلك الحكم إنوسنت الرابع في (١٢٤٥) .

ولم تصل معظم الحملة الصليبية الرابعة إلى الأرض المقدسة بتاتاً . خرجت من البندقية (١٢٠٢) ، واستولت على زارا وعسكرت في القسطنطينية (١٢٠٣) ، وأخيراً نهب المدينة (١٢٠٤) . كانت الحملة هجوماً مشتركاً صريحاً على الإمبراطورية البيزنطية . فاستولت البندقية على شطركبير من شواطئ الإمبراطورية وجزرها ، وأقيم أمير لاتيني هو بلدوين الفلاندرى إمبراطوراً بالقسطنطينية . وأعلنت عودة الوحدة بين الكنيستين اللاتينية واليونانية ، وحكم أباطرة لاتين بوصفهم غزاة في القسطنطينية من (١٢٠٤ - ١٢٦١) .

ثم حدث في (١٢١٢) حدث رهيب ، هو « حملة صليبية للأطفال » . فإن هياجاً لم يعد يستطيع أن يؤثر بعد في البالغين السليمي العقل انتشر بين الأطفال في جنوبي فرنسا وفي حوض نهر الرون . فسار جمهور مكون من آلاف كثيرة من الغلمان

الفرنسيين إلى مرسيليا ؛ فاستغواهم تجار الرقيق إلى النزول في السفن ، وباعوهم في مصر عبيداً . وسار أطفال أرض الراين على أقدامهم حتى انحدروا إلى إيطاليا ، وهناك تشتتوا بعد أن هلك منهم كثيرون في الطريق .

واستغل البابا إنوسنت الثالث هذه الحادثة العجيبة لصالحه أيما استغلال . فقال : « حتى الأطفال أنفسهم يلبسوننا ثوب الخزي والعار » . ثم حاول أن يستثير الحماسة لحملة صليبية خامسة . وكان هدف هذه الحملة غزو مصر ، لأن بيت المقدس كانت عند ذاك في قبضة السلطان المصري ؛ وعادت البقية الباقية من هذه الحملة (١٢٢١) ، مجللة بالخزي بعد جلاء غير كريم عن مدينة دمياط ، الفتح الوحيد الذي فتحته ، ومعها آثار من الصليب الحق ببيت المقدس كمنحة جاد بها عليهم — على سبيل العزاء — عدوهم المنتصر ، ولقد سبق أن لحظنا ما مر بذلك الأثر الجليل قبل أيام محمد ﷺ عندما حمله كسرى (الثاني) أبرويز إلى المدائن (طيشفون) ، ثم استعادته الإمبراطور هرقل . ومع ذلك فإن أجزاء من الصليب الحق ، قد بقيت على الدوام في روما بكنيسة (سانت كروتشي جيروسالمى S.Croce-Gerusalemme) منذ أيام الإمبراطورة هيلانة (أم قسطنطين الكبير ، التي تقول الأسطورة عنها ، إنها أطلعت على مخبئه في رؤيا رأتها أثناء حجها إلى الأراضي المقدسة .

ويقول جيبون : « إن حراسة الصليب الحق الذي كان يعرض يوم أحد القيامة في جلال ووقار أمام أعين الناس ، كانت موكولة إلى أسقف بيت المقدس ؛ وكان هو وحده الذي يرضى تقوى الحجاج المشوقين بأن يهديهم قطعاً صغيرة منه ، كانوا يضعونها في أوعية من الذهب أو الجواهر ، ويحملونها إلى بلادهم ظافرين . ولكن لما لم يكن بد لهذه السلعة المربحة من أن تنضب سريعاً ، فقد وجد من الملائم الزعم بأن ذلك الخشب العجيب كانت له قوة إنبات خفية ، وأن مادته وإن كانت تتناقص باستمرار إلا أنها تظل مع ذلك كاملة غير منقوصة » .

فأما الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨) فهي حملة قاربت درجة السخف . ذلك أن الإمبراطور فردريك الثاني كان أقسم على القيام بحملة صليبية ثم نكث بندره . أجل إنه

شرح في الحملة شروعاً زائفاً ولكنه عاد أدراجه . والراجح أنه كان يتبرم من مجرد فكرة القيام بحملة صليبية . ولكن النذر كان جزءاً من الصفقة التي ضمن بها نصرة البابا إنوسنت الثالث له في انتخابه إمبراطوراً . فتشغل بإعادة تنظيم حكومة مملكته الصقلية ، وإن كان أوهم البابا أنه سيتخلى عن هذه الممتلكات لو أصبح إمبراطوراً ؛ وكان البابا تواقاً إلى الحيلولة دون ما يقوم به الإمبراطور من تنظيم ممتلكاته الصقلية وإحكام تماسكها ، — بإرساله إياه إلى الأراضي المقدسة . ذلك أن البابا لم يكن ليرغب في وجود فردريك الثاني أو أي إمبراطور ألماني بأي حال في إيطاليا ، لأنه هو نفسه كان يرغب في أن يحكم إيطاليا . فلما أن طال تملص فردريك الثاني ، أصدر جريجوري التاسع عليه قرار الحرمان وأعلن عليه حرباً صليبية ، وغزا ممتلكاته في إيطاليا (١٢٢٨) . وعند ذلك أقلع الإمبراطور بجيش إلى الأراضي المقدسة . وهناك التقى بسلطان مصر (وكان الإمبراطور يتكلم بطلاقة ست لغات من بينها العربية) ؛ ولقد يبدو أن هذين السيدين ، ولكل منهما آراؤه المتشككة ، تبادلا وجهات نظر متماثلة متجانسة وتناقشا أمر البابا بروح علمانية ، وتباحثا في اندفاع المغول غرباً ، وهو الأمر الذي كان يهددهما جميعاً على السواء ، واتفقا آخر الأمر على عقد معاهدة تجارية وتسليم جزء من مملكة بيت المقدس إلى فردريك .

فكان هذا لاجرم نوعاً جديداً من الحروب الصليبية ، فهو حرب صليبية بالمعاهدات الخاصة . ولما كان هذا الصليبي المدهش محروماً ، كان لزاماً عليه أن يستمتع بتتويج علماني بحث في بيت المقدس ، آخذاً التاج من المذبح بيديه ، في كنيسة كان كل رجال الدين قد انصرفوا منها . والراجح أنه لم يجد هناك واحداً منهم يريه الأماكن المقدسة . والواقع أن هذه كلها حظرها عليه بطريرك القدس ، وأمر بإقفال أبوابها . وواضح أن الروح هنا تختلف تمام الاختلاف عن الروح التي أُنحت تلك المذبحة الدامية الحمراء في الحرب الصليبية الأولى . ولم يكن فيها حتى ذلك الإكرام للظريف الذي لقيته زيارة الخليفة عمر قبل ذلك بستمئة عام .

ورحل فردريك الثاني من بيت المقدس وهو وحيد تقريباً ، عائداً إلى إيطاليا من ذلك

النجاح غير الرومانسي ، وسارع إلى تنظيم شتونه هناك ، وطرده الجيوش البابوية من ممتلكاته ، وأجبر البابا على أن يحمله من حرمانه (١٢٣٠) . وفي الحق إن هذه الحرب الصليبية السادسة لم تكن نقيضاً للمقصود من الحروب الصليبية ودليلاً غير مباشر على سخفها وحدها فحسب ، بل وسخف الحرمان البابوي أيضاً . وسنحدثك في قسم تال عن فردريك الثاني هذا ، لأنه كان طرازاً نموذجياً في تمثيله قوى جديدة بأعيانها ، أخذت تظهر في الشتون الأوربية .

ثم فقد المسيحيون بيت المقدس مرة ثانية (١٢٤٤) ؛ إذ استرجعها منهم سلطان مصر بغاية السهولة عندما حاولوا أن يدبروا مؤامرة ضده . فتسبب عن ذلك الحرب الصليبية السابعة ، وهي حرب القديس لويس ملك فرنسا (لويس التاسع) الذي أخذ في مصر أسيراً ثم افتدى (١٢٥٠) . ولم يحدث أن أفلتت بيت المقدس مرة ثانية من قبضة المسلمين حتى (١٩١٨) عندما سقطت في يد قوة مختلطة من الجنود الفرنسية والإنجليزية والهندية .

وتبقى بعد ذلك حملة صليبية أخرى ؛ وهي حملة على تونس قام بها نفس لويس التاسع ذاك ، الذي مات هناك بالحمى .

١٢ - الحروب الصليبية اختبار للمسيحية

تتجلى أهمية الجوهريّة للحروب الصليبية لدى مؤرخ البشرية في موجة العواطف وتوحيد الشعور للذين أفعوا الحملة الأولى بالحوية الناشطة . ثم أخذت الحملات بعد ذلك تنحدر إلى منزلة العمليات الروتينية العادية ، وأخذت قيمتها تقل بالتدريج كأحداث لها أهمية حيوية . كانت الحرب الصليبية الأولى حدثاً ضخماً يماثل اكتشاف أمريكا ؛ على حين لم تزد الحملات التالية عن رحلة اجتياز عادية للمحيط الأطلسي . ففي القرن الحادى عشر لا بد أن فكرة الحرب الصليبية كانت أشبه شيء بنور غريب رائع أضاء في السماء ، فأما في القرن الثالث عشر ، فإن الإنسان ليستطيع أن يتصور سكان المدن الأمناء وهم يقولون بصوت الخنج « ماذا !؟ أحرب صليبية أخرى ! ! ! » . (١٤ - معالم)

ولم يكن ما لقيه القديس لويس في مصر ، شيئاً يعدّ من قبيل خبرة جديدة اكتسبتها البشرية ، بل هي أقرب شبهة بجولة جولف على ملعب معروف جولة لاحقة سوء الطالع وهي مجموعة من أحداث لا وزن لها . ذلك أن مناط اهتمام الحياة قد تحول إلى اتجاهات أخرى .

وتكشف بداية الحروب الصليبية عن أوروبا بأجمعها وهي مشبعة بمسيحية ساذجة ، ومستعدة في ثقة وبساطة لأن تتبع قيادة البابا . إذ كانت فضائح قصر اللاتيران أثناء أيامه الشريرة تلك ، التي نعرفها نحن جميعاً الآن ، مجهولة خارج روما أو تكاد . أجل أصلح جريجورى السابع وإربان الثانى كل ذلك وعوضاً الكنيسة عما أصابها . ولكن خلفاءهما في اللاتيران والفاتيكان^(١) لم يكونوا من الناحية العقلية والخلقية كُفؤاً لما بين أيديهم من نهزات . وكانت قوة البابوية تقوم على الثقة التي أولاها الناس إياها ، وهي ثقة استغلّتها البابوية في غير حرص أو عناية حتى أوهنتها . ذلك أن روما ظلت على المدوا تنطوى على قدر أكثر مما ينبغى من حصافة « الكاهن » ومكره ، وعلى النزر اليسير من قوة « النبي » وروحه . ولذا فبينما كان القرن الحادى عشر قرن أناس جهلة ذوى ثقة عمياء ، كان القرن الثالث عشر قرن رجال عارفين غير مخدوعين . كان عالماً أكثر مدنية وأعمق تشككاً .

وكان الأساقفة والقساوسة والمؤسسات الديرية في عالم المسيحية اللاتينية قبل أيام جريجورى السابع على شىء من الارتباط المفكك العرى تقريباً ، كانوا من حيث الكيف والكنه غاية في الاختلاف والتفاوت ؛ ولكن من الواضح أنهم كانوا في العادة على أعظم درجة من المودة الخالصة مع الناس الذين كانوا يعيشون بين ظهرانيهم ، كما كانوا ينطوون على نصيب وافر من روح يسوع التي ما برحت حية في شخصهم ؛ كانوا موضع الثقة ، وكان لهم نفوذ هائل « على ضمائر أتباعهم » . وكانت الكنيسة بالمقارنة إلى

(١) سكن البابوات قصر اللاتيران حتى (١٣٠٩) ، عندما أقام بابا فرنسى البلاط البابوى في أفنيون . فلما عاد البابا إلى روما في (١٣٧٧) ، كان قصر اللاتيران قد تخرّب أو كاد ، فأصبح قصر الفاتيكان مقر البلاط البابوى . وكان ذلك القصر ، بالإضافة لى ميزات أخرى ، أقرب كثيراً إلى قلعة . انت انجياو حصن البابوية . (المؤلف) .

حالتها فيما بعد ، واقعة بدرجة أكبر في قبضة العلمانيين المحليين والحاكم المحلي ؛ وكانت تنقصها الروح العالمية العامة التي صارت لها فيما بعد .

وقد أفضت جهود جريجورى السابع الفعالة في تقوية الكنيسة وتنشيطها تنشيطاً يستهدف زيادة قوة روما المركزية ، إلى فصم كثير من الروابط الخفية بين القسيس والدير من ناحية ، وبين منطقة الريف التي من حولهما من الناحية الأخرى . فإن ذوى الإيمان والحكمة من الناس يؤمنون بأن النمو سنة الحياة كما يؤمنون بإخوانهم من الناس ؛ فأما القساوسة حتى من كان منهم من أضراب جريجورى السابع نفسه ، فيعتقدون في « الكفاية » الزائفة التي ينطوى عليها نظام مفروض على الناس . وأفضى النزاع على مسألة « التعيينات » بكل أمير في عالم المسيحية إلى الاسترابة من أمر الأساقفة واعتبارهم عمالاً لدولة أجنبية . وتسربت هذه الاسترابة حتى وصلت إلى سكان الأبروشيات^(١) . ولقد قضت مشروعات البابوية السياسية بأن يزداد الباباوات طلباً للمال على الأيام . وشاع بين الناس في كل مكان إبان القرن الثالث عشر القول بأن رجال الدين ليسوا بالرجال الطيبين ، وأنهم لا يفتأون يتصيدون الأموال .

وفي أيام الجهالة الأولى كان الناس دائماً على أتم استعداد للاعتقاد بأن طائفة الكهنوت الكاثوليكية طيبة حكيمة . وكانت بالفعل خيراً وأحكم نسيباً في تلك الأيام . ذلك أنه وكلت إلى الكنيسة سلطات هائلة تتجاوز أعمالها الروحية — كما أبيحت لها حريات خارقة لكل معتاد . فاستغلت هذه الثقة أتم استغلال . وقد أصبحت الكنيسة في القرون الوسطى دولة داخل الدولة فكانت لها محاكمها الخاصة ، التي لم تقتصر على النظر في قضايا القساوسة (رجال الدين) بل تناولت كذلك قضايا الرهبان والطلاب والصلبيين والأرامل واليتامى ومن لا معين لهم ، إذ يحتفظ بقضاياهم للمحاكم الكنسية . وحيثما كان لطقوس الكنيسة أوقوعا دخل في أى موضوع ، ادّعت أن لها الاختصاص وتدخلت في مسائل من أمثال الوصية والزواج والأيمان^(٢) ، وطبعا الهرطقة والسحر والتجديف . وكانت

(١) الأبروشية : هى منطقة اختصاص إحدى الأسقفيات (المترجم)

(٢) المقصود هنا من الإيمان جمع يمين وهو القسم (الترجمة) .

هناك سجون كنسية عديدة ربما قضى المذنبون فيها كل حياتهم كاسفين . وكان البابا هو المشرع الأعلى للمسيحية ، محكمته بروما هى محكمة الاستئناف النهائية الخامسة . وكانت الكنيسة تجبى الضرائب ؛ ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب ، بل لأنها فرضت ضريبة العشر (العشور) على رعاياها . وهى لم تدع إلى هذا الأمر بوصفه عملاً من أعمال الإحسان والتقوى ؛ بل طالبت به كحق . وأخذ رجال الكنيسة من الناحية الأخرى يدعون عند لك حق الإعفاء من الضرائب العلمانية .

ولا شك أن هذه المحاولة منهم للاتجار بنفوذهم الخاص فى بابيه والتملص من نصيبهم فى الأعباء المالية ، كانت عاملاً جسيماً فى السخط المتزايد على رجال الدين . وبصرف النظر عن كل ما يتعلق بالعدالة فإنه كان أمراً لا ينطوى على الحنكة . كان أمراً يجعل الضرائب فى أعين من عليهم دفعها تبدو عشرة أضعافها ؛ ويجعل كل إنسان مرهف الحس إزاء ما تستمتع به الكنيسة من حصانات

وثمة دعوى أخرى ادعتها الكنيسة كانت هى أيضاً أكثر سرفاً وبعدا عن الحكمة هى قولها بأن لها « حق التحلة » . ومعنى ذلك أن البابا كان يستطيع فى كثير من الأحيان أن يهمل قوانين الكنيسة فى حالات فردية خاصة ؛ فهو قد يأذن لأبناء العم وأبناء الخال أن يتزاوجوا ؛ وقد يسمح لرجل بأن تكون له زوجتان ، أو يجل أى إنسان من نذره ولكن إتيان مثل هذه الأمور ينطوى على اعتراف بأن القوانين التى تتصل بها ليست قائمة على أسس من الضرورة اللازمة والصلاح الفطرى ؛ وأنها فى الواقع إنما تنطوى على التضييق والمضايقة . فإن مشرع القوانين للبشر قاطبة ملزم أكثر من كل إنسان بالولاء للقانون . وهو دون الناس كافة ملزم أن يتصرف كأنما القانون سيف مسلط عليه قبل كل الناس . ولكنه ضعف الإنسانية عامة ذلك الذى يوحى إلينا بأن نتخيل أن الوديعه التى تسلم إلينا لإدارتها إنما هى مما ملكت أيماننا .

١٣ - الإمبراطور فردريك الثاني^(١)

بعد الإمبراطور فردريك الثاني خير مثال لطراز المتشكك المتمرد الذى استطاع القرن الثالث عشر أن يثبته . وربما كان من الشائق أن نحدثك قليلا عن ذلك الرجل الذكى الساخر . وهو ابن الإمبراطور هنرى السادس الألمانى وحفيد فردريك بربروسا ، وأمه ابنة روجر الأول ملك صقلية النورماندى . فورث هذه المملكة (١١٩٨) وهو بعد فى الرابعة من عمره ؛ وظلت أمه وصية عليه ستة أشهر ، فلما أن ماتت أصبح البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) وصياً على العرش وقبلاً عليه .

ويبدو أنه حظى بتعليم استثنائى فى جودته عجيب فى تنوعه ، وأكسبته مزاياه لقباً ينطوى على الملقى والإطراء هو « أعجوبة العالم Stubor mundi » . وكان من نتيجة جمعه بين النظرة العربية إلى المسيحية ، والنظرة المسيحية إلى الإسلام ، أن أصبح يعتقد أن كل الديانات دجل ، وهو رأى ربما ذهب إليه كثير من ذوى الرأى المكيوتى الألسنة فى « عصر الإيمان » . بيد أنه تحدث دونهم معبراً عن آرائه ؛ ذلك بأن كثيراً من تجديفه وإلحاده مدون مسجل .

وإذ أنه ترعرع تحت حكم إنوسنت الثالث ذلك المتغطرس الشامخ بأنفه ، الذى لا يبدو عليه أبداً أنه أدرك أن القاصر قد رشد ، فقد نمت فيه روح تملص فكهة وكانت سياسة البابا أن يمنع قيام أى اتحاد جديد بين قوة ألمانيا وإيطاليا ، ويمادل هذا التصميم من جانب البابا عزم فردريك على أخذ كل ما يستطيع الحصول عليه . فلما أن هيأت له الفرص للساعة تاج ألمانيا الإمبراطورى ، استطاع أن يضمن عون البابا له بأن وافق إن هو انتخب - على ترك ممتلكاته فى صقلية وجنوب إيطاليا ، وأن يقضى على ما فى ألمانيا من إلحاد . ذلك أن إنوسنت الثالث كان من أعظم البابوات ولعاً بالاضطهاد ، كما كان رجلاً مقتلراً طبع على الجشع والعدوان . (كان بحسبانه بابا ، صغير السن صغيراً مضطراً ، إذ ارتقى عرش البابوية وهو فى السابعة والثلاثين) . وإنوسنت

(١) أصدرت الهيئة المصرية العامة للتأليف ترجمة لهذا الإمبراطور العظيم تحت اسم « الزنديق الأعظم » ألفها جوزيف جاي ديس وترجمها الأستاذ أحمد نجيب هاشم . وهى سيرة رائمة تستحق لغة من كل قارىء عربى . (المترجم)

هو الذى حض على شن حرب صليبية قاسية على المراتقة فى جنوبى فرنسا ، وهى حرب صليبية انقلبت من فورها الى حملة نهب وسلب أفلت معهما الزمام من يده .

وما أن انتخب فردريك إمبراطوراً (١٢١٢) ، حتى ألح عليه إنوسنت بأن يبر بالأيتمان والوعود التى انتزعها من « قاصره » (الإمبراطور) الفتى !! وقد تعهد أن يرفع عن رجال الدين التشريع العلماني ويعفيهم من دفع الضرائب ، ووعد أن ينزل على الملاحدة (المراتقة) من ألوان القساوات ما يجعلهم عبرة لمن عداهم . ولكن فردريك لم يقيم بشيء من كل هاته الأمور . وكما قلنا قبلا ، لم يقبل حتى أن يتخلى عن صقلية . إذ كان يؤثر المقام فى صقلية ويفضلها على ألمانيا .

ومات إنوسنت الثالث وقد أعيته منه الحبل (١٢١٦) ، ولم يصل خفه هونوريوس الثالث معه إلى أية نتيجة . ومات إنوسنت الثالث دون أن يتوج فردريك ، ولكن هونوريوس فعل ذلك (١٢٢٠) . وجاء جريجورى التاسع (١٢٢٧) بعد هونوريوس ، والظاهر أنه تولى عرش البابوية معزماً عزماً أكيداً مغيظاً الهيمنة على ذلك الإمبراطور الشاب المحيّر . فحرمه على الفور لنكوصه عن القيام بحملته الصليبية الموعودة ، التى تأخر موعدها اثنتى عشرة سنة ؛ ثم شهر برذائله وهرطقاته وذنوبه عامة فى رسالة علنية نشرها (١٢٢٧) . فرد فردريك على هذه بوثيقة على درجة أكبر من الاقتدار ، إما أن يكون هو كاتبها أو أنها كتبت له : موجهة إلى كل إمرء أوربا ، وثيقة ذات أهمية قصوى فى للتاريخ ، لأنها أول بيان واضح صريح عن النزاع بين مدعيات البابا فى أن يكون الحاكم المطلق على عالم المسيحية بأسره ، وبين مدعيات الحكام العلمانيين . وقد كان هذا النزاع يسرى على الدوام كالنار تحت الرماد . ولكنه كان يضطرم هنا على صورة ما ، ويتأجج هناك على صورة أخرى ؛ ولكن فردريك وضع الأمر الآن فى عبارات واضحة عامة يستطيع الناس أن يتخذوها أساساً لاتحادهم بعضهم ببعض .

حتى إذا كال هذه الضربة ، ارتحل فى حربه الصليبية السلمية التى تحدثنا عنها من قبل . وفى (١٢٣٩) كان جريجورى التاسع يحرمة للمرة الثانية ، ويجدد حرب الشتائم

العلنية التي قاست منها البابوية الويلات من قبل . وانبعثت الخصومة من جديد بعد وفاة جريجورى التاسع ، عند ما أصبح إنوسنت الرابع بابا ؛ وللمرة الثانية صدرت عن فردريك رسالة قاضية كتبها ضد الكنيسة ، صار لزماً على الناس أن يتذكروها ؛ رسالة شهر فيها بكبرياء رجال الدين وانعدام التدين فيهم ، وعزى كل مفساد الزمان إلى استكبارهم وثرانهم واقترح على زملائه الأمراء مصادرة أملاك الكنيسة مصادرة عامة - لخير الكنيسة نفسها . فكانت تلك منه إشارة لم تبارح بعد ذلك أبداً أخيلة الأمراء الأوربيين .

ولن نواصل الكلام عنه . سنواته الأخيرة ولا عن الكوارث التي نشأت عن عدم اكترائه ، فألقت على خاتمته ظلاً من الإخفاق . وبديهي أن حوادث حياته الخاصة أقل قيمة من جوها العام ؛ ومن الميسور أن يجمع الإنسان شتات صورة لحياة بلاطه فى صقلية . فإنه ليوصف - وقد دنت آخرته - بأنه « أحمر الوجه أصلع الرأس ضعيف البصر » ؛ على أن قسماته كانت مليحة جذابة . وكان مترفاً فى معيشته ، مولعاً بالأشياء الجميلة . وهو يوصف بالإغراق فى الملذات . ولكن من الواضح أن ذهنه لم يشعر بالافتناع لما ملأه من الشكوك الدينية ، وأنه كان رجلاً أوتى قوتى استطاع وبجث فعالين للغاية . وكان بلاطه يجمع بين الفلاسفة اليهود والمسلمين والمسيحيين على السواء ، وبذل جهداً كبيراً فى سبيل إرواء ذهن الإيطالى بمؤثرات شرقية عربية . وعلى يديه أدخلت الأرقام العربية والجبر إلى الطلاب المسيحيين ، وكان من بين الفلاسفة الكثرين فى بلاطه ميخائيل سكوت ، الذى ترجم أجزاء من أرسطو وتعليقات الفيلسوف العربى العظيم ابن رشد (القرطبي) عليها .

وفى (١٢٢٤) أسس فردريك جامعة نابولى ، ووسع مدرسة الطب الكبيرة . بجامعة سالرنو أقدم الجامعات وأغدق عليها الأموال . كذلك أنشأ حديقة للحيوان . وترك كتاباً فى التصقير^(١) يكشف فيه عن نفسه خبيراً بعبادات الطير له ملاحظات دقيقة ، وكان من أوائل الإيطاليين الذين كتبوا الشعر بالإيطالية . والحق إن الشعر الإيطالى قد ولد فى بلاطه . وقد أطلق عليه كاتب مقتدر اسم « أول المحدثين » ، وهى

(١) التصقير : كما ورد فى معجم الوسيط ، الصيد بالمقصور . (المترجم) .

عبارة تترجم في براءة عما كانت عليه نواحيه الذهنية من استقلال وحياد في
الرأى برىء من كل تحيز . كان ذا أصالة تامة من جميع نواحيها ، وقد وفق
في إبان أزمة أحدثت بعض النقص في الذهب إلى إدخال عملة مصنوعة من
الجلد المختوم أو الرّق ، تحمل وعداً منه بأن يدفع قيمتها ذهباً ، وهو ضرب من
(البنكنوت) المصنوع من الجلد . وبذلك ابتعثت طريقة للنقد ، لم ير العالم منذ
أيام قرطاجة لها نظيراً .

وبالرغم من سيل الشتائم والسباب الذى أغرق فيه فردريك ، فإنه ترك أعماق
الأثر في مخيلة الشعب . ولا يزال جنوب إيطاليا يذكره بشكل يكاد يضارع في قوته
ذكرى نابليون الأول لدى الفلاحين الفرنسيين ، وهو لديهم « فريديريجو العظيم »
ويصرح العلماء الألمان أنه بالرغم من كراهية فردريك الظاهرة لألمانيا ، فإنه هو ،
وليس فردريك الأول ، فردريك بربروسا ، الذى تنتسب إليه أصلاً تلك الأسطورة
الألمانية وهى الأسطورة التى تمثل ملكاً عظيماً قد أخذه النعاس في غار عميق ، وقد
نمت لحيته حول منضدة حجرية ، انتظاراً ليوم يُنْتَشَل فيه العالم على يديه من
وهدة فوضى بالغة إلى سلام شامل . ويبدو أن بطولة القصة نقلت فيما بعد إلى
الصليبي بربروسا جد فردريك الثانى .

كان فردريك الثانى طفلاً عسير القياد على أمه الكنيسة ، على أنه لم يكن إلاموطناً
مهتد السبيل وطلبة للكثيرين من أمثاله من الأطفال العسرين . وكان الأمراء
والمعلمون في أرجاء أوروبا كافة يقرأون رسائله ويتباحثون فيها : فأما طلاب
الجامعات الأشد إقداماً ، فراحوا يلتمسون ويشخصون بأبصارهم بل ويهضمون : —
كتب أرسطو العربية الأصل التى جعلها فردريك في متناول أيديهم باللاتينية . وألقت
سالرنو على روما نوراً مهلكاً مؤذياً . ولا بد أن الناس على اختلاف أصنافهم قد
راعهم قلة غناء ما انهال على رأس فردريك من ألوان الحرمان والعزلة عن
الجماعة .

١٤ - معاييب البابوية وتحديداتها

أسلفنا أن إنوسنت الثالث لم يبد عليه قط ما يدل على أنه أدرك أن القاصر فردريك الثاني كان ينمو ويرشد . ولا يقل عن هذا صدقاً أن البابوية لم يبد عليها أبداً أنها أدركت أن أوربا كانت آخذة بأسباب النضج والرشاد . ومن المستحيل على دارس ذكى عصرى للتاريخ ألا يعطف على ما كان يحول في ضمير البلاط البابوى ، من فكرة تقول بوجوب قيام حكم عام للصالح والبر يحفظ على الأرض السلام ، وألا يميز عناصر النبل العديدة التى دخلت فى سياسة اللاتيران . فلا بد للبشرية من أن تصل إن عاجلاً وإن آجلاً إلى سلام عام واحد ، اللهم إلا إذا قضت على جنسنا البشرى قوته المتزايدة التى تعود عليه من مخترعاته المهلكة ؛ ولا مناص لهذا السلام العام من أن يتخذ شكل حكومة ، أو بعبارة أخرى ، هيئة تدعم القانون بطريقة دينية بأحسن ما فى كلمة دينية من معان - حكومة تحكم الناس بواسطة التعليم الذى يخلق التناسق الذهني بينهم ويسلكهم جميعاً فى تصور مشترك من التاريخ الإنسانى والمصير الإنسانى .

وعلىنا الآن أن ننظر إلى البابوية على أنها أول محاولة واعية واضحة القصد ترمى إلى تزويد العالم بمثل هذه الحكومة . وما يجوز لنا أن نشط فى الحماسة والحد ونحن نفحص عن نقائصها وضروب عجزها ، إذ أن كل درس نستطيع أن نستفيده منها ، إنما له بالضرورة أعظم القيمة لدينا فى تكوين فكراتنا عن علاقاتنا الدولية الحاضرة . ولقد حاولنا أن نشير إلى العوامل الرئيسية التى أفضت إلى انهيار الجمهورية الرومانية ، ومن المناسب لنا الآن أن نحاول تشخيص الأسباب التى أدت إلى إخفاق كنيسة روما الكاثوليكية دون تجميع وتنظيم حسن نية البشرية وطواياها الطيبة .

وأول ما يسترعى انتباه الدارس هو تقطع جهود الكنيسة فى تأسيس « مدينة الله » العالمية . فلم تكن سياسة الكنيسة متجهة بكل قواها وفؤادها وباستمرار إلى تلك الغاية . فلم يكن يحدث إلا بين الفينة والفينة أن شخصية ما ممتازة أو مجموعة ما من

الشخصيات الممتازة ، كانت تنسلط عليها وتوجهها في ذلك الاتجاه . ذلك أنه منذ البداية تقريباً احتجبت مملكة الرب التي دعا إليها يسوع الناصري كما بينا آنفاً واستترت وراء المبادئ والتقاليد الطقوسية الراجعة إلى عصر أقدم وإلى طراز أدنى عقلية . وقد كفت المسيحية منذ بدايتها تقريباً عن أن تكون محض ديانة نبوية وخلافة . إذ أنها أوقعت نفسها في شرك التقاليد العتيقة الخاصة بالتضحية الإنسانية ، وبالتطهير الدموي لدى « المثرائية »^(١) ، وبالكهانة القديمة قدم الجماعة الإنسانية وبتفاصيل النواحي الدقيقة لطبيعة الإله . ومن عجب أن أصبح الخبر الإتروري (الإترسكى) الأعظم المخضبة بالدم أصبحت الداعية المتشددة التي تؤكد للناس تعاليم يسوع الناصري ! وكذلك أيضاً أوقعها عقل الإغريق الإسكندري في أحبولته بما جبل عليه من تعقيد ذهني . حتى إذا وقعت الكنيسة في معمران هذا التطاحن الذي لا مفر منه بين ههنا المتفارقات المتناقضة ، اضطرت أن تصبح إعتقادية (دوجماتية) تأخذ بالمذهب الاعتقادي الحتمي^(٢) . ذلك أنها حين يئست من بلوغ حلول أخرى لخلافاتها الفكرية ، التجأت إلى الاستبداد التعسفي .

فأصبح قساوستها وأساقفتها على التدريج رجالاً 'مكيّفين' وفق مذاهب واعتقادات حتمية وإجراءات مقررة وثابتة ؛ حتى إذا ما آن أوان توليهم منصب الكرادلة أو البابوات إذا بهم في العادة كهول قد ألفوا من الكفاح السياسي ذلك الضرب الذي يقصد إلى غاية قريبة مباشرة ، ولم يعودوا أهلاً لقبول آراء رحيبة يشمل أفقها العالم بأسره . ولم تعد لهم بعد رغبة في رؤية مملكة الرب موطدة في قلوب الناس . فقد نسوا ذلك الأمر ؛ وأصبحوا يرغبون في رؤية قوة الكنيسة التي هي قوتهم هم ، متسلطة على شئون البشر . وكانوا في سبيل توطيد تلك القوة على أتم استعداد للمساومة مع أى شيء حتى البغض والخوف والشهوات المستقرة في قلوب البشر . ونظراً لأن كثيراً منهم كانوا على الأرجح 'يسيرّون' الريبة في سلامة بديان مبادئهم الضخم المحكم وصحته المطلقة ، لم يسمحوا بأية مناقشة فيه . كانوا لا يحتملون أسئلة ولا يتسامحون في مخالفة ،

(المترجم)

(١) انظر المعالم ج ٢ ، ص ٦٣٣

(٢) الاعتقاد الحتمي أو القلبي (Dogma) : مجموعة المبادئ التي تعدّها الكنيسة صحيحة تتجاوز كل ريب وتلزم كل إنسان باعتناقها ولا تقبل فيها نقاشاً . (المترجم)



(شكل ١٤٤) الصليبي المثال

لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم ، بل لأنهم كانوا غير واثقين منها . وكانوا يريدون ممن حولهم موافقتهم على رأيهم لأسباب تتصل بالسياسة .

وقد تجلّى في الكنيسة عندما وافي القرن الثالث عشر ما يساورها من قلق قاتل حول الشكوك الشديدة التي تنخر بناء مدعياتها بأكله وقد تجعله أثراً بعد عين . فلم تكن تستشعر أى اطمئنان بنفسى . وكانت تتصيد المراهقة في كل مكان ، كما تبحث العجايز الخائفات - فيما يقال - عن اللصوص تحت الأسرة وفي الدواليب قبل الهجوع في فراشهن .

ولقد سبق أن أشرنا إلى ماني الفارسي الذي صلب وسلخ جلده في (٢٧٧) . وكانت طريقته في تمثيل الكفاح بين الخير والشر تتمثله كفاحاً بين قوة من نور ، كانت في الواقع في ثورة ضد قوة من ظلمة ملاهية للكون . وكل هذه المعميات العميقة تمثلها بالضرورة بعض الرموز والعبارات الشعرية ، ولا تزال أفكار ماني تجدد استجابة لدى كثير من الأمزجة العقلية اليوم . ولربما سمع الإنسان المبادئ المانوية من فوق كثير من المناير المسيحية . على أن الرمز الكاثوليكي الصحيح كان رمزاً مغيراً .

انتشرت هذه الأفكار المانوية انتشاراً واسعاً جداً في أوروبا ، وبخاصة في بلغاريا وجنوب فرنسا . وكان القوم الذين يعتنقونها في جنوبي فرنسا يسمون الكاثارين أو الألبيجنسين (Albigenses) . وكان اختلاف فكراتهم عن الأصول الجوهرية المسيحية من الضلالة بحيث جعلهم يحسبون أنفسهم مسيحيين مخلصين . وكانوا كهنة يعيشون عيشة فضيلة وطهر ظاهر في عصر طافح بالعنف والفوضى والزذيلة . بيد أنهم أظهروا الشك في صحة مبادئ روما وفي التفسير الصحيح للكتاب المقدس . وكانوا يرون في يسوع ثائراً على قسوة رب « العهد القديم » ، وليس ابناً له [كذا ! ! . . .] متسقاً وإياه .

ومن يرتبطون ارتباطاً وثيقاً مع الألبيجنسين طائفة أخرى تسمى الوالدونيون ، والوالدونيون هم أتباع رجل اسمه والدو ولكنه لم يكن يقل عن الآخرين مضايقة للكنيسة لأنه كان ينعي على رجال الدين ثراءهم وترفهم . ويخيل إلينا أن اللاهوت الذي كان يدعو إليه كان كاثوليكيّاً صحيحاً . وكان في ذلك الكفاية لدى قصر اللاتيران ، ومن ثم نرى مشهداً يبدو فيه إنوسنت الثالث وهو يحرض على حرب صليبية ضد هاته الشيع التعيسة ، ويأذن لكل نذل زعيم أو متشرد أئيم بأن ينضم إلى الجيش وأن يعمل السيف والنار واغتصاب الحرائر ويرتكب كل ما يمكن أن يتصوره العقل من أنواع انتهاك الحرمات ضد أشد رعايا ملك فرنسا مسالمة . والقصاص التي تروى عن هذه الحرب الصليبية تحكى لنا من أضرب القساوة والنكال البشع ما يتضاءل لإزاء بشاعته قصة أى استشهاد

للمسيحيين على أيدى الوثنيين ، وهى فوق هذا تسبب لنا رعباً مضاعفاً لما هى عليه من صحة لا سبيل إلى الشك فيها .

كان هذا التعصب الأسود القاسى روحاً خبيثاً لا يجوز أن يخالط مشروع حكم الله فى الأرض . وإنه لروح يتعارض تماماً مع روح يسوع الناصرى . فما سمعنا قط أنه لطم الوجوه أو خلع المعاصم لتلاميذه المخالفين له أو غير المستجيبين لدعوته ولكن البايوات كانوا طوال قرون سلطانهم فى حنق مقيم ضد من تحدته نفسه بأهون تأمل فى كفاية الكنيسة الذهبية .

ولم يقتصر تعصب الكنيسة على الأمور الدينية وحدها . فإن الشيوخ الحصفاء المولعين بالأبهة السريعى الهياج الحقودين الذين من الجلى أنهم كانوا الأغلبية المتسلطة فى مجالس الكنيسة ، كانوا يضيّقون ذرعاً بأية معرفة عدا معرفتهم لا يثقون بأى فكر لم يصمحوه ويراقبوه . فنصبوا أنفسهم للحد من العلم ، الذى كانت غيرتهم منه بادية للعيان . وكان أى نشاط عقلى عدا نشاطهم يعد فى نظرهم نشاطاً وقحاً . وقد خاضوا بعد ذلك بقليل معركة عظيمة مدارها مسألة موضع الأرض من الفضاء ، وهل هى تدور حول الشمس أم لا تدور . ولم يكن هذا فى الحقيقة من شئون الكنيسة بتاتاً . وربما كانت تحسن صنعاً لو أنها تركت للعقل ما للعقل من أمور ، ولكن يبدو أن ضرورة داخلية كانت تسوقها إلى تنفير ضمير الناس الفكرى منها .

ولو أن هذا التعصب نشأ عن عمق يقين حقيقى لكان فيه من السوء ما فيه ، ولكن كان يصحبه عنصر لا يكاد يستتر من الاحتقار للذكاء والكرامة العقلية عند الرجل العادى يجعله أقل استساعة بكثير فى عين تقديرنا العصرى ، ولا شك أنه جعله أقل قبولاً لدى النفوس الحرة فى ذلك الزمان . ولقد سردنا بمنتهى الهدوء سياسة كنيسة روما نحو أختها المضطربة فى الشرق . ولا شك أن كثيرا مما استعملته من الآلات والوسائل كان بغيضاً مقبياً . وإنك لتشهد فى معاماتها لشعبها بالذات مسحة من السخرية الحقّة . ولقد قضت على هيبتها بعدم مراعاتها لتعاليمها ذاتها الداعية إلى الصلاح والبر . وقد سبق أن تكلمنا عن نظام التحلية . وكانت خاتمة حماقاتها فى القرن السادس عشر بيع « صكوك الغفران »

التي بها يمكن افتداء الروح من عذاب المطهر بدفعة مالية . على أن الروح التي دفعتمها آخر الأمر إلى هذه الفعلية المتبجحة التي كانت نكبة عليها ، كانت واضحة ملحوظة من قبل في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

وقبل أن تنبت بذرة النقد التي ازدرغها فردريك الثا بزم من طويل في أذهان الناس ، وتوثق مالا مناص منه من ثمار العصيان ، كان يخيم على عالم المسيحية شعور واضح القوة يوحى إلى الناس بأن حال الجو الروحاني ليست على ما يرام . فابتدأت داخل الكنيسة الحركات - التي قد نسميها نحن اليوم بالحركات « الانتعاشية » ، والتي تضر في نفسها النقد لكفاية طرائقها وتنظيماتها القائمة أكثر مما تنطق به . وعندئذ أخذ الناس يلتهمسون أشكالا جديدة من حياة البر والهدى خارج الأديرة وصفوف الكهنوت .

وهناك شخص جدير بالذكر هو القديس فرنسيس الأسيسى (١١٨١ - ١٢٢٦) . ولسنا بمستطيعين أن نخبرك ها هنا في أى تفصيل كيف أن هذا الشاب المترف الظريف قد نزل عن كل ما وهبته الحياة من متعة ودعة وانطلق يطلب الله ؛ وليس استهلاك قصته بعيد الشبه عن تجارب جوتاما بوذا الأولى . إذ أصابه تحول فجائى إلى الهداية وسط حياة ناعمة بالمسرة والملذات ، حتى إذا نذر عيشة الفاقة الشديدة ، وهب نفسه لحياة تشبه حياة المسيح ، ولمدة المرضى والبائسين وبوجه أخص لخدمة المصابين بالجذام ، الذين كانوا يكثرون عند ذلك في إيطاليا .

وانضمت إليه جماهير غفيرة من الاتباع ، وبذا ظهر في عالم الوجود أول الرهبان في « عيقد » الرهبنة الفرنسيسكانية (أو الفرنسيسكية) . وأقيم عقد من النساء المتبتلات المخلصات إلى جوار عيقد الأخوة الرهبان الأصلي ، وبالإضافة إلى هذا ، ضموا إليهم أعداداً غفيرة من الرجال والنساء ارتبطوا بهم كمريردين ارتباطاً رسمياً بدرجة أقل . فأخذ يعظ الناس في مصر وفلسطين مبشراً بدعوته لا يعترض المسلمون عليه ، وهو أمر يجب ملاحظته هنا وتسجيله - وإن كان ذلك إبان الحملة الصليبية الخامسة . ولا تزال علاقاته بالكنيسة موضوع الأخذ والرد . وقد أقر البابا إنوسنت الثالث عمله ؛ غير أن عقد تشكيل الجماعة أعيد تكوينه وهو غائب ببلاد الشرق بصورة تقوى روح النظام ، وتجعل الرياسة ذات

السلطة الموجهة محل الدافع الاستجابي . فأفضت هذه التغييرات إلى تخليه عن رياستها . وقد ظل حتى نهاية أيامه متمسكاً أشد التمسك بالفقر كمثل أعلى ، ولكن لم يكده يعضى على وفاته أمد طويل ، حتى كان العقد يحتاز الأملاك عن طريق القوامه على الأوقاف ويبنى كنيسة عظيمة وديراً تخليداً لذكراه في أسيسى . هذا إلى أن النظم التي طبقت بعد وفاته على خلطائه وأتباعه المباشرين لا تكاد تفرق عن الاضطهاد في شيء ، فجلد كثير من أبرز المتحمسين للبساطة ، وسجن آخرون ، وقتل واحد أثناء محاولته الهرب ، وقضى الأخ برنار « أول تلاميذه » سنة في الغابات والتلال ، وهو يطارده مطاردة الوحش الضارى .

إن هذا النزاع الذى نشب داخل العقد الفرنسيسكانى (الفرنسيسكى) ، نزاع شائق جداً . لأنه ينذر بالمناعب العظيمة التى كانت النصرانية ملة عليها ، وقد ظل فريق من الفرنسيسكانيين يجاهد طوال القرن الثالث عشر ضد حكم الكنيسة ، وفى (١٣١٨) أحرق أربعة منهم وهم أحياء فى مرسيليا بوصفهم هراطقة لا يرجى لهم صلاح . ويبدو أن الفارق كان طفيفاً بين تعاليم القديس فرنسيس وروحه وبين تعاليم والدو وروحه فى القرن الثانى عشر ، وهو مؤسس طائفة الوالدين التى وئدت وقضى عليها . وكان كلاهما متوقفاً حماساً لروح يسوع الناصرى . ولكن بينما خرج والدو على الكنيسة ، بذل القديس فرنسيس قصاره لكى يكون ابناً باراً بالكنيسة ، ولم تكن تعليقاته على روح المسيحية الرسمية إلا تلميحاتاً ضمنية غير صريحة . ولكن كلاهما كان مثالا لثوران الضمير على السلطة المستبدة وعلى الإجراءات العادية التى تتبعها الكنيسة . ومن الجلى أن الكنيسة اشتتت ريح العصيان فى المثال الثانى كما أحست به فى الأول .

وكان القديس دومينيك الأسبانى (١١٧٠ - ١٢٢١) شخصية مغيرة جداً للقديس فرنسيس ، فقد كان قبل كل شيء تقليدى العقيدة . وكان ولوعاً بهداية الهراطقة عن طريق الجدل ، فنذبه البابا إنوسنت الثالث للذهاب والتبشير بين الألبيجنسين . وكان عمله يسير جنباً إلى جنب مع القتال والمذابح التى تمت أثناء

الحملة الصليبية عليهم : فن لم يستطع دومينيك أن يهديهم إلى سبيل الدين ، أعمل فيهم صليبيو إنوسنت السيف والنار ؛ ومع هذا فإن مناشطه ذاتها واعتراف البابا بعقد رهبانيته وتشجيعه إياه لتشهد بتصاعد سبيل المناقشة ، وباعتقاد الناس كافة بما فيهم البابوية نفسها بأن القوة ليست علاجاً للموقف .

وتطور عقد الرهبان السود أى الدومينيكن (الدومينيكان) — (إذ كان الفرنسيون هم الرهبان الشهب^(١)) يبين لنا من عدة أوجه أن الكنيسة الكاثوليكية كانت وهى عند مفترق الطرق تتردى مستسلمة رويدا فى أعماق الاعتقادية الختبية (Dogma) المنظمة ، وبذا تقع فى نزاع لا رجاء فيه مع ذكاء الإنسانية المتوقد وشجاعتها المشبوبة . وبذلك تخبرت الكنيسة طريق القسر والإجبار ، وهى التى واجهها الأوحدا أن ترشد وتهدى . ولا يزال آخر حديث ألقاه القديس دومينيك إلى المراطقة الذين جهد أن يهديهم إلى الطريق السوى باقيا لنا إلى اليوم . وهو من صوى^(٢) التاريخ الهامة . وإنه ليكشف لنا عن رجل تغلى مراجل غيظه القتال لأنه فقد إيمانه فى قوة الصدق نظراً لأن صدقه « الخاص » لم ينتصر .

قال : « قد نصحتكم سنين عديدة بلا جدوى : باللطف والموعظة والرجاء والبكاء . ولكننا تبعاً للمثل القائل فى بلادى : « حيثما تفشل البركات عن إتمام أى شىء ، فن الجائز أن تفيد اللكمات » — سنشير عليكم الأمراء والأخبار الذين سوف — ويا للأسف ! . . . يسلحون الأمم والممالك ضد هذه البلاد وبذا تفيد اللكمات حيث كانت البركات واللطف غير ذات جدوى^(٣) »

شهد القرن الثالث عشر تطور منظمة جديدة فى الكنيسة ، هى محكمة التفتيش البابوية . ذلك أنه جرت عادة البابا قبل ذلك الزمان بأن يقوم فى بعض الأحيان بتحقيقات أو استعلامات عن الإلحاد فى هذا الإقليم أو ذاك ، ولكن إنوسنت الثالث

(١) الشهب : جمع أشهب وهو الرمادى اللون . (المترجم)

(٢) الصوة : بالضم حجر يكون علامة فى الطريق ، وجمعه صوى . (المترجم)

(٣) الموسوعة البريطانية — مادة دومينيك .

وجد الآن في عقد الرهبان الدومينيكيين الحديد أداة قوية للقمع ومن ثم نظمت محاكم التفتيش كأداة تحقيق مستديمة تحت إدارتهم . وبهذه الأداة نصبت الكنيسة نفسها لمهاجمة الضمير الإنساني بالنار والعذاب وعملت على إضعافه مع أنه مناط أملها الوحيد في السيادة على العالم . وقبل القرن الثالث عشر لم تنزل عقوبة الإعدام إلا نادراً بالملاحدة والكفار . فأما الآن فإن كبار رجال الكنيسة كانوا يقفون في مئة ساحة من ساحات الأسواق في أوروبا ليراقبوا أجسام أعدائها - وهم في غالبية الأمر قوم فقراء لا وزن لهم - تحترق بالنار وتحمّد أنفاسهم بحالة محزنة ، وتحترق وتحمّد معهم في نفس الحين الرسالة العظمى لرجال الكنيسة إلى البشرية فتصبح رماداً تذروه الرياح . على أن بدايات الفرنسيسكيين والدومينيكيين لم تكن إلا اثنتين من بين القوى الكثيرة الجديدة التي أخذت تنشأ في عالم المسيحية ، إما لمساعدة الكنيسة أو لتحطيمها حسبما كانت تملّيه عليها حكمتها الخاصة . وقد تمثلت الكنيسة بالفعل هذين «العقدين» (الهيئتين) واستخدمتهما ، وإن كان ذلك مع قليل من العنف في حالة العقد الأول . على أن قوى أخرى كانت أصرح في نقدها وخروجها على الطاعة . إذ ظهر بعد ذلك بقرن ونصف ويكيليف (Wycliffe) (١٣٢٠ - ١٣٨٤) . وكان قسيساً ولاهوتياً عالماً في أوكسفورد ؛ واشتغل بالتدريس بكلية باليول حيناً من الدهر ؛ وتولى مناصب متنوعة في الكنيسة . ثم شرع وقد علت به السن بوجه سلسلة من النقد الصريح إلى ما عليه رجال الدين من مفاسد وما عليه الكنيسة من الخباقة .

ونظم عدداً من فقراء القساوسة ، هم الويكليفيون لنشر آرائه في كل أرجاء إنجلترا . ولكي يحكم الناس بينه وبين الكنيسة ، ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية . كان رجلاً أوسع علماً وأكثر اقتداراً من أي من القديسين فرنسيس أو دومينيك . كان له مؤيدون من ذوى المراكز العالية ، وأتباع كثير و العدد من بين أفراد الشعب ؛ ومع أن روما ثارت حنقاً عليه وأمرت بسجنه ، فإنه مات رجلاً حراً ، وهو ما يزال يقوم بالطقوس الدينية والأسرار المقدسة بوصفه قسيساً لأبروشية لوتوروث

• (Lutterworth)

على أن الروح الخبيثة القديمة التي كانت تسوق الكنيسة الكاثوليكية إلى حتفها لم تكن لتسمح لعظامه بأن تستقر في قبره . فبمقتضى قرار صادر من مجمع كونستانس في (١٤١٥) انتبشت عظامه وأحرقت ، وهو قرار نفذه الأسقف فلمنج في (١٤٢٨) بأمر من البابا مارتن الخامس . ولم يكن هذا الانتهاك لحرمة المقابر من عمل متعصب بمفرده ؛ بل كان عملاً رسمياً أتته الكنيسة .

١٥ - قائمة بأسماء البابوات العظام

إن تاريخ البابوية مربك للقارئ العادي لكثرة البابوات ووفرتهم . كانوا في الغالب يعتلون منصة الحكم شيوخاً قد تقدمت بهم السنون ، وكانت مدة حكمهم قصيرة تقل عن سنتين في المتوسط .

على أن من البابوات من يرزون ويهيئون لدارس التاريخ نقاطاً بارزة يستطيع أن يحسك بها ويحس أثرها . ومن أمثال هؤلاء جريجورى الأول العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) ، وهو أول بابا مترهب ، وصديق بندكت ، وصاحب الفضل في إرسال بعثة التبشير الإنجليزية .

ومن البابوات الآخرين الجديرين بالذكر ليو الثالث (٧٩٥ - ٨١٦) ، الذى توج شلمان ؛ واثنان من البابوات اشتهرا بالفصائح هما يوحنا الحادى عشر (٩٣١ - ٩٣٦) ويوحنا الثانى عشر (٩٥٥ - ٩٦٣) ، والآخر هو الذى خلعه الإمبراطور أوتو الأول ، ثم يحمى هلدبراند العظيم ، الذى ختم حياته تحت اسم جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) ، والذى فعل الشيء الكثير بتقريره العزوبة على رجال الدين ، وتشبته بسيادة الكنيسة على الملوك والأمراء ، لكى يركز قوة الكنيسة فى روما .

وحدث نزاع عظيم بين هلدبراند والإمبراطور المنتخب هنرى الرابع على مسألة التعيينات . فحاول الإمبراطور أن يخلع البابا ؛ فحرم البابا الإمبراطور وأحسب أتباعه الأمراء من ولائهم له . واضطر الإمبراطور أن يذهب تابعاً إلى البابا فى كانوسا (١٠٧٧) ، وأن ينتظر الغفران ثلاثة أيام متدثراً بالخيش ، وهو حافى القدمين فى

الثلج في فناء القلعة . على أن هنرى ما لبث أن عاد فيها بعد إلى فرض حقوقه وإبراز قوة شكيته إذ أعانته أكبر العون هجمات قوية قام بها المغامر النورماندى روبرت جويسكارد على ممتلكات البابا .

وكان البابا التالى لخليفة جريجورى السابع هو إربان الثانى (١٠٨٧ - ١٠٩٩) ، وهو البابا الذى دعا إلى الحرب الصليبية الأولى .

وكانت الفترة من جريجورى السابع إلى ما بعده بقرن ونصف من الزمان هي الفترة العظمى للكنيسة : فترة اشتداد طموحها وجهودها . وفيها بذلت المحاولات الصادقة المتواصلة لتوحيد عالم المسيحية بأجمعه في ظل كنيسة مطهرة مجددة التنظيم . وإن في إقامة الممالك اللاتينية بسوريا والأراضى المقدسة على مذهب روما بعد الحرب الصليبية الأولى ، لعلامة ملحوظة آذنت باستهلال مرحلة جديدة لغزو روما للمسيحية الشرقية ، مرحلة وصلت إلى ذروتها أثناء الحكم اللاتينى في القسطنطينية (١٢٠٤ - ١٢٦١) .

وفي (١١٧٧) رجع الإمبراطور فردريك بربروسا (فردريك الأول) للبابا اسكندر الثالث في مدينة البندقية واعترف بسيادته الروحية وأقسم يمين الإخلاص والولاء له . ولكن بعد موت اسكندر الثالث (١١٨١) ، تجلى ضعف البابوية الراجع إلى احتمال وقوعها في أيدي كهول محطمين . فإن خمسة من البابوات دلفوا إلى اللاتيران مترنحين لكي يموتوا في مدى عشر سنوات . ولم يتح للبابوية إلا في شخص إنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) بابا قوى جديد يتناول بيديه السياسية العظيمة « لمدينة الرب » .

وفي عهد إنوسنت الثالث - الوصى على الإمبراطور فردريك الثانى ، الذى سبق أن درسنا ترجمته - والبابوات الخمسة الذين خلفوه ، أصبح بابا روما أقرب إلى ملك لعالم مسيحي متحد منه في أى زمن سابق أو لاحق . ذلك بأن الإمبراطورية ضعفت لما نشب فيها من منازعات داخلية ، على حين صارت القسطنطينية في أيدي اللاتين ، ومن ثم صار البابا هو السيد الأعلى فيما بين بلغاريا

وإرلندة وما بين النرويج وصقلية وبيت المقدس . ومع ذلك فإن سيادته هذه كانت ظاهرية أكثر منها حقيقية . ذلك أنه على حين كانت العقيدة كما رأينا آنفاً ، قوية أيام إربان الثاني في كل أوربا المسيحية ، كانت البابوية أيام إنوسنت الثالث قد فقدت سيطرتها على قلوب الأمراء ، كما أن إيمان الناس وضميرهم كانا آخذين في التحول إلى العداء لكنيسة لا تنطوى إلا على السياسة والعدوان^(١) .

وكانت الكنيسة في القرن الثالث عشر تقوى وتبسط سلطتها القانونية في العالم وتفقد سيطرتها على ضمائر الناس . وكانت تغدو أقل إقناعاً وأكثر عنفاً . ولا يستطيع أى إنسان ذكى أن يتحدث أو يقرأ عن هذه العملية الفاشلة دون أن تخالجه مشاعر بالغة التضارب . لقد آوت الكنيسة بين أحضانها أوربا جديدة كونتها بنفسها خلال العصور الطويلة من الظلمة والفوضى ؛ وكانت هى القالب الذى صببت فيه المدنية الجديدة . ولكن هذه المدنية الجديدة التكوين إنما دفعتها إلى النمو حويتها الفطرية الكامنة ، فأما القالب (الكنيسة) فكان ينقصه القدر الكافى من قوة التنمية والتيسير . وكان الزمان الذى لا بد فيه من كسر هذا القالب يقترب حيناً .

وجاءت أول إشارة قوية لانحلال القوى الحية الداعمة للبابوية ، عندما حدث بعد ذلك نزاع بين البابوات وقوة الملك الفرنسى النامية . إذ حدث فى حياة الإمبراطور فردريك الثانى أن وقعت ألمانيا فريسة للفرقة ، وأخذ الملك الفرنسى يقوم نحو البابا بدور الحارس والمساعد والمنافس ، وهو الدور الذى كان يؤديه إلى ذلك الحين أباطرة آل هوهنشتاوفن . واتبعت مجموعة متتالية من البابوات سياسة مناصرة الملوك الفرنسيين ، فنصب أمراء فرنسيون فى ممالك صقلية و نابولى بمناصرة روما وموافقتها ، ورأى الملوك الفرنسيون أمامهم فرصة سانحة لاستعادة إمبراطورية شربلمان وحكمها . ومع ذلك فإنه لما انتهت فترة خلو العرش الألمانى التى نشأت بعد موت فردريك الثانى آخر أفراد آل هوهنشتاوفن ، وانتخب رودلف الهابسبرجى أول إمبراطور من آل هابسبرج (١٢٧٣) ، أخذت سياسة اللاتيران تتذبذب بين فرنسا وألمانيا تبعاً لميول البابوات المتعاقبين .

(١) كانت الكنيسة فى ذلك الحين تعد نفسها بجاهدة فى سبيل العقيدة (Church Militant) أو منتصرة على شرور الدنيا ومستقرة فى ملكوت السموات (Church Triumphant) . انظر مقال عن چان دارك فى كتاب « أعلام وأفكار » تأليف يوهان هويجنجنا ترجمة المترجم البيئمة المصرية للتأليف .

ففى (١٢٩٤) تبوأ بونيفاس الثامن دست البابوية . وكان رجلاً إيطالياً معادياً للفرنسيين ، وافر الإيمان بتقاليد روما العظيمة ورسالتها الكبرى . فعالج الأمور حيناً من الدهر بقوة واستبداد . وفى (١٣٠٠) عقد مهرجاناً لليوبيل واجتمع له جمهور حاشد من الحجاج فى روما . « بلغ من عظم انشغال المال إلى خزائن البابوية ، أن ظل موظفان يجمعان بالمحاريف الهبات التى وضعت عند قبر القديس بطرس »^(١) . على أن هذا المهرجان كان نصراً خداعاً . فإن جمع جيش عظيم من الرحالة المتزهين أيسر كثيراً من جمع ثلة من الصليبيين . وتنازع بونيفاس مع الملك الفرنسى فى (١٣٠٢) ؛ وفى (١٣٠٣) ، بينما كان على وشك إصدار قرار الحرمان ضد ذلك الملك ، فاجأه غليوم دى نوجاريه فى قصر أجداده الموروث بأناجنى (Anagni) واعتقله . وقد دخل هذا المندوب عن الملك الفرنسى القصر عنوة وسار حتى وصل إلى مخدع البابا المرتاع — وكان راقداً فى فراشه وبيده صليب — وألقى عليه سيلاً من الوعيد والإهانة . وأطلق أهل المدينة سراح البابا بعد ذلك بيوم أو بعض يوم ، وأعادوه إلى روما ؛ ولكن اعتقله هناك ثانية بعض أفراد عائلة أورسنى وسجنوه . ولم تنقض بضعة أسابيع حتى مات الرجل الشيخ الهرم مصعوقاً وقد رفعت عنه غشاوة الخداع ، ففض وهو لا يزال سجيناً فى أيديهم .

وقد غضب أهل أناجنى بالفعل للاعتداء الأول وثاروا ضد نوجاريه لتخليص بونيفاس ، ولكن أناجنى كانت مسقط رأس البابا . والنقطة الهامة التى علينا ملاحظتها هى أن الملك الفرنسى ، كان فى هذه المعاملة الخشنة لرأس المسيحية الأكبر ، يتصرف بملء استحسان شعبه ؛ فإنه دعا مجلساً من طبقات فرنسا الثلاث (النبلاء والكنيسة والعامّة) وفاز بموافقتهم قبل البدء فى الإجراءات المتطرفة . ولم تبد أى من إيطاليا أو ألمانيا أو إنجلترا أدنى مظهر عام ينم على عدم الموافقة عن هذا التصرف الجرىء مع الحبر الأعظم صاحب السيادة العليا . فقد انحلت الفكرة الداعية لتوحيد العالم المسيحى حتى اتضح سلطانها على عقول الناس .

وفي الشرق استرد اليونان مدينة القسطنطينية (١٢٦١) من الأباطرة اللاتين ، ولم يلبث مؤسس الأسرة اليونانية الجديدة ميخائيل باليولوجوس أو ميخائيل الثامن ، بعد محاولات زائفة للصلح مع البابا ، أن انفصل عن مجتمع روما الكنسي انفصالاً نهائياً ، وبهذا الانفصال وبسقوط الممالك اللاتينية في آسيا ، زال ما كان للبابوات من سيادة في الشرق .

ولم تعمل البابوية شيئاً طوال القرن الرابع عشر لاسترداد هيبتها المعنوية . وكان خليفة البابا التالي ، وهو كلمنت الخامس ، رجلاً فرنسياً ، اختاره الملك فيليب الفرنسي . فلم يحضر إلى روما أبداً . بل أقام بلاطه في مدينة أفينيون ، ولم تكن عند ذلك تابعة لفرنسا ، بل كانت تابعة للكرسي البابوي وإن وقعت في صميم الأراضي الفرنسية ؛ وهناك أقام خلفاؤه حتى (١٣٧٧) ، عندما عاد البابا جريجوري الحادي عشر إلى قصر القاتيكان بروما . ولكن جريجوري الحادي عشر لم يحمل معه عطف الكنيسة بأسرها . إذ كان كثير من الكرادلة فرنسي الأصل وكانت عاداتهم ومشاربهم شديدة الارتباط بأفنيون . فلما أن مات جريجوري الحادي عشر (١٣٧٨) ، وانتخب إيطالي هو إربان السادس ، أعلن هؤلاء الكرادلة المنشقون أن الانتخاب باطل ، وانتخبوا بابا آخر هو البابا المضاد كلمنت السابع .

ويسمى هذا الانقسام « بالصدع الكبير » . وظل البابوات في روما ، وبقيت كل الدول المعادية لفرنسا ، من الإمبراطور إلى ملك إنجلترا إلى هنغاريا وبولندة وشمال أوروبا ، موالين لهم . وذلك على حين استمر البابوات المضادون في أفينيون يناصرونهم ملك فرنسا وحليفه ملك اسكتلندة وأسبانيا والبرتغال وأمراء ألمان متنوعون . وكان كل بابا في الجانبين يحرم أنصار منافسه ويلعنهم ، حتى لقد غدت المسيحية بأجمعها ملعونة أثناء ذلك الزمان لعناً صحيحاً كاملاً بهذا المعيار أو ذاك (١٣٧٨ - ١٤١٧) .

ومن المستحيل أن نبالغ فيما ترتب على هذا الانقسام من أثر مخزن على قوة تماسك العالم المسيحي . فلا غرو إذن أن رجالاً من أمثال ويكليف شرعوا يعلمون الناس أن يفكروا لحسابهم الخاص ، عند ما كان معين الصدق يتطاحن ويفرى بعضه بعضاً على النحو الذي نرى ! !

وفى (١٤١٧) التأم الصدع الكبير فى مجمع كونستانس ، وهو نفس المجلس الذى انتبش عظام ويكليف وأحرقها ، والذى تسبب كما سنين فيما بعد فى إحراق چون هس (Huss) . وفى هذا المجمع استقال البابا والبابا المضاد أوقذف بهما جانباً ، وأصبح مارتن الخامس البابا الوحيد على عالم مسيحية موحدة رسمياً ولكنها مضغضعة بادية الإعياء روحياً .

ولسنا بمستطيعين أن نقص هاهنا كيف أن مجمع بازل (١٤٣٩) أدى إلى صدع جديد وإلى بابوات مضادين آخرين .

هذه نبذة موجزة عن قصة القرون العظيمة لرفعة البابوية وتدهورها . وهى قصة الإخفاق فى الوصول إلى تلك الفكرة النبيلة الرائعة ، فكرة قيام عالم دينى موحد . ولقد أشرنا فى القسم السابق كيف أن ميراثاً من لاهوت معقد قائم على الاعتقاد الحتمى (Dogma) ، قد أثقل كاهل الكنيسة فى مغامرتها الطموحة هذه . كان لديها من اللاهوت ما تجاوز الغاية ومن الدين ما دون الكفاية . على أنه ربما لا يكون من اللغو الإشارة هنا إلى مدى ما ساهم به عدم الكفاية الشخصية للبابوات فى انهيار خطة الكنيسة وكرامتها ، لم يكن فى العالم ذلك المستوى التعليمى اللازم لتزويد سلسلة متعاقبة من الكرادلة والبابوات بسعة المعرفة ورعاية الأفق اللازمين للواجب الذى أخذوا على عاتقهم النهوض به ؛ فهم لم يتلقوا التعليم الذى يكتفى لقيامهم بواجبهم ، ولم يتنبأ إلا للقليل منهم ، أن يتساموا على هائه النقيصة بمحض قوة العبقرية . وكما سبق أن نوهنا ، كانوا عند ما يصلون آخر الأمر إلى النفوذ والسلطان ، أسنّ وأضعف من أن يقدرُوا على استخدامه . وقبل أن يحكموا القبضة على الموقف الذى كان عليهم أن يهيمنوا عليه ، يكون معظمهم قد فارق الحياة .

ومن الشائق أن يتساءل الإنسان كم كان الميزان ينجح إلى جانب الكنيسة لو أن الكرادلة كانوا يتقاعدون فى سن الخمسين ، أو حرم انتخاب أى إنسان لمنصب البابوية بعد سن الخامسة والخمسين ؟ كان ذلك لا جرم يطيل متوسط مدة حكم كل بابا ، وكان يزيد زيادة هائلة فى استمرار سياسة الكنيسة . وربما كان من المحتمل

كذلك أن تُستنبط طريقة أكثر كمالاً في انتخاب الكرادلة ، وهم أصحاب القول الفصل في انتخاب البابا وذوو الرأي والمشورة لديه . فإن القواعد والطرق التي بها يصل الرجال إلى مناصب السلطان على درجة عظيمة جداً من الأهمية في الشؤون الإنسانية . وإن سيكولوجية الحاكم لتعليم لا يزال على العلماء أن يدرسوه دراسة صحيحة . لقد رأينا الجمهورية الرومانية تتحطم ، وها نحن نرى الكنيسة تحقق في رسالتها العالمية لسبب يرجع على الأغلب إلى طرائق انتخابية عقيمة .

١٦ - العمارة والفن القوطيان

هناك تطورات معمارية وفنية خاصة تميز أدوار تاريخ المسيحية من العصر الرومانسكي إلى عصر الشك وضمحل العقيدة الذي كان فردريك الثاني بشيره . ولقد حدث إقبال عظيم على بناء الكاتدرائيات في القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وتطور سريع في العمارة الرومانسكية الغربية ، تحول بها إلى ما يسمى في أدق معانيه باسم الطراز القوطى . فإن السقوف المنحدرة في الأبراج الرومانسكية قد استطالت وأصبحت منائر مستدقة (Spires) ؛ وأدخل السقف المقبوع المتقاطع الحنايا . وجرف العقد المدبب - الذى انتشر من قبل في الفن العربى طوال مئتي سنة أو تزيد - أمامه العقد المدور . وظهر مع هذه المظاهر تطور عظيم وتنميق كبير في النوافذ وفي الزجاج الملون .

والراجح أن نمو هيئات الأديرة وازدياد ثروتها هو الذى أطلق سراح فيض الطاقة الفنية التى أعطت العالم كنيسة نوتردام بباريس مثلاً وكاتدرائية شارتر وكاتدرائية أميان والبداية الفاخرة التى تشهدها في بوفيه (Beauvais) . وظل الدافع الفنى القوطى متواصلاً طوال قرون عديدة . ومنذ القرن الثالث عشر أخذت النافذة ذات الحلى الحجرية التشجيرية المنقورة من أعلى تصل إلى أقصى درجات تطورها . وفي القرن الرابع عشر أصبح الفن القوطى زائحاً بالحليوية فترة طويلة من الزمان ثم ارتد قاسياً سجامداً . واتجه الإنجليز طريقاً خاصاً بهم إذ اتخذوا لأنفسهم الطراز المرتفع الصارم المسمى

« بالعمودى » (Perpendicular)^(١) . واتخذت الأشكال القوطية سمة وكيفاً جديداً باستعمال الطوب في مناطق مترامية الأطراف من شرق ألمانيا وشمالها حيث حجر البناء نادر أو بعيد المثال . ولقد ذوى فن العمارة القوطى مع بداية القرن الخامس عشر . ذلك أن أيام عظمة الكنيسة في أوربا قد ولّت ، وكان لا بد للظروف الاجتماعية الجديدة من أن تعبر عن نفسها بطرائق جديدة . وما زلنا نجد الكاتدرائيات ناقصة لم يستكمل بناؤها في بعض مدن بلجيكا وهولندا ، وإلى جوارها بناء للبلدية عظيم سلب ما كان للكنيسة من موارد البناء ومواده . ففي إيبير (Ypres) مثلاً ، وقبل أن تمتد يد الحرب بالتخريب ، كانت قاعة « بورصة الأقمشة » العظمى تزد الكاتدرائية إتقاناً وتفوقها جمالاً .

وفي أسبانيا كان الفن القوطى يقفو المسيحيين من مقاطعة إلى أخرى أثناء استردادهم شبه الجزيرة من العرب . فالفن العربى المغربى (Mauresque) والفن القوطى الأسباني قد تطورا كل في حدوده الخاصة . هذه أشيلية تقوم فيها إلى جانب القصر المغربى الطراز المسمى بالكازار ، كاتدرائية قوطية عظيمة ، وكأن داخلها السامق يستشعر فرحاً تغشاه العتمة لما تم من فوز على الغزاة المقيهورين .

ولم يتغلغل الفن القوطى في إيطاليا بدرجة كبيرة . وأبرز مثال له هو كاتدرائية ميلانو . على أن إيطاليا كانت أثناء الفترة القوطية في أوربا الغربية ، ساحة قتال بين التقاليد العتيقة والطرز المتنازعة . فإن كنيسة سانت مارك البيزنطية الطراز في البندقية تضاهى بطرازها الطراز القوطى المتجلى في كاتدرائية ميلانو ، وإن النورماندين والعرب يهزجان روحيهما بالروح الرومانية في مثل مبانى كاتدرائية أمالفي . وتشكل الكاتدرائية ومكان التعميد وبرج الجرس الكبير في پيزا مجموعة من أشد مجموعات المباني الإيطالية تعبيراً ، وكلها ترجع إلى حوالى القرن الثانى عشر تقريباً .

(١) طراز العمارة العمودى : طراز إنجليزى متأخر من العمارة القوطية (أواخر القرن ١٤ إلى منتصف ١٦) ويمتاز بالحليات الحجرية المنقورة بأعلى النوافذ أو بالعقد الخفض ذى الزوايا الأربعة وبالتقنية ذات الحليات الحجرية المنقورة على شكل مروحة وبالحدران المرفقة بالصور . (المترجم)

وظل الميل إلى فن التشكيل التمثيلي^(١) طوال العهد القوطى ، وهو الميل القوى المشوب فى كل من الشعوب الآرية والحامية ، — يكافح كفاحاً ظاهراً ضد الميل الغريزى إلى كعبته ، الذى ظهر فى العالم الغربى بعد الانتشار الأول للمسيحية والإسلام . وينبغى أن يكون من المفهوم أنه لم تكن هناك عداوة صريحة ضد الفن التشكيلى التمثيلى عند المسيحيين . وقد احتفى فن التصوير الرومانى القديم من سراديب الدفن والقبور المسيحية المزخرفة . وظل قدر معين من التصوير الجدارى المنمط النوع يكافح خلال القرون الوسطى ثم تكاثر فى القرنين العاشر والحادى عشر .

ومع زيادة أسباب الاطمئنان فى الحياة جاءت الرغبة المتزايدة فى تجميل الكنائس ومباني الأديرة . وانتشر التصوير منتقلاً من العمل الضيق المحدود لمن يحلى الكتب بالصور إلى الجدران واللوحات العصرية . فأصبح القديسون الجامدون أكثر مرونة ؛ وأضيفت الخلفيات الظاهرة من ورائهم ، فأثاحت للرسام المجال لإضافة التفاصيل المتمشية مع الطبيعة الحققة Naturalistic . فاما اللوحة المصورة^(٢) التى كانت تعمل فى مكان ثم تنقل إلى آخر وتثبت فيه ، فكانت بشيراً وسلفاً للصورة المستقلة . وانقضت فترة من الزمن فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كانت فرنسا وألمانيا سابقتين فيها لإيطاليا فى هذا الابتعاث للفن التصويرى . وفى نفس الوقت كان نحات أحجار البناء ينقث فى الحليات المضنية التى عليها المباني القوطية حيوية وروحاً واقعية متزايدتين . فهو يحول الميزاب إلى رأس حيوان كاشر الوجه مضحك ، ويضع وجوهاً وأشكالاً مصورة على تيجان العمد والأبراج المرتفعة الدقيقة للأبنية Pinnacle . وينقل القديس المنحوت من الحضر البارز Relief إلى التجسيد الصلب المائل (أى يحوله من نقش بارز مسطح إلى تمثال مجسد) . وفى ذلك أيضاً كانت ألمانيا هى القائدة صاحبة سبق . وهذا الانسلاخ إلى المحاكاة للطبيعة أمتع حقيقة عامة فى تاويخ العصور الوسطى الفن .

(١) فن التشكيل التمثيل : (Representative Art) هو القائم على تمثيل أو تصوير الأشياء الطبيعية والكائنات الحية . (المترجم)

(٢) اللوحة المصورة (Panel) هى التى يسميها أهل الفن باسم بانوه (Panneau) (المترجم)

ولقد سبق لنا أن لاحظنا من قبل اختفاء لمحاكاة الطبيعة مشاهدا لهذا ، ثم ظهوراً جديداً لتلك المحاكاة في تاريخ الإنسانية . فالإنسان في أواخر العصر الحجري القديم كان يحفر الأشكال الواقعية ويرسمها بحرية وقوة ولكن إنسان العهد المبكر من العصر الحجري الحديث لم يترك لنا رسوماً جيدة ولانحاث جيدة تمثل الكائنات الحية . ثم لم يكده فن التشكيل يظهر مرة ثانية حتى جاء عصر البرونز . وقد حدث نفس هذا الأمر بالضبط وإن على مقياس أكبر بين الأيام العظيمة للإمبراطورية الرومانية وبين العصور الوسطى ، لا في ظلال المسيحية فحسب بل في رحاب الإسلام كذلك . ولم يبق أحد قط بتقديم أى تفسير كامل مقنع لظهور هذه البدائل المتناوبة . فإن الفن تراجع عن محاكاة الحقيقة والطبيعة وحبس نفسه على الإتقان والتنميق الشكلى . ومنذ ذلك التاريخ بدت موجة عظيمة أخرى من روح المحاكاة المشرقة للطبيعة ، لعلها بلغت ذروتها من أمد غير بعيد . ومنذ خمسين سنة كان كل من التصوير والنحت أكثر على الجملة امتلاءً بروح لمحاكاة للطبيعة والتمثيل لأشكالها ، وأقل رمزية وأدنى تلويحاً وإشارة مما هو عليه الآن^(١) . ولنا بمسطين أن نقدم هاهنا أى تفسير مرض لهذه الموحات التي تلم بالبائع الفنى العام ، وأعنى بها التراجحات المتناوبة بين الحقيقة الجذلة القوية النقل والأداء وبين الترفع والتزمت . وكأنما الروح الواقعية المفرطة والجذلة المفرط بالجسم والحركة والانفعال والتفاصيل العرضية كانت تنهى آخر الأمر إلى إحداث رد فعل يتجه إلى عملية التجريد والشكلية ويسبب التجاءً غريزياً إليهما .

١٧ - موسيقى العصور الوسطى

كانت تلم بالموسيقى تغيرات عظيمة في أيام الحروب الصليبية . إذ أن أى نوع من أنواع الانسجام (المهرموني Harmony) لم يكن معروفاً حتى ذلك الأوان ؛ بل كانت الموسيقى شأناً بسيطاً مكوناً من الإيقاع واللعن ؛ وقد ابتدأ آنذاك تطور جديد تمام الجودة - كان في مبدأ الأمر غناءً موزعاً من نوع بدائى (Part-singing) ، ثم تطور فأصبح حبكة معقدة من ألحان يزداد تناسجها على مر الزمان إحكاماً وتفصيلاً . إذ جعلت الأصوات المختلفة

(١) انظر للمترجم « التربية عن طريق الفن » تأليف هيربرت ريد (هيئة الكتب والأجهزة العلمية) ، وفي هذه الفقرة يشير الكاتب إلى ما غلب على فن القرن العشرين من روح عصرية تتمثل في التجريدية والسريالية والتكيفية والوحشية والترقيعية وغير ذلك من أشكال الفن المعاصر . (للمترجم)

تغنى في نفس الوقت أنغاماً مختلفة يجمعا الانسجام الهارموني . وفي الحين نفسه تطور تدوين النوتة الموسيقية قادر على التعبير عن الموسيقى الجديدة المتعددة الأصوات البوليفونية (Polyphonic) وتسجيلها . وكان التدوين ضرورياً للتطور الموسيقى الحر، ضرورة الكتابة لظهور « أدب » نام متنوع .

ويبدو أن البدايات الأولى لهذا التجديد في صوع الموسيقى إنما ظهرت في أوروبا الغربية ، والراجع أن ذلك كان في ويلز ووسط إنجلترا . إذ نحن إنما نجد هناك أول ما سجل لنا من حالات الغناء الموزع ، ولعله بدأ هنا في زمن مبكر يرجع إلى القرن التاسع . ولكنه كان على التحقيق أمراً قائماً يمارسه الناس عند نهاية القرن الثاني عشر . وهناك قطعة ممتازة من التدوين الموسيقى الإنجليزى الموزع ترجع إلى حوالى (١٢٤٠) لا تزال موجودة حتى الآن . وهى الروتا (Rota) ومطلعها «Sumerisi - cumenim» . والراجع أن كاتبها هو جون الفورنسيى وهو راهب محاضر ، ويقول السير و . ه . هادو^(١) « إن تدوين التوزيع قهها مدهش في صحته وإرضائه للنفس ، ومن الممكن سماعه في الوقت الحاضر بسرور عظيم وهى أول صوت في تطور فننا الغربى ، ما يزال يستطيع أن يتحدثنا في نبرات صديقة مألوفة » .

وكانت تلك الأيام أيام المغامرين الجوالين ، كما كانت أيام الموسيقى الطوافة أيضاً . فإن جماعات الثروبادور كانت تنقل من قصر إلى قصر ، وكان ثمة كثير من المغنين المسئولين ، وانتشرت فكرة الانسجام الموسيقى (الهارموني) بأرجاء فرنسا وإيطاليا وإلى أوروبا الوسطى . وكانت معظم التلحينات غناءً متعدد الأصوات بوليفونيا غير مصحوب بموسيقى . على أن تطور التوزيع الموسيقى على الآلات جاء فيما بعد مع ظهور العود (Lute) والفرجينال^(٢) والقيول^(٣) وزيادة استخدام ومجال الأرغن بصورة متمشية مع الزيادة في مهارة صانعيه . وكان لا يزال على القصر والبلاط أن يصلوا إلى

(١) : هو السير وليم هتري هادو : (١٨٥٩ - ١٩٣٩) من كبار رجال التربية ومن أعظم علماء علم الموسيقى وتحليلها وفلسفتها ومحرر « تاريخ اكسفورد للموسيقى » (المترجم)

(٢) آلة وترية قديمة ذات مفاتيح .

(٣) ضرب قديم من الكنان .

تلك الذرى العالية من الترف والتنميق التى لا بد منها لإنتاج موسيقى علمانية أرفع من هذه التى لا يتجاوز نطاقها هذه الموسيقى الصوتية والشعبية الصرفة وفى مبدأ الأمر ، كانت أهم مهاد لإنتاج الموسيقى الجديدة هى جوقات (كورس) المرتلين والعازفين بالكاتدرائيات والأديرة . فهناك كافح الرؤساء المجددون لجوقات المرتلين (الكورس) ضد النزعات الدينية الشديدة المحافظة والتمسك بالقديم ، بل لقد كافحوا كفاحاً طويلاً بعيد المدى .

وكانت الصيغة الغالبة فى أثناء طور الانسجام الهارمونى الصوتى البحث هى المادريجال^(١) . وكان الملحن الإيطالى بالسترينا (١٥٢٦ - ١٥٩٤) هو الأستاذ الذى بلغت به تلك الفترة من الموسيقى الكورالية الجماعية ذروتها . وفى القرن السادس عشر كان الصناع الإيطاليون قد ساروا فعلاً بالكمان (الثيولينا) فى سبيل الكمال ، وكان الأرغن الحديث فى دور التطور النهائى ، فقد أخذت ظروف اجتماعية جديدة فى الظهور ، وثمة مشاعر جديدة أخذت تبحث عن يترجم عنها ، وثم طرائق ومناهج جديدة أخذت فى التطور فتيسر بها ظهور طراز من التلحينات الموسيقية أرحب أفقاً وجب فيه على فن التوزيع الموسيقى على الآلات أن يلعب الدور الأعظم .

(١) لحن موضوع لقصيدة غزلية .

الكتاب السابع

الامبراطوريات المغولية صاحبة الطرق البرية والامبراطوريات الجديدة صاحبة الطرق البحرية

الفصل الثاني والثلاثون

چنكيز خان وخلفاؤه وإمبراطوريتهم العظيمة

(عصر الطرق البرية)

- ١ - آسيا عند نهاية القرن الثاني عشر .
- ٢ - قيام المغول وانتصاراتهم .
- ٣ - رحلات ماركو پولو .
- ٤ - الأتراك العثمانيون والقسطنطينية .
- ٥ - لماذا لم يمتنع المغول المسيحية .
- ٦ - أسرتا يوان ومنج في الصين .
- ٧ - المغول يرتدون إلى الروح القبلية .
- ٨ - إمبراطورية القيقاق وقيصر موسكويا (الروسيا) .
- ٩ - تيمورلنك .
- ١٠ - إمبراطورية الهند المغولية .
- ١١ - الفجر (النور) .

١ - آسيا عند نهاية القرن الثاني عشر

الآن نحدثك عن آخر وأعظم غارات نظام «البدواة» والترحل على مدينيات الشرق والغرب . ولقد تتبعنا في هذا التاريخ تطور طريقة العيش هاتين جنباً إلى جنب ، وأشرنا إلى أنه كلما اتسعت رقعة المدينيات وتحسن تنظيمها ، كانت تتحسن كذلك أسلحة المترجلين وتزداد سرعة حركتهم ويرتفع مستوى ذكائهم . ولم يكن المترجل

أو البدوى مجرد رجل غير ممدن ، بل كان إنساناً متخصصاً في طريقة عيشه لا يبرح تخصصه يعمق ويزداد . ومنذ بداية التاريخ ذاتها ، كان المرحلون والمستقرون في تفاعل دائم . وقد سبقت الإشارة إلى غارات الساميين والعيلاميين على سومر . ورأينا الإمبراطورية الغربية وكيف حطمتها مترحلو السهول العظيمة ، ورأينا فارس تسقط في أيدي مترحلي بلاد العرب الذين يهزون يزنطة هذا . والعدوان المغولي الذي ابتداء مع ابتداء القرن الثالث عشر ، يعد حتى الآن آخر غارة أعيد فيها حرث الجماعة الإنسانية حرثاً مدمراً .

ظهر المغول على مسرح التاريخ فجأة هابطين من غياهب المجهول قرب نهاية القرن الثاني عشر . وكان ظهورهم في القطر الواقع شمالي الصين بأرض الأرومة الأصلية للهنود والترك ، وواضح أنهم ينحدرون من نفس سلالة هذين الشعبين . تجمعوا بعضهم مع بعض تحت لواء رئيس ما نحن بمثقلين ذاكرة القارئ باسمه ، وما لبثت قوتهم أن نمت تحت قيادة ابنه چنكيرخان بسرعة خارقة للعادة .

ولعل القارئ لا يزال يذكر التفكك التدريجي الذي ألمّ بوحدة الإسلام الأصلية ، فقد كان هناك عند بداية القرن الثالث عشر ، عدد من الدول الإسلامية المتفرقة المتنازعة في غرب آسيا . كانت هناك مصر (ومعها فلسطين وجزء كبير من سوريا) تحت حكم خلفاء صلاح الدين ، وكانت هناك الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى ، وكان ما يزال هناك خلافة عباسية في بغداد ، وثمة إمبراطورية ضخمة تمت إلى الشرق من هذه أيضاً هي الإمبراطورية الخوارزمية ، وهي إمبراطورية الأمراء الأتراك في خيوة الذين غزوا عدداً من الإمارات السلجوقية الصغيرة المتناثرة ، وحكموا الشقة الممتدة من وادي الجانج (الكنج) إلى الدجلة . ولكن سلطانهم على السكان الفرس والهنود كان غير وطيء .

وكانت الحضارة الصينية كقرينتها العربية على حال من الوهن تغرى بها أى فاتح مقدام مغامر . ولعل القراء يذكرون لحظة ألقيناها على الصين في هذا التاريخ وأنها كانت في القرن السابع إبان السنوات الأولى من حكم أسرة تانج ، يوم كان ذلك الإمبراطور الأريب المقندر « تاي تسونج Tai Tsung » يوان بن مزايا كل من المسيحية

الأسطورية والإسلام والبوذية وتعاليم « لاوتزى Lao Tse » ويميل في جملة الأمر إلى الأخذ بأن لاوتزى معلم يضارع في الفضل أى واحد من الآخرين . وقد وصفنا استقباله للرحالة يوان تشوانج . وتسامح تاي تسنج مع جميع الديانات . ولكن كثيرين من خلفائه أنزلوا بالعقيدة البوذية اضطهادات ، لا تداخلها رحمة ؟ على أنها ازدهرت بالرغم من هذه الاضطهادات . ولعبت أدورها دوراً مشابهاً بعض الشيء للدور الذى لعبته المنظمات الديرية المسيحية في الغرب في أخذها بناصر العلوم بادئ الرأي ثم في اعتناقها سبيل العلم بعد ذلك .

حتى إذا وفى القرن العاشر ، كانت أسرة تانج القوية بلغت من الانحلال أقصى المدى . إذ استمرت عملية الاضمحلال المألوفة المتسببة عن تعاقب مجموعة من الفساق والعاجزين على عرش الإمبراطورية ، وانقسمت الصين مرة ثانية من الناحية السياسية إلى عدد متغير من الولايات المتطاحنة في أثناء ما يسمى « عصر الولايات العشر » ، وهو عصر من فوضى استمرت طوال النصف الأول من القرن العاشر ثم نشأت أسرة جديدة هي أسرة صنج (Sung) الشمالية (٩٦٠ - ١١٢٧) التى نشرت في البلاد ضرباً من الوحدة ، ولكنها ظلت مع ذلك في حالة كفاح مستمر مع عدد من الشعوب الهونية الزاحفة من الشمال ، والمضاغطة جنوباً على امتداد الساحل الشرقى ، وجاء زمن تغلب فيه شعب من هؤلاء هم شعب الخيتان (Khitan). ولم يلبث هذا الشعب أن أخضع في القرن الثانى عشر وأُخلى مكانه لإمبراطورية هونية أخرى ، هي إمبراطورية الكن (Kin) التى جعلت عاصمتها بيكين وحدتها الجنوبي المناطق الواقعة جنوب نهر هوانج هو .

وتقلصت ظلال إمبراطورية صنج أمام إمبراطورية الكن هذه . وفى (١١٣٨) نقلت العاصمة من نانكين التى أصبحت عند ذاك شديدة القرب من التخوم الشمالية ، إلى مدينة هان تشاو على الساحل . وتعرف أسرة صنج منذ (١١٢٧) إلى (١٢٩٥) باسم صنج الجنوبية . وإلى الشمال الغربى من أراضيها ، كان هناك عند ذاك إمبراطورية الهسيا (Hsia) التتارية ، وإلى الشمال إمبراطورية الكن ، وكان السكان الصينيون



(شكل ١٤٥) خريطة أوروبا وآسيا حوال ١٢٠٠ م

في كلتا الدولتين تحت حكام ما تزال تقاليد المترحلين قوية الأثر فيهم . ومن ثم ترى أنه هاهنا في الشرق كذلك ، كانت الجمهورية الرئيسية الغفيرة للبشرية الآسيوية تحت حكام من غير بني جلدتهم ، كما كانوا على استعداد لقبول أى فاتح إن لم يبلغ بهم الأمر حد الترحيب به .

فأما شمال الهند فكان كما سبق أن لاحظنا أرضاً يحتلها الفاتحون عند مستهل القرن الثالث عشر . وكانت في مبدأ الأمر جزءاً من إمبراطورية خيوة ، ولكن حدث في (١٢٠٦) أن حاكماً مغامراً اسمه قطب (Kutub) — كان عبداً مملوكاً وارتقى حتى أصبح والياً على الولاية الهندية — أنشأ في دلهي دولة إسلامية منفصلة هي الهندوستان . وكانت البرهمانية كما سبق أن ذكرنا ، قد طردت البوذية من الهند منذ أمد بعيد ، على أن المعتنقين للإسلام كانوا ما يزالون أقلية حاكمة في البلاد .

تلك معجالة وبجيزة عن سالة آسيا السياسية ، عند ما شرع چنكيز خان يوطد
(١٦ - معالم)

دولته بين المترجلين في القطر المحصور بين بحيرتي بلكاش وبايكال عند مفتتح القرن الثالث عشر .

٢ - قيام المغول وانتصاراتهم

كانت سيرة فتوح چنكيز خان وخلفائه المباشرين مثار دهشة العالم ، ولعلها لم تدهش أحداً أكثر مما أدهشت هؤلاء الخانات المغول أنفسهم .

كان المغول في القرن الثاني عشر قبيلة خاضعة لهؤلاء « الكن » الذين فتحوا شمال شرقى الصين . وكانوا قبيلة من الفرسان المترجلين يعيشون في خيام ، ويعتمدون في طعامهم بوجه رئيسى على منتجات لبن الأفراس ولحومها . وكان الرعى والصيد عملهم الذى تدخل الحرب عليه شيئاً من التنوع . وكانوا عندما تدوب الثلوج ينتقلون شمالاً انتجاعاً للمراعى الصيفية ، كما ينتقلون مع الشتاء جنوباً إلى المراعى الشتوية على جارى عادة أهل السهوب . وابتدأ تدريبهم على الشئون العسكرية بعصيان ناجح قاموا به على « الكن » . كانت موارد نصف الصين في قبضة إمبراطورية الكن ، وتعلم المغول أثناء الكفاح شيئاً كثيراً جداً مما لدى للصينيين من العلوم العسكرية . وما وافت نهاية القرن الثاني عشر حتى أصبحوا قبيلة مقاتلة من طراز ممتاز .

وقد أنفق چنكيز الأعوام الأولى من حياته العملية في النهوض بعدته الحربية وفي تمثيل المغول والقبائل المخالطة لهم والمحيطه بهم وإدماجهم جميعاً في جيش واحد منظم . وقد وجه أول امتداد عظيم لسلطانه نحو الغرب ، وهناك استطاع الخان أن يضم قبيلتي القرغيز واليويغور (Uighurs)^(١) التتارينين (وهما توألفان الشعب التتارى في حوض التاريم) -

(١) يظهر اليويغور لأول مرة في القرن السادس ، حين كانوا يعرفون باسم الكاوكو (Kao-Ku) أى العربات العالية وهم أحد فرعى الترك الرئيسيين في منغوليا الشمالية وما حو لها . وتغطي مدة عظمتهم واستقلالهم ما بين ٧٥٠ - ٨٥٠ م وهو زمان يقابل رفعة ومجد أسرة تانج الشهيرة .

وبلغ اليويغور مستوى ثقافياً عالياً جداً ، وأظهرت البحوث الأركيولوجية الحديثة مقداراً ضخماً من الأدب والفن اليويغورى ، ومنها نعلم أن المسيحية والبوذية والمناوية كانت تمارس كلها في مملكتهم ، إذ كانوا يراعون أقصى غاية التسامح الدينى على حين كانت المناوية هى دين الدولة . وكان اليويغور على التحقيق هم أشد

إلى جيشه عن رغبة واقتناع لا عن قهر وغلبة . وعندئذ هاجم إمبراطورية الكن واستولى على بيكين (١٢١٤) . فانضم إليه شعب خيآن الذين أخضعهم الكن منذ قريب وبذلك ضموا مقدراتهم إلى مقدراته ، فأسدوا إليه بذلك معاونة عظيمة جداً . فأما السكان الصينيون المستقرون فقد استمروا فيما هم فيه من بذر البذور وحصد الحصاد والتبادل التجارى أثناء تغير السادة هذا دون الانضمام بثقلهم لأى من الطرفين .

ولقد سبق أن ذكرنا الإمبراطورية الخوارزمية القريبة العهد التى شملت التركستان وفارس وشمالى الهند . كانت هذه الإمبراطورية تمتد شرقاً حتى قشغر ، ولا بد أنها كانت تبدو من أكثر إمبراطوريات زمانها تقدماً وأملاً فى المستقبل . وقد أرسل جنكيز خان رسله إلى خوارزم وهو ما يزال مشغولاً بالحرب مع إمبراطورية الكن . وأقدمت خوارزم على قتل الرسل — وهى غباوة لا يكاد يصدقها عقل . ذلك أن

= جيران الصين اشباليين حضارة ، ومع أن ملكتهم دمرتها (٥٨٠) قبيلة تركية شمالية هى قبيلة القوزغيز ، فإن اليوينور لم يختفوا من التاريخ بأى حال ، إذ أنا لا نرجح نجد حتى القرن الخامس عشر إمارات ودويلات يديفورية صغيرة تنشأ ، على حين أنه أثناء المدة كلها كان اليوينور يستخدمون بكثرة فى القضاء الإسلامى — ويقومون فى مصالح الحكومة بالتركستان بنفس الدور الذى لعبه الهندوس تحت حكم المغول فى دلهى والهنغاليون أثناء الحكم البريطانى بالهند .

وتحدثنا فترة تاريخ القرن الذى تبدأ بظهور جنكيز خان فى القرن الثالث عشر وتنتهى بفتح القسطنطينية على يد الأتراك العثمانيين ، عن قيام وسقوط عدد كبير من الأسرات التركية الحاكمة فى آسيا الوسطى والهند وفارس . ومن العجيب أن هذه الأسرات كان يؤسسها فى معظم الحالات رجال بدأوا حياتهم بمالِك . وقد ورد هذا البيان الغريب التالى عن الأتراك فى مخطوط فارسى لم ينشر بعد ، يرجع إلى القرن الثالث عشر :

« من المعلوم الشائع أن جميع الأجناس والطبقات ، تكون مكرمة محترمة وهى مقيمة بين ظهراى شعبها وفى بلادها ، ولكنهم عندما يغادرون بلادهم ، يصبحون تعساء أذلاء . والترك على نقيض ذلك ، فإنهم عندما يكونون بين بنى جلدتهم ، يكونون مجرد قبيلة بين قبائل كثيرة ، ولا يستمتعون بأى قوة أو منزلة خاصة . ولكنهم عندما يغادرون موطنهم إلى دولة إسلامية — (وكلما ابتعدوا عن بلادهم وأقاربهم ، زادت قيمتهم رفعة وتقديرهم سمو) — يصبحون أمراء وقادة للجيوش . ولم يحدث منذ أيام آدم حتى العصر الحاضر أن أصبح ملوك مشترى بالمال ملكاً قط إلا بين الأتراك ؛ ومن الأقوال المأثورة عن أفراسياب (Afrasyab) الذى كان ملكاً على الترك وكان خارقاً للعادة فى حكمته وعلمه قوله : « التركى أشبه شئ بلؤلؤة فى مسدفتها تحت أطباق المباب ، لا تصبح ثمينة القدر حتى تغادر البحر وتزين تيجان الملوك وآذان الغواني » .

الحكومة الخوارزمية — إن جاز أن نستعمل لغة اليوم السياسية — رأت ألا تعرف بجنكيز خان وسلكت حياله ذلك المسلك الجريء ، وعند ذلك (١٢١٨) اجتاح جيش الفرسان العظيم الذى وطد أركانه جنكيز خان ونظمه ، هضبة الهامير وهبط إلى التركستان . كان جيشاً حسن العدة والسلاح ، والراجح أنه كانت معه بعض المدافع والبارود يستعملها فى الحصار . ذلك أن الصينيين كانوا على التحقيق يستعملون البارود فى ذلك الزمان ، وأن المغول تعلموا استعماله منهم . فسقطت قشغر وخوقند وبخارى ثم سمرقند عاصمة الإمبراطورية الخوارزمية . ومن بعدها لم يعد شيء بالإمبراطورية الخوارزمية يستطيع صد المغول ، فاندفعوا غرباً نحو بحر قزوين ثم جنوباً حتى لاهور . وإلى الشمال من بحر قزوين التقى جيش مغولى بقوة روسية آتية من كييف . ونشبت بين الفريقين سلسلة من المعارك ، كسرت فيها الجيوش الروسية كسراً نهائياً ، وأخذ غرندوق كييف أسيراً . وهكذا ظهر المغول على الشواطئ الشمالية للبحر الأسود . وتولى الدعر القسطنطينية ، التى وجهت كل جهدها إلى إعادة بناء تحصيناتها . وفى نفس الوقت كانت جيوش أخرى تشتغل بفتح إمبراطورية هسيا فى الصين فألحقت هذه بملك المغول . ولم يبق من إمبراطورية الكن سليما غير مقهور إلا الجزء الجنوبى . وفى (١٢٢٧) مات جنكيز خان فى أوج حياة حافلة بالنصر بعد أن أصبحت إمبراطوريته تمتد من المحيط الهادى إلى نهر الدنيبر . وفوق ذلك فإنها كانت إمبراطورية لا تبحر رقعتها تسع بقوة .

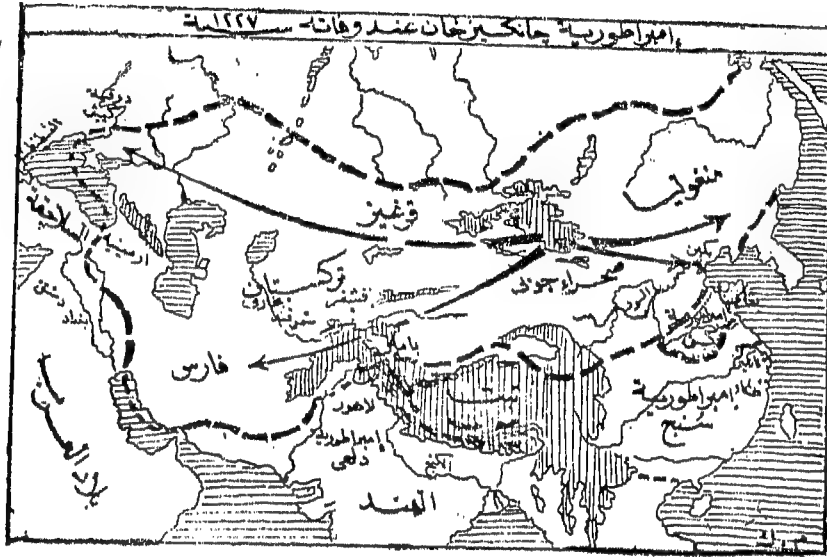
على أنها ، شأن كل الإمبراطوريات التى أسسها المترحلون ، كانت قبل كل شيء إمبراطورية عسكرية وإدارية بحتة ، وكانت هيكلها وإطاراً أكثر منها نظام حكم . وكانت تتمركز حول شخصية العاهل ، وكانت علاقتها بكتلة الشعوب الذين تحكمهم مجرد علاقة ضرائب تجبى للإنفاق على القبيلة . على أن جنكيز خان كان قد دعا لمعاونته سياسياً عظيم الكفاية من مدبرى إمبراطورية الكن واسع الخبرة عليا بكل تقاليد الصينيين ملماً بعلومهم . وقد استطاع هذا السياسى المحنك يليوتشوتزاي (Yeliuchutsai) أن يواصل إدارة شئون المغول مدة طويلة بعد وفاة جنكيز خان ، وليس هناك أدنى ريب فى أنه من أعظم أبطال السياسة فى التاريخ . فكم روض من شراسة

سادته وهمجيتهم ، وأنقذ من يد التدمير مدناً لا تحصى ومنتجات فنية قيمة لا حصر لها . ودأب على جمع السجلات والمخطوطات والنقوش ، ولما أتهم بالرشوة ، ظهر أن كل ما في حوزته من ثروة يتكون من الوثائق ومن بعض آلات موسيقية . وربما جاز أن ينسب إليه ، بقدر ما يعزى إلى چنكيز خان ، ما استمتعت به الأداة الحربية المغولية من كفاية . وربما جاز لنا أن ننبه الأذهان أيضاً أن آفاق آسيا بأكملها كان يسودها إبان حكم چنكيز خان أتم وأكل أنواع التسامح الدينى .

كانت عاصمة الإمبراطورية الجديدة عند وفاة چنكيز ما تزال هى مدينة قره فورم المتبربرة العظيمة فى منغوليا . وهناك انتخبت جمعية من زعماء المغول أوجداى خان ابن چنكيز خليفة له . فواصل المغول فى عهده الحرب على بقايا إمبراطورية الكن ، حتى أخضعت إخضاعاً تاماً (١٢٣٤) . وكانت الإمبراطورية الصينية التى تحت حكم أسرة صنج فى الجنوب عوناً للمغول فى هذا العمل ، وبذا دمروا حصنهم الواقع الذى يمنعهم من الغزاة الفاتحين أعداء الطرفين . ومن ثم سارت الجيوش المغولية عبر آسيا إلى روسيا لا تلوى على شىء (١٢٣٥) وهو زحف عسكري رائع يأخذ بالألباب . فدمرت كييف (١٢٤٠) وأصبحت كل روسيا تقريباً تابعة للمغول ونهبت بولندة وخربت وأبید جيش مختلط من البولنديين والألمان بمعركة ليغنيتز (Liegnitz) فى سيليزيا السفلى (١٢٤١) . ويبدو أن الإمبراطور فردريك الثانى لم يقم بأى مجهود عظيم ليوقف ذلك السيل المنهمر .

يقول بيورى فى ملحوظاته على كتاب « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها لجييون » : « لم يحدث إلا فى العصر الحديث أن أخذ العالم الأوروبى يفهم أن نجاح الجيش المغولى الذى اجتاحت بولندة واحتل هنغاريا فى ربيع (١٢٤١) قد تم بفضل خطط استراتيجية بالغة غاية الكمال وأنه لم يكن راجعاً إلى مجرد تفوق عددى جارف . ولكن هذه الحقيقة لم تصبح بعد من المعلومات الشائعة المعروفة للناس أجمعين . إذ لا يزال من الأفكار الشائعة بين الناس تلك الفكرة السوقية التى تتمثل التتار فى تاريخ الإنسانية ج٢

صورة قبيلة ضارية متوحشة تجترق كل شيء أمامها بمحض كثرة العدد ليس غير ، وتركض بخيولها خلال أوروبا الشرقية دون خطة استراتيجية مرسومة ، وتندفع من فوق كل عائق يعترض سبيلها وتتغلب عليه بمجرد الثقل العددي



(شكل ١٤٦) خريطة إمبراطورية چانگيز خان عند وفاته سنة (١٢٢٧)

« وكم كان من المدهش أن تنفذ في الوقت المحدد وفي قوة تأثير فعالة - ترتيبات القائد في عمليات حربية تمتد من انفسيتولا الأدنى إلى ترانسلفانيا . فشل هذه الحملة كانت فوق طاقة أى جيش أوربي في ذلك الزمان ، وكانت وراء أحلام أى قائد أوربي . ولم يكن بأوربا ، ابتداء من فردريك الثاني فما دونه قائد لا يعد من المبتدئين الأنحمار في فن القيادة الاستراتيجية بالقياس إلى سوبوتاي (Subutai) . كذلك يجب أن يلاحظ أن المغول قد أقدموا على هذا الأمر وهم على معرفة تامة بموقف البحر (هنغاريا) السياسى وظروف بولندة - وذلك لأنهم عنوا مقدماً بتعرف الأخبار بواسطة هيئة من الجواسيس حسنة التنظيم . على حين أن المجريين والدول المسيحية ، كانوا شأن المتبررين الأشبه بالأطفال ، لا يكادون يعرفون عن أعدائهم شيئاً . »

ومع أن المغول انتصروا قرب ليجنيز ، فإنهم لم يواصلوا تقدمهم غرباً . وذلك لأنهم أخذوا يدخلون إلى أراضي غابات ومناطق تلال لم تكن لتوافق ما لديهم من تكتيك^(١) حربي . ولذا عرجوا جنوباً وأعدوا عدة الاستقرار في بلاد المجر ، وهم يذبّحون المجرين ذوى قرباهم أو يتمثلونهم ، على طريقة تداني ما عمله هؤلاء من اللدبح والتمثل من قبلهم في الإسيكديين والآفار والهن المخلطين . والراجح أنهم كانوا يبعثون أن يقوموا من السهل الهنغاري بالغارات غرباً وجنوباً كما فعل الهنغاريون في القرن التاسع والآفار في القرنين السابع والثامن والهن في الخامس . غير أن المغول كانوا في آسيا يحاربون أسرة صنج حرب غزو عنيفة ، وكانوا كذلك يغيرون على فارس وآسيا الصغرى ، ومات أوجداى موت الفجاءة ، وحدث في (١٢٤٢) نزاع حول ولاية العرش من بعده ، ودعاهم هذا الأمر إلى العودة إلى بلادهم . ولذا فإن الجيوش المغولية غير المقهورة أخذت تنساب راجعة عبر بلاد المجر ورومانيا نحو الشرق .

ومن حسن طالع أوروبا أن الخلافات على العرش في قره قورم دامت بضع سنين ، وبدأت على هذه الإمبراطورية الهائلة الجديدة بوادر التصدع . وأخيراً أصبح « مانكوخان » خانا أعظم في (١٢٥١) ، فعين أخاه قوبلاى خان حاكماً عاماً على الصين . وأخضعت إمبراطورية صنج بأجمعها في بطة ولكن في غير تراخ ، وبينما هي بسبيل الإخضاع ، كان المغول الشرقيون يتحولون أكثر فأكثر إلى صينيين في ثقافتهم وطرائق عيشهم ، وغزا مانجو بلاد التبت وأعمل فيها تدميراً ، وغزت فارس وسوريا بمنتهى الجلد والهمة . وكان على إمرة هذه الحرب الأخيرة أخ آخر لمانكو هو هولاكو . فوجه جيوشه على الخلافة واستولى على بغداد ، وفي هذه المدينة تلوث يده بإعماله الذبح في سكانها برمتهم . وكانت بغداد ما تزال عاصمة الإسلام الدينية . وكان المغول قد أصبحوا معادين للمسلمين عداوة مريرة . وزادت هذه العداوة من أوار الخلاف الطبيعي بين المترجلين وأهل المدن . وفي (١٢٥٩) مات مانكوخان وانتخب قوبلاى خانا أعظم في (١٢٦٠) ، إذ أن تجمع قادة المغول من أطراف هذه

(١) التكتيك : فن أو علم تحريك القوات والمدورة بها في المعركة وفق مبادئ مقررته .

(المترجم)

الإمبراطورية الهائلة من المجر وسوريا والسند والصين قد استغرق شطراً كبيراً من سنة كاملة . ولما كان قوبلاى من قبل عميق الاهتمام بالشئون الصينية ، فإنه اتخذ بيكين عاصمة له بدلاً من قره قورم ، وأصبحت فارس وسوريا وآسيا الصغرى مستقلة فعلاً تحت حكم أخيه هولاكو . على حين أن قبائل المغول في روسيا والمناطق الآسيوية المجاورة للروسيا وجماعات صغيرة مغولية متنوعة في التركستان ، قد أصبحت أيضاً منفصلة تقريباً . ومات قوبلاى (١٢٩٤) ، وبموته زالت كل سيادة للخان الأكبر حتى الإسمية منها .

وعند موت قوبلاى كانت هناك إمبراطورية مغولية رئسية عاصمتها بيكين ، تضم كل الصين ومنغوليا ؛ وثمة إمبراطورية مغولية عظيمة ثانية هى إمبراطورية القهچاق (Kipchak) في روسيا ؛ وثم إمبراطورية ثالثة في فارس ، وهى تلك التى أسسها هولاكو ، وهى الإمبراطورية الإيلخانية (Ilkhan) التى كان الأتراك السلجوقيون في آسيا الصغرى تابعين لها . وكانت هناك دولة سيبرية تقع بين القهچاق ومنغوليا ؛ ودولة أخرى منفصلة « تركيا الكبيرة » في التركستان . ومما هو جدير بالملاحظة بوجه خاص أن الهند فيما وراء البنجاب لم يغزها المغول أبداً أثناء تلك المدة ، وأن جيشاً بقيادة سلطان مصر دحر قطبغا قائد هولاكو في فلسطين دحراً تاماً (١٢٦٠) ، وحال دون دخولهم إلى إفريقيا . وذلك أنه عند (١٢٦٠) كان دافع الغزو المغولى قد انحط عن ذروته . ثم يقع المغول من بعدها في غمرات الفرقة والاضمحلال .

ودامت أيام الأسرة المغولية التى أسسها قوبلاى خان في الصين ، وهى أسرة يوان من (١٢٨٠) إلى (١٣٦٨) . ثم تجدد من بعد ذلك نشاط المغول في غرب آسيا تجديداً قدر له أن يؤسس ملكية أرسخ قديماً وأطول عمراً في بلاد الهند . ولكن كان الأفغان في القرنين الثالث عشر والرابع عشر هم سادة شأى الهند وليس المغول ، وامتدت لهم إمبراطورية أفغالية حتى صميم منطقة الدكّـن .

٣ - رحلات ماركو پولو

لا جرم أن قصة الفتوح المغولية من أعجب القصص وأجدرها بالتنويه في موكب التاريخ بأكمله . وما تستطيع فتوح الإسكندر الأكبر أن تداليها في العظم واتساع

المدى . كما أن أثرها في نشر الأفكار بين الناس وتوسيع آفاقها وفي استئثاره أذهانهم كان هائلا ضخماً . ذلك أن آسيا وأوروبا الغربية جميعاً أقامتا زماناً وهما تستمتعان بالاتصال الحر والاختلاط المباشر ؛ وفتحت كل الطرق الموصلة بينهما فتحة موقوتاً ، كما ظهر ممثلون لجميع الأمم في بلاط قره قورم .

وأزيلت الحواجز الفاصلة بين أوروبا وآسيا وهى التى نشأت عن الخلافات الدينية بين المسيحية والإسلام . وأخذت الآمال الكبار تداعب البابوات في تحويل المغول إلى المسيحية . وكانت ديانتهم الوحيدة حتى ذلك الحين هى الشامانية^(١) وهى ضرب بدائى من الوثنية . وكان البلاط المغولى مسرحاً اختلط فيه مبعوثون من لدن البابا وكهنة بوذيون من الهند ، وحذاق صناع باريسين وإيطاليين وصينيين ، وتجار بيزنطيون وأرمن ، بموظفين من العرب وفلكيين ورياضيين من الفرس والهنود . ولما لم نسمع في التاريخ الشيء الكثير المستفيض عن حملات المغول ومذابحهم ، ولكننا لا نسمع القدر الكافى عن استطلاعهم ورغبتهم في العلم . ولعل تأثيرهم في تاريخ العالم لم يكن بالغاً جداً بوصفهم شعباً مبتكراً خلاقاً بل بوصفهم نقلة للعرفان وحمة للمناهج والأساليب . فكل ما قد يستطيع المرء أن يحصل عليه من العلم بشخصيتى جنكيز وقوبلاى الغامضتين الرومانسيين يحدو بنا إلى أن نوقر في أذهاننا الإنطباع التى تقول بأن هذين الرجلين كانا عاهلين قهّمين خلاقين بدرجة لا تقل عن الإسكندر الأكبر تلك الشخصية الوهاجة الأنانية ، ولا عن شلمان ذلك المبتعث للأشباح السياسية الدفينة واللاهوتى الناشط والأسمى في نفس الوقت .

باءت جهود البعثات التبشيرية التابعة للبابوية في منغوليا بالفشل والإخفاق . ذلك أن المسيحية كانت تفقد قدرتها على الإقناع . وما كان المغول يضمرون للمسيحية أى تحامل ، بل الواضح أنهم كانوا في بداية الأمر يفضلونها على الإسلام . على أنه كان من البلى أن البعثات التبشيرية التى حلت ببلادهم كانت تستعمل ما استقر في

(١) الشامانية : هى المعتقدات والممارسات الدينية التى كان عليها سكان آسيا الشمالية القدماء وتقوم على فكرة أن الخير والشر يمكن التصرف فيهما بواسطة السحر . (المترجم)

تعالم يسوع من قوة ضخمة في تركية مدعيات البابا الجسام في السيادة الدنيوية . لذا فإن المسيحية - وقد أثلفت على تلك الشاكلة - لم تكن تحوى من عناصر الجودة ما يجعلها مقبولة لدى الذهن المغولى . وربما جاز أن تروقه فكرة جعل الإمبراطورية المغولية جزءاً من ملكوت الرب ، لا يجعلها إقطاعاً تابعاً لجماعة من القساوسة الفرنسيين والإيطاليين ، الذين كانت مدعياتهم ضخمة ، بمقدار ما كانت قدراتهم وآفاقهم ضعيفة هزيلة ، والذين كانوا آناء من صنائع إمبراطور ألمانيا ، وآناً من ينصهم ملك فرنسا ، وآونة من ضحايا أحقادهم الصغيرة وغرورهم التافه .

ففي (١٢٦٩) أرسل قوبلاى خان إلى البابا بعثة كان من الواضح أن الهدف منها هو الوصول إلى وسيلة ما للتعامل المشترك مع المسيحية الغربية . فطلب أن يرسل البابا إلى بلاطه مئة من رجال ذوى علم ومقدرة ليضعوا أسس التفاهم بين الطرفين . ولكن بعثته وجدت عرش البابوية في العالم الغربى شاغراً وألفته منهمكاً في إحدى تلك المنازعات، التي يكثر اشتجارها في تاريخ البابوية حول وراثة الكرسي البابوى . وظل منصب البابوية شاغراً سنتين كاملتين لا يشغله أى بابا . فلما آن تقلد المنصب أحد البابوات آخر الأمر ، أرسل راهبين من الدومينيكان لينقلوا إلى حكمه ودينه أقوى دولة في آسيا وقد هال هذين السيدين الفاضلين ما كان يفتظرهما من بعد الشقة ومتاعب السفر ، واتمسا منذ البداية المعاذير للتملص من المهمة .

على أن هذه البعثة العقيمة لم تكن إلا واحدة من بين عدة محاولات للاتصال ، ولكنها كانت على الدوام محاولات ضعيفة واهنة الروح ويعوزها ذلك المضاء النارى القاهر الذى كانت تتسم به البعثات المسيحية الأولى . وقد أرسل إنوسنت الرابع بالفعل بعض رهبان الدومينيك إلى قره قورم ، كذلك أرسل القديس لويس الفرنسى البعوث والخلفات المقدسة بطريق فارس . وكان لدى مانكوخان عدد جهم من النصارى النساطرة يقيمون في بلاطه ، كما أن مرسلين للبابا وصلوا إلى بيكين بعد ذلك فعلاً ؛ فإننا نسمع عن تعيين بعض القاصدين الرسولين وأساقفة متنوعين في بلاد الشرق ، على أنه يلوح أن الكثيرين من هؤلاء كانوا يفقدون شجاعتهم أو يفقدون

حياتهم قبل وصولهم إلى الصين . فكان هناك قاصد رسولى بابوي في بيكين في (١٣٤٦) ، ولكن يابوح أنه كان مجرد دبلوماسى بابوي . ولما أن سقطت أسرة يوان المغولية (Yuan) ١٣٦٨ ، ذهب بسقوطها كل ما كان للبعثات التبشيرية من فرص ضئيلة مضمحلة ذهاباً لا رجعة له . وخلف بيت منج (Ming) بيت يوان ، وكان بيت منج أسرة شديدة التمسك بالقومية الصينية ، فأظهر في بادئ الأمر عظيم العداءة للأجانب كافة . ولعلهم أحدثوا مذبحاً أوقعوا فيها بالبعثات التبشيرية النصرانية . فإنا لا نعود نسمع بعد ذلك حتى العهد المتأخر لأسرة منج (١٦٤٤) إلا النزر القليل عن المسيحية في الصين سواء منها الكاثوليكية أو اللسطورية . ثم بذلت محاولة جديدة تكاد تكون أكثر توفيقاً من سابقتها . لنشر المسيحية الكاثوليكية في الصين قام بها اليسوعيون (الخزويت) ، على أن هذه الموجة الثانية من البعثات التبشيرية وصلت إلى الصين بجرأ .

حدث في (١٢٩٨) أن شبت معركة بحرية بين الخنويين والبنادقة ، انهزم فيها الأخيرون . وكان بين الأسرى السبعة الآلاف الذين أسرهم الخنويون سيد من البندقية اسمه ماركو پولو . كان رحالة كبيراً معروفاً بين أصدقائه عموماً بشدة الميل إلى المبالغة . وقد اشترك في تلك البعثة الأولى التي أرسلت إلى قوبلاى خان ، غير أنه واصل السير على حين عاد الراهبان اللومينيكيان أدراجهما . وكان ماركو پولو هذا يقتل السأم وهو سجين في جنوة ، بأن يقص قصة رحلاته على مسامع كاتب بعينه اسمه رستشانو (Rustic ano) ، فدونها هذا الرجل . وما نحن بخائضين هاهنا تلك اللجة الكدرة المتعلقة بمدى ما في قصة رستشانو من صدق المطابقة للواقع . ولسنا نعرف على وجه التحقيق بأى لغة كتبت . ولكن لا يتطرق أى شك إلى الصدق العام الذى يكتنف هذه القصة العجيبة ، التى أقبل الناس عليها أيما إقبال في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ولا سيما كل من أوقى الذكاء المتوقد من الرجال . وكتاب « رحلات ماركو پولو » من أعظم كتب التاريخ . فهو يفتح أمام عين خيالنا رتاج عالم القرن الثالث عشر - ذلك القرن الذى شهد حكم فردريك الثانى وبدايات محاكم التفتيش - يفتحها بصورة

لا يبلغها أى تدوين تاريخى سطره مؤرخ . فإنه أدى بصفة مباشرة إلى اكتشاف أمريكا .



(شكل ١٤٧) خريطة الولايات المغولية حولى (١٢٨٠) م ورحلات ماركو پولو

يبدأ الكتاب بالحديث عن رحلة نقولو پولو والد ماركو وعمه مافيو پولو إلى الصين وكان هذان الرجلان تاجرين من البنادقة من ذوى المكانة يعيشان فى القسطنطينية ، وحدث فى زمن ما يقارب (١٢٦٠) أنهما رحلا إلى بلاد القرم ومنها إلى قازان ، ومن ذلك المكان اتحلا إلى بخارى ، حيث صادفا جماعة من رسل قوبلاى خان فى الصين موفدين إلى أخيه هولاكو فى فارس . وألح عليهما هؤلاء المندوبون أن يصحباهم لمقابلة الخان العظيم ، الذى لم يرقب ذلك الزمان أى رجل من الشعوب اللاتينية . فواصلتا سيرهما ، ووضح أنهما أحداثا وقعا حسنا جداً لدى قوبلاى ، وملاً صدره بالاهتمام بحضارة النصرانية . فحملهما الخان تلك الرغبة المتعلقة بطلب مئة من المعلمين والعلماء ، « يكونون رجالاً أذكاء ملين بالفنون السبعة وقادرين أن يخوضوا حومات الجدل ، النقاش ، ويستطيعون أن يثبتوا بشكل بيّن لعبدة الأصنام ومن إليهم من أقوام ، أن شريعة المسيح خير الشرائع » ، وهو الأمر الذى أشرنا إليه من فورنا .

على أنهما عندما عادا كالت المسيحية في دور من القوضى لم يستطيعا معه إلا بعد سنتين أن يحصلوا على التفويض بالرحيل إلى الصين ثانية في صحبة هذين الراهبين الدومينيكيين الجبانين . وأخذوا معهما ماركو الصغير ، وإلى وجوده وإلى ما حل به من السأم فيما عقب ذلك من أسره في جنوة ، يرجع الفضل في حفظ هذه الذكريات والخبرات الممتعة وبقائها لنا .

ارتحل أفراد أسرة پولو الثلاثة بطريق فلسطين وليس بطريق بلاد القرم ، فعلمهم في الرحلة السابقة . وكانت معهم لوحة ذهبية وأمارات أخرى من الخان العظيم ، لا بد أن وجودها سهل عليهم رحلتهم أيّما تسهيل . وكان الخان العظيم قد سألم أن يجلبوا معهم شيئاً من الزيت الذي يوقد في صباح النافوس المقدس بيت المقدس ؛ ومن ثم ذهب الجماعة إلى هناك أولاً ، ثم ساروا بطريق قيليقية إلى أرمينية . وقد أوغلوا شمالاً إلى هذا الحد لأن سلطان مصر كان يغير في ذلك الزمان على الممتلكات الإيلخانية^(١) . ومن أرمينية انحدروا في أرض الجزيرة حتى هرمز (Ormuz) على الخليج الفارسي ، كأنما كانوا يفكرون في القيام برحلتهم بحراً . والتفوا في هرمز بتجار من الهند . على أنهم لسبب ما لم يسافروا بالسفن ، بل اتجهوا بدل ذلك شمالاً مخترقين الصحارى الفارسية ، ومن ثم بطريق بلسخ إلى قشغر من فوق الهامير ، ثم بطريق قوطان ولُتب نور^(٢) (مترسمين بذلك خطى يوان تشوانج) حتى وادي نهر هوانج هو ومنه إلى بيكين . ويسمى پولو مدينة بيكين باسم (كامبالوك) ؛ كما يسمى الصين الشمالية باسم كائاي (خيتان) ، والصين الجنوبية صين أسرة منج السابقة باسم « مانزى » .

وكان الخان العظيم في بيكين ، فأقيمت لهم وليمة تجلى فيها كرم الضيافة . وسر قوبلاى من ماركو وخاصة ، إذ أنه كان صغير السن ذكياً لبقاً ، وواضح أنه أتقن اللسان التترى إتقاناً تاماً . فأُسند إليه منصب في الحكومة وأرسل في مهام عديدة ، وخاصة في الجنوب الغربى للصين . والقصة التي رواها تتحدث عن مساحات

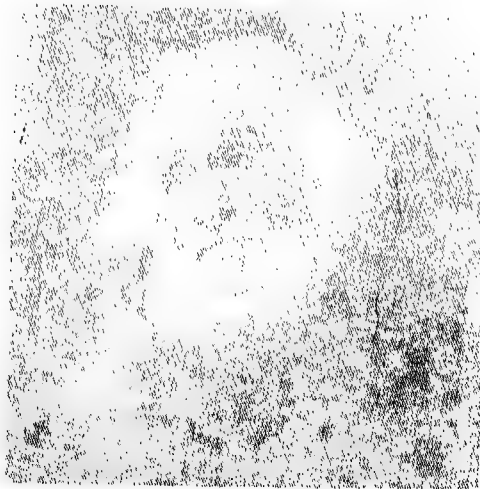
(١) الإيلخانية : أسرة مغولية حكمت فارس بين السند والعراق وآسيا الصغرى في القرنين ١٣ ، ١٤ م . (المترجم)

(٢) لب نور (Lobnor) مجموعة من البحيرات الضحلة في صحراء تكلامكان بالتركستان الشرقية . (المترجم)

منبسطة فسيحة من الأرض البسامة البادية الرخاء « حيث توجد على طول الطريق دور الضيافة للمسافرين » ، « وكرمات الأعناب البديعة والحقول والبساتين المونقة » « وعن أديرة كثيرة » ، « وعن رهباناً بوذيين ، وعن صناعات للقماش المصنوع من الحرير والذهب ، وكثير من الديباج (التافنا) البديع ، وعن مجموعة لا آخر لها من المدن والبلدان الكبيرة وهلم جر » ، فأثارت في أوروبا لأول وهلة رنة من عدم التصديق ، ثم ما لبثت أن ألهمت خيالها على بكرة أبيها

ثم إنه تحدث عن بورما ، وعن جيوشها العظيمة الحاوية مئات من الفيلة ، وكيف هزم ناشبة^(١) المغول هاته الحيوانات ، وكذلك حدثنا عن فتح المغول لبيجو (Pegu) . وتحدث عن اليابان مبالغاً مبالغة عظيمة في كمية الذهب في ذلك القطر . وأدعى من هذا إلى العجب ، حديثه عن المسيحيين وعن الحكام المسيحيين في بلاد الصين ، وعن شخص يعينه هو القسيس يوحنا (Prester John) الذي كان « ملكاً » على شعب نصراني . فأما ذلك الشعب فإنه لم يره . والظاهر أنهم كانوا قبيلة من التتر النسطوريين يسكنون منغوليا . والراجح أن عاطفة يمكن إدراكها وفهمها غلبت على رستشانو فجعلته يبالغ في تأكيد ما لا بد أنه

لاح في عينيه أعظم أعاجيب القصة جمعا ، ومن ثم أصبحت قصة بريستر جون (القسيس يوحنا) من أعظم الأساطير لإثارة للأذهان أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وكان مما شجع روح الإقدام الأوربية نشجياً هائلا زعمهم أنه يوجد في الصين تلك البلاد السحيقة البعد ، مجتمع من إخوانهم في الدين ، مفروض أنهم مستعدون للترحيب بهم وبذل العون لهم وظل ماركو متولياً حكم مدينة



(شكل ١٤٨) ماركو بولو

(تصوير تيتيان)

(١) الناشبة رماة النشاب وهو النار . (المة ح)

بانج تشو (Yang Chow) ثلاث سنوات ، والراجح أنه لم يختلف كثيراً كأجنبي في نظر السكان الصينيين عن أى تتارى آخر . ولعله أوفد أيضاً في بعثة إلى الهند . إذ تذكر السجلات الصينية اسم شخص معين هو پولو تصفه بأنه ملحق بالمجلس الإمبراطورى فى (١٢٧٧) ، وهو مصداق ثمين جداً يثبت صحة قصة پولو بوجه عام .

استغرقت رحلة آل پولو إلى الصين زهاء ثلاث سنوات ونصف . وظلوا هناك قرابة ستة عشر عاماً . ثم أخذ الحنين إلى الوطن يداخلهم . ذلك أنهم كانوا صنائع قوبلاى وموضع حمايته ، ولعلمهم أحسوا أن إثارة إياهم بالرعاية ربما جر عليهم غيرة وخيمة العاقبة بعد مماته . فالتمسوا منه الإذن بالرجل إلى بلادهم فأبى عليهم ذلك ردحا من الزمان ، ثم سنحت لهم بعد ذلك فرصة . ذلك أن أرجون ملك فارس الإيلخانى وحفيد هولاكو شقيق قوبلاى ، كان أرمل من زوجته المغولية ، ووعدها وهى على فراش موتها ألا يتزوج إلا مغولية من نفس قبيلتها . فأرسل السفراء إلى بيكين واختبرت له هناك أميرة موثمة ، وهى فتاة السابعة عشرة . ولكى يجنبوها عناء السفر بالقوافل ، تقرر أن ترسل بطريق البحر مع الحاشية اللائقة . وطلب النبلاء المكلفون بمرافقتها أن يستصحبوا معهم آل پولو لأنهم رحالة مجربون وحكماء حصيفون ، واغتنم آل پولو هذه النهضة التى تتيح لهم ركوب الطريق المتجه إلى وطنهم .

أقلعت البعثة من مرفأ ما فى شرق الصين الجنوبية ؛ وأطالت المقام فى سومطرة وجنوب الهند ، ووصلوا إلى أرض فارس بعد رحلة دامت حولين . فسلموا الأميرة الشابة فى سلام الله إلى خليفة أرجون - لوفاة أرجون قبل وصولهم - وتزوجت الأميرة ابنه . وعند ذاك سار آل پولو بطريق تبريز إلى طرايزون ، ثم أبحروا إلى القسطنطينية وعادوا إلى البندقية قرابة (١٢٩٥) .

ويروى أن الرحالة العائدين وهم فى ثيابهم الترية حيل بينهم وبين الدخول إلى منزلهم . وانقضى بعض الزمان قبل أن استطاعوا أن يثبتوا شخصيتهم . وكان الكثيرون ممن سلموا بأشخاصهم ، ما يزالون يميلون إلى أن ينظروا إليهم شزراً بوصفهم جوالين

حقراء ، ولكي يبددوا عن أذهان الناس مثل تلك الشكوك أقاموا وليمة عظيمة ، وعندما كانت الوليمة قائمة على ساق أمر وأحضرت لهم بدلاتهم القديمة ذات البطائن ثم صرفوا الخدم ، ثم شقوا تلك الثياب ، وإذا بمجموعة لا يصدقها عقل من الياقوت العادى والياقوت الأزرق (Sapphires) والعقيق الأحمر (البهرمان) والزمرد والماس ، تنهال أمام أعين الضيفان المنبهرين . وحدث حتى بعد هذا كله أن قوبلت بيانات ماركو عن حجم الصين وسكانها بشيء من السخرية الخفية . وأطلق عليه أهل النكتة اسم « المليونى (IL Milione) » لأنه كان دائم الكلام عن الملايين من الناس والملايين من الجنيهات الدوقية .

تلك هى القصة جعلت الناس يحملقون بعيونهم دهشا ، فى البندقية بادئ بدء ثم فى أقطار العالم الغربى كافة بعد ذلك . ويردد الأدب الأوروبى وخاصة قصص الرومانس الأوروبى فى القرن الخامس عشر ، صدى الأسماء المذكورة فى قصة ماركو بولو أمثال كائى وكامبالوك .

٤ - الأتراك العثمانيون والقسطنطينية

لم تكن رحلات ماركو بولو هذه إلا مقدمة لاختلاط جسيم جداً بين الشعوب . ومع ذلك ، فإننا قبل أن نواصل وصفنا للاتساع العظيم الذى ألم بآفاق أوربا الفكرية والذى أخذت تبشيره تبدو ، والذى كان لكتاب رحلاته عليه فضل جوهري ملموس جداً ، - نرى من المناسب أن نسجل هنا أولاً نتيجة جانبية غريبة تمخضت عنها الفتوح المغولية العظيمة : تلك هى ظهور الأتراك العثمانيين على ضفاف الدردليل ، ثم نردف ذلك بأن نذكر فى عبارة مجملة تقسيم إمبراطورية چنكيزخان إلى أجزائها العديدة وتطورات كل جزء منها .

كان الأتراك العثمانيون فئة صغيرة من اللاجئين فروا نحو الجنوب الغربى أمام غزوة چنكيز الأولى لبلاد التركستان الغربية . قطعوا ذلك الطريق المديد من آسيا الوسطى ، مخترقين الفيافي والجبال ومارين بأقوام أجنب عنهم لعلهم يعثرون على

أرض جديدة يستطيعون أن يستقروا فيها . يقول السير مارك سايكس : « ثلة صغيرة من رعاة أغراب يهيمون على وجوههم لا يردهم أحد ، ماضين بين الحملة الصليبية من ناحية والصليبية المضادة من ناحية أخرى ، وبين الإمارات والإمبراطوريات والدول . فأين كانوا يقيمون ؟ ، وكيف كانوا يتحركون ويحافظون على قطعانهم ورعلائهم ؟ وأين كانوا يجدون الكلاً ؟ وكيف كانوا يحافظون على السلم مع الرؤساء المتنوعين الذين كانوا يخترقون أراضيهم ؟ تلك أسئلة يجوز للإنسان أن يتساءلها متحيراً » .

وأخيراً عثروا على مستقر لهم وعلى جيران من ذوى قرباهم ومن يشاكلونهم في الطبيعة والمشرّب على هضاب آسيا الصغرى بين ظهراى الأتراك السلجوقيين . وكان غالب هذا القطر الذى هو بلاد الأناضول العصرية قد أصبح آنذاك تركيا لغة مسلماً ديناً ، فيما عدا وجود نسبة كبيرة من الروم واليهود والأرمنيين بين سكان المدن ، ولامرية فى أن النبعات^(١) المتنوعة الموروثة عن الجشيين والفريجيين والطرواديين والليديين والإغريق الأيونيين والسمريين والغلاطيين والإيطاليين (من أزمان برجامة) كانت ما تزال تسرى فى دماء الناس ، بيد أنهم نسوا من أمد بعيد تلك العناصر السلفية القديمة . على أنهم كانوا فى واقع الأمر نفس الخليط المكون من بيض البحر المتوسط الداكنين^(٢) القدماء ، والآريين النورديين والساميين والمغول ، وهو الخليط الذى كان عليه سكان شبه جزيرة البلقان ، بيد أنهم كانوا يظنون أنفسهم شعباً طورانياً خالصاً متفوقاً تفوقاً تاماً على المسيحيين فى الضفة المقابلة من البسفور .

وازداد الأتراك العثمانيون أهمية شيئاً فشيئاً ، حتى آلت إليهم آخر الأمر السيادة على الإمارات الصغيرة التى تمزقت إليها الإمبراطورية السلجوقية أى إمبراطورية « الروم » . وظلت علاقاتهم مع إمبراطورية القسطنطينية المتقلصة علاقات عداء يشوبها شئ من التسامح . فلم يقوموا بأى هجوم على البسفور ، ولكنهم اتخذوا لأقدامهم فى أوروبا على الدردنيل موطئاً ، فاستخدموا هذا الطريق - وهو طريق لجزر سيس وليس

(١) النبعة : هى الأصل والنسل والعترّة . (المترجم)

(٢) الداكنين : وردت لفظة الأبيض الداكن فى مواضع كثيرة بهذا الكتاب ومنها الفنى لأبيض الضارب إلى السرة قليلاً ، الأسود الشعر والعينين . (المترجم)

طريق دارا - ثم دأبوا يشقون طريقهم متوغلين في مقدونيا وإپيروس وإليريا ويوغوسلافيا وبلغاريا .

ووجد الأتراك في الصربيين (اليوغوسلاف) والبلغار أقواماً شديدي الشبه بهم في الثقافة ، كما وجدوهم فيما يرجح شديدي الشبه بهم في جنسهم المخلط عنصرياً - وإن لم يدرك أى من الطرفين ذلك ، مع فارق بسيط هو أن دماءهم كان يخالطها من نبعة البحر المتوسط الداكنة والنبعة المغولية قدر أقل مما لدى الترك كما يخالطها قدر أكبر قليلا من العنصر النوردي . بيد أن هؤلاء الشعوب البلقانية كانوا مسيحيين تفرق بينهم الانقسامات تفريقاً مريعاً . وكان الترك على النقيض من ذلك يتكلمون بلسان واحد ، وكان لديهم شعور أعظم بالوحدة وفيهم عادات المسلمين من عدم تناول المسكرات والقصد في الطعام . كما كانوا في مجملهم جنوداً أفضل . فأدخلوا في دينهم الإسلامى كل من استطاعوا إدخاله من أفراد الشعوب التي غزوا ، ونزعوا سلاح المسيحيين واختصوهم دون غيرهم بدفع الضرائب . وما لبث الأمراء العثمانيون أن وطدوا شيئاً فشيئاً أركان إمبراطورية امتدت من جبال طوروس شرقاً حتى حدود هنغاريا ورومانيا في الغرب . وأصبحت أدرنة كبرى مدائنهم . وأحاطوا من كل صوب بإمبراطورية القسطنطينية المتقلصة . ولم تكن القسطنطينية في ذلك الزمان هي حصن أوربا الواقى ودعامتها ، وإنما كانت الدعامة هي الحجر ، فقد استوطنها شعب تركى مسيحي دافع عن أوربا ضد الأتراك المسلمين .

ونظم الأتراك قوة عسكرية مستديمة ، هي الانكشارية (Janissaries) على أساس أشبه ما يكون بسلوك المماليك الذين سيطروا على مصر . « كانت هذه الجيوش تتكون من مجئدة من الفتیان المسيحيين لا يرتفع عددهم عن ألف في كل عام ، وكانوا يُضمون إلى طائفة الدراويش البكتاشية ، ومع أنهم كانوا في البداية لا يجبرون على اعتناق الإسلام ، فلمهم كانوا بأجمعهم يصبغون صبغاً قوياً بالفكرات الصوفية ومبادئ الأخوة التي تعتنقها الجماعة الدينية التي كانوا يلحقون بها . هؤلاء الانكشارية الذين كانوا يتقاضون أجوراً عالية وينظمون تنظيم جيداً

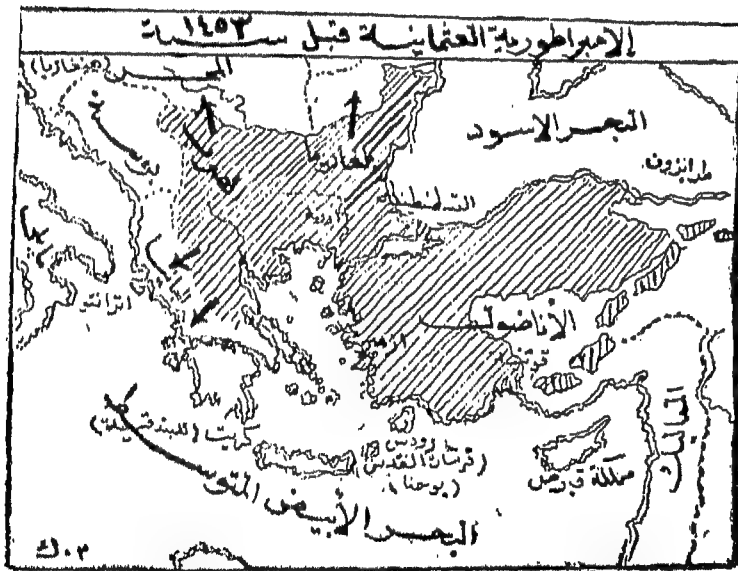
ويشكلون جماعة سرية متماسكة غيورة ، أمدوا الدولة العثمانية الحديثة التكوين بقوة وطنية النزعة من الجنود المشاة المدربين ، كانت تعد ثروة لا تُقَوِّمُ بمال في عصر سادت فيه الراكبة (الخيالة) الخفيفة و فرق المرتزقة المأجورة . . .

« وكانت العلاقات بين السلاطين العثمانيين والأباطرة فريدة في نوعها في تاريخ الدولة الإسلامية والمسيحية . فإن الترك قد أقحموا في المنازعات العائلية وخلافات الأسرة المالكة في المدينة الامبراطورية ، كما كانت تربطهم بالعائلات الحاكمة وشائج رحم وقربى . وكثيراً ما كانوا يقدمون الجنود للدفاع عن القسطنطينية ، وكانوا يستأجرون أحياناً فريقاً من جنود حاميتها ليساعدوهم في حملاتهم المتنوعة ، بل لقد بلغ الأمر أن رافق أبناء الأباطرة ورجال السياسة البيزنطيون الجيوش التركية في ميادين القتال ، ومع ذلك فإن العثمانيين لم يكفوا قط عن أن يلحقوا بممتلكاتهم الأراضى والمدن الإمبراطورية في كل من آسيا وراقيا . وكان لهذا الاختلاط العجيب بين بيت آل عثمان والحكومة الإمبراطورية أثره العميق في كل من النظامين : فإن الروم ازدادوا ضعفة على ضعفة وانحلالات خلقياً على انحلال بسبب التقلبات والحيل التي اضطرتهم إلى اللجوء إليها ضعفهم العسكري حيال جيرانهم ، ودب الفساد إلى الترك مما حولهم من جو أجنبي مشبع بالمؤامرات والخيانات التي تسلفت إلى داخلية حياتهم . وكانت عاقبة ذلك أن قتل الأخ لأخيه والإبن لأبيه وهما الجريمتان اللتان غالباً ما لطختا تاريخ القصر الإمبراطوري ، ما لبثتا أن صارتا جزءاً من سياسة الأسرة المالكة العثمانية . فإن أحد أبناء مراد الأول ينخرط في مؤامرة أندرونيكوس ابن الإمبراطور الرومى ليقتل كل منهما أباه .

« وكان البيزنطى يجد التفاوض مع الباشا العثماني أيسر من التفاوض مع البابا . وظل الترك والبيزنطيون أعواماً طويلاً يتزاوجون ويتآخون معاً في تصيدهم في مياه التيارات الملتوية للديبلوماسية والمؤامرات . وكان العثمانيون قد حرشوا البلغار والصرب في أوروبا بالإمبراطور ، على نفس النسق الذى أثار به الإمبراطور الأمراء الآسيويين على السلطان ، وكان الأمراء الملكيون (: أولياء العهد) من الأروام والأتراك يتعاهدون فيما بينهم على أن يحتفظ كل منهم بمنافسى الآخر أسرى ورهائن ؛ والواقع أن

السياسة التركية والبيزنطية بلغت من التشابك والالتفاف بعضها ببعض حداً يعسر علينا إزاءه أن نقول هل كان الترك يعدون الروم حلفاء لهم أو أعداء أو رعايا . وهل كان الروم ينظرون إلى الأتراك بوصفهم الطغاة المستبدين بهم أو المدمرين لهم أو الحماة^(١) ؟ . . . » .

وسقطت القسطنطينية آخر الأمر بيد المسلمين في ١٤٥٣ إبان حكم السلطان محمد الثاني . فإنه هاجمها من الجانب الأوربي ، وبقوة عظيمة من المدفعية . فقتل الإمبراطور الرومي وعظم النهب وكثر الذبح ، ونهبت كنوز الكنيسة العظيمة كنيسة القديسة صوفيا التي بناها جستنيان الكبير (٥٣٢-) ، وحولت على الفور إلى مسجد . فبعث هذا الحادث موجة هياج شديدة تردد صداها في كل أرجاء أوروبا ، وبذلت بعض الجهود لتنظيم حرب صليبية ، ولكن أيام الحرب الصليبية كانت ولّت .

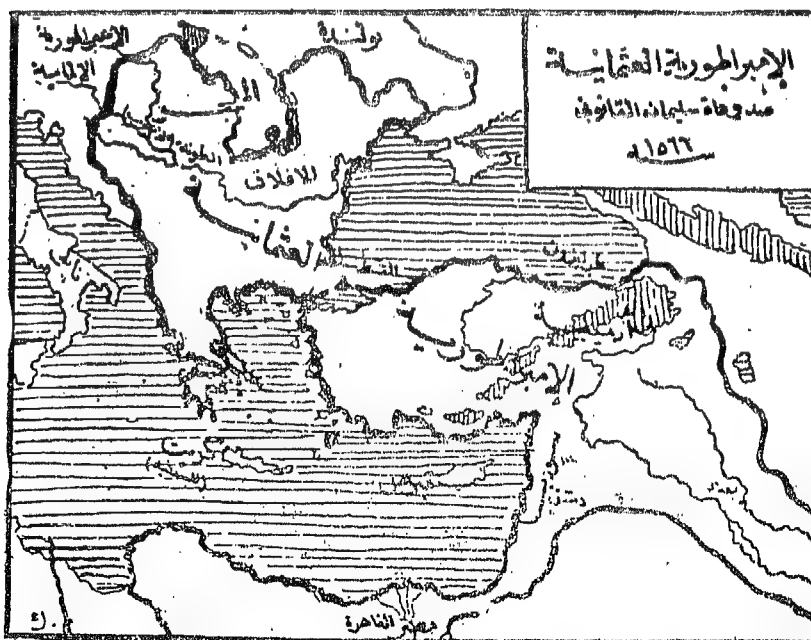


(شكل ١٤٩) خريطة الإمبراطورية البيزنطية قبل سنة ١٤٥٣

يقول السير مارك سايكس : « كان فتح القسطنطينية لدى الترك نعمة توجت مفرقهم ولكنه كان إلى ذلك ضربة قاضية . فإن القسطنطينية كانت معلم الترك

(١) Sir Mark Sykes, "The Caliphs' Last Heritage"

ومهندبهم . فطالما كان العثمانيون يستطيعون أن يستقروا العلوم والمعارف والفلسفة والفن والتسامح من نبع للمدنية جيش زانغر بالحياة في صميم ممتلكاتهم ، لم يكن لهم (أعني العثمانيين) القوة الوحشية فحسب بل القوة الذهنية أيضاً . وطالما كان الإمبراطورية العثمانية في القسطنطينية مرفأً حراً ، وسوقاً ومركزاً للمالية العالمية وملتجئاً مركزياً للذهب ومتبادلاً للتجارة (بورصة) لم يعوز العثمانيين قط المال والعون المالي . وكان محمد الثاني من عظماء رجال السياسة . فما أن دخل القسطنطينية حتى شرع يحاول إيقاف الأضرار التي سببتها مطامعه ، فناصر البطريرك وأرضى الروم ، وبذل كل ما في وسعه لتظل القسطنطينية كما كانت لعهد الأباطرة ولكن الخطوة القاتلة كانت تمت ؛ فإن القسطنطينية بوصفها مدينة السلاطين لم تعد هي القسطنطينية بأية حال ، إذ ماتت الأسواق وفرت الثقافة والمدنية وذوت المالية ذات العمليات المعقدة وتوارت عن الأبصار ، وفقد الترك حكامهم وعضدهم القوي . ومن الناحية الأخرى استمرت مناسد بيزنطة ، فأما البيروقراطية والحصيان وحراس القصر والجواسيس



(شكل ١٥٠) خريطة الإمبراطورية العثمانية عند وفاة سليمان القانوني سنة ١٥٦٦
تاريخ الإنسانية ج٣

والرشاة والوسطاء ، فإن العثمانيين اتخذوا هؤلاء جميعاً لأنفسهم ، وظل هؤلاء جميعاً أقوىاء زاخرين بالحياة . لقد أضاع الأتراك باستيلائهم على اسطنبول كنزاً ثميناً وأخذوا في مقابله وباء وبيلا »

وما كانت أطماع محمد لقنق بفتح القسطنطينية . فإنه شخص يبصره كذلك إلى روما . فاستولى على مدينة أوترنتو الإيطالية ونهبها . وكان شبه الجزيرة منقسماً على نفسه . والراجع أن ما أعده من عدة قوية لفتحها كان سيكلل بالنجاح ، لولا أن وافته منيته في ١٤٨١ . اشتبك أبناؤه من بعده بنزاع يقتل فيه الأخ أخاه . وفي عهد خلفه بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) هلمت رحى الحرب إلى بولندة ، وفتحت معظم بلاد اليونان . فأما سليم (١٥١٢ - ١٥٢٠) ابن بايزيد ، فإنه وسع الدولة



(شكل ١٥١) داخل كنيسة سانت صوفيا وقد غطت النقوش العربية الفسيفساء الأصلية

العثمانية بضم أرمينية وفتح مصر . وكان آخر الخلفاء العباسيين يعيش في مصر في رعاية سلطان المماليك ، ذلك أن الخلافة الفاطمية كانت شيئاً أصبح في ذمة التاريخ . فاشترى سليم لقب الخلافة من هذا العباسي الأخير المنتكس ، واستولى على الراية المقدسة وغيرها من الخلفات النبوية . وبذا أصبح السلطان العثماني أيضاً خليفة الإسلام كله . وخلف سليماً ابنه سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦) ، الذي فتح في الشرق بغداد وفتح في الغرب معظم بلاد المجر ، وكاد أن يستولى على قينا ، وكانت المجر قد صعدت أمام السلاطين ثلاثة قرون كاملة ، ولكن الكارثة التي أحقت بهم في موهاكس (١٥٢٦) وقتل فيها ملك المجر ، ألقت بتلك البلاد صريعة تحت قدمي فاتحها . كذلك استولت عماراته البحرية على بلاد الجزائر ، وأوقعت بالبنادقة هزائم كثيرة . وكان في أثناء معظم حروبه مع الإمبراطورية متحالفاً مع الفرنسيين . وبلغت الدولة العثمانية في عهده أوج عظمتها

٥ - لماذا لم يعتنق المغول المسيحية

لننظر الآن نظرة موجزة عجل إلى التطورات التي آلت بعد ذلك بالأجزاء الكبرى لإمبراطورية الخان الأعظم . ولم تغلح المسيحية قط في الاستيلاء على أخينة هاته الدول المغولية لأن المسيحية كانت في دور إفلاس خلقي وذهنى ، لا يجمع اشتباها البتة أى رابط من إيمان أو همة أو شرف ، وقد سبق أن أخبرناك حديث هذين الراهبين الدومينيكيين التمسعين الرعديدين اللذين بعث بهما البابا جواباً على طلب فولابى خان ، كما لاحظنا الإخفاق العام الذى ظل يصيب البعثات التي أرسلت برأ في أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشر . فإن تلك الروح الرسولية الحارة التي كانت تستطيع أن تضم إلى ملكوت السموات شعوباً بأكملها قد ولت من الكنيسة .

وفي (١٣٠٥) - كما سبق أن ذكرنا - أصبح البابا وهو الخبر الأعظم رهينة في قبضة الملك الفرنسي . فكان كل ما لجأ إليه الباباوات من مخاتلات وما دبوا من سياسة في القرن الثالث عشر لاستبعاد الإمبراطور من إيطاليا ؛ لم تتمخض إلا عن حلال ملك فرنسا محله . واستمر الباباوات في أفنيون من (١٣٠٩) إلى (١٣٧٧) ؛

وعندئذ لم يكن الجهد الضئيل الذى بذلوه فى إرسال البعوث التبشيرية ، إلا مجرد جزء من الخطط الاستراتيجية التى رسمتها السياسة الأوروبية الغربية . وفى (١٣٧٧) استطاع البابا جريجورى الحادى عشر أن يعود فعلا إلى روما وأن يبقى بها حتى آخر حياته ، ولكن الكرادلة الفرنسيين انشقوا عن إخوانهم عند انتخاب خلفه ، وكانت نتيجة ذلك أن انتخب اثنان من الباباوات ، أحدهما فى أفنيون والثانى فى روما . واستدام هذا الانقسام المسمى بالصدع العظيم^(١) من (١٣٧٨) إلى (١٤١٨) . وكان كل بابا يلعن الآخر ويضع الحرمان على كل أنصاره . تلك هى حال المسيحية يومئذ . وهؤلاء هم حملة تعاليم يسوع الناصرى !! كانت آسيا كلها ناضجة دانية القطوف ولكن يدا لم تمتد إليها لتجنى ثمارها .

حتى إذا عادت إلى الكنيسة وحدثها آخر الأمر وتجددت فيها طاقتها على إرسال البعثات الدينية بإنشاء جماعة الخزويت ، كان أوان النهضة قد فات . وولى معه كذلك كل احتمال لتوحيد الشرق والغرب بواسطة المسيحية . فتحول المغول فى الصين وآسيا الوسطى صوب البوذية ، واعتنقوا الإسلام فى جنوب روسيا وتركستان الغربية والإمبراطورية الإيلخانية .

٦ - أسرتا يوان ومينج فى الصين

كان المغول فى الصين متشبعين آنفا بالحضارة الصينية يوم اعتلى قوبلاى عرشه . فبعد (١٢٨٠) تعالج كتب التاريخ الصينية « قوبلاى » بوصفه عاهلا صينيا ، ومؤسسا لأسرة يوان (١٢٨٠ - ١٣٦٨) . ثم شبت حركة قومية صينية خلعت هذه الأسرة المغولية آخر الأمر وأقامت أسرة منج (١٣٦٨ - ١٦٤٤) ، وهى سلالة من أباطرة مثقفين ذوى نزعة فنية ، حكموا البلاد حتى فتحها شعب شمالى ، هو شعب المانشو - وهم نفس شعب الكن الذين هزمهم چنكيز - وأسسوا أسرة مالكة لم تتخل عن السلطان إلا لحكومة أهلية جمهورية فى ١٩١٢ .

وأسرة المانشو هى التى أجبرت الصينيين على إرخاء ضفائر المانشو إشارة إلى

(١) الصدع العظيم أو الانشقاق العظيم Great Schism . (المترجم)

الخضوع . وعلى ذلك يكون الصينى ذو الضفيرة شخصاً حديثاً تمام الحداثة فى التاريخ . ثم لم تعد الصفات إجبارية منذ عهد الجمهورية ، كما أنها اليوم مجهولة معدومة أو تكاد .

إن هذه التغيرات السياسية التى حدثت بالشرق الأقصى التى نرى لزماً علينا أن نلاحظها بمثل هذا الإيجاز هاهنا سارت فى طريقها فوق سطح حياة تمدن زاهرة بالوفرة . وكان من دأب الفن الصينى على الدوام أن يختار أوساطاً (Media) هشة قابلة للفناء ، ولذا فليس فى حوزتنا من المادة التى تشهد بالتقدم الفنى الذى كان فى زمن أسرى صنج ويوان ، ثروة ضخمة مثل تلك الباقية عن فن أوروبا المعاصرة لها الذى كان أدنى فى التطور كعباً . ولكن القدر الذى فى أيدينا كاف لإقناعنا بالصفة الفنية الممتازة لذلك العصر . ومع أن أسرة صنج تسجل عصر تراجع سياسى حدث نتيجة لضغط قوى الخيتان والكن والمسيا ، فلأنها لفترة نشاط فنى عظيم . والناس يتحدثون بأن فن التصوير الصينى وصل إلى أعلى مستوياته فى عهد أسرة صنج الجنوبية . كتب المستر لورنس بنون يقول : « إنها لفاخرة فى الفنون فاخرة فى الفلسفة ، تلك المدة التى تقف من آسيا فى التاريخ موقف عصر پريكليس من أوروبا . . . فى هيام كليف بالطبيعة لا يضارعه قط فى أوروبا أى كلف حتى أيام وردس ورث (١) ، صور فنانون أسرة صنج جلدتهم بالجبال والضباب والسيول الغامرة وطيران الأوز البرى عن أحراش القصب ، وأحلام الحكماء سابحين فى نجواهم تحت ضياء القمر فى الغابات وصائد السمك جالساً فى زورقه على أمواه البحيرة أو الجداول » .

وظل دافع أسرة صنج فى التصوير مستمراً بلا انقطاع ولا تغيير جوهرى حتى نهاية أسرة يوان ، حتى إذا ابتدأ حكم أسرة منج ظهر معه قدر معين من الضعف والتنميق . ونحن إنما نصل بظهور أسرة منج إلى فترة خلقت لنا آثاراً وفيرة . إذ يتبقى عنها كثير من الحفر على الخشب والعاج ، وسلاطين حفر فى الكهرباء الأسود

(١) ولیم وردس ورث (Wordsworth) : (١٧٧٠ - ١٨٥٠) شاعر إنجليزى عشق العليمة حتى بلغ هيامه بها حد العبادة . (المترجم)

حجر اليشم) والبلور الصخرى وعدد وفير من مصنوعات البرونز الممتازة . وإن الشوارع المحفوفة بالتماثيل الحجرية الهائلة والمؤدية إلى قبور أسرة منج ، لمعرفة دائمة الصيت وإن لم تمثل بأى حال خير النحاث الصينية . وما لبث فن الخزف الصينى أن غزته على التدريج نوبة من المبالغة فى التجميل حتى اختنق آخر الأمر تحت وابل من الأفاعين^(١) والأزاهير والأشكال الرمزية .

يقول ولیم برتون : « ومع أن خزفاً ممتازاً جديراً باسم البورسلان ، كان يصنع فى زمن يرجع نى تقدمه إلى عصر أسرة تانج . فإن أقدم ما لدينا من خزف البورسلان الصينى يرجع إلى عهد أسرة صنج » . وقد شرع البورسلان أن يتخذ طريقه غرباً مع الحرير ، ويسجل التاريخ أن صلاح الدين أرسل هدية من أربعين قطعة منه إلى سلطان دمشق . وبمجيء أسرة منج تلقت صناعة الخزف دافعاً منبهاً هو الرعاية الإمبراطورية المباشرة وتطورت فى نشاط ونجاح خارقين للمعتاد . وأخذ الصناع فى استخدام الحليات المصبغة . وكان أن وصل الصينيون فى القرن الخامس عشر إلى أبداع أنواع البورسلان الأزرق والأبيض . وثمة البورسلان البديع إبداعاً لا يصدق ، وهو البورسلان المحرق ، والبورسلان الرائع ذو اللون الأحمر المغطى بالصقال (under glaze red) وهما من بين مفاخر هذا العصر ، الذى هو العصر الذهبى للخزف الصينى .

٧ - المغول يرتدون الى الروح القبيلية

حدث فى هضبة الهامير ، وفى قسم كبير من التركستان الشرقية والغربية ، وإلى الشمال من ذلك ، ان المغول انحدروا ثانية إلى حال البداوة القبيلية التى رفعهم عنها جنكيز . ومن اليسير علينا أن نتعقب إلى ما يكاد يدانى زماننا هذا تضاول شأن كثير من الخانات الصغار أثناء تعاقبهم على الملك ، منذ استقلوا فى غضون تلك الفترة ، وأسس القلموق إمبراطورية ضخمه فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولكن

(١) الأفاعين جمع أنمان . (المترجم)

المنازعات بين أفراد الأسرة المالكة حطمت تلك الإمبراطورية قبل أن تتجاوز رقعتها آسيا الوسطى . واسترد الصينيون منهم التركستان الشرقية قرابة (١٧٥٧) .

وزادت التبت ارتباطاً بالصين ، وأصبحت المثابة العظيمة للعقيدة البوذية والرهبانية البوذية . وما يزال التمييز القديم بين الرجل والمستقرين مستمرا إلى اليوم في معظم آسيا الوسطى الغربية وفارس وأرض الجزيرة . فإن سكان المدن يستعلون على المترجلين ويغشونهم ، كما أن الرجل يسيثون إلى أهل الحضر ويحتقرونهم .

٨ - إمبراطورية القيقاق وقيصر موسكوفا (الروسيا)

طل مغول مملكة القيقاق العظيمة رحلا يرعون ماشيتهم عبر السهول الفسيحة في جنوبي روسيا وغرب آسيا الغربية المتاخمة للروسيا ، وأصبحوا مسلمين غير تاي الإخلاص للإسلام محتفظين ببقايا كثيرة لشامانياتهم المسحبة القديمة . وكان خان «الحشد الذهبي» هو الخان الأعظم بينهم . وإلى الغرب وفوق أجزاء عظيمة من الأرض البراح ، وعلى الأنخص فيما يعرف الآن باسم أوكرانيا ، ارتد السكان القدامى الإسكديون ، وهم من الصقالبة الذين يخاطهم شيء من الدم المغولي ، إلى حياة ترحل مشابهة لهذه . فهؤلاء الرجل المسيحيون ، أي هؤلاء القوزاق ، كونوا على الحدود ضد التتر ضرباً من الستار الواقى وبلغ من جاذبية حياتهم الحرة الطليقة المليئة بالمخاطرة واستهوائها لأفئدة فلاحى بولندة وليتوانيا ، أن اضطرت الحكومات إلى إصدار القوانين الصارمة لمنع حدوث هجرة واسعة النطاق من أرض المحراث إلى أرض السهوب ، ولهذا السبب صار ملاك الأراضي أصحاب موالى الأرض (Serfs) في بولندة ينظرون إلى القوزاق بعين ملوئها العداء والحقد ، وكثرت الحروب بين الفروسية البولندية والقوزاق ، كثرتها بين هؤلاء الأخيرين وبين التتر .

وبينما كان الرجل في إمبراطورية القيقاق كما بلاد التركستان إلى مايكاد يدانى العصر الحاضر ، يضربون في الأرض فوق متسعات فسيحة ، كان هناك عدد من

المدن والأقاليم الزراعية التي يبيتش عليها سكان مستقرون ويدفنون في العادة الجزية لخان المترشحين . ففي مدن من أمثال كييف وموسكو وما إليهما كانت حياة السكان المسيحيين المدنيين الموجودة قبل المغول لا تزال مستمرة تحت حكم دوقات من الروس أو ولادة من التتار ، ممن كانوا يجمعون الجزية لخان « الخشيد الذهبي » . واكتسب غراندوق موسكو ثقة الخان ، وارتفع شأنه شيئاً فشيئاً تحت سلطان الخان حتى ساد كثيراً من زملائه الأتباع . وفي القرن الخامس عشر نبذت موسكو تحت حكم غراندوقها إيثان الثالث وهو إيثان الكبير (١٤٦٢ - ١٥٠٥) ولاءها للمغول وأبت أن تدفع الجزية بعد ذلك (١٤٨٠) . ولم يعد خلفاء قسطنطين يحكمون في القسطنطينية في ذلك الزمان ، فاستولى إيثان على النسر البيزنطي ذي الرأسين واتخذتهشارة له . وادعى أنه وارث بيزنطة بسبب زواجه (١٤٧٢) من الأميرة زوية باليولوجوس (Zoe Palaeologus) وهي من السلالة الإمبراطورية . وهاجمت هذه الغراندوقية المسكوفية الطموحة جمهورية أهمل الشمال التجارية بنو قوجورود إلى الشمال منها وأخضعها ، وبدأ أرسيت أسس الإمبراطورية الروسية العصرية ، وأنشئت حلقة اتصال تربطها بالحياة التجارية في بحر البلطيق . على أن إيثان الثالث لم يدفع ادعاءه بوراثة حكام القسطنطينية المسيحيين إلى حله اتخاذ اللقب الإمبراطوري بل خطا هذه الخطوة من بعده حفيده ، إيثان الرابع (وهو إيثان الملقب بالرهيب لقساوته الجنونية (١٥٣٣ - ١٥٨٤) . ومع أن حاكم موسكو وصل بذلك إلى التلقب بلقب القيصر (Tsar) ، فإن تقاليده كانت في كثير من الأوجه تتارية أكثر منها أوربية . كان مستبداً على النسق الأسوي المطلق السلطان ، وكانت المسيحية التي اتخذها هي الشرقية الأرثوذكسية التي يسيطر عليها البلاط ، والتي وصلت إلى روسيا قبل الفتح المغولي بزمن مديد على يد مبشرين من البلغار جاءوا من القسطنطينية .

ولم إلى الغرب من ممتلكات القهقراق خارج مجال الحكم المغولي قام في بولندة مركز ثان لتمامك الصقالبة أثناء القرنين العاشر والحادي عشر . أجل اكتسحت الموجة المغولية بولندة ، ولكنها لم تخضعها قط . ولم تكن بولندة أرثوذكسية بل كانت عقيدتها هي الكاثوليكية ، وكانت تستعمل أحرف الهجاء اللاتينية بدل الأحرف الروسية الغريبة ،

ولم يتخذ عاehlها قط سمة الاستقلال المطلق عن الإمبراطور . والواقع أن بولنده كانت من حيث أصولها قسماً أمامياً ناتناً من عالم المسيحية ومن الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولم تكن روسيا في أى يوم من الأيام شيئاً من هذا القبيل .

٩ - تيمورلنك

ربما كانت طبيعة وتطور إمبراطورية أسرة إيلخان في فارس وأرض الجزيرة وسوريا وما ألم بتلك الإمبراطورية من تطورات ، أشوق قصص هذه الدول المغولية كافة ، لأن نظام الترحل في هذه المنطقة حاول بالفعل - ووفق في الحقيقة أيما توفيق - أن يقضى قضاء مبرماً على نظام ممدّن مستقر . فعند ما غزا چنكيز خان الصين في بداية الأمر ، حدثت - كما نخبروننا - مناقشة خطيرة بين الرؤساء المغول حول ضرورة أو عدم ضرورة تدمير كل المدن وإبادة السكان المستقرين . فإن هؤلاء البسطاء الممارسين لحياة الهواء الطلق ، كانوا يرون أن السكان المستقرين فاسدون متزاحمون تنتشر بينهم الرذيلة ويغلبهم التخثث وأنهم خطرون لا يمكن فهمهم ، وأنهم طفح جلدى لإنسانى جدير بالزراية يعيش على سطح بلاد لولا وجودهم لكانت أرض رعى طيبة . فأما المدن فلم يكن من ورائها أى نفع لهم . ويلوح أن قداى الفرنجة والآنجلوسكسون غزاة جنوبى بريطانيا ، كان بجول يخاطرهم نفس الشعور حيال سكان المدن . ولكن تلك الأفكار لم تجسد في صورة سياسة متعمدة إلا تحت ظل هولاكوفى أرض الجزيرة . فإن المغول هاهنا لم يقتصروا على أعمال النار والسيوف إحراقاً وتذبيحاً ، بل دمروا نظام الرى الذى استدام ما لا يقل عن ثمانية آلاف سنة ، وبذلك قضى على المدنية الأم التى ولدت المدنات الغربية جميعاً . ولقد ظلت هذه الأقاليم الحصبة منذ أيام الملوك الكهنة في سومر تزرع زراعة مستمرة لا تنقطع ، وتواصل تجميع التقاليد ، وحشد عدد عظيم من السكان وإنشاء مجموعة متعاقبة من المدن النشيطة العاسلة : - منها لإريديو ونيبور وبابل ونيوى وطيشفون (المدائن) وبنداد ، والآن زال الخصب ، وأصبحت أرض الجزيرة أرضاً موحشة وقفار خاوة ، تحى فيها مياه عظيمة بددا ، أو تنفض ، علم ، ضفافها

مكونة بركا تخرج فيها الملاريا . ثم حدث فيها بعد ذلك من الزمان أن انتعشت بغداد والموصل انتعاشاً ضعيفاً وصارتا مدينتين من الدرجة الثانية



(شكل ١٥٢) خريطة إمبراطورية تيمورلنك

ولولا هزيمة قطبغا قائد هولاكو ومقتله في فلسطين (١٢٦٠) لحل بمصر نفس المصير . ولكن مصر كانت عند ذاك سلطنة تركية ، تسودها هيئة عسكرية هي المماليك كان يؤخذ أفرادها (شأن مقلديها الانكشارية بالدولة العثمانية) ، وتجدد قوتها ، بمشترى الغلمان الأرقاء وتدريبهم . فإن كان السلطان مقتدرأ ذا كفاية أطاعه هذا النوع من الرجال ، وإذا كان ضعيفاً أو شريراً عزلوه وتبدلوا به غيره . وظلت مصر تحت حكمهم دولة مستقلة حتى (١٥١٧) ، عند ما آلت إلى الأتراك العثمانيين .

وسرعان ما ضعفت القوة المدمرة الأولى لدى مغول هولاكو ، ولكن قامت للمترجلين في القرن الخامس عشر نهضة أخيرة أشبه ما تكون بعاصفة هوجاء انبعثت في التركستان الغربية تحت قيادة تيمور الأعرج أو تيمورلنك . كان نسبه من الناحية النسائية (أمه) يتصل بچنكيزخان . فجعل قصبة ملكه في سمرقند ، ومد سلطانه على القهچاق (التركستان حتى جنوب روسيا) وعلى سيبيريا وبسطه جنوباً حتى حوض نهر

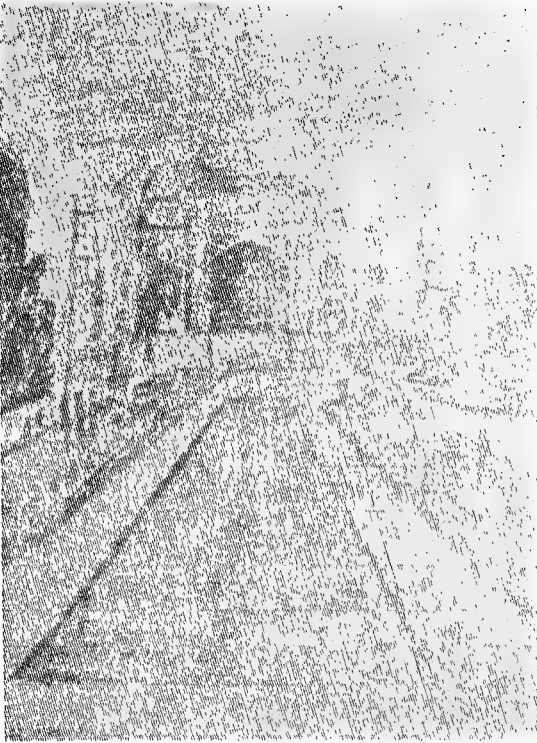
السند . واتخذ لنفسه لقب الخان الأعظم في (١٣٦٩) . كان مترحلاً يمت إلى المدرسة الوحشية بسبب . فأنشأ إمبراطورية تقوم على الخراب من شمال الهند إلى سوريا و كانت أشهى تسلية معمارية لديه إقامة أهرامات من الجاجم ، فبعد أن فتح أصفهان أقام على هذه الشاكلة هرمًا مكونًا من سبعين ألف جمجمة .

وكان يطمع في أن يستعيد إمبراطورية چنكيز خان كما يتصورها هو ، وهو مشروع فشل فيه فشلاً تاماً . على أنه بث الخراب والدمار في طول البلاد وعرضها ، وأدى إليه الخزية الأتراك العثمانيون — وكان ذلك قبل فتح القسطنطينية وقبل أيامهم العظيمة — كما أدتها إليه مصر ، ثم أعمل في الهندجاب تخريباً وعاث فيها فساداً ، واستسلمت له دلهي . وبعد أن سلمت المدينة أعمل السيف في أهلها قتلاً وتذويحاً رهيباً . وعندما حانت وفاته (١٤٠٥) لم يبق له إلا القليل مما يشهد له بالقوة اللهم إلا اسم يقتن بالرب وإلا الخرائب والأقطار الموحشة المقفرة ومملكة متقلصة الظلال قد عضها الإحمال والعوز في بلاد فارس .

وبعد خمسين سنة قضى فوج آخر من المترحلين التركمان على الأسرة المالكة التي أسسها تيمور الأعرج في فارس .

١٠ — إمبراطورية الهند المغولية

وفي (١٥٠٥) اضطر رئيس تركماني صغير ، اسمه بابر وهو سليل تيمور وبالتبعة چنكيز أيضاً ، أن يفر عابراً جبال الهندوكوش إلى بلاد الأفغان مع ثلة من الأتباع بعد بضع سنين قضاه في حرب ناله فيها بعض النجاح الموقوت — إذ وقعت في قبضته سمرقند ربحاً من الزمان . وهناك تزايد أنصاره ، ونصب نفسه سيداً على كابول ، فحشد جيشاً وأكثر من جمع المدافع ، ثم ادعى لنفسه ملك الهندجاب ، لأن تيمور كان غزاها قبل ذلك بمائة وسبعة من السنين . وتقدم ظافراً إلى ما وراء الهندجاب . وكانت الهند في حالة انقسام وهي مستعدة تمام الاستعداد للترحيب بأى فاتح يعدها السلام والنظام . والتقى بابر بعد تقلبات عديدة في حظه بسلطان دلهي قرب بابيات (١٥٢٥)



(شكل ١٥٣) تاج محل بأجرا

إن تاج محل المشوي الأخبث لشاه جهان وزوجته المحبوبة يعترف الناس جميعاً بأنه أكثر أبنية العالم استيفاء للكمال . وهو مبنى من الرخام الأبيض ، ويقال إن عشرين ألفاً من الرجال ظلوا يعملون فيه بلا انقطاع سبعة عشر عاماً

حتى البنغال ، ولكن وفاته قبل الأوان (١٥٣٠) أوقفت موجة الفتح المغولي زهاء ربع قرن ، ولم يأخذ مد الفتوح يفيض من جديد إلا عند تولى حفيده « أكبر » العرش . وأخضع أكبر كل بلاد الهند حتى بيرار ، وأصبح ابن حفيده أورانغزيب (١٦٥٨ - ١٧٠٧) سيداً لشبه الجزيرة الهندية بأكملها تقريباً . فهذه الأسرة العظيمة ، المكونة من بابر (١٥٢٦ - ١٥٣٠) وهومايون (١٥٣٠ - ١٥٥٦) وأكبر (١٥٥٦ - ١٦٠٥) وجهان جير (١٦٠٥ - ١٦٢٧) وشاه جهان (١٦٢٨ - ١٦٥٨) و « أورانغزيب » (١٦٥٨ - ١٧٠٧) ، التي ظل فيها الابن يخلف أباه أمد ستة أجيال متعاقبات ، هذه الأسرة المغولية تسجل أزهى عصر بزغ فجره على الهند حتى ذلك الحين . وكان « أكبر » - ولعله الملك الوحيد الجدير بأن يردف

على مبعدة عشرة أميال شمالاً للمدينة ، فانتصر نصراً كاملاً مبيناً مع أنه لم يكن معه سوى خمسة وعشرين ألف رجل ولكنهم مع ذلك مزودون بالمدافع مقابل ألف فيل عند أعدائه وعدد من الرجال يضارع أربعة أمثال عدده ، والأعداد - لهذه المناسبة - كانت من تقديره هو . فكفّ عن تلقيب نفسه بملك كابول ، واتخذ لقب إمبراطور الهندوستان . كتب يقول :

« إن هذا العالم يختلف اختلافاً

بيناً عن بلادنا » ، إذ أنه وجدته عالماً أجمل وأخصب وأعنى غنى مطلقاً . ثم واصل الفتح

بأسوكا — من أعظم عياهل الهند ، وأحد القليلين من الشخصيات الملكية الذين يرتفعون إلى قريب من مرتبة العظماء بين الرجال .

ويجب أن نولى « أكبر » نفس الاهتمام الخاص الذى أظهرناه نحو شلمان أو قسطنطين الكبير . فإنه أحد الأقطاب التى يدور حولها التاريخ . ولا يزال الشئ الكثير من عمله فى سبيل توثيق الترابط وتوطيد النظام فى الهند باقياً إلى يومنا هذا . إذ تناوله البريطانيون وواصلوا العمل به عندما صارت إليهم وراثه ملك الأباطرة المغول ، والواقع أن العاهل البريطانى كان يتخذ لنفسه لقباً هندية هو لقب الأباطرة المغول ، وهولقب « قيصر الهند » (Kaisar-i-Hind) . ولقد تبسدت جميع النظم الإدارية الكبرى التى أقامها حفدة چنكيزخان فى روسيا وفى أرجاء آسيا الوسطى والغربية كافة وفى بلاد الصين ، حيث بادت منذ زمن بعيد وحلت محلها أشكال حكومية أخرى . والحق إن حكوماتهم لم تزد كثيراً عن كونها حكومات تفرض الضرائب ، وأنها نظام لجمع الإيرادات لتكون طعمة للمؤسسة الحاكم المركزية ، شأن « الحشد الذهبى » فى جنوب روسيا ، أو المدينة الإمبراطورية بقره قورم أو بيكين . فأما حياة الشعب وفكراته فشئ كانوا يهملونه ويدعونه جانباً ، فلا يعنون بطريقة معيشته ما دام يدفع . فليس عجباً إذن أن يحدث بعد خضوع دام قرونًا طويلة ، أن يعود كل جزء من أجزاء إمبراطوريتهم إلى سابق عهده ، فتقوم من جديد موسكو وكييف مسيحيان وتبعث فارس شيعية وصين تامة الصبغة الصينية بعد أن زال عنهم كابوس المغول وانجلت غمرتهم . بيد أن « أكبر » أقام صرح هند جديدة . ومنح أمراء الهند وطبقاتها الحاكمة بادرآت أو على الأقل تلميحات تشير ولو من بعيد ، إلى أن هناك مصلحة مشتركة تجمعهم . فلئن أصبحت الهند اليوم مكونة من شئ أفضل ولو قليلاً من مجموعة متنافرة غير مترابطة من الدولات والأجناس أشبه ما تكون بكيس ممتلئ بالخرق البالية ، وأمنع من أن تكون فريسة لكل مغير عرضى من الشمال ، فإن أعظم الفضل ذلك يرجع إليه .

وكانت سمته المميزة هى انفتاح ذهنه . فإنه نصب نفسه لجعل جميع أنواع الرجال المقتدرين فى الهند ، مهما يكن جنسهم أو دينهم ، صالحين لأداء الخدمة

العامة للحياة الهندية . وكان يتصف بسجية رجل للدولة الحق من حيث قدرته على جمع الشمل والتأليف بين مختلف العناصر . وما كان يرضى لدولته أن تكون إمبراطورية مسلمة ولا مغولية ، وما كان يرضى لها أن تكون راجبوتية ولا آرية ، ولا درافيدية ولا هندوسية ولا منتسبة إلى الطائفة العليا أو الطائفة الدنيا ، بل كان يريد « هندية » . « وأتيحت له أثناء سنى تدريبيه فرص كثيرة أدرك فيها الصفات الطيبة والوفاء والإخلاص - وفي كثير من الأحيان - نبل النفس التي يتصف بها أولئك الأمراء الهندوك ، الذين كان رجال حاشيته المسلمون يرون في قرارة أذهانهم أن مصيرهم هو العذاب الأبدي لأنهم من أتباع براهما . ثم إنه لحظ أن هؤلاء الرجال والرجال الذين يفكرون على شاكلتهم ويؤمنون بعقيدتهم ، كانوا هم الأغلبية الساحقة من رعاياه . ولحظ فضلاً عن ذلك أن الكثير منهم - وكانوا أشدهم اكتساباً لشقته - ظلوا مستمسكين بدينهم الخاص ، وإن تجلى أمامهم ما يعود عليهم من المغنمات الدنيوية إن هم اعتنقوا دين البلاط . من أجل ذلك كان ذهنه المتفتح ، يرفض منذ البداية قبول النظرية القائلة بأن الإسلام يجب أن يعتنقه الناس جميعاً لجرد الصدفة التي جعلته وهو الحاكم والفتح ولد مسلماً يؤمن بمحمد . وأخذت أفكاره تبلور شيئاً فشيئاً في هذه الكلمات : « متى كان لي أن أدعى لإرشاد الناس قبل أن أجد من يرشدني ؟ » . ثم إنه كلما أصغى إلى التعاليم الدينية الأخرى وإلى العقائد الأخرى ، توقر في نفسه ما كان يحول بها من شكوك شريفة ، وإذا ظل يلحظ في كل يوم ذلك الضيق المرير الذي عليه روح التشيع الطائفي ، مهما يكن شكل الديانة الذي ينتسب إليه ، تزايد تعلقه بمبدأ التسامح مع الجميع » .

يقول الدكتور إميل شميت : « كان ابناً لإمبراطور مخلوع وقد ولد في الصحراء ، وتربى في حبس اسمي ؛ فعرف الناحية المريرة من الحياة منذ شبابه فما تلاه من سنين وحباه الحظ بجسم قوى ، دربه على احتمال أبعد غايات الإجهاد . فكان التدريب الجثماني لديه غراماً وكلفاً ؛ وكان مولعاً بالطراد ، وبخاصة بالانفعال العنيف المصاحب

لصيد الحصان الوحشى أو الفيل أو ذبح الببر الخطر . وقد حدث ذات مرة عندما كان من الضرورى إقناع راجاجودهپور بالتخلي عن اتجاهه إلى إجبار أرملة ابنه المتوفى أن تعتلى كومة النار الجنازية ، أن قطع أكبر مئتين وعشرين ميلاً فى يومين على ظهر الخيل . وكان يظهر فى معترك القتال أقصى غاية الشجاعة . فكان يقود جيوشه بشخصه فى أخطر أوقات الحملات ، تاركاً لقواده ما دون ذلك من واجبات لإنهاء الحرب . وكان يبدى فى كل ظفر يناله إنسانية نحو المغلوب ، ويعارض معارضة حاسمة فى كل مظهر من مظاهر القساوة . ولما كان بريئاً من كل أثر لذلك التحامل الذى يفرق المجتمع ويخلق الخلافات ، متسامحاً مع ذوى المعتقدات الأخرى ، غير متحيز إزاء من هم من أجناس أخرى ، سواء أكانوا من الهندوس أم من الدرافيديين ، فإنه كان الرجل الذى خصصته الظروف تخصيصاً واضحاً لإيجاد التلاحم بين عناصر مملكته المتنازعة بعضها مع بعض وجعلها كلاً قوياً متأسكاً يرفرف عليه الرخاء .

« حبس نفسه بكل ما أوتى من جِد وقوة على خدمة السلام . وإذ كان معتدلاً فى كل مسراته ، غير محتاج إلا إلى القليل من النوم ومعتاداً أن يقسم وقته بأقصى دقة ، فإنه كان يجد فسحة من الوقت يكرس فيها نفسه للعلم والفن بعد فراغه من مهام دولته . فكانت الشخصيات النابهة الصيت والعلماء المشهورون الذين تزددان بهم العاصمة التى ابتناها لنفسه فى فاتيبور سيكرى أصدقاءً له فى نفس الوقت ؛ فكانت تجتمع من هؤلاء حلقة فى مساء كل خميس لتبادل المحادثات الفكرية والمناقشات الفلسفية . وكان ألصق أصدقائه به أخوين أوتيا مواهب عالية هما فيضى وأبو الفضل ، وهما ابنا عالم حر الفكر^(١) (Free-Thinker) . وكان أسن هذين الأخوين عالماً ذائع الشهرة فى الأدب الهندوكى ، وبمساعده وتوجيه أمر أكبر فترجمت أهم المؤلفات السنسكريتية إلى الفارسية . فأما أبو الفضل ، وكان صديقاً حميماً بوجه خاض لأكبر ، فكان قائداً

(١) المفكر الحر الفكر : الشخص الذى لا يقيد تفكيره فى المسائل الدينية وغيرها بما تواضع الثامن عليه من تقاليد أو آراء متواترة .
(المترجم)

ورجل دولة ومنظماً صاحب تدبير ، وإلى نشاطه تدين مملكة أكبر بترباطها وتنظيمها الداخلي بوجه خاص (١) .

وكان أكبر شأن شلمان وشأن تاي تسنج يوجه إلى الأمور الدينية بعض عنايته ويقيم حلقات جدل مسببة مع المبشرين اليسوعيين ما تزال تفاصيلها مدونة في السجلات . (على تلك الشاكلة كانت الحلقة التي اعتادت أن تلتئم في قصور فاتيپور سيكرى التي لا تفتأ مبانيها تسبح في ضياء شمس الهند المشرقة ، والتي أصبحت الآن خاوية موحشة ، ذلك أن مدينة فاتيپور سيكرى شأن مدينة أمبار ، أصبحت اليوم مدينة ميتة . وحدث منذ سنوات قلائل أن قتلت أفعى في أحد شوارعها الساكنة ابناً لأحد الموظفين الإنجليز) .

وكان أكبر ، شأن كل الرجال جميعاً مهما عظم خطرهم أو هان أمرهم - يعيش في حدود زمانه وفي دائرة أفكار عصره . وكان بوصفه تركانياً يحكم الهند ، يجهل بالضرورة الشيء الكثير مما ظلت أوروبا تتعلمه في ألف سنة بالأمم والعناء . كان يجهل كل شيء عن نمو « الوعي الشعبي » في أوروبا ، كما كان يعلم الشيء الذي لا يكاد يذكر عن تلك الإمكانيات « التعليمية » الرحبية التي كانت تنتجها الكنيسة في الغرب . إذ كان مثل هذا الأمر يتطلب شيئاً أعظم من جدل عارض مع مبشر مسيحي . وجعلته تربيته على الإسلام وعبقريته الفطرية يعتقد اعتقاداً بيناً أن ليس في الإمكان ربط الهند في شعب واحد عظيم إلا على أفكار عامة تقوم على أسس ديني ، ولكن أنتى له المعرفة التي يمكن بها خلق مثل هذا التماسك والإبقاء عليه حياً بإنشاء المدارس العامة والكتب الرخيصة وإقامة نظام جامعي يجمع بين خلتي التنظيم وحرية الفكر ؟ وهي أمور ما تزال الدولة العصرية تتحسس طريقها إليها حتى اليوم . لقد كان ذلك كله مستحيلاً عليه استحالة المعرفة بالزوارق البخارية والطائرات . وكان شكل الإسلام الذي يجيد معرفته هو ذلك الشكل الضيق الأفق العنيف في عدم تسامحه ، لإسلام الأتراك السنيين . ولم يكن المسلمون إلا أقلية بين السكان . وكانت المشكلة التي تواجهه في الواقع شديدة الماثلة للمشكلة التي واجهت قسطنطين الكبير . ولكنها كانت تنطوي على ضغوطات فريدة

خاصة بها . ولهذا فإن كل ما فعله أنه حاول أن يكيف الإسلام تكييفاً يكفل له عند الناس قبولاً أوسع وأشمل بأن يتبدل بعبارتي « لا إله إلا الله ومحمد رسول الله » عبارة « لا إله إلا الله وأن الإمبراطور رافد^(١) الله » إذ زعم أن ذلك سيكون دعامة عامة لكل ما حوت الهند من ضروب العقائد والنحل . وربط بهذه العقيدة طقساً بسيطاً استلفه من الزرادشتيين الفرس (وهم الفارسيين (The Parsees) ، الذين كانوا - ولا يزالون إلى اليوم - موجودين بالهند . ومع هذا فإن هذه الديانة الرسمية الجديدة ماتت بوفاته ، إذ لم يكن لها جذور مستقرة في أذهان من حوله من الناس .

والعامل الجوهري في تنظيم الدولة النابضة بالحياة ذلك العامل الذي أخذ العالم في إدراكه ، هو إنشاء نظام تعليمي . وذلك أمر لم يفهمه أكبر البتة . ثم إنه لم يتوافر له طبقة من الرجال يوحون إليه بهاته الفكرة أو يعينونه على تنفيذها . فلم يكن المعلمون المسلمون في الهند بمعلمين قدر ما كانوا حراساً لعقيدتهم محافظين على تعصب ديني حاد ، فكانوا لا يرغبون في وجود عقلية مشتركة في الهند بل مجرد تعصب عام للعقيدة الإسلامية وعدم تسامح مشترك في الإسلام . وكان البراهمة الذين كان بيدهم احتكار التعليم بين الهندوك يتصفون بكل ما للهيئة ذات الامتياز الوراثي من غرور وتقاعس . ومع ذلك فعلى الرغم من أن أكبر لم ينشئ " للهند أية خطة تعليمية عامة ، فإنه أنشأ عدداً من المدارس الإسلامية والهندوكية .

ولا تبرح البقايا الفنية والمعمارية المتخلفة عن المغول وفيرة جداً . وعندما يتكلم الناس عن « الفن الهندي » بدون تحديد ، فإنهم يعنون بذلك تلك الفترة العظيمة . وفن تصوير ذلك الزمن ممتاز جميل ، وهو في طرازه وصنفه وثيق القربى بالإنتاج الفارسي المعاصر له .

فأما في المباني فقد كان من نصيب الهند دواماً أن تستورد بذرة الأساليب العالية التطور وأن تفرض عليها تعديلات وتنميقات من عندياتها . ولم يتم الفن العمارة الحجرية الانتشار إلا بعد الفتح الهليني ، وإن انتشار الإستوبا^(٢) والعمد التذكارية والنصب

(١) الراشد (Regent) هو النائب . (المترجم)

(٢) الإستوبا (Stupa) أثر أو مقصورة مقدسة بوذية على هيئة رابية ذات قبة . (المترجم)

الأخرى في حكم أسوكا ليشهد في كل مكان بوجود الفنانين الفرس والهلينيين .
وفضلا عن ذلك فإن الفن البوذي الذي خلف لنا مثل تلك البقايا العظيمة في منطقة
جندهارا على الحدود الشمالية الغربية ، والراجع إلى القرون الأربعة الميلادية الأولى ،
تبدو فيه كذلك الروح الهلينية قوية واضحة . فيرى الإنسان واجهات بها العمود
الكورنثي العادي .

ولم يصبح فنا العمارة والنحت هندوكيين بشكل طاهر مميز له صفة وكرامة تخصه
إلا في حكم أسرة چوينا وفي القرنين الخامس والسادس الميلاديين . وحالت المؤثرات
الدرافيدية الجنوبية دون انتشار الخطوط الرأسية ، كما أنها أوقرت البناء بكرانيش^(١)
(Mouldings) أفقية مع نزوع إلى طراز الأهرام المدرجة . وأهرم الأسود في كاناراك
من أبدع المعابد الهندوكية وأشدها تمثيلا لطراز تلك المعابد قبل الإسلام .

واستقدم الغزو الإسلامي الأشكال الرئيسية للطراز العربي (Saracenic) وهي المئذنة
والعقد المدبب ، وعلى هذا الأساس الحديد اشتغلت الهند في حفر بديع الإتقان وأنتجت
التفريقات التشجيرية الزخرفية للنوافذ (Window-tracery) والأستار المخروطة . والمسجد
الحامع بأحمد آباد (في القرن الخامس عشر) من أبدع المساجد الهندية ، ولكن لعل أبدع
مثال لكل فن العمارة المغولي هذا وأشدها تمثيلا لطرازه هو « تاج محل » ، وهو القبر
الذي ابتناه شاه جهان (١٦٢٧ - ١٦٥٨) لزوجته . ويتعاون المعمار يون الإيطاليون
والهنود في هذا البناء الرشيق .

١١ - الغجر (النور)

وهناك نتيجة جانبية عجيبة نشأت عن هذه الإضطرابات التي أحدثها مغول القرن
الرابع عشر ، الذين كان تيمورلنك رأسهم وقطب رحاهم - هي ظهور شراذم متنقلة
في أوروبا تتكون من شعب غريب شرقي لاجئ هو الغجر . ظهوروا ببلاد اليونان في
زمان ما قريب من نهاية القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر ، حيث زعمهم الناس
مصريين (Egyptians) ، (ومنها اشتقت كلمة Gipsy) التي يطلقونها عليهم في أوروبا ،
وهو اعتقاد عم الناس جميعاً وقبلوه هم أنفسهم وبثوه في كل مكان . ومهما يكن من
شيء فإن زعماءهم كانوا يلقبون أنفسهم بلقب « كونتات آسيا الصغرى » .

(١) الكرانيش : هي صبات (جمع صبة بتشديد الباء) في قوالب . (المترجم)

والراجح أنهم ظلوا ينتقلون في أرجاء آسيا الغربية قروناً عدة قبل أن دفعهم مذابح نيمورلنك إلى عبور (الهلّسبون) الدردنيل . وربما دفعهم عن أرض أرومتهم الأصلية — شأن الأتراك العثمانيين — ذلك الطوفان العظيم الذى أحدثه چنكيز أو حتى قبله . تنقلوا في البلاد كما تنقل من قبلهم الأتراك العثمانيون ، وإن كانوا أقل حظاً حسناً منهم . فانتشروا على مهل متجهين غرباً عبر أوروبا : حطاماً غريبة من نظام الترحل في عالم قوامه المحراث والمدينة ، مطرودين من وطنهم القديم بسهوب (بلخ) نازلين في أراضي الشيوخ الأوربية ، وبحوار السياجات المضروبة حول المزارع وفي أراضي الغابات البرية والبقاع المهملّة . سماهم الألمان باسم « الهنغارين » و « التتار » وسماهم الفرنسيون « البوهيميين » .

ولا يبدو أنهم حافظوا على تقاليد منبتهم الحقّة ، غير أن لهم لغة مميزة تشير إلى تاريخهم الضائع ؛ فلإنها تحتوى على كثير من كلمات شمال الهند ، ويرجح أن تكون في أصولها هندية شمالية أو باكثرية . ويحتوى لسانهم على عناصر ضخمة فارسية وأرمنية .

ولذلك لتجدهم الآن في كل أقطار أوروبا ، منهم السكرى والبيع المتجول وتاجر الخيل ومنهم أصحاب دور الملاهى والعرافون والمتسولون . ولقد يلتذ كثير من ذوى الأذهان الخيالية التذاذاً قوياً بمخيماتهم القائمة على جانب الطريق ، ونيرانهم الداخنة ، وخيامهم المدورة ، وخيولهم المقيدة وعجيج أطفالهم الصاخبين الذين لوحث الشمس وجوههم .

والمدينة شئ يبلغ من حدائته في التاريخ ، كما أنها ظلت معظم عهدها ذات صورة محلية بالغة ، بحيث لا يزال لازماً عليها أن تقهر غالب غرائزنا وتتمثلها في نطاق احتياجاتها . فإن عرق الهداوة والترحل المندس في معظمنا يتحرك في سويدائنا كلما مسنا السأم مما عليه المدينة من أوضاع ومعتقدات . وما نحن إلا أصحاب بيوت فاترو الحماسة ، غير مخلصين لمعيشتنا المنزلية . والدم الذى يسرى في عروقنا قد تكون في بلاد السهوب كما تكون في أراضي المحراث .

ومن بين الأنواع الأخرى من العدوى التى حملها الغجر من قطر إلى قطر ، ذلك اللون

من الموسيقى الشعبية الذى أشاعوه فى الأقطار التى مروا بها ، فإنهم كانوا على الدوام موسيقيين متحمسين لفنهم وإن لم يكونوا مبتكرين خلاقين ؛ ذلك بأنهم حملوا إلى كل مكان حلوا به ضرباً من فن الإنشاد الشعبى ، يضيفون عليه نكهة وحيوية صادرة من ذات أنفسهم . ولطالما سرقوا ألحان الشعوب كما سرقوا فى بعض الأحيان أطفالهم وجعلوا منهم أغجاء . وهم لم يستعملوا البتة أى تدوين موسيقى « نوتة » ، ولكن تقاليدهم الموسيقية كانت على الدوام قوية ، ولالأغنية العجورية اليوم أحفاد كثيرة هى موسيقى هنغاريا وأسبانيا والروسيا .

الفصل الثالث والثلاثون

نهضة المدينة الغربية

الطرق البحرية تحتل مكان الطرق البرية

- ١ - المسيحية والتعليم الشعبي
 - ٢ - أوروبا تشرع في التفكير لنفسها
 - ٣ - الطاعون الكبير وبزوغ فجر الشيوعية
 - ٤ - كيف حرر الورق عقل الإنسان
 - ٥ - بروتستانتية الأمراء وبروتستانتية الشعوب
 - ٦ - العلم يستيقظ من سباته
 - ٧ - النمو الجديد للمدن الأوروبية
 - ٨ - النهضة الأدبية
 - ٩ - النهضة الفنية
 - ١٠ - أمريكا تدخل التاريخ
 - ١١ - رأى ماكيفاللي في العالم
 - ١٢ - جمهورية سويسرا
- ١٣ - (أ) حياة الإمبرطور شارل الخامس
(ب) بروتستانت إذا رغب الأمير في ذلك
(ج) التيار الفكري السفلي المضاد

١ - المسيحية والتعليم الشعبي

إن نظرة إلى الخرائط تحدثنا أن القرون الثلاثة منذ بداية الثالث عشر حتى نهاية الخامس عشر كانت عصر تراجع للمسيحية . وكانت هذه القرون عصر الشعوب المغولية . ففي إبانها كانت البداوة : (الترحل) القادمة من آسيا الوسطى تسود العالم المعروف . وكان على مفرق الدنيا ، وهذه الفترة في ذروتها ، حكام من الجنس المغولي أو ذى قرباه التركي ، يهضون بالحكم ومعهم تقاليدهم في كل من الصين والهند وفارس ومصر وإفريقيا الشمالية وشبه جزيرة البلقان وهنغاريا والروسيا .

ولقد بلغ الأمر بالتركي العثماني أن جنح إلى البحر ، وقا تل البنادق على سطح بحرهم المتوسط نفسه . وحاصر الترك في (١٥٢٩) مدينة فيينا ، ولكنهم هزموا لاذرهم الجلو على أعقابهم أكثر مما ردهم الذائدون عنها . ودفعت إمبرطورية شارل

الخامس الهابسبرجية الجزية للسلطان . ولم يحدث حتى معركة ليبانتو (١٥٧١) ، وهى المعركة التى فقد فيها سرفانتيز مؤلف دون كيشوت ذراعه اليسرى - « أن كسرت المسيحية (على حد قوله) أنفة العثمانيين وكبرياءهم ورفعت الغشاوة عن عيون العالم الذى كان يعد الأسطول التركى شيئاً لا سبيل إلى قهره » .

وكانت البلاد الوحيدة التى تهباً فيها للمسيحية التقدم هى أسبانيا . ولو تهباً لرجل ذى بصيرة نفاذة أن ينظر إلى العالم فى مفتتح القرن السادس عشر فلهل كان يستنتج أنه لن تمضى إلا بضعة أجيال قليلة لا يلبث بعدها العالم أجمع أن يصبح مغولياً - وربما أصبح إسلامياً ، على نفس الشاكلة التى يلوح بها أن معظم الناس يسلمون اليوم بأن الحكم الأوروبى ونوعاً من المسيحية المتحررة مقدر لهما أن ينشرا ظلالهما فوق العالم أجمع . ويبدو أنه قل من الناس من يدرك مبلغ حداثة هذه العظمة الأوربية ، وربما فاته أيضاً أن يدرك كم هى وقتية عارضة . ولم تبد أى دلائل واضحة تدل على مبلغ الحيوية الحقيقية لأوروبا الغربية إلا عندما أخذ القرن الخامس عشر يذلف نحو نهايته .

ويقترّب تاريخنا الآن من زماننا هذا ، ومن ثم تتحول دراستنا أكثر فأكثر إلى دراسة للأحوال القائمة بيننا . فالنظام الأوروبى أو المصبوغ بالصباغ الأوروبى الذى نعيش تحت ظلاله اليوم هو نفس النظام الذى نراه يتطور فى أوائل القرن الخامس عشر بأوروبا الداوية المهارة التى يتهدها المغول . وما كانت مشاكلها آنذاك إلا « الجنين » لمشاكل اليوم . ومن المستحيل علينا البحث فى شئون ذلك الزمان دون البحث فى شئون زماننا هذا . فترانا نخوض فى السياسة بالرغم من أنفسنا . قال السير ج . ر . سيلي^(١) : « إن السياسة بلا تاريخ شجر لا جذور له والتاريخ بلا سياسة شيء لا ثمار له » .

فلنحاول الآن مستمسكين بجهده طاقتنا بالبعد عن التحيز ، أن نستكشف تلك القوى التى كانت تفرق طاقات نشاط أوروبا بددا وتعرقلها أثناء تلك الهوجة العظيمة التى قامت بها الشعوب المغولية ، وأن نرى كيف يتيسر لنا أن نفسر تجمع الطاقة العقلية والجنانية التى لا شك أنها مضت فى طريقها قدماً أثناء فترة التقهقر الظاهرة هذه ، والتى انفجرت عند نهايتها على تلك الشاكلة الضخمة .

(١) هو السير جون روبرت سيلي ، المؤرخ الإنجليزى (١٨٣٤ - ١٩٠٥) . (المترجم)

فالموقف الآن كشيئه في العصر الميزوزوى : فبينما كانت الزواحف الكبرى تسوده على ظهر البسيطة ، كانت هناك زوايا متوارية منعزلة تتطور فيها تلك الثدييات ذات الشعر وتلك الطيور ذات الريش التي تمكنت في نهاية الأمر أن تحل تماماً محل تلك المجموعة الحيوانية الهائلة متبدلة بها أخرى أكثر مزايا ومقدرة ، وكذلك نرى في المناطق المحدودة مناطق أوروبا الغربية ، أنه بينما كانت الممالك المغولية تسود العالم من الدانوب إلى المحيط الهادئ ومن البحار المتجمدة الشمالية إلى مدراس ومراكش والنيل ، كانت توضع أسس القواعد الجوهريّة في طراز للمجتمع الإنساني جديد أشد صلابة وأكثر كفاية ؛ فهذا الطراز من المجتمع ، الذي ما يزال في دور التكوين لم يتجاوزه بعد ، والذي ما يزال آخذاً بأسباب النمو ولا يزال بمرحلة التجارب ، قد نستطيع أن نطلق عليه اسم « الدولة العصرية » . ونحن ندرك دون أدنى ريب أن تلك العبارة مبهمة ؛ على أننا جاهدون أن نبث فيها شيئاً من المعنى مع تقدمنا بحثنا هذا .

وقد سبق أن سجلنا ظهور نواة الأفكار الأساسية لتلك الدولة العصرية في الجمهوريات الإغريقية وبخاصة في أثينا وفي الجمهورية الرومانية العظيمة وفي دين اليهودية والإسلام ، وفي قصة الكاثوليكية الغربية . وهذه الدولة العصرية ، كما نراها اليوم وهي تنمو تحت أسماعنا وأبصارنا ، إنما هي بالضرورة مزج تجربي بين فكرتين تلوحان متناقضتين في الظاهر ، وهما فكرة « مجتمع من العقيدة والطاعة » ، على غرار تلك المجتمعات التي كانت عليها ولا ريب المدينيات القديمة ، وفكرة « مجتمع من العزيمة والإرادة » مثل التجمعات السياسية البدائية عند الشعوب النوردية والهنوية . ذلك أن الشعوب المتمدنة المستقرة ، وهم الذين ينتسبون في الغالب إلى المجلس القوقازي الأبيض الداكن ، أو إلى الدرافيديين السمر أو المغوليين الجنوبيين ، يبدو أنها ظلت آلاف السنين تطوّر أفكارها وعاداتها على أساس العبادة والخضوع الشخصي ، كما يلوح أن المترجلين طوروا أفكارهم وعاداتهم على أساس الاعتماد الشخصي على النفس فضلاً عن الاعتماد بالذات . وكان من الطبيعي جداً في هذه الظروف أن تدأب الشعوب المترجلة على إمداد المدينيات بحكام جدد وأرستقراطيات جديدة . فذلك هو « الإيقاع » الذي لبث يدق منتظماً في كل أحقاب التاريخ المبكر . وبعد آلاف من السنين انقضت

من الأهالي (وبين العامل (وكان في العادة فاتحاً) في تلك المدينيات القديمة الباكسة ، كما رأينا تطور الكتابة والتقاليد المكتوبة وإفلاتها من السيطرة الكهنوتية ، وظهور قوى جديدة تبدو أول أمرها عارضة طارئة ثانوية في ظاهرها ، وقد سميناها « الفطنة الحرة » و « الضمير الحر » للبشرية ؛ وشهدنا حكام المدينيات البدائية في وديان الأنهار يوسعون ممتلكاتهم ويمدون سلطانهم ، وشهدنا في نفس الوقت في الأراضي الأقل شخصاً ما كان مجرد « همجية » قبلية يتطور إلى « حالة رحل » تزداد في كل آن اتحاداً وكفاية سياسية .

ودأبت البشرية على مسيرها في أحد هذين النهجين أو في الآخر . وظلت المدينيات جمعاء عصوراً طويلة وهي تنمو وتتطور على أساس الملكية : أعني فوق أساس من الملكية المستبدّة المطلقة ، وشهدنا كيف حدث في كل ملكية وأسرة مالكة أن الكفاية والهمة كانتا تخليان مكانهما للترف الباذخ والتراخي والانحلال ، كأنما كان ذلك أمراً إيقاعياً محتوماً لا مفر منه ، ثم رأيناها وقد خضعت آخر الأمر إلى أسرة أحدث منها قادمة من الصحراء أو السهوب .

وتتجسم قصة المدينيات الأولى الزراعة ومعابدها وبلاطاتها الملكية ، ضخمة في التاريخ الإنساني ؛ على أنه من الخير أن نتذكر أن مشهد هذه القصة لم يتجاوز قط رقعة صغيرة جداً من سطح اليابس في الكرة الأرضية . ففي القسم الأكبر من الأرض وإلى زمن قريب جداً لا يتجاوز الألفين الأخيرين من السنن ، كانت الشعوب القبلية الأصلب عوداً والأقل عدداً النازلة في أراضي الغابات والأحراش الخفيفة ، والشعوب المترحلة ساكنة أراضي الكلا الموسمية تلزم طرائقها الخاصة بها في الحياة وتطورها .

ربما جاز لنا أن نقول إن المدينيات البدائية كانت « مجتمعات طاعة » . فكانت الطاعة للملوك الأرباب والملوك الذين في رعاية الأرباب هي القوة التي تشدهم بعضهم إلى بعض ، فأما نزع المترجلين فكانت من الناحية الأخرى تتجه على الدوام شطر طراز مخالف من الترابط سوف نسميه ها هنا باسم « مجتمع الإرادة » . إذ يجب في مجتمع جوال مقاتل أن يكون الفرد جامعاً بين الاعتماد على الذات وبين التزام النظام في الوقت نفسه . ويجب أن يكون رؤساء مثل هذه المجتمعات رؤساء يُتبعون لا سادة يجبرون .

ومن اليسير تتبع أثر « مجتمع الإرادة » ، هذا في تاريخ الإنسانية بأكمله ، فنحن نجد في كل مكان أن النزعة الأصلية للمترحلين كافة : النورديين منهم والساميين والمغول سواء ، كانت من الناحية الفردية أكثر نزوعاً وإرادة وأشد ترفعاً وشهامة من نزعة الأتقوام المستقرين . هبطت الشعوب النوردية لإيطاليا وبلاد الإغريق تحت ملوك قادة ، ولم يستجلبوا معهم أية نحلة معبد نظامية ، بل وجدوا تلك الأشياء في الأراضي المغزوة ثم كيفوها حين استعملوها . ثم تحول الإغريق واللاتين ثانية إلى تكوين الجمهوريات بغاية السهولة ، وكذلك فعل الآريون في بلاد الهند . وكان هناك أيضاً تقاليد للانتخاب في ممالك الفرنجة والجرمان الأولى ، وإن كان القرار يؤخذ في العادة على عضو أو آخر من أعضاء طائفة أو عائلة ملكية . وكان الخلفاء الأولون ينتخبون ، وكان قضاة بني إسرائيل وملوك قرطاجة وصور ينتخبون ، وكذلك كان شأن الخان الأعظم المغولي حتى أصبح قوبلاي ملكاً صينياً .

وعلى نفس هذه الشاكلة من الاطراد والاستمرار نجد الفكرة المضادة في أراضي الاستقرار المسكونة ، فكرة ربوبية الملك غير الانتخابية وفكرة حقه الطبيعي الفطري في الحكم .

ولاحظنا في ثنايا تطور تاريخنا ظهور عناصر جديدة أدخلت التعقيد في قصة الجماعات البشرية ؛ ورأينا أن المترحلين انقلبوا إلى وسطاء ، وبذلك ظهر التاجر ، ولاحظنا أهمية السفن وهي تنمو في العالم . ويلوح أنه لا مندوحة للرحلات والأسفار من أن تجعل الرجال أحراراً في عقولهم وأفكارهم كما أن الاستقرار في داخل أفق ضيق يجعل الناس جبناء خائعين على أنه بالرغم من كل هذه الأمور المعقدة تجري الخصومة الإجمالية بين طريقة « الطاعة » وطريقة « الإرادة » ، مخترقة حقبة التاريخ حتى تصل إلى زماننا هذا . ولا يزال التوفيق بينهما ناقصاً غير كامل إلى يومنا هذا .

وقد جرت المدنية على الدوام — حتى ما كان منها في أحط الصور — على سُنّة بذل كثير من الأمور الجاذبة المريحة للبشرية والموافقة لطبيعتها . على أن يجنسنا ناحية قلق غير مروضة تحاول على الدوام أن تنقل المدنية من اعتمادها الأصلي على « الطلعة التي

لا مشاركة فيها « إلى مجتمع من » إرادات مشاركة . وإن سمة الترحل الكامنة في دمائنا ، وبخاصة في دماء الملوك والطبقات الأرستقراطية ، تلك السمة التي يرجع إليها ولا وراء قسط كبير من فضل إنتاج الأجيال التالية ، لشيئاً يجب أن ينسب إليه كذلك تلك الرغبة الملحاح المستديمة التي تنزع بنا نحو توسعة المجال وتضطر كل دولة أن توسع حدودها إن استطاعت ، وأن تمد مصالحها إلى أقصى الأرض . ويظهر أن دوافع القلق الترحلي ، التي تنزع إلى جذب كل الأرض تحت سلطان حكم واحد ، هي بذاتها الروح التي تجعل مراحيل معظمنا تغلي في ظل التوجيه والتضييق ، وتدفعنا إلى أن نحاول « المشاركة » في أية حكومة نسمح بوجودها .

ظل هذا الكفاح الطبيعي ، هذا الكفاح المتمشي مع مزاج البشرية الهادف إلى التوفيق بين المدنية والحرية ، - (ظل) حياً عصباً بعد عصر بسبب العجز العسكري والسياسي في كل « مجتمع طاعة » وجد على ظهر البسيطة حتى اليوم . ومتى أضرع الناس مرة للطاعة ، أمكن القبض عليها بغاية السهولة ونقلها إلى الغير ؛ وما عليك إلا أن تلقى البصر إلى الدور السلبي الذي لعبته مصر وأرض الحريرة والهند : أرض الخضوع الأصلية النموذجية و « مهاد المدنية » - وهي تنتقل من سيد إلى آخر . وما المدنية الخائنة إلا دعوة مستديمة موجهة إلى الرجال الأحرار السلايين .

ولكن « مجتمع الإرادة » يحتم صهر مواد عسيرة بعضها في بعض ؛ وهو مجتمع إيجاده أصعب كثيراً ، وأصعب من إيجاده الإبقاء عليه . ولعلنا لا نزال نذكر أن قصة الإسكندر الأكبر تظهر مجتمع الإرادة للقواد المقدونيين وهو بذوب شيئاً فشيئاً تلقاء طلبه إليهم أن يعبدوه . وما حادث مقتل كليتوس إلا دلالة طرازية على الكفاح بين التقاليد الحرة والتقاليد الذليلة الذي كان يجري كلما وجد فاتح جديد قادم من الأرض البراح والهواء الطلق نفسه متربعا في قصر ملكية من الطراز القديم .

ويحدثنا التاريخ في حال الجمهورية الرومانية عن أول « مجتمع إرادة » كبير في التاريخ أي أول مجتمع حرجمه أكبر كثيراً من حجم مدينة ، ويخبرنا كيف دب الوهن إليه مع نموه وتبددت قواه مع النجاح الذي أصابه ، حتى استسلم آخر الأمر للملكية من

الطراز القديم ، ثم انحل سريعاً إلى مجتمع من أشد مجتمعات المذلة ضعفاً ، منهاراً أمام حفنة صغيرة من الغزاة . ولقد أولينا في هذا الكتاب بعض انتباهنا إلى عوامل ذلك الانحلال ، لأن لها أهمية جوهرية في التاريخ الانساني ، ومن أوضح تلك العوامل الافتقار إلى منظمة واسعة النطاق للتعليم لتؤسس وتبنى عقول المواطنين العاديين على فكرة خدمة الجمهورية والارتباط بها ، أعنى على الابقاء عليهم راغبين ؛ « ذوى إرادة » ؛ وثمة عامل آخر هو غياب كل وسيلة للإعلام العام تكفل دوام الانسجام بين أوجه نشاطهم ، وتمكنهم من أن « يصمدوا لإرادتهم » كهيئة واحدة وشخص واحد . ذلك أن القيود التي تفرض على إمكانيات « مجتمع للمعرفة » هي التي تحدد حجم « مجتمع الإرادة » . ولم يصبح تركيز الملكية والأموال في أيدي قليلة وإحلال الرقيق محل العمال الأحرار ، في الإمكان إلا بسبب انحلال الروح الغيرية العامة ^(١) (Public Spirit) وتبليبل الذكاء العام نتيجة لتلك القيود .

وفضلاً عن ذلك لم يكن هناك أية فكرة دينية ذات كفاية تستند إليها الدولة الرومانية ؛ فإن عقيدة روما الإترورية (الإترسكية) الغامضة الباحثة عن الكبد المختلج ^(٢) كانت لا تقبل في سوء تكيفها والاحتياجات السياسية في مجتمع ضخم ، عن الشامانية الشديدة الشبه بها لدى المغول . والواقع أن السرفيا بلغته المسيحية والإسلام من الأهمية التاريخية الهائلة إنما يكمن في أن كلا من العتيدتين على طريقتيها المميزة قد وعدت على الأقل أن تبدأ لأول مرة في الخبرة الإنسانية تلك الثغرة الواضحة في نظام الجمهورية الرومانية وفي تاريخ المترجلين ، وذلك بتقديم تعليم أخلاقي مشترك لجمهرة من الناس وبزويدهم تاريخ مشترك للماضي وفكرة مشتركة لهدف إنساني ومصير إنساني . وقد حدد كل من أفلاطون وأرسطو كما لحظنا آنفاً عدد المجتمع المثالي في حدود بضعة آلاف ، من المواطنين ، إذ أنهما لم يستطيعا أن يتصورا أن في الإمكان أن يترابط جمهور أكبر من هذا بفكرة مشتركة . إذ لم تكن لدهما أية خبرة بأي نوع من التعليم يتجاوز طرائق التعليم بواسطة العرفاء والمؤدبين الخصوصيين المتبعة في زمانهما . ذلك أن التعليم عند الإغريق أوشك أن يكون تلقيناً شفويّاً (Viva Voce) محضاً ، ومن ثم فبحاله لا يتسع إلا لأرستقراطية محدودة العدد . على حين أظهر كل من الكنيسة المسيحية

(١) الروح الغيرية العامة : هي تلك الروح التي تدفع الأفراد إلى خدمة المجتمع والمحافظة عليه عن طواعية ورضا .
(المترجم)

(٢) أنظر في ذلك المجلد الثاني من المعالم .
(المترجم)

والإسلام عدم سلامة ذلك التحديد وخطأه . وربما جال بخاطرنا أنهما قاما بإواجهتهما في التعليم داخل ميادين فرصهما الفسيحة قياماً فجاً أو سيئاً ، ولكن محور الاهتمام عندنا الذى يعيننا فى هذا الشأن إنما هو مجرد قيامهما بهذا العمل . فقد قام كل منهما بدعايات تكاد تملأ العالم حول الفكرة والإلهام . واعتمد كل منهما بنجاح على قوة « الكلمة المكتوبة » فى ربط جماهير عظيمة من أناس متنوعين مختلفي المشارب ربطاً يضمهم فى مساعٍ وجهود مشتركة .

ولما وفى القرن الحادى عشر ، كانت فكرة المسيحية قد فُرضت كما سبق أن رأينا ، على ذلك الخليط المتقاتل فى الإمبراطورية الغربية المهشمة المتناثرة وعلى أوروبا وراء حدود الإمبراطورية بكثير ، بوصفها فكرة موحدة ملهمة . فكونت « مجتمع إرادة » ضحلاً رقراقاً ولكنه فعال ، فوق منطقة لم يسبق لها مثيل فى الاتساع ، وبين جمهور من الكائنات الإنسانية لم يسبق له ضريب فى العظم . وكان اليهود يربطون بالفعل شتات مجتمعاتهم بالتعليم النسقى المنتظم فى بداية الحقبة المسيحية على الأقل . ولم يحدث شئ كهذا لأى شطر عظيم من البشرية فى أى عصر من عصور التاريخ إلا مرة واحدة ، وكان ذلك هو فكرة « مجتمع السلوك الحسن » التى نشرها الأدباء (Literati) فى كافة أرجاء الصين .

وقدست الكنيسة الكاثوليكية ما كان يُعَوِّزُ الجمهورية الرومانية : وهو نظام من التعليم الشعبى العام ، وعدد من الجامعات وبعض طرائق التواصل الذهنى . وبهذا العمل الجليل مهدت السبيل أمام الاحتمالات الجديدة للحكم البشرى التى أصبحت الآن واضحة جليلة فى هذه « المعالم » ، وهى احتمالات ما تزال موضع الخشية من الناس كما أنها لا تزال فى دور التكوين فى العالم الذى نحيا بين ظهرانيه . وكانت حكومة أية دولة حتى آن ذاك ، إما أن تكون استبدادية يتولاها اتحاد يجمع بين الكاهن والعاقل لا ينتقده منتقد ولا يتحداه متحد ؛ أو ديمقراطية لا تتلقى تعليماً ولا إعلاماً ، وتنحل وتفتكس حين تبلغ أى قسط جسيم من زيادة سعة الرقعة ، منحلة إلى مجرد حكم للرعاع ورجال السياسة كما فعلت روما وأثينا . ولكن عند ما حل القرن الثالث عشر كانت قد بزغت أول إشارة تلوح بمثل أعلى للحكومات لا يزال إلى الآن يشق طريقه

نحو التحقيق ، وهو المثل الأعلى العصري : المثل الأعلى القاضى بإنشاء « حكومة تعليمية » للعالم أجمع ، لا يكون فيها الرجل العادى عبداً لملك مطلق ولا لدولة يحكمها ديماجوج ، بل يكون عضواً فى المجتمع يتلقى الإعلام ويوحى إليه ويستشار . ويجب أن يوجه التشديد والعناية إلى كلمة « التعليمية » هذه ، وإلى الفكرة القائلة بأن « الإعلام » ينبغى أن يسبق الاستشارة .

وتحقيق هذه الفكرة تحقيقاً عملياً ، وأغنى بذلك أن التعليم وظيفة جماعية وليس عملاً خاصاً — نقطة أساسية يكمن فيها أحد الفوارق الجوهرية التى تميز « الدولة العصرية » من أية دولة أخرى سبقتها . وقد شرع الناس أن يدركوا أن المواطن العصري يجب أن يتلقى الإعلام أولاً ثم يستشار بعد ذلك ، فلا بد له قبل إعطاء صوته من سماع الأدلة والبيانات . ولا بد له أن يعرف قبل أن يمكنه أن يفصل . وليس يكفى أن تقام غرفات الانتخابات وصناديقها ، بل أن تؤسس المدارس وأن تجعل الكتب والمعرفة والأخبار فى متناول الناس جميعاً ، حتى يفتح الطريق الذى ينقل الناس من العبودية والارتباك إلى تلك الدولة التعاونية بالإرادة والرضا التى هى المثل العصري الأعلى . فالأصوات الانتخابية فى حد ذاتها أشياء لا قيمة لها ولا وزن . فقديمًا كان للناس فى إيطاليا أصوات فى زمن أسرة جر اكوس (Gracchi) . ولكن أصواتهم لم تنفعهم بشيء . ذلك أن حيازة الرجل للصوت الانتخابى تكون أمراً خطراً أو شيئاً لا فائدة تجنى من ورائه حتى يحصل الرجل على تعليمه . وليس المجتمع المثالى الذى نتجه صوبه « مجتمعاً للإرادة » وكفى ، بل هو « مجتمع معرفة وإرادة » يحل محل « مجتمع عقيدة وطاعة » . والتعليم هو المكيّف الذى يجعل روح الحرية والاعتماد على الذات عند البدوى المترحل يستقيم مع ألوان التعاون ومع الثروة والأمن التى تستظل بها الحضارة .

٢ - أوروبا تشرع فى التفكير لنفسها

لا جدال فى أن الكنيسة الكاثوليكية بما اعتمدت عليه من دعايات واحتكامات إلى رأى العام ومن مدارس وجامعات — قد هيات السبيل لاحتلال قيام الدولة التعليمية العصرية فى أوروبا ، غير أن من المحقق كذلك أن الكنيسة الكاثوليكية لم تعتمد قط

فعل ذلك قصداً . فهي لم ترسل المعرفة في صحبة بركاتها ، بل هي أطلقت سراحها صفواً وعن غفلة وتهاون ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية ترى نفسها وريثة للجمهورية الرومانية ، بل للإمبراطور الروماني . ولم يكن تصورهما عن التعليم هو إطلاق السراح له ، ولا الدعوة للمشاركة فيه ، وإنما هو إخضاع العقول . وهناك اثنان من كبار المعلمين في القرون الوسطى لم يكونا في الواقع من رجال الكنيسة بتاتاً ، بل كانا ملكين ومدبري دولة هما : شرلمان ، والفريد الكبير ملك إنجلترا ، اللذان استخدمتا هيئة الكنيسة ومنظمتها . ولكن الحق أن الكنيسة هي التي أمدتهما بالمنظمات . وكان كل من الكنيسة والملك في صراعهما المتبادل على القوة والسلطان يستنجد بأفكار الرجل العادي . ومن ثم يظهر الرجل العادي استجابة لاحتكام هذين الخصمين إليه ، وهو الرجل الخارجي المستقل غير الموظف الذي يفكر لنفسه .

ولقد رأينا فعلاً في القرن الثالث عشر البابا جريجوري التاسع والإمبراطور فردريك الثاني مشتبكين في خصومة علنية عامة عنيفة . فكأنه كان هناك بالفعل إذن إحساس بأن قد ظهر في العالم حكم جديد أعظم من البابا والملكية جميعاً ، أي أن هناك قراءاً ورأيأ عاماً . وأفضى خروج البابوات إلى أفينيون وانقسامات البابوية واضطرابها أثناء القرن الرابع عشر إلى تنبيه ذلك « الحكم الحر » على السلطة في كل أرجاء أوروبا تنبيهاً هائلاً .

وابتداء الأمر بأن اقتصر النقد المتداول في شأن الكنيسة على أمور أخلاقية ومادية ليس غير . فإن ثراء كبار رجال الإكليروس وترفهم والضرائب البابوية الفادحة . كانت رأس أسباب الشكوى . كما أن المحاولات الأولى التي بذلت لاستعادة البساطة المسيحية الأولى ، كتأسيس جماعة الرهبان الفرنسيين مثلاً ، لم تكن حركات فُرقة وانفصال ، بل حركات نهضة وانتعاش . ولم يتطور النقد فيغدو أكثر عمقاً وأشد تدميراً إلا بعد ذلك بفترة من الزمان يوم أخذ يوجه سهامه إلى الحقيقة المركزية في تعاليم الكنيسة ، ومبررات أهمية القسوس وأعنى بها تقديم القرايين في الصلاة .

وقد سبق لنا أن رسمنا لك في صورة إجمالية البدايات الباكرة للمسيحية ، كما

بيننا كيف أنه سرعان ما حدث لتلك الخاطرة العسيرة المتزمنة ، مخاطرة ملكوت الرب التي كانت الفكرة المركزية في تعاليم يسوع الناصري ، أن غطى عليها ابتعاث الفكرة القربانية العتيقة . وهي في واقع الأمر مبدأ أصعب فهماً ، ولكن التوفيق بينه وبين عادات وميول وخنوع الحياة اليومية في الشرق الأدنى أيسر وأسهل . ولحظنا كيف أن ضرباً من تمازج العقائد (الثيوقازيا) حدث بين المسيحية واليهودية ونحلة السراييوم والمثرائية والنحل الأخرى المتنافسة ، وتم به تطعيم الديانة الناشئة — وهي بعد في مراحل التطور — بيوم الأحد المثنائي ، وفكرة اليهود عن الدم بوصفه ضرورة دينية ، والأهمية التي ناطتها الإسكندرية بأمر الرب ، والقسيس الحليق الصوام ، والزاهد المعذب لنفسه ، وأمور أخرى كثيرة من الإيمان والطقوس والممارسة . فهذه التكييفات قد جعلت ولا شك التعاليم أدنى كثيراً إلى الأفهام وأكثر قبولا في مصر وسوريا وما أشبههما من بلاد . كانت أموراً تتمشى مع طريقة تفكير الجنس الأبيض الداكن في البحر المتوسط ، كانت موافقة لفطرة ذلك الطراز من الناس . ولكن هذه الأمور لم تجعل المسيحية ديناً أقرب إلى قلوب المترحلين العرب — كما سبق أن أظهرناك على ذلك في قصة محمد (ص) — بل كانت تلك المظاهر تجعلها في رأيهم منقّرة كريمة . وكذلك أيضاً يلوح أن الراهب الحليق والراهبة والقسيس أثاروا شيئاً يقارب العداوة الغريزية عند الهمج (البرابرة) النورديين في الشمال والغرب . ولحظنا العداء الغريب الذي أبداه الأنجلوسكسون وأهل الشمال نحو الرهبان والراهبات . ويخيل إلينا أنهم شعروا أن حياة هؤلاء المتبتلين القانتين وعاداتهم كانت شاذة غير طبيعية .

ومما زاد كثيراً في أوار الصدام بين ما نسميه العوامل « البيضاء الداكنة » والعناصر الأحداث منها في المسيحية ، أن البابا جريجورى السابع فرض الغزوبة على القسوس الكاثوليك في القرن الحادى عشر . وقديما عرف الشرق رجال الدين العزّاب منذ آلاف السنين ولكن الغرب كان ينظر إليهم نظرة التشكك والريبة .

وفي القرن الثالث عشر والرابع عشر ، وبينما عقل الشعوب النوردية ذو النزعة الدنيوية أخذ بأسباب تحصيل العلم وشرع يتعلم القراءة والكتابة والتعبير عن النفس ،

وبينما هو يتصل بما اجتمع للذهن العربى من مناشط منبهة ، نجد الكاثوليكية تتلقى بداية نقد أعظم قوة بكثير ، ونلاحظ هجوماً عقلياً على القسيس بوصفه قسيساً ، وعلى مراسم القداس بوصفه الحقيقة المركزية فى الحياة الدينية ، هجوماً مصحوباً بطلب العودة إلى تعاليم يسوع الشخصية كما هى مسجلة فى الأناجيل .

أسلفنا إليك ترجمة ويكلييف الإنجليزى قرابة (١٣٢٠ - ١٣٨٤) وبيننا كيف ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزى لكى يقيم سلطة مناهضة لسلطة البابا . وقد شهّر ويكلييف بمبادئ الكنيسة المتعلقة بالقداس ناعثاً إياها بأنها خطأ ذريع ، وبخاصة تلك التعليمية القائلة بأن الخبز المقدس الذى يتناول فى ذلك الطقس يصبح بطريقة ما سحرية هو الجسم الفعلى للمسيح . ولن نحاول أن نتتبع موضوع « استحالة المادة » (١) كما تسمى عملية التغير السرى للعناصر فى « القربان المقدس » - تبعاً يتغلغل بنا إلى دقائق معقداتها . فإن هذه أمور تترك للإخصائى فى علم اللاهوت . ولكن من الواضح أن ذلك المبدأ الكاثولىكى الذى يجعل تقديس العناصر « القربان المقدس » عملية إعجازية يقوم بها القسيس ، ولا يجوز لأحد القيام بها إلا القسيس وحده ، والذى يجعل « القربان المقدس » هو الضرورة المركزية فى النظام الدينى ، إنما يزيد أهمية هيئة القساوسة زيادة هائلة .

على أن وجهة النظر الأخرى - وهى وجهة النظر « البروتستانتية » الأساسية القائلة بأن هذا « القربان المقدس » إنما هو مجرد تناول للخبز وشرب للنبيذ يتخذان على سبيل الذكرى الشخصية ليسوع الناصرى - لا بد أن تقضى آخر الأمر على كل احتياج خاص إلى قسيس متكرس .

ولم يذهب ويكلييف نفسه إلى هذا الحد المتطرف ، إذ أنه كان قسيساً كما أنه بنى كذلك حتى نهاية حياته ، وكان يرى أن الله حاضر روحياً إن لم يكن حضوره مادياً فى الخبز المقدس ؛ ولكن مبدأه أثار مسألة دفعت الناس بقوة حتى أبعدتهم عن

(١) استحالة المادة Transubstantiation : تحول الخبز والنبيذ أثناء طقس « التناول » إلى

جسد المسيح ودمه . (المترجم)

تاريخ الإنسانية ج٢

وجهات نظره . وإذا نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر المؤرخ رأينا الكفاح مع روما الذى بدأه ويكلييف سرعان ما أصبح كفاحاً ناشباً بين ما قد نسميه الديانة العقلانية أو ديانة الرجل العلماني ، التى أخذت تحتكم إلى ما للبشرية من ذكاء حر وضمير حر — وبين الديانة المستبدة التقليدية الطقوسية الكهنوتية . وكان الاتجاه النهائى فى هذا الكفاح المعقد هو تجريد المسيحية حتى تصبح كالإسلام عارية تماماً من كل أثر من آثار الكهانة العتيقة ، والانقلاب إلى وثائق الكتاب المقدس بوصفها حجة يستند إليها وإلى استرجاع تعاليم يسوع الأصلية إن كان ذلك فى الإمكان . ولا يزال غالب ما أثير فى ذلك الكفاح من خصومات قائماً لم يفصل فيه بين المسيحيين حتى يومنا هذا .

ولم تكن كتابات ويكلييف أعظم أثراً فى أى مكان منها فى بوهيميا . ففى قريب من (١٣٩٦) ألقى عالم تشيكي اسمه جون هس* ؛ سلسلة من المحاضرات فى جامعة براج تقوم على مبادئ المعلم الأكسفوردي العظيم . وعين هس عميداً للجامعة ، وأثارت تعاليمه الكنيسة حتى أصدرت عليه قرار الحرمان (١٤١٢) .

كان هذا فى إبان « الصدع الكبير » ، قبيل انعقاد مجلس كونستانس (١٤١٤ - ١٤١٨) للبحث فيما تردت فيه الكنيسة من فوضى شائنة . وقد حدثناك آنفاً كيف انتهى الصدع بانتخاب مارتن الخامس . وكان المجلس يطمح أن يعيد إلى المسيحية وحدتها لإعادة كاملة . ولكن الوسائل التى حاول بها إعادة تلك الوحدة لا تتفق وضميرنا العصري . فإنه قضى بإحراق عظام ويكلييف . واستندرج هس حتى ذهب إلى كونستانس منخدعاً بوعد منهم بضمان سلامته ، وعند ذلك قُدم للمحاكمة بتهمة الزندقة (الهرطقة) . وأمر أن يسحب بعض آرائه . فأجاب بأنه لا يستطيع أن يسحب شيئاً حتى يقنعوه بخطئه . فأبلغوه أن من واجبه أن يسحب أقواله إذا طلب ذلك إليه رؤساؤه ، اقتنع أم لم يقتنع . فأبى أن يقبل هذا الرأى . وبالرغم من ضمان الإمبراطور لسلامته ، فإنه أحرق حياً (١٤١٥) ، فذهب شهيداً من أجل مبدأ معين ، بل من أجل ذكاء البشرية الحرة وضميرها الحر .

ومن المستحيل أن يعرض الإنسان النزاع بين القسيس وعدو القسيس على صورة أوضح مما تجلى في محاكمة جون هس هذه ، أو أن يوضح شيء أكثر منها الروح الشريرة المنبثة في أساليب رجال الكهنوت . وفي السنة التالية أحرق زميل لهس هو جيروم البراجي .

وتمخضت هذه الاعتداءات عن عصيان قام به أتباع هس في بوهيميا (١٤١٩) ، وهو أول حلقة في سلسلة من حروب دينية تسجل انقسام المسيحية . وفي (١٤٢٠) أصدر البابا مارتن الخامس مرسوماً يعلن حرباً صليبية « للقضاء على جميع أتباع ويكلييف وهس وكل من عداهم من المراطقة في بوهيميا » ، واستهوت هذه الدعوة الجحود المرتزقة العاطلين وكل وغد عاطل من أعوان السوء المتجولين في أوربا فأطبقوا على القطر الشجاع من كل صوب . فوجدوا في بوهيميا تحت قيادة زعيمها العظيم زيسكا ، متاعب أكثر وغنائم أقل مما يطمع الصليبيون أن يلقوه . وكان أتباع هس يدبرون أمورهم على أسس ديمقراطية متطرفة ، وانبعثت الحماسة متأججة ضراماً في في البلاد جمعاء . وحاصر الصليبيون مدينة پراج ولكنهم فشلوا في الاستيلاء عليها : ولقوا سلسلة من الهزائم انتهت بتراجعهم عن بوهيميا . وجرت حرب صليبية ثانية (١٤٢١) لم تكن أكثر توفيقاً من سابقتها . وكذلك أخفقت حربان صليبيتان أخريان ، ثم حدث لسوء الحظ أن دب بين الهسين ديبب الخلافات الداخلية . وتشجع الصليبيون بهذا النزاع فعبرت الحدود قوة خامسة (١٤٣١) بقيادة فردريك مارجريرث^(١) براندنبرج .

وكان جيش هؤلاء الصليبيين يتكون - حسب أقل التقديرات - من ٩٠ ألفاً من المشاة ، و ٤٠ ألفاً من الفرسان . ولما كانوا يهاجمون بوهيميا من الغرب فلنهم ألقوا الحصار أولاً على تاخوف (Tachov) ، ولكنهم وقد فشلوا في الاستيلاء على تلك المدينة المنيعنة التحصين ، فتحوا عنوة مدينة موست الصغيرة ، وفيها وفي الريف المحيط بها ، اقترفوا من الفظائع أنكرها ، مع سكان كان قسم كبير منهم بريئاً تمام البراءة من التشيع لأى لاهوت .

(١) مارجريرث (Margrave) لقب لأمرأ بأعيانهم في الدولة الرومانية المقدسة . (المترجم)

وواصل الصليبيون توغلهم في بوهيميا وهم يسرون سيراً بطيئاً ، حتى أصبحوا على مقربة من مدينة دومازليك (تاوس) . « وكان أن حدث في الساعة الثالثة من اليوم الرابع عشر من أغسطس (١٤٣١) ، أن تلقى الصليبيون وقد عسكروا في السهل الواقع بين دومازليك وهورسوف تاین - الأخبار بأن أتباع هس يقتربون تحت قيادة پرکوپ الكبير . ومع أن البوهيميين كانوا ما يزالون على مبعدة أربعة أميال ، فإن جلمجلة عرباتهم الحربية وأغنيتهم : أيها المحاربون في سبيل الله - التي كان جيشهم العرمرم ينشدها بأجمعه - كانت مسموعة واضحة للآذان » . عند ذلك تبخرت حماسة الصليبيين بسرعة مذهشة . ويصف لوتزو^(١) كيف اعتلى مندوب البابا ودوق سكسونيا تلا يستطيعان منه الاطلاع على الميدان . فعرفا من بواده أنه لن يكون معترك قتال . ذلك أن المعسكر الألماني كان في اضطراب تام . فكان الخيالة ينthalون منصرفين عنه في كل صوب ، وكانت جلمجلة المركبات الخالية وهي تساق خارج الميدان ، تكاد تطفئ على ذلك الغناء الرهيب . وكان الصليبيون يتخلون عن كل شيء حتى غنائمهم . وجاءت رسالة من مارجريرت براندنبرج ينصح فيها بالهرب ؛ فلم يعد هناك من سبيل إلى السيطرة على أى فريق من جنودهم . فكأنهم لم يعودوا الآن خطرين إلا على جانبهم هم دون غيرهم . وقضى مندوب البابا ليلة غير سعيدة مخبئاً منهم في الغابة . . . وهكذا كانت نهاية الحملة الصليبية البوهيمية .

وفي (١٤٣٤) نشبت الحرب الأهلية مرة ثانية بين أتباع هس وانتهت بهزيمة القسم المتطرف الأشد شجاعة ، وعقد اتفاق في (١٤٣٦) بين مجلس بال وبين الهسنيين المعتدلين ، سمح فيه للكنيسة البوهيمية بأن تحتفظ بفروق معينة تميزها عما يمارسه الكاثوليك عامة ، وهي تسوية ظلت سارية حتى أوان الإصلاح الديني الألماني في القرن السادس عشر .

(١) كتاب بوهيميا تأليف لوتزو .

٣ - الطاعون الكبير وبزوغ فجر الشيوعية

كان الانقسام بين أتباع هس راجعاً في معظم أمره إلى اتجاه القسم المتطرف منهم إلى اعتناق نوع بدائي من الشيوعية أزعج طبقة النبلاء التشيكيين الأوفر ثروة ونفوذاً . ومن قبل ذلك ظهرت نزعات مشابهة لهذه بين أتباع ويكلييف من الإنجليز . ويلوح أن تلك النزعات تجيء كنتيجة جد طبيعية لمبادئ المساواة والأخوة الإنسانية التي تنبعث حينها حدثت محاولة للعودة إلى القواعد الأساسية للمسيحية .

وما ساعد على زيادة التطور في هاته الأفكار زيادة عظيمة كارثة هائلة اجتاحت العالم وكشفت عن أسس الجماعة الإنسانية كشفاً ذريعاً جردها تماماً للعيان . وهي وباء لم يسمع الناس بمثل ذراعتيه وفنكه . أطلق عليه الناس اسم الموت الأسود ، وقد أوشك أن يقضى على البشرية أكثر من أى شر أصابها قبل ذلك . كان أشد فتكاً بكثير من طاعون پريكليس ، أو طاعون ماركوس أوريليوس ، أو موجات الطاعون في أيام جستنيان وجريجورى العظيم التي مهدت السبيل أمام اللومبارد في إيطاليا . نشأ ذلك الوباء في جنوب روسيا أو آسيا الوسطى ، وانتقل بطريق بلاد القرم وبوساطة سفينة جنوبية إلى جنوة وأوروبا الغربية . ومرت من أرمينية إلى آسيا الصغرى ومصر وشمال أفريقيا . ووصل إلى إنجلترا في (١٣٤٨) . فأت به كما يحدثونا ثلثا الطلاب بأوكسفورد ، ويقدر عدد من هلك به في ذلك الأوان بما يتراوح بين ربع ونصف سكان إنجلترا . وكان عدد الوفيات في كل أرجاء أوروبا كافة يقارب هذا المقدار في العظم . ويقدر هيكتر مجموع الموتي بخمسة وعشرين مليوناً . وانتشر الوباء شرقاً إلى الصين حيث تقول السجلات الصينية إن ثلاثة عشر مليوناً من الأنفس هلكوا . ويقول الدكتور ك . ستاليراس : إن هذا الطاعون وصل الصين بعد ظهوره لأول مرة في أوروبا بثلاثين أو أربعين سنة . ولقيه ابن بطوطة الرحالة العربي الذي أقام في الصين من (١٣٤٢ إلى ١٣٤٦) - لأول مرة وهو في طريق عودته إلى دمشق . والموت الأسود هو الصورة البشرية لمرض متوطن بين اليرابيع^(١) والقوارض الصغيرة

(١) اليربوع : دويبة نحو الفأرة لكن ذنبه وأذناه أطول منها ورجلاه أطول من يديه .

(المترجم)

الأخرى فى المناطق المحيطة برأس بحر قزوين . وبلغ من شدة الاضطراب الاجتماعى المترتب عليه فى الصين أن أهملت جسور الأنهار: فغمرت الفيضانات العظيمة - نتيجة لهذا - الأراضى الزراعية المزدهمة بالسكان .

ولم يسبق للإنسانية أن تلقت قبل ذلك تحذيراً على مثل هذه الدرجة من الوضوح يحدوها على طلب المعرفة والكف عن المنازعات وإلى الاتحاد ضد قرى الشرقى الطبيعة . وما كانت جميع مذابح هولاءكو وتيمورلنك تعد شيئاً بالقياس إلى هذا . ويقول ج . ر . جريرن « إن فتكاته كانت أشد ما تكون عثفاً فى المدن الكبرى حيث كانت الشوارع القذرة التى لا تصريف لمياهها تهب للجزام والحمى مباءة لا ينضب معيها . ويقال إنه دفن أكثر من خمسين ألف جثة فى الجبانة التى اشتراها السير والتر مائى بدافع التقوى لسكان مدينة لندن ، وهى التى يحدد موضعها فيما بعد بموضع الشارتر هاوس^(١) (Charter House) . وهلك آلاف من الناس فى نورويتش (Norwich) على حين لم يستطع الأحياء بمدينة بريستول أن يدفنوا الموتى إلا بشق الأنفس .



(شكل ١٥٥) مشاهد من حياة الفلاحين منقولة عن أحد كتب الأدعية

« على أن الموت الأسود قد انقض على القرى بقوة تقارب فى عنفها حالته فى المدن . والمعروف أن أكثر من نصف قسوس يوركشير لقوا حتفهم ؛ وختل

(١) ملجأ بلندن للمسنين المتقاعدين . (المترجم)

مناصب ثلثي الأبروشيات في أسقفية نورويتش فشغلها آخرون ، وفسد نظام العمل بأكمله . وصار من العسير على صغار المستأجرين أن يقوموا بالخدمات اللازمة لأراضيهم لقلة اليد العاملة ، ولم يحمل الفلاحين على الامتناع عن هجر مزارعهم إلا تنازل أصحاب الأراضي تنازلاً مؤقتاً عن نصف الإيجار . وأصبحت الزراعة مستحيلة ربحاً من الزمان . ويقول معاصر : إن الأغنام والماشية كانت تهم على وجوهها في الحقول والقمح لا تجدد من يتصدى لدفعها .

ومن هذه النوازل نشأت حروب الفلاحين في القرن الرابع عشر . إذ حدث هناك نقص كبير في اليد العاملة ونقص كبير في السلع ، وكان الرهبان الأغنياء والأديرة الثرية الذين كانوا يملكون قدرًا عظيمًا من الأراضي ، والتبلاء والتجار الموسرون ، من الجهل بالقوانين الاقتصادية بحيث لم يدركوا أنه لا يحسن بهم أن يضغطوا على العمال الكادحين في زمان المحنة العامة ذلك . فرأوا أملاكهم تتداعى ورأوا أراضيهم تبور ولا تزرع ، وأصدروا اللوائح القاسية لإجبار الرجال على العمل دون أي زيادة في الأجور ومنع فرارهم بحثاً عن عمل أفضل . وطبيعي جداً أن يستثير هذا « تمرداً جديداً على نظام عدم المساواة الاجتماعي بأكمله وهو الذي ظل حتى ذلك اليوم معمولاً به لا يناقشه أحد حساباً بوصفه النظام الذي قضت به الإرادة الإلهية للعالم . ووجدت صبيحة الفقراء ترجحاً فظيماً هو قسيس « قسيس مجنون من كنت » - كما يسميه فرواسار^(١) (Froissart) المؤرخ (١٣٦٠-١٣٨١) - فإن هذا القسيس ظل عشرين سنة يلتقي بالفلاحين الأشداء الذين كانوا يجتمعون في أفنية كنائس كنت ويحد فيهم جمهوراً يستمع لمواعظه التي تحدى بها الحرمان الديني والسجن . ومهما يكن مجنوناً ، كما كان أصحاب الأراضي يسمونه ، فلقد أصغت إنجلترا لأول مرة في مواعظ جون بول (John Ball) إلى إعلان بالمساواة الطبيعية وحقوق الإنسان وكان ذلك الواعظ يصيح : « أيها الناس الطيبون ، لن تستقيم الأمور في إنجلترا ما ظلت السلع في غير متناول الجميع ، وطالما كان هناك سوقة وسادة (جنتلمانية) . فبأي حق يكون من نسيمهم لوردة^(٢) أناساً أعظم منا ؟ وعلى أي أساس استحقوا ذلك ؟ ولماذا يتخذون منا موالى للأرض ؟ وما دمننا

(١) هو جان فرواسار (١٣٣٨ - ١٤١٠ ؟) المؤرخ الفرنسي ، الذي عاش بفرنسا وإنجلترا ومات قسيساً لشيماي . (المترجم)

(٢) اللوردة : جمع لورد ، كما أن الجنتلمانية جمع جنتلمان . (المترجم)

جميعاً ننحدر من أب واحد وأم واحدة ، من آدم وحواء ، فأنى كان لهم أن يقولوا أويقيموا البرهان على أنهم خير منا ؟ إن لم يكن لأنهم يجعلوننا نكسب لهم بكدحنا ما ينفقونه في كبريائهم ؟ فهم يرتدون القطيفة ويستدفئون بفرائهم وفاقهم^(١) الثمين ، على حين لا يستر أبداننا إلا الأسمال ؟ لهم الخمر والأفاويه والخبز الأبيض ، فأما نحن فأقراص الشوفان مطعماً والوقش مرقداً والماء شرباً . ولديهم أوقات الفراغ والمنازل الجميلة . ولدينا الألم والنصب والعمل ، والريح والمطر في الحقول . ومع ذلك فبنا وعلى أكتاف كدحنا يحتفظ هؤلاء الناس بما هم عليه من أبهة . وثمة نعم قتال لنظام العصور الوسطى بأكمله انطلق في أغنية شعبية فلور مبدأ التسوية الذي قال به جون بول وهو « عندما كان آدم يعزق الغيطان وتغزل حواء الخيطان من ذا كان الجحلمان ؟ » .

واغتيال ، وات تيلر (Wat Tyler) زعيم العصاة الإنجليز على يد عمدة لندن بحضرة الملك الشاب ريتشارد الثاني (١٣٨١) فانهارت حركته .

وكانت الناحية الشيوعية في حركة أتباع هس فرعاً من تلك المجموعة من الاضطرابات . وحدث قبيل شوب الثورة الإنجليزية ، أن شبت نار « العجاسرى الفرنسية Jacquerie (١٣٥٨) وهى ثورة الفلاحين الفرنسيين التي قاموا فيها بإحراق القصور والعيث فساداً في نواحي الريف المحيطة بهم . وقدر لنفس ذلك الدافع الملح أن يحتاج ألمانيا بعد ذلك بقرن من الزمان جارفاً إياها في سلسلة من حروب الفلاحين الدامية . وابتدأت هذه الحروب متأخرة في القرن الخامس عشر . وكانت الاضطرابات الاقتصادية والدينية مختلطة بعضها ببعض . حالة ألمانيا على صورة أوضح منها في حالة إنجلترا .

وهناك دور بارز لهذه الاضطرابات الألمانية هو ثورة التعميديين^(٢) . ظهرت شيعة التعميديين في وتبرج (١٥٢١) برياسة ثلاثة « أنبياء » وانقلبت إلى عصيان

(١) القاتم : فراء حيوان من فصيلة بنات عرس . (المترجم)

(٢) التعميديون Anabaptists : طائفة دينية كانت تتمتع بوجوب التعميد بالغمر الكامل في الماء المقدس ، ووجوب إعادة التعميد عند سن الشباب . (المترجم)

(١٥٢٥) . وظل العصاة بين (١٥٣٢ - ١٥٣٥) قابضين على مدينة مونستر (Munster) بمقاطعة وستفاليا ، وبذلوا قصاراهم لتحقيق أفكارهم الخاصة بشيوعية دينية . فحاصروهم أسقف مونستر ، ودب في المدينة تحت ضغط ويلات الحصار ضرب من الجنون ، فيقال إنهم أكلوا لحوم البشر ، وقبض على السلطة شخص معين يدعى جون الليدني (Leydén) ، وأعلن نفسه خليفة للملك داود ، واقتدى بقدوة ذلك العاهل السيئة بممارسته تعدد الزوجات . وبعد تسليم المدينة أمر الأسقف المظفر بزعماء التعميديين فعذبوا نعتياً مرعباً جداً ، ثم أعدموا في ساحة السوق ، وعلفت جثثهم بعد التمثيل بها في أقفاص مدلاة من برج إحدى الكنائس لتشهد أمام العالم أجمع أن الوقار والنظام قد أعيدا إلى مونستر !

هذه الثورات التي قام بها العمال العاديون في الأقطار الأوروبية الغربية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كانت أكثر خطورة وأطول أمداً من كل ما سبقها من أحداث التاريخ . وأقرب الأحداث السابقة شهاً بها ، حركات إسلامية شيوعية حدثت في فارس . وقد حدثت ثورة للفلاحين في نورماندي قرابة (١٠٠٠ م) ، كما حدثت ثورات للفلاحين (باجوداي Bagoudae)^(١) في الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، ولكن هذه لم تقارب تلك في ضخامتها وشاعتها ، وهي كلها تظهر روحاً جديدة تنمو في الشئون الإنسانية ، وهي روح مخالفة تمام المخالفة لبلادة الإحساس المستسلمة التي طبع عليها موالى الأرض والفلاحون في الأراضي الأصلية للمدنية ، وأولحالة اليأس الفوضوية لدى موالى الأرض والأرقاء العمال عند الرأسماليين الرومان .

كانت كل هذه من عصيانات العمال المبكرة التي ذكرنا تقع بقساوة بالغة ، بيد أن الحركة نفسها لم تخمد قط إحداداً تاماً . فنذ ذلك الحين إلى هذا الزمان وروح التمرد موجود في المستويات الدنيا من هرم المدنية . نعم كانت هناك أدوار عصيان ، وأدوار كبح ؛ وأدوار تفاهم ومسألة نسبية ، ولكن الكفاح لم ينقطع قط انقطاعاً تاماً منذ ذلك الأوان إلى وقتنا هذا . فلسوف نراه مندلعاً أثناء الثورة الفرنسية في نهاية القرن

(١) الباجوداي هم جماعات الفلاحين الذين ثاروا على دولة الروم الشرقية بين القرن الثالث والخامس الميلادى . (المترجم)

الثامن عشر ، وسشتعلا مرة ثانية فى منتصف القرن التاسع عشر وعند مفتتح الربيع الأخير منه ، ونراه يصل إلى نسب ضخمة فى عالم اليوم . ولم تكن الحركة الاشتراكية فى القرن التاسع عشر إلا صورة من ذلك التمرد المتواصل .

وقد حدث فى بعض الأحيان أن حركة العمال هذه اتخذت فى كثير من الأقطار ، كفرنسا وألمانيا والروسيا مثلاً خطة العداء للمسيحية ، ولكن لا مجال للشك أن هذا الضغط المستمر المتزايد إجمالاً الذى يظهره الرجل العادى فى الغرب ضد حياة المشقة والنصب والتبعة الغير يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتعاليم المسيحية . وربما لم تقصد الكنيسة ولا المبشرون المسيحيون أن ينشروا مبادئ المساواة ، ولكن كان من وراء الكنيسة شخصية يسوع الناصرى التى لا يمكن إخماد نارها ولا إخفاء ضيائها ، فالواعظ المسيحى كان يجتلب معه وإن بالرغم منه ، بذور الحرية والمسئولية ، ولا بد لها إن عاجلاً أو آجلاً من أن تنبت وتربو حيثما بشر .

ولا شك أن هذا الجيشان المتواصل المطرد الزيادة فى نفوس « العمال » ، وإنماء فهم وعياً بأنفسهم كطبقة خاصة وبثه فكرة مطالبة العالم فى جملة بمطالب محددة ، فضلاً عن كثرة وجود المدارس والجامعات وعن كثرة وجود الكتب المطبوعة ووفرتها ، فضلاً عن قيام عمليات للبحث العلمى متطورة متوسعة ، هذه كلها أمور تفرق بين طراز مدينتنا الحاضرة « المدنية العصرية » وبين أية حالة سابقة مرت بها الجماعة الإنسانية ، كما أنها تسجل عليها أنها شئء موقوت غير متقن بالرغم من كل ما نالته من نجاح عارض جاء وليد الصدفة . فهى جنين لم يتخلق بعد صورة سوية أو لعلها شئء محتوم عليه الموت . ذلك بأنها ربما استطاعت أن تحل هذه المسألة المعقدة . مسألة التوفيق بين الكدح والسعادة ، وبذلك توفق بين نفسها واحتياجات الروح الإنسانية ، أو هى ربما فشلت وانتهت بكارثة شأن النظام الرومانى . وربما كانت دور افتتاح لنظام للجماعة البشرية أكثر اتزاناً وأوجب للرضى ، وربما كانت طريقة مقدراً لها أن تتمزق ، وأن تحل محلها طريقة ما من الترابط الإنسانى مدبرة بشكل يخالف لهذا .

وربما لم تزد مدينتنا الراهنة شأن سابقها ، عن واحد من تلك المحصولات التى يزرعها الفلاحون لتحسين تربة أراضيهم بواسطة تثبيت الأزوت (النتروجين) المستخلص من

الهواء . وريما لم تنمُ - مُجْمَعَةً تقاليد بأعيانها - إلا لكي تحرث في الأرض ثانية طلباً يتلو ذلك من نبت أفضل منها . إن هذه المسائل إنما هي حقائق التاريخ العملية . وسنجدتها في كل ما يتلو هذا في صورة أكثر وضوحاً وأعظم أهمية حتى تنهى في فصلنا الأخير ، كما تنتهى أيامنا وأعوامنا ، باستعراض آمالنا وخاوفنا - وبعلامة استفهام .

٤ - كيف حرر الورق عقل الإنسان

كان ظهور الكتب المطبوعة عوناً هائلاً لتطور البحث الحر في أوروبا أثناء هذا العصر المترع بالقلق والتخمر وكان استقدام الورق من الشرق هو الذى جعل في الإمكان الوصول إلى طريقة الطباعة التى كمنت كمنياً طال أمده . وما يزال من العسير علينا تعيين صاحب شرف سبق إلى استعمال الوسيلة البسيطة ، وسيلة الطباعة لتكثير الكتب . وإنه لأمر تافه جرى حوله جدل طويل وعقيم . على أن ظواهر الأمور تومئ إلى أن ذلك المجد أياً ما كان أمره من نصيب هولندية إذ كان في هارلم شخص يدعى كوستر يطبع بحروف متحركة في زمان ما يسبق (١٤٤٦) . على أن جوتنبرج كان يقوم بأعمال الطباعة في ماينز (Mainz) في نفس ذلك الوقت تقريباً . وكان هناك طابعون في إيطاليا في (١٤٦٥) ، كما أن كاكستون أقام مطبعته في وستمنستر (١٤٧٧) . وتاريخ أول كتاب طبع في هنغاريا هو (١٤٧٣) . على أنه كان يجرى قبل ذلك الزمان بأمد مديد استعمال جزئى للطباعة . فإن مخطوطات ترجع إلى القرن الثانى عشر تظهر بها حروف في بداية الفقرات ربما كانت مطبوعة عن اختتام خشبية .

وأهم من هذا كثيراً موضوع صناعة الورق . ولا يكاد يكون من المبالغة ، القول بأن الورق جعل لإحياء أوروبا أمراً في حيز الإمكان . اخترع الورق في الصين ، حيث يرجع استعماله في الراجح إلى القرن الثانى ق . م . وفى (٧٥١) قام الصينيون بهجوم على العرب المسلمين في سمرقند ؛ فصددهم العرب وأسروا بعضهم ، وكان بين الأسرى جماعة من مهرة صنّاع الورق ، ومنهم تعلم العرب تلك الصنعة . ولا تزال هناك مخطوطات على ورق عربى يرجع إلى القرن التاسع فما تلاه . ودخلت الصناعة في البلاد المسيحية إما بطريق بلاد الروم أو بالاستيلاء على مصانع الورق العربية (المغربية) إبان استعادة المسيحيين

أرض أسبانيا . ولكن الإنتاج انحط . ظلال الأمبان المسيحيين انحطاطاً محزناً . ولم يصنع الجيد من الورق في أوروبا المسيحية حتى قريب من نهاية القرن الثالث عشر ، وعند ذلك كانت إيطاليا زعيمة العالم في صناعته . ولم تصل تلك الصناعة إلى ألمانيا إلا عند القرن التاسع عشر ، ولكنها لم تصل إلا في نهاية ذلك القرن إلى الحد الكافي من الوفرة والرخيص الذي يجعل من ممارسة طباعة الكتب حرفة تجارية ناجحة . وسارت الطباعة منذ ذلك الحين سيرها الطبيعي الضروري ، ودخلت الحياة الفكرية للعالم في دور جديد أكثر قوة بكثير ، وكفت عن أن تكون رشحاً طفيفاً تنتقل قطراته من عقل إلى عقل ، وأصبحت فيضاً عيماً ، تساهم فيه آلاف من العقول ما لبثت أن صارت - على الفور - عشرات آلاف ثم مئات آلاف .

وكانت هناك نتيجة مباشرة لهذا النجاح في مضمار الطباعة هي ظهور عدد موفور من نسخ الكتاب المقدس في العالم . وثمة أخرى هي جعل ثمن الكتب المدرسية زهيداً . وانتشرت المعرفة بالقراءة انتشاراً سريعاً . إذ لم يقتصر الأمر على زيادة عظيمة في عدد الكتب في العالم ، بل إن الكتب التي أصبحت تصنع عند ذاك ، أضحت أوضح قراءة وبذلك كانت أيسر فهماً . وبدلاً من العناء والكدح فوق نص عويص (معقرب) الخط ثم التفكير في معناه ، أصبح القراء عند ذاك يستطيعون أن يفكروا وهم يقرأون - دون أن يعوقهم حائق عن التفكير . وبهذه الزيادة في سهولة القراءه ويسرها ، نما عدد الجمهور القارئ . وكف الكتاب عن أن يكون لعبة شديدة الزخرفة أو أحد الخفايا التي يخفيها عالم من العلماء . وشرع الناس يكتبون الكتب ليقرأها الناس العاديون مثلما يستمعون بالنظر إليها .

ويؤذن القرن الرابع عشر بفاتحة التاريخ الحقيقي للأدب الأوربي . إذ سرعان ما نجد أن اللهجات المحلية تحل محلها الإيطالية المثلث والإنجليزية الفصحى والفرنسية المثلث والأسبانية الفصحى ثم تبعهن الألمانية المثلث فيما بعد . وأصبحت تلك اللغات لغات أدبية كل في موطنها ، فعولجت وجربت وصقلها الاستعمال وجعلها دقيقة قوية .

وأصبحت آخر الأمر على درجة من الكفاية للنهوض بعبء النقاش الفلسفى تعادل ما للإغريقية أو اللاتينية من كفاية .

٥ - بروتستانتية الأمراء وبروتستانتية الشعوب

هنا نورد كلمة موجزة عن الحركة التى حدثت فى أفكار الناس الديئية أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وهى مقدمة لا بد منها للتاريخ السياسى الذى يعقب ذلك فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

غير أنه لا بد لنا أن نميز تمييزاً واضحاً بين طريقتين مختلفتين كل الاختلاف لمعارضة الكنيسة الكاثوليكية . وهما تتشابهان على مر الأيام تشابكاً يورث التبيل والخيبة . كانت الكنيسة تفقد سيطرتها على ضمائر الأمراء وذوى اليسار والافتقار من الناس ، كذلك شرعت تفقد إيمان عامة الناس بها وثقتهم فيها . وكان من نتيجة انحطاط سلطانها الروحى على الطبقة الأولى أن جعلتهم ينكرون تدخلها فى شئونهم وقيودها الخلقية عليهم ومدعياتها بالسيادة العليا فوقهم وادعاءها الحق فى فرض الضرائب وفى حل ارتباطات الولاء . لذلك كفوا عن احترام ما لها من سلطان وممتلكات . ولقد ظل هذا الخروج عن الطاعة يصدر عن الأمراء والحكام طوال العصور الوسطى بأكملها ، بيد أن الأمراء لم يشرعوا فى التفكير جدياً فى الانفصال عن المذهب الكاثوليكي وإقامة كنائس جزئية منفصلة ، إلا عندما أخذت الكنيسة فى القرن السادس عشر تنضم علناً لخصمها القديم : الإمبراطور ، عند ما قدمت إليه التأييد وقبلت منه المساعدة لها فى حملتها على الهرطقة . وما كانوا ليقدموا على ذلك أبداً لولا أنهم أيقنوا أن سيطرة الكنيسة على أذهان الجماهير قد ضعفت .

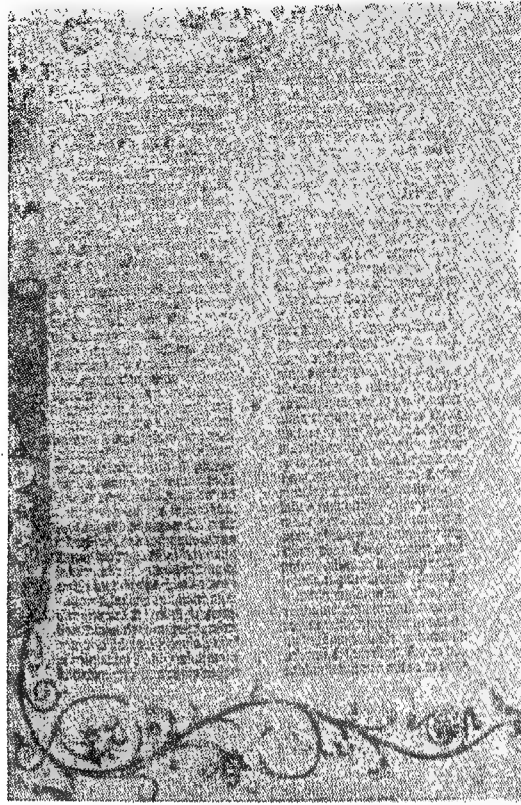
وكان تمرد الأمراء بالضرورة تمرداً لا دينياً على حكم الكنيسة الشامل للعالم أجمع . وكان الإمبراطور فردريك الثانى هو الطليعة السباق إلى ذلك برسالاته إلى نظرائه الأمراء . وكانت ثورة الشعب على الكنيسة من الناحية الأخرى ، دينية بالضرورة كذلك . فلم يكن اعتراضهم على قوة الكنيسة بل على مساوئها ونواحي الضعف فيها .

وكانوا يريدون كنيسة شديدة الصلاح والشجاعة لكي تعينهم وتنظمهم ضد شرور الأقوياء . وكانت حركات تمردهم على الكنيسة سواء أكانت في داخلها أو خارجها حركات لا يقصد بها الفكاك من الرقابة الدينية بل طلب رقابة دينية أتم وأوفى . لم يطلبوا رقابة دينية أقل بل طالبوا بالمزيد منها - ولكنهم أرادوا أن يتحققوا من أنها دينية وقد اعترضوا على البابا لأنه الرأس الديني للعالم بل لأنه لم يكن كذلك ، أى لأنه كان أميراً ثرياً دنيوياً بينما كان يجب أن يكون قائدهم الروحي .

من أجل ذلك كان النزاع في أوروبا منذ القرن الرابع عشر نزاعاً ذا ثلاثة أركان ، فالأمرأ يريدون أن يستعملوا القوى الشعبية ضد البابا ، على ألا يسمحوا لتلك القوى أن تقوى وتطغى على قوتهم ومجدهم وظلت للكنيسة زمناً مديداً تنتقل من أمير إلى أمير طلباً لحليف يحالفها دون أن تدرك أن الحليف المفقود الذى عليها أن تسترده إنما هو توقير الشعب لها .

ومن أجل هذا الوضع الثلاثى للمنازعات الفكرية والخلقية التى تواصلت إبان القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ، فإن سلسلة التغيرات المترتبة عليها ، تلك التغيرات التى يعرف مجموعها فى التاريخ باسم الإصلاح الدينى (Reformation) اتخذت وضعاً مثلث الأشكال . فكان هناك الإصلاح الدينى كما يراه الأمراء ، الذين كانوا يريدون أن يققوا انثيال النقود إلى روما ، وأن يستولوا على السلطة الخلقية ، والنفوذ التعليمى ، وما للكنيسة من ممتلكات مادية داخل إماراتهم . وكان هناك الإصلاح الدينى كما يراه الشعب الذى كان يبتغى أن يجعل المسيحية قوة تناهض الفسوق وعدم التقوى ، وتناهض بخاصة فسوق أهل الثراء والقوة . وأخيراً كان هناك الإصلاح الذى كان القديس فرنسيس الأسيسى بشيراً به ورائداً ، والذى جهده فى استرجاع صلاح الكنيسة وفى استرجاع قوتها بوساطة ذلك الصلاح .

واتخذ الإصلاح الدينى حسبما يراه الأمراء صورة لإحلال الأمير ، بوصفه رأس الديانة والرقيب على ضمائر شعبه ، محل البابا ولم يكن يخالج الأمراء أية نية ولا فكرة عن إطلاق سراح عقول رعاياهم كى تتولى الحكم على الأشياء ، وبخاصة وقد مثل أمام أعينهم



(شكل ١٥٦) صفحة من طبعة جوتنبرج للكتاب المقدس

نموذج المهسين والتعميديين مجسماً قوياً ، فحاولوا أن يؤسسوا كنائس قومية تعتمد على صاحب التاج . ولما أن انفصلت إنجلترا واسكتلندة والسويد والنرويج والدانمارك وشمال ألمانيا وبوهيميا عن الارتباط بروما ، أظهر الأمراء وغيرهم من الوزراء أقصى بوادر القلق والاهتمام بحفظ زمام الحركة في قبضة أيديهم . ذلك أنهم كانوا لا يسمحون من الإصلاح إلا بالقدر الذي يمكنهم من فصم العلاقة مع روما . فأما ما تجاوز ذلك ، وأما أى انفصام خطر يتجه بالأفكار إلى تعاليم يسوع البدائية ، أو التفسير الفج المباشر للكتاب المقدس ، فأموهروا كانوا يقاومونها . والكنيسة الإنجليزية

الرسمية مثال لواحد من أبرز وأنجح ما ترتب على ذلك من تسويات . وهى ما تزال كهنوتية قطب رحاها قسيس متكرس وتدين بالقربان المقدس^(١) . ولكن هيئتها التنظيمية تركز في البلاط وفي قاضى القضاة . ومع أنه ربما صدرت عن الصفوف الدنيا لرجال الكهنوت فيها الأقل ثراء آراء هدامة — بل الواقع أن ذلك كان يحدث فعلا — فإن من المستحيل عليهم أن يرتفعوا كفاحاً حتى يصابوا إلى مناصب النفوذ والسلطان .

على أن الإصلاح الدينى حسبما يراه الرجل العادى شىء ، والإصلاح لدى الأمراء شىء آخر مختلف جداً فى روحه . وقد أسلفنا القول فى المحاولات الشعبية فى سبيل الإصلاح الدينى بكل من بوهيميا وألمانيا . وكانت الفورات الروحية الفسيحة النطاق (أعنى الشعبية) فى ذلك الزمان أشرف نفساً وأشد اضطراباً وأثبت أثراً وأطول عمراً وأقل نجاحاً مباشراً عاجلاً من إصلاحات الأمراء . فقد ندر بين ذوى الأرواح المتدينة من الرجال ، من بلغ من الجراءة أن يخرج على كل تعاليم استبدادية أو بلغ من الفحة أن يعترف بأنه خرج على ذلك النوع من التعاليم ، وأنه أصبح عندئذ يعتمد اعتماداً كلياً على عقله وضميره . فإن ذلك كان يحتاج إلى شجاعة فكرية عالية جداً . وكان الاتجاه العام للرجل العادى فى تلك الفترة فى أوربا هو أن يتخذ من ذلك الشىء الذى أحرزه حديثاً ، وأعنى به الكتاب المقدس ، حجة وقوة مضادة للكنيسة . وكان هذا بصفة خاصة ، حال زعيم البروتستانتية الألمانية العظيم مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) . فإن الذى كان يجرى آنذاك فى كل أرجاء ألمانيا ، بل فى الواقع فى كل أنحاء أوربا الغربية ؛ أن الناس قد أكبوا على صفحات الحروف السوداء للكتاب المقدس المترجم حديثاً والمطبوع حديثاً ، وعلى سفر اللاويين ونشيد الإنشاد لسليمان ورويا القديس يوحنا الرسول — وهى كتب غريبة محيرة — يكون عليها قدر ما يكون على سيرة يسوع البسيطة الملهمة فى الأناجيل ؛ وطبعى أنهم كانوا يستنتجون آراء عجيبة وتفسيرات مضحكة

(١) ومعنى ذلك أنه ليس هناك فارق تقريباً بين الكنيسة الإنجليزية والكاثوليكية فى العقيدة والمذهب والطقوس وإن اختلف الاسم والرئاسة . (المترجم)

غريبة ، بل إن مما يدهش له الإنسان أنها لم تكن عجيبة أكثر وأشد إضحاكاً وغرابة . ولكن العقل البشرى شيء عنيد ولا بد له من أن ينتقد وينتق بالبرغم من كل ما يعقد عليه العزم من تصميم . وقد أخذت جمهرة دارسى الكتاب المقدس هؤلاء ما تستحسنه ضمايرهم من الكتاب وتجاهلوا ألغازه ومتناقضاته .

وفي كل أرجاء أوربا ، وحيثما أقيمت كنائس الأمراء البروتستانتية : كانت تلبى للبروتستانت الأقحاح بقية سحية ناشطة تأبى أن تصاغ لها ديانتها على تلك الشاكلة . وكان هؤلاء هم « المخالفون أو المنشقون Nonconformists » وهم خليط من الشيع ، لا يجمعهم جامع إلا مقاومتهم لديانة أصحاب السلطان الاستبدادية سواء أكان مصدرها البابا أم الدولة . فأما في ألمانيا فقد قضى الأمراء على الانشقاق والمنشقين قضاء تاماً في معظم الحالات . فأما بريطانيا فإن حركتهم فيها ظلت قوية ومتنوعة الأشكال . ويلوح أن الكثير من الفوارق بين سلوك الشيعين الألمانى والبريطانى يمكن تتبعها وإرجاعها إلى ما تلقاه حرية الرأى وحرية إصدار الأحكام على الأشياء من كبت بألمانيا .

وكان جل هؤلاء المنشقين ، ولكن ليس كلهم ، يستمسكون بالكتاب المقدس بوصفه مرشداً حافلاً بالإلهام القدسى جديراً بالاعتماد عليه بوجه قاطع . وكان موقفهم هذا موقفاً استراتيجياً لا موقفاً ثابتاً . والاتجاه العصرى للمنشقين يبتعد يوماً بعد يوم عن تلك النزعة الأصلية إلى المغالاة في إجلال الكتاب المقدس ، ويتجه نحو التركيز على تعاليم يسوع الناصرى المجردة تركيزاً معتدلاً مخففاً ملوناً باللون العاطفى . وتوجد في الحضارات العصرية في هذه الأيام أيضاً وراء مجال الانشقاق والمنشقين ووراء مجال المسيحية المعترف بها ، كتلة عظيمة ونامية من أقوام يؤمنون بالمساواة والتكافؤ بين البشر وتمتلىء نفوسهم بالدوافع الغيرية ، كتلة لا شك أنها تدين للمسيحية بروحها كما سبق أن أكدنا .

ولنقل الآن كلمة عن الدور الثالث لعملية الإصلاح الدينى ، وهو الإصلاح الدينى داخل الكنيسة^(١) . فقد بدأ ذلك الإصلاح فعلاً في القرنين الثانى عشر والثالث عشر بظهور جماعتى الرهبان السود والشهب (الفصل ٣١ القسم ١٤) . وظهر في القرن

(المترجم)

(١) ويسمى أيضاً بحركة الإصلاح الدينى المضاد Anti-Reformation

السادس عشر دافع جديد من نفس النوع ، جاء والحاجة إليه أشد ما تكون . وكان ذلك الدافع الحديد هو جمعية يسوع التي أسسها إينيجولوبزدي ريكالدى الشهير في عالم اليوم باسم القديس أغناطيوس لويولا .

استهل إغناطيوس حياته العملية شاباً أسبانيا مجتمع القوة عظيم الشجاعة ، كان ذكياً



(شكل ١٥٧) مارتن لوثر
نغلا عن صورة من عمل هولبين

حاذقاً تملؤه الحمية همة وصبراً على المكاره ؛ وحباً للمجد في شيء من التفاخر ؛ وكانت مغامراته الغرامية كثيرة خلافة . وفي ١٥٢١ انتزع الفرنسيون من الإمبراطور شارل الخامس مدينة پامبلونا في أسبانيا ، وكان إغناطيوس أحد الذادة عنها . فهشمت إحدى قذائف المدافع ساقه ، أخذ أسيراً . ورمت عظام إحدى ساقه على خطأ ، وكان لزاماً أن تكسر من جديد : وأوشكت هذه العمليات المعقدة

الأيمة أن تفضى على حياته ؛ حتى لقد تلقى السر المقدس الأخير . ولكنه حين امتد به الليل بعد ذلك أخذ يتحسن وما لبث حتى أصبح في دور النقه ، وأخذ يواجه مقدماً حياة ربما عاش فيها مقعداً على الدوام . فالتجته أفكاره إلى خوض تجربة دينية . وتطيف بخاطره في بعض الأحيان صورة سيدة ما عظيمة ؛ ويخيل إليه أنه سيفوز بإعجابها بالرغم مما به من سوء حال ، بعمل رائع عظيم ؛ ويطيف به في أحيان أخرى أن يكون فارس المسيح بطريقة ما خاصة شخصية . وهو يحدثنا أنه بينما هو يضرب في أسداس هذه الخيالات والحيرات ؛ إذ استرعت انتباهه في إحدى الليالي وهو راقد في يقظة تامة سيدة عظيمة جديدة ، وتمثلت أمامه في الرؤيا العذراء المباركة مريم وهي تحمل المسيح الطفل بين ذراعيها . « وتملكته على الفور كراهية عظيمة لما قدمت يدها

في حياته . فعقد النية على أن يهجر كل فكرة عن نساء الدنيا ، وأن يجبا حياة عفة مطلقة وإخلاص تام لأم الرب . وقرر الإكثار من الحجج إلى مختلف الأماكن المقدسة وأن ينذر نفسه لحياة الرهينة .

والطريقة التي حلف بها يمين الترهيب تظهر أنه كان بحق أخاً ومواطناً صميماً للدون كيشوت ! ! فبعد أن استرد عافيته ، خرج هائماً على وجهه في أرجاء العالم لا يكاد يكون له هدف معين ، جندياً مرتزقاً مفلساً لا يملك من حطام الدنيا إلا سلاحه والبغل الذي يركب ، فألقته المقادير في صحبة أحد المغاربة (من عرب أسبانيا) . وسارا معاً يتجاذبان الحديث ، ثم تنازعا للفرار على الدين . وكان المغربي أحسن الرجلين تعليماً ، فأفحم صاحبه في الجدل ، وتفوه بعبارات جارحة عن العذراء مريم وجد من العسير أن يرد عليها ، ثم افترق عن أغناطيوس فرحاً بفوزه عليه . وكانت نفس الشاب فارس « مولاتنا مريم » تغلى خجلاً وسخطاً . فتردد بين أن يقفو المغربي ويقتله ، وبين أن يواصل ما عقد عليه العزم من حج . ولكنه ترك الأمور لبغله عند منشعب الطريق فكان في ذلك نجاة المغربي .

ووصل إلى الدير البندكتيني في مونتى سيرات بالقرب من مائريسا ، وهناك قلده البطل الذي لا نظير له ، أماديس دي جول^(١) بطل قصة المغامرة الرومانسية في القرون الوسطى ، وظل طول ليله ساهراً أمام مذبح العذراء المباركة . ثم أهدى بغله للدير ، وأعطى ثيابه الدنيوية لأحد المتسولين ، ووضع سيفه وخنجره على المذبح وارتدى ثياباً خشنة من قماش الجوالق وحذاء من الخيش . ثم حمل نفسه إلى إحدى التكايا حيث استسلم لضروب جمّة من التعذيب والتعسف . واستمر أسبوعاً كاملاً وهو صائم صوماً مطلقاً ، ثم نهض ليحج إلى الأراضي المقدسة .

وظل بضع سنوات يتجول على غير هدى ، وهو مستغرق اللب بفكرة تأسيس عقد جديد من الفروسية الدينية ، دون أن يدري كيف يبدأ هذا المشروع . وأخذ يزداد إحساساً بأميته وجهله . وحظرت عليه محاكم التفتيش (Inquisition) — وقد أخذت تهتم بتصرفاته — أن يحاول تعليم الآخرين حتى يقضى ما لا يقل عن أربع

(١) أماديس دي جول أو (أماديس الغال) : قصة رومانسية تصور الفارس المثال ألف في القرن

(المترجم)

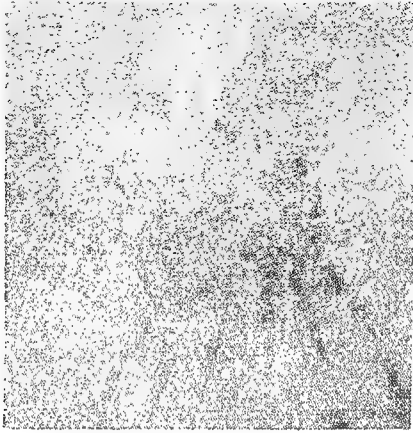
١٣ ، ١٤ في أسبانيا أو البرتغال .

سنوات في الدراسة . وإن التاريخ ليلقى على كاهل محاكم التفتيش من موفور التساوت وعدم التسامح ما يلد لنا معه أن نسجل أنها في معالجتها أمر ذلك المتحمس الشاب العنيد الواسع الخيال ، أظهرت نفسها بمظهر العاطف عليه الميزن التصرف . ذلك أنها أدركت قوته وما يرجى منه من نفع ، ورأت أخطار جهالته . فجدت في الدرس والتحصيل في سلامنكا وباريس وغيرهما . ونصب قسيسا (١٥٣٨) ، وبعد ذلك بسنة تأسست جمعيته التي طالما حلم بها تحت اسم « جمعية يسوع » . وقد رأت - شأن جيش الخلاص في إنجلترا العصرية - انتهاج أقرب السبل لوضع التقاليد الكريمة لطريقة تنسيق الجيوش ونظامها في خدمة الدين .

كان عمر هذا الرجل إغناطيوس لويولا مؤسس جمعية الخزويت (اليسوعيين) ؛ سبعا وأربعين سنة ، وكان أبعد ما يكون وأشد حكمة وأثبت روية من ذلك الشاب الأحق الذي قلد أماديس دى جول تقليد القردة وقام الليل كله في دير ماريسا ، وكانت الهيئة التبشيرية والتعليمية التي أنشأها آنذاك ووضعها تحت تصرف البابا من أقوى الوسائل التي تهيأت للكنيسة .

كان هؤلاء الرجال يقدمون أنفسهم بكليتها مختارين لتستخدمهم الكنيسة . وكانت جماعة اليسوعيين (الخزويت) هي التي حملت المسيحية إلى الصين للمرة الثانية بعد سقوط أسرة منج ، وكان اليسوعيون أهم إرساليات المبشرين المسيحيين في الهند وأمريكا الشمالية . ولسوف نشير من فورنا إلى ما بذلوه من جهود لنشر الحضارة بين ظهراني الهنود في أمريكا الجنوبية ، ولكن أجل ما قاموا به من عمل بنحصر رفعهم مستوى التعليم عند الكاثوليك . فأصبحت مدارسهم - وظلت زماناً طويلاً - خير المدارس في العالم المسيحي . يقول اللورد فيريولام (السير فرانسيس باكون) : « فأما عن الناحية البيداغوجية (التربوية) فأرجع إلى مدارس اليسوعيين ، إذ لم يمارس في التعليم شيء أحسن منها » . رفعوا مستوى الذكاء ، وأثاروا ضمير أوروبا الكاثوليكية بأجمعها ، واستثاروا أوروبا البرتستانتية إلى بذل الجهود لمنافستهم في مضمار التعليم .

ولعلنا نشهد في أحد الأيام جمعية جديدة لليسوعيين ، ممن يندرون أنفسهم لا لخدمة البابا ، بل لخدمة البشرية .



(شكل ١٥٨) لويولا

وفي نفس الوقت ويلزاء تلك الموجة العظيمة موجة المجهود التعليمي ، تنصلح نعمة الكنيسة وسمتها انصلاحيًا عظيمًا بفضل ما قام به مجلس ترنت من تنقية المبادئ وما أدخله من إصلاحات في هيئتها ونظامها . كان هذا المجلس يجتمع بين الفينة والفينة إما في ترنت وإما في بولونيا بين سنتي (١٥٤٥) و (١٥٦٣) ، وكان عمله يضارع في الأهمية عمل الجزويت في إيقاف

الجرائم والأخطاء التي كانت تحمل الدولة تلو الدولة على الانفصال عن مجتمع الكنيسة الكاثوليكية . والتغيير الذي أحدثه الإصلاح الديني داخل كنيسة روما يضارع في عظمته التغيير الذي حدث في الكنائس البروتستانتية التي انفصلت عن الكنيسة الأم . فليس هناك منذ ذلك التاريخ أية فضائح علنية ولا أى صدع ولا انقسامات يسجلها التاريخ . ولكن مهما يكن من شيء فإن ضيق الأفق في مبادئ الدين قد اشتد ولم تعد أدوار الخيال القوى الناشط التي يمثلها جريجورى الكبير ولا تلك المجموعة من البابوات المرتبطة بجريجورى السابع وإربان الثانى ، أو المجموعة التي ابتدأت بإنوسنت الثالث ، تنعش قصة التاريخ الهادئ العادى . واستقرت الكنيسة إلى ما هى عليه اليوم بوصفها هيئة دينية منفصلة عن السياسة ، وهيئة دينية بحتة كغيرها من الهيئات الدينية ، لقد رحل الصولحان من روما .

٦ - العلم يستيقظ من سباته

ينبغي ألا يظن القارئ أن النقد المدمر الذى وجه إلى الكنيسة الكاثوليكية والمسيحية الكاثوليكية ، وأن طبع الكتاب المقدس ودراسته ، كانت المناشط الفكرية الوحيدة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ولا هى كانت أهم عمليات النشاط الفكرى .

فإن ذلك كله لم يكن إلا الناحية الشعبية البارزة بقوة في الانتعاش الفكري في ذلك الزمان . إذ كانت تجرى هناك خلف ذلك التيقظ البارز الشعبي الذى أُلِّمَ بالفكر والبحث تطورات عقلية أخرى أقل استرعاء مباشراً للأنظار ولكن أهميتها النهائية أعظم . وسندلى إليك الآن بإشارة موجزة عن اتجاه تلك التطورات . فإنها ابتدأت قبل طبع الكتب بزمان طويل ، ولكن الطباعة هي التي نفضت عنها غاشية الظلمات وكشفها للأنظار .

ولقد أسلفنا لك كلمة عن ابتداء ظهور الذكاء الطليق أو الفطنة الحرة : روح التحرى والاستعلام ، والإدلاء الواضح الصريح بالرأى — في الشئون الإنسانية . وهناك اسم يعد أساساً في سجل تلك المحاولة الأولى الرامية إلى جمع المعرفة المنظمة ، وهو اسم الفيلسوف أرسطو . وهناك أيضاً كما لاحظنا آنفاً ذلك الدور الوجيز للإنتاج العلمى الإسكندرية . ومنذ ذلك الحين عاقت المنازعات الاقتصادية والسياسية والدينية المعقدة في أوروبا وآسيا الغربية ، كل تقدم فكرى آخر . فإن تلك المناطق كما رأينا ، وقعت أمد عصور طويلة تحت سلطان الملكيات ذات الطراز الشرقى وسلطان التقاليد الدينية الشرقية . وقديماً جربت روما في الصناعة نظاماً عماده الرقيق ثم عادت فنبدته وفيها تطور أول الأنظمة الرأسمالية ، ثم مزقته الفوضى بسبب ما جبل عليه من عيوب متأصلة . وارتدت أوروبا إلى حالة عامة من عدم الاستقرار . وثار السامى على الآرى ، وأحلّ ثقافة عربية محل المدنية الهلينية في كل أرجاء آسيا الغربية ومصر . ثم وقعت آسيا الغربية كلها ونصف أوروبا في قبضة الحكم المغولى ولم يحدث إلا في القرنين الثانى عشر والثالث عشر أن الذكاء الآرى شرع يكافح من جديد التماساً للتعبير الواضح الصحيح عن ذات نفسه .

وإننا لنجد عند ذلك في جامعات باريس واكسفورد وبولونيا النامية قدراً متزايداً من البحث الفلسفى . ومن حيث الشكل كان الطالع الغالب على ذلك البحث هو الموضوعات المنطقية . والأساس الذى قامت عليه هذه الأبحاث إنما هو جزء واحد من تعاليم أرسطو ، وهو «منطقه» فحسب وليس مجموع ماخلف من كتابات . ثم زادت معرفة الناس فيما بعد بتأليفه بواسطة الترجمات اللاتينية المنقولة عن النسخة العربية التى علق عليها ابن رشد . وفيما عدا هذه الترجمات لأرسطو — وكانت كلها رديئة الترجمة إلى

أشع حد - لم يكن الناس يقرأون في أوروبا الغربية حتى القرن الخامس عشر إلا النزر الطفيف من الأدب الفلسفى الإغريقى .

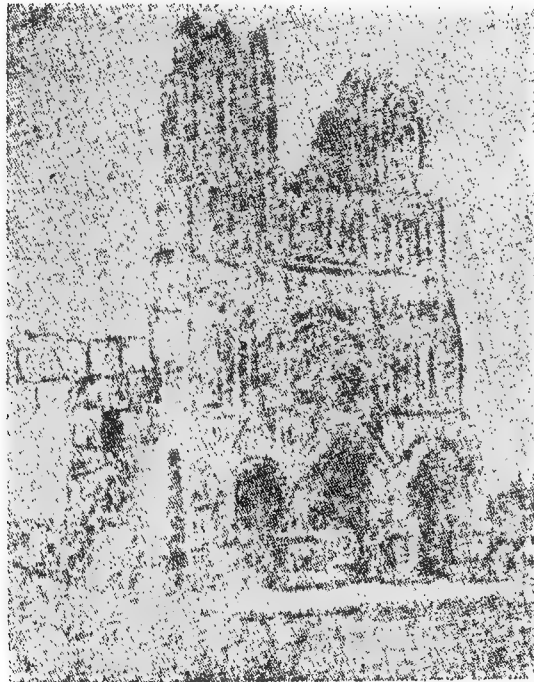
ولم يكد الناس يعرفون شيئاً عن أفلاطون ذى العقلية المبتكرة الخلافة المختلفة تماماً عن أرسطو ذى النزعة العلمية . فكأن أوروبا كانت تملك النقد الإغريقى دون الروح والدافع الإغريقى . أجل إن بعض كتاب الفلسفة الأفلاطونية الحديثة كانوا معروفين بها ، ولكن شتان بين الأفلاطونية الحديثة وبين أفلاطون ، إذ أن شقة الخلاف بينهما كشقة الخلاف بين العلم فى البلاد المسيحية وبين العقيدة المسيحية نفسها .

بد جرت عادة الكتاب المحدثين بالتشهير بالأبحاث الفلسفية لعلماء القرون الوسطى المدرسانيين برميها بالإملاى وعدم الغناء . ولكنها لم تكن كذلك بأى حال . وإنما كان لزاماً عليها أن تحتفظ بقلب فى شديد الجمود ، لأن كبار رجال الكنيسة ، وهم على ما هم من الجهالة وعدم التسمع ، كانوا على أهبة الترقب لأية بادرة للزندقة . لهذا ، كان يعوزها ذلك الصفاء الحلو الناشئ عن الفكر الذى لا يعوقه خوف . وكثيراً ما كانت تلك الأبحاث تلمح إلى ما لم تكن تجرؤ أن تقوله صراحاً . على أنها كانت تعالج موضوعات جوهرية الأهمية ، وكانت كفاحاً طويلاً ضرورياً لا بد منه لتصفية وإصلاح عيوب معينة متأصلة فى العقل البشرى ، وإن الكثير من الناس اليوم ليخطئون أفحش الأخطاء بسبب إهمالهم للمسائل التى كان علماء القرون الوسطى المدرسانيون يتناقشون فيها .

وهناك ميل طبيعى فى العقل البشرى إلى المبالغة فى الفروق وأوجه الشبه التى تنبئ عليها عملية الترتيب والتصنيف ، وإلى الظن بأن الأشياء ذوات الأسماء المختلفة متباينة مختلفة . وأن الأشياء المسماة بنفس الاسم ، تكاد تكون متطابقة . وغنى عن البيان أن هذا الميل إلى المبالغة فى التصنيف ينتج ألف شر وظلم . فى مجال العنصر (Race) أو القومية (Nationality) مثلاً ، كثيراً ما يعامل « الأوروبى » أخاه « الآسيوى » كأنما هو حيوان مختلف ، على حين تراه يميل إلى اعتبار « أوروبى » آخر كأنما هو بحكم الضرورة معادل له فى الفضيلة والروعة . وإنه لينضم تبعاً لهذا إلى الأوروبىين ضد الآسيويين . ولكن الواقع - كما يجب أن يدرك ذلك قارىء هذا الكتاب -

هذه الفوارق التي يدل عليها التضاد بين تلك الأسماء أمر لا وجود له . وإنما هو طيف فارق خيالي خلقه وجود الاسمين .

وكانت الخصومة الكبرى في القرون الوسطى قائمة بين الواقعيين (Realists) والاسمين (Nominalists) . ومن الضروري أن ننبه القارئ أن كلمة « الواقعي » في أبحاث العصور الوسطى لها معنى يكاد يكون مضاداً على خط مستقيم للفظ « الواقعي » في استعمالها في اللغة العادية للنقد العصري . فإن « الواقعي » العصري إنما هو من يصير على



(شكل ١٥٩) كاتدرائية ريمس (رانس)

مثال رائع للكنائس القوطية الكبرى التي بنيت في القرنين ١٣ ، ١٤

التفاصيل المادية ، بينما كان « الواقعي » في القرون الوسطى أقرب كثيراً إلى ما قد نسميه اليوم « بالمثالي » ، وكان احتقاره للتفاصيل العارضة شديداً وعميقاً . وكان الواقعيون أشد

الناس تمسكاً بذلك الميل البشرى الشائع إلى المبالغة في أهمية « الصنف class » أو الطبقة . وكانوا يعتقدون بأن هناك شيئاً في الاسم (أى في التسمية العامة) له بالضرورة ظل من الحقيقة . مثال ذلك أنهم كانوا يؤمنون بأن هناك « أوريبا » نموذجياً ، أوريباً مثالياً ، وجوده حقيقى أكثر بكثير من أى أوربى فرد . ومن ثم يكون كل أوربى عينة معيبة ونكوساً ظاهراً ، وابتعاداً عن تلك الحقيقة الأكثر عمقاً إن صح هذا التعبير . ومن الناحية الأخرى ، كان الاسميون أصحاب المذهب الاسمى يرون أن الحقائق الوحيدة في الأمر إنما هي الأوريبون الأفراد ، وأن الاسم « أوربى » إنما هو مجرد اسم ، ولا يتجاوز أن يكون اسماً ، يطبق على كل هاته الأفراد .

وليس هناك شيء أصعب من ضغط واختصار المجادلات الفلسفية التي هي بطبيعتها ضخمة الحجم متنوعة ، كما أنها مصطبغة بالصباغ العقلى لمجموعة متنوعة من العقول . والقارىء العصرى غير الملم بالأبحاث الفلسفية ربما جنح — وقد قدمنا له الفارق بين الواقعيين والاسميين على هذه الشاكلة الساذجة الجرداء — إلى الوثوب من فوره إلى تأييد رأى الاسميين . ولكن ليس الأمر من البساطة بحيث يكفى مثال واحد للحكم عليه ، وقد تعمدنا هنا اختيار مثال متطرف . وتختلف الأسماء والتصنيفات في قيمتها وحقيقتها . فبينما ترى أنه من السخف أن يظن الناس أن هناك عمقاً كبيراً في الفارق الصنفى بين رجال اسمهم توماس وآخرين اسمهم وليم ، أو أن هناك مثلاً أعلى أو خلاصة نقية لتوماس أو لوليم ، إلا أنه قد تكون هناك من الناحية الأخرى فوارق أعمق بكثير بين رجل أبيض وبين زنجى من الهوتنتوت ، فضلاً عن أخرى عميقة بين الإنسان العادى (Homo Sapiens) وبين الإنسان النياندرتالى . وكذلك بينما التمييز بين صنف الحيوان المدلل وصنف الحيوان النافع يعتمد على فوارق طفيفة في العادات والتطبيق ، فإن الفارق بين القط والكلب من العمق بحيث يستطيع المجهر الميكروسكوب أن يقفوه ويكتشفه ولو في قطرة دم أو شعرة مفردة . وبينما تكون بعض التصنيفات تافهة ، إذا بالبعض الآخر جوهرى حقيقى . فلماذا نحن تأملنا هذه الناحية من المسألة أمكننا أن نفهم كيف أن الاسمية و« الاسميين » اضطروا في النهاية إلى التخلي عن الفكرة القائلة بأن الأسماء تعادل في قلة أهميتها بطاقات الزباجات ، وكيف أن تنقيح المذهب الاسمى وتصحيحه تمخض عن المحاولة المنظمة للعثور على التصنيف « الحق » — أشد التصانيف أهمية وأعظمها فائدة — للأشياء والمواد وهو الذى يسمى بالبحث العلمى .

ولسوف يقارب هذا في الوضوح أنه بينما ميل الواقعيين والمذهب الواقعي الذي هو الميل الطبيعي لكل عقل غير مثقف ، كان متجهاً إلى الاعتقاد الحتمي (Dogma) والتقسيمات الخشنة الفجة والأحكام الخشنة الساذجة والمواقف والاتجاهات الحالية من كل تساهل ، فإن ميل المذهب الاسمي والاسمين القدامي والمتأخرين كان متجهاً نحو الأقوال المحددة بالأوصاف ، ونازعاً نحو اختبار الأمثلة الفردية ونحو البحث والاستعلام والتجربة والتشكك .

وعلى ذلك فإنه بينما من في الأسواق والحياة العامة من الناس يشككون في أخلاق رجال الدين وصلاتهم ومدى إخلاصهم في عزوبتهم وصدق يقيمهم فيها ونقاء سيرتهم بها ، ومبلغ العدالة فيما يفرضه البابا من ضرائب ، وبينما تنشغل أذهان من في الدوائر اللاهوتية بمسألة الاستحالة ومسألة قدسية أو عدم قدسية الحبز والنبذ في القداس ، كان يصدر عن دور الدراسة وقاعات المحاضرات نقد أوسع مدى لطرائق التعليم الكاثوليكية العادية .

وليس في استطاعتنا أن نقدر في هذا المقام مبلغ الأهمية التي اجتمعت أثناء تلك العملية لأشخاص من أمثال بطرس أبيلارد^(١) (١٠٧٩ - ١١٤٢) ، وألبرتوس ماجنوس (١١٩٣ - ١٢٨٠) ، وتوماس أكويناس (١٢٢٥ - ١٢٧٤) . فإن هؤلاء الرجال حاولوا أن يعيدوا بناء العقيدة الكاثوليكية على أساس عقلي أسلم ؛ فاتجهوا صوب مذهب الاسمين . ومن بين أبرز نقادهم وخلفائهم دنز سكوتوس (؟ - ١٣٠٨) ، وهوراهب فرنسيسكي من اكسفورد ، لن يشك القارىء في أنه اسكتلندي قح لو اطلع على اجتهاده في التفكير وخفاء عباراته المتعمد ، ومن بينهم كذلك أكّام وهو إنجليزى (؟ - ١٣٤٧) .

وقد أقام كلاهذين الأخيرين - شأن ابن رشد - حداً فاصلاً مميّزاً بين الحق اللاهوتي والحق الفلسفي ، فوضعا اللاهوت من فوق قبة عالية ، ولكنهما وضعاه حيث لم يستطع أن يعترض بعد ذلك طريق البحث : فأعلن دنز سكوتوس أن من المستحيل أن يثبت المرء بالتفكير العقلي وجود الله أو وجود الثالوث أو إمكان تصديق عملية الخلق ، وكان أكّام أشد إصراراً على فصل اللاهوت من الحق العملي - وهو فصل بدأ أطلق سراح البحث العلمي لإطلاقاً بيناً من تحكم الاعتقاد الحتمي (Dogma) . ولكن خلف من بعدهم جيل تال

(١) أنظر ، المترجم ، كتاب أعلام وأفكار (الهيئة العام للتأليف والنشر) . (المترجم)

فاته وقد أخذ يستفيد من الحريات التي هدفت إليها جهود هؤلاء الرواد ، إدراك العلم بمصادر حريته - فبلغ من كفوانه بالجميل أن يتخذ من اسم سكوتوس رمزاً للغباء ، ومن ثم نشأت كلمة (Dunce) الإنجليزية التي معناها الغبي مشتقة من اسمه (Duns) . يقول الأستاذ برنجل باتيسون^(١) : « إن أكتام الذي كان مع ذلك عالماً مدرسانياً^(٢) يعطينا التبرير المدرساني للروح الذي استولى بالفعل على روجر باكون ، والذي قدر له أن ينضج ويستكمل نموه في أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر » .

وروجر باكون هذا يقف وحيداً بارزاً لما له من عبقرية مميزة (قرابة ١٢١٠ - ١٢٩٣) وكان كذلك إنجليزياً . كان راهباً فرنسيسكياً من أكسفورد ، كما أنه في الواقع رجل إنجليزي نموذجي حقاً ، إذ هو سريع الهياج متسرع شريف حصيف العقل . وكان يسبق عالمه بقرنين من الزمان . يقول عنه ه . ا . تايلور^(٣) :

« كانت حياة باكون مأساة ذهنية ، تطابق الأصول القديمة لفن المآسى : القاضية بأن تكون أخلاق البطل كريمة نبيلة ، وإن لم تخل من العيوب ، وذلك نظراً لأن النهاية القاضية المحتومة يجب أن تصدر عن الخلق ، وألا تحدث نتيجة للصدف . ومات شيخاً في سن عالية . وكان في شبخوخته شأنه في صباه محباً مخلصاً للمعرفة الملموسة . وكان طلبه المعرفة التي لا تصل إلى مرتبة العلم بمعناه التام ، يلقى اعتراضاً من تلك الهيئة التي انتمى إلى عضويتها وكان فيها عضواً تعسفاً ثائراً ؛ كما أضربه من الناحية الأخرى ، أن ما حصله من منجزات قد تخرفه من الداخل المبادئ التي تقبلها نقلاً عن عصره . ولكنه يعد مستولاً عن قبوله للآراء السارية ؛ واستثارت آراؤه شكوك إخوانه الرهبان ، كما جر عليه خلقه العصبي الشموس عداهم . فإن القدرة على الإقناع واللباقة شرطان ضروريان لمن يرغب في التأثير بمثل هذه الآراء الجديدة على

(١) الموسوعة البريطانية ، الطبعة الثانية عشرة ، مادة المدرسانية Scholasticism .

(٢) كلمة المدرساني تطلق على معلمى القرون الوسطى وعلى كل فيلسوف متحذلق ، بفلسفة العصور الوسطى التي تسمى أيضاً بالفلسفة المدرسانية أو الإسكولائية . (المترجم)

(٣) The Medieval Mind تأليف هنرى أوسبورن تايلور .

أقرانه ، أولمن شاء الفرار في القرن الثالث عشر من الاضطهاد لإذاعته إياها فقد هاجم باكون قوى المكانة والفضل من الرجال ، الأحياء منهم والأموات في غير حنكة ولا عدل وفي حماقة ونزق . ولا نكاد نعرف شيئاً عن حياته البتة ، اللهم إلا من إشاراته إلى نفسه وإلى الآخرين ، وهى إشارات لا تكفى لتكوين صورة طفيفة متصلة الحلقات لحياته . ولد ودرس في أكسفورد ، وذهب إلى باريس ودرس وأجرى التجارب ، ثم عاد إلى أكسفورد ثانية ، وأصبح راهباً فرنسيسكياً ؛ وتابع دراساته ثم تولى التدريس وأصبح عند جماعته بمنزلة الظنة والريبة ، ثم يُبْعَثُ به ثانية إلى باريس ، ويوضع تحت الرقابة ، ويتلقى رسالة من البابا ، ويكتب ، ويكتب ، ويكتب - مؤلفاته الثلاثة الأبعد شهرة ، ثم تعود المتاعب فتغشى حياته ، وإذا هو يسجن سنوات كثيرة ويطلق سراحه ويموت ، يموت كل الموت بجسده وبشهرته على السواء حتى يبعث بعثاً جزئياً بعد ذلك بخمسة قرون » .

والمادة الرئيسية في هذه « المؤلفات الثلاثة الأبعد شهرة » إنما هى هجوم لاذع العبارة يكون في الأحيان مفعماً بالسباب . ولكنه هجوم عادل تماماً على ما يريم على عصره من جهالة ، يخالطه مجموعة ثرية من المقترحات لزيادة المعرفة . وإن روح أرسطو لتبدى فيه حية من جديد في إلحاحه الحار على الحاجة إلى التجربة وإلى جمع المعارف . فلقد كانت الصيحة التى طالما حملها روجر باكون على عاتقه هى « التجربة ، التجربة » .

ومع ذلك فإن روجر باكون اختصم أرسطو نفسه وهاجمه . اختصمه لأن الرجال بدل أن يواجهوا الحقائق فى جرأة ، كانوا يجلسون فى حجرات ويكبون على الترجمات اللاتينية الرديئة التى كانت عند ذاك كل ما يستطيع للوصول إليه عن « المعلم » . كتب يقول بلهجته غير المعتدلة « لو كان الأمر بيدي لأحرقت كل كتب أرسطو ، لأن دراستها لا يمكن أن تؤدى إلا إلى مضیعة الوقت وإنتاج الخطأ وزيادة الجهالة » ، وهو إحساس ما كان أرسطو فى الراجح إلا ليردده لو أنه عاد إلى عالم لم تكن فيه مؤلفاته تقرأ قدر ما تُعبد - وكان ذلك التقديس كله موجهاً لهذه الترجمات غير الجديرة تماماً بأية ثقة كما بين ذلك روجر باكون .

وروجر باكون في كل مؤلفاته متكرر بعض التنكر بسبب ضرورة ظهوره في كل أموره. بمظهر من يطابق بين آرائه وبين العقيدة السلفية الصحيحة خشية السجن أو ما هو شر من السجن ، لذا كان يصيح بالإنسانية من وراء هذا التنكر والتقية « أن كفى عن أن تحكمك الاعتقادية (الدوجما) والسلطات الاستبدادية ، وانظري إلى العالم » .

وقد شهّر بأربعة أسباب للجهل هي : احترام السلطة ، والعرف والعادة ، وروح الجمهور الجاهل ، وما عليه ميولنا من عدم قابلية للتعليم تنسم بالغرور والكبرياء . فلو تغلب الناس على هذه وحدها لانفتح أمامهم علم من القوة . « فإن في الإمكان أن توجد آلات للملاحة البحرية تسير السفن من غير مجدفين ، بحيث أن سفناً ضخمة تناسب البحر والنهر جميعاً ، ويقودها رجل فرد ، يمكن أن تُسير بسرعة أعظم مما لو كانت غاصة بالرجال . وعلى هذا النحو يمكن أن تُصنع العربات التي تتحرك بلا حيوان يجرها (cum impetu inoestimabili) ، شأن العربات ذات المناجل التي كان يحارب عليها الأقدمون فيما يقال . وفي الإمكان استحداث الآلات الطائرة ، حتى أن الرجل ليستطيع أن يجلس في وسطها يدير آلة ما فتضرب الهواء أجنحة اصطناعية على مثال جناحي الطائر » .

وإن أكتام وروجر باكون لهما البشيران الباكران بحركة عظيمة في أوروبا تنبذ المذهب الواقعي (Realism) وتنتجه إلى الواقع (Reality) . وانقضت فترة من الزمن اشتد فيها الصراع بين المؤثرات القديمة وبين « الطبيعية » (١) عند أصحاب المذهب الاسمي الجديد . وفي (١٣٣٩) حرمت كتب أكتام وصدر قرار جدى وقور باستنكار المذهب الاسمي وتسفيهه . وبذلت في عام (١٤٧٣) ، محاولة متأخرة فاشلة ، لحمل معلمى باريس على تدريس المذهب الواقعي بقسم يقسمونه . وفي القرن السادس عشر ابتدأ طبع الكتب وزاد الذكاء . وعندئذ أصبحت حركة الانتقال من مذهب التجريد (Absolutism) إلى التجريب حركة ضخمة ، وأخذ الباحثون يتعاونون بعضهم مع بعض .

(١) الطبيعة أو الطبعانية Naturalism هي مذهب بمجارة الطبيعة ومطابقتها . (المترجم)

وكان التجريب على الأشياء المادية آخذاً بأسباب الزيادة طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ؛ فأخذ الرجال يفوزون بكميات متتابعة من المعرفة ، ولكن لم يكن هناك تقدم تعاوني يقوم على العلاقة المتبادلة بين رجال العلم ، بل كان العمل يتم بصورة انعزالية متدابرة وخفية غير كريمة . فقد أخذت أوروبا عن العرب تقاليد البحث المنعزل ، وكان هناك قدر كبير من الأبحاث العلمية التي تتم بشكل خاص وسري والتي يقوم بها الكيماويون القدامى (Alchemists) الذين ينجح العصريون إلى المبالغة في احتقارهم إلى حد ما . على أن هؤلاء الكيماويين القدامى كانوا على اتصال وثيق بصناع الزجاج والمعدن وبأصحاب صناعة الأعشاب والعقاقير وصناع الأدوية في زمانهم ، وقد تدسسوا في أسرار كثيرة للطبيعة ، ولكن كانت نفوسهم مشبعة بفكرة « المنافع العملية » ذلك أنهم لم يكونوا يطلبون المعرفة ، بل القوة . وكانوا يرغبون في أن يصطنعوا الذهب من المواد الأزهد منه ثمناً ، وأن يجعلوا الناس من أهل الخلود بواسطة أكسير الحياة ، وما إلى ذلك من الأحلام السوقية المبتذلة . وحدث أنهم عرفوا عرضاً أثناء أبحاثهم ، الشيء الكثير عن السموم والأصبغ وعلم المعادن وما إليها ؛ واكتشفوا مواد متنوعة تسبب إنكسار الأشعة ؛ وشقوا طريقهم صوب الزجاج الصافي ، ومن ثم إلى العدسات والآلات البصرية . ولكن الواقع كما يخبرنا رجال العلم على الدوام ، وكما لا يزال العمليون ورجال الأعمال يرفضون أن يتعلموه — هو أن المعرفة لا تحبو خدامها بهبات غالية وعطايا غير متوقعة في أي قدر من الوفرة إلا عندما تُطلب المعرفة من أجل المعرفة نفسها .

وما يزال عالم اليوم أميل كثيراً إلى إنفاق المال على البحث الفني العملي (التكنيكي) منه على العلم البحت . وما يزال نصف من في معاملنا ومختبراتنا العلمية من الرجال يحلمون بالاختراعات المسجلة (Patents) والعمليات السرية . ونحن إنما نعيش اليوم في معظم أمرنا في عالم الكيمايين القدامى بالرغم من كل هزئنا بذكراهم . وما يزال « رجل الأعمال » في عصرنا هذا يفكر في البحث بوصفه نوعاً من الكيمياء القديمة .

والمنجمون الذين كانوا يرتبطون بالكيماويين القدماء ارتباطاً وثيقاً ، كانوا هم كذلك فئة تطلب « المنافع العملية » فكانوا يدرسون النجوم لينبئوا الناس بطوالعهم ،

وكان يعوزهم ذلك الإخلاص والتفهم الأوسع أفقاً اللذان يحملان الناس على مجرد دراسة النجوم في حد ذاتها .

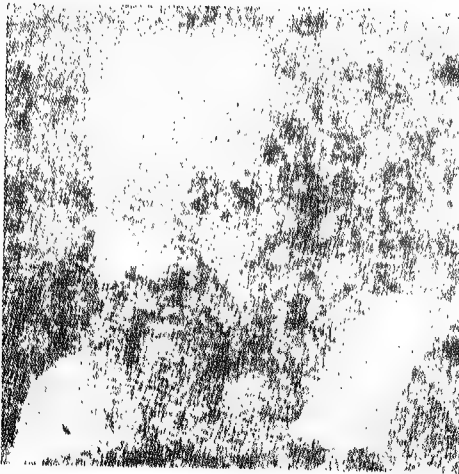
ولم تشرع الأفكار التي ترجم عنها روجر باكون في أن توثق ثمارها الأولى من المعرفة الجديدة والنظرة الشاملة والأفق المتسع إلا في القرن الخامس عشر . ثم حدث على حين بغتة مع بزوغ فجر السادس عشر ، ومع قيام العالم من كبوته في عاصفة الفتن الاجتماعية التي أعقبت أوبئة القرن الرابع عشر ، أن تفجرت أوروبا الغربية عن مجموعة من الأسماء اللألاء كسفت بضياها أصحاب أبعد الناس صيتاً علمياً في أزهى عصور الإغريق . وأسهمت في ذلك كل الشعوب تقريباً ، كما سوف يلحظ القارئ ، وذلك لأن العلم لا يعرف القومية .

ومن أبكر أفراد هذه المجموعة اللألاء من الكواكب ، وأعظمهم جلالاً ، ذلك الفاورنسي ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) ، وهو رجل تكاد تكون له « بالحقيقة » بصيرة إعجازية . كان عالماً بالطبيعة والتاريخ الطبيعي وبعلم التشريح ، وكان مهندساً ، كما كان فناناً عظيم الشأن جداً ، وهو أول رجل عصرى أدرك الطبيعة الحققة للحضريات ، فأنشأ دفاتر مذكرات ملأها بملاحظات ما تزال تذهل ألبابنا إلى اليوم ، وهو يظهر اقتناعاً بإمكان الطيران الميكانيكى إمكاناً عملياً . وثمة اسم عظيم آخر هو اسم كوبرنيكوس وهو بولندى (١٤٧٣ - ١٥٤٣) ، قام بأول تحليل واضح لحركات الأجرام السماوية وأبان أن الأرض تدور حول الشمس . وقد رفض تلك الفكرة تيخوبراهى (١٥٤٦ - ١٦٠١) وهو دائمركى كان يشتغل في جامعة پراج ، ولكن ملحوظاته عن الحركات السماوية كانت على أقصى غاية القيمة لخلفائه ، وبخاصة للألماني كبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠) . وكان جاليليو جاليلى (١٥٦٤ - ١٦٤٢) هو مؤسس علم الديناميكا . فكان الاعتقاد السائد قبل زمانه أن وزناً يكبر عن وزن آخر مئة مرة يسقط أسرع من الثانى بمئة مرة . فأنكر جاليليو ذلك . وبدلاً من أن يناقش الأمر بالمجادلة على طريقة المدرسانين والجنتمانية في عصره ، وضعه تحت الاختبار التجريبى الخشن بإسقاط كتلتين غير متعادلتين من طابق علوى من برج پيزا المائل - مثيراً بذلك انزعاجاً في قلوب كل الرجال اللوذعيين من علماء عصره .

وأنشأ جاليليو ما يكاد يكون أول مرصاد (تلسكوب) ، وكذلك طور آراء كوبرنيكوس الفلكية ، ولكن الكنيسة قررت - وهي تكافح النور بشجاعة !! - أن الاعتقاد في أن الأرض أصغر من الشمس وأدنى منها مرتبة ، لا يجعل للإنسان والمسيحية وزناً ، ولذا حمل جاليليو على التراجع عن هذا الرأي ، وعلى إرجاع الأرض إلى مكانها الأول كمركز ثابت للكون لا يتحرك !!! . . . وقضى عليه سبعة من الكرادلة بالسجن مدة من الزمان ، وأمر بتلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل أسبوع طوال سنوات ثلاث .

ولد نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) في السنة التي توفي فيها جاليليو . فأتى باكتشافه قانون الجاذبية ، إزاحة الستار تماماً عن عالم النجوم الذي بين أيدينا اليوم . على أن نيوتن يحملنا إلى صميم القرن الثامن عشر . فهو يحملنا إلى ما يتجاوز مدى الفصل الحالي كثيراً .

ومن بين أقدم الأسماء اسم الدكتور جلبرت (١٥٤٠ - ١٦٠٣) من كولشستر الذي يبرز خالداً أبدياً . كان روجر



(شكل ١٦٠) جاليليو

باكون قد بشر بالتجريب ، وكان جلبرت من أوائل من مارسوه . ولا سبيل إلى الشك في أن عمله ، الذي كان موجهاً في جل شأنه إلى المغناطيسية ، ساعد على تكوين أفكار فرنسيس باكون ، لورد فريولام (١٥٦١ - ١٦٢٦) ، وهو قاضي القضاة في عهد جيمس الأول ملك إنجلترا . ولقد سمي فرنسيس باكون هذا باسم « أبي الفلسفة التجريبية » ، ولكن ما أثير

حول نصيبه في تطوير الجهد العلمي كان أعظم من حقه^(١) . يقول السير ر . ا . جريجوري

(١) انظر كتاب « الاكتشاف Discovery » تأليف جريجوري الفصل السادس .

« لم يكن المؤسس للطريقة العلمية بل الرسول المبشر بها ». وكانت أعظم خدمة أداها للعلم ، كتاباً خيالياً عجيباً ، هو كتاب الأطلانطيس الجديد (The new Atlantis) . وفرنسيس باكون في كتابه الأطلانطيس الجديد يصمم في لغة كثيرة الزخرفة حافلة بالخيال شيئاً ما ، خطة قصر للاختراع ، ومعبد عظيم للعلوم ، حيث ينظم طلب المعرفة بجميع فروعها على أسس ومبادئ في الدورة العليا من الكفاية » .

وعن ذلك الحلم اليوتوبي المثالي نشأت الجمعية الملكية في لندن (١) ، التي تلقت مرسوماً ملكياً من شارل الثاني ملك إنجلترا في (١٦٦٢) . والفائدة - بل الميزة - الجوهرية لهذه الجمعية كانت وما تزال « نشر العلم وإذاعته » . ويسجل إنشائها خطوة محددة تنتقل بالعلم من البحث المنعزل إلى العمل التعاوني بين العلماء ، ومن أبحاث الكيماويين القدامى السرية المنفردة إلى التقرير الصريح والبحث الجهرى ، الذى هو عصب الحياة في الطرائق العلمية العصرية ، ذلك أن المنهج العلمى الحق يقوم على : « ألا يفترض أى فرض لا ضرورة له ، ألا يقبل أى خبر أو بيان من غير تحقيقه ، أن تختبر كل الأشياء بأشد دقة مستطاعة ، ألا يحتفظ بأى أسرار ، ألا يحاول أحد أى احتكار ، وأن يقدم الإنسان خبر ما لديه في تواضع ووضوح ، وألا يخدم أية غاية أخرى غير المعرفة » .

وأنعش هارفى (١٥٧٨ - ١٦٥٧) علم التشريح الذى طال نعاسه ، كما كشف الدورة الدموية . وما لبث الهولندى ليفنهوك (١٦٣٢ - ١٧٢٣) أن استخدم أول مجهر (ميكروسكوب) ساذج في الكشف عن الدقائق الخفية للحياة .

وما هؤلاء إلا قليل من كثير من أسطح النجوم في ذلك الجمع المتزايد من الرجال الذين نهضوا منذ القرن الخامس عشر إلى زماننا هذا ، بهمة وثابة ونشاط تعاونى إجماعى لم يبرحوا يتزايدان على كر الأيام - نهضوا بإضاءة الكون أمام أبصارنا ، وزادرا من سيطرتنا على ظروف الحياة .

(١) هى أقدم جمعية بريطانية للعلوم وأبرزها مكانة وتمتد زمانها شرفاً عظيماً . (المترجم)

٧ - النمو الجديد للمدن الأوروبية

قد توسعنا في معالجة تجديد نشاط الدراسات العلمية في العصور الوسطى ، لما له من أهمية قصوى في الشئون الإنسانية . ولا شك أن روجر باكون كان في جملة أمره أعظم أهمية للجنس البشرى من أى ملك في زمانه . ولكن العالم المعاصر ظل في معظم أمره لا يعرف شيئاً عن ذلك النشاط المتقدم تحت الرماد في غرفات البحث وقاعات المحاضرات ومعامل الكيماويين القدامى ، ذلك النشاط الذى قدر له أن يغير كل أحوال الحياة . والواقع أن الكنيسة أدركت ما كان يجرى ، ولكن لم يكن مرد ذلك إلا شعورها بعدم احترام قراراتها الحاسمة . فإنها كانت قررت أن الأرض هى مركز خلقة الله ، وأن البابا هو حاكم الأرض الذى ندمته السماء لهذه المهمة . وقد أصرت الكنيسة على أن فكرات الناس عن هذه النقاط الجوهرية ، يجب ألا يعترضها أى تعليم يناقضها . ومع ذلك فإنها ما كادت تجبر جاليليو على القول بأن الأرض لا تتحرك حتى قنعت بذلك ورضيت . والظاهر أنها لم تكن تدرك أن الأرض برغم كل ما تبذل كانت تتحرك فعلاً وأن موقفها من تلك المسألة كان نذر ثبور عليها .

ذلك أن أوربا الغربية كانت مسرحاً لتطورات اجتماعية عظيمة جداً وأخرى فكرية فى كل هذه الفترة من العصور الوسطى المتأخرة . ولكن العقل البشرى يفهم الحوادث بصورة أوضح كثيراً مما يفهم التغيرات ، كما أن الناس واصلوا آنذاك كفعلهم اليوم - التمسك بتقاليدهم الخاصة بالرغم مما يلم بما حولهم من المناظر من تغيرات وتقلبات .

ومن المحال علينا فى كتابنا هذا أن نكدر أحداث التاريخ المتراصة التى لا تبين بوضوح العملية الرئيسية لتطور الإنسان ، مهما بلغت من بريق وجمال . ولا بد لنا من أن نسجل النمو المتواصل للمدن كبيرها وصغيرها ، وانتعاش قوة التجارة والنقود ، وعودة القانون والعرف إلى نصابهما شيئاً فشيئاً ، وانتشار الأمان ، والقضاء على الحرب الخاصة التى دامت فى أوربا الغربية فى الفترة بين الحرب الصليبية وبين القرن السادس عشر .

وهناك أشياء كثيرة ، تترامى لنا ضخمة فى تواريخنا القومية ولكننا سنضرب عنها صفحاً

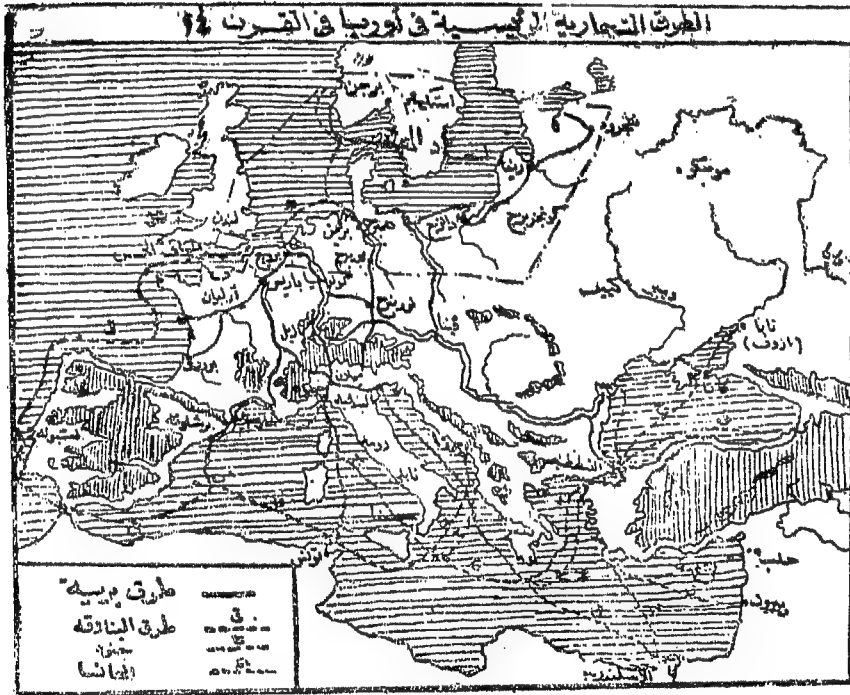
وليس لدينا متسع نذكر فيه قصة المحاولات المتكررة التي بذلها الملوك الإنجليز لفتح اسكتلندة وتنصيب أنفسهم ملوكاً لفرنسا ، ولا عن كيف استقر الإنجليز النورمانديون في إرلندة استقراراً غير وطيد في القرن الثاني عشر ، وكيف ألحقت ويلز بالتاج الإنجليزى (١٢٨٢) . وقد تواصل كفاح إنجلترا مع اسكتلندة وفرنسا طوال العصور الوسطى جميعاً . وجاءت أزمان بدا فيها أن اسكتلندة قد أخضعت إخضاعاً نهائياً ، وحدث إبانها أن ملك إنجلترا كان يملك في فرنسا من الأرض أكثر من عاهلها الإسمى . وغالباً ما تصور كتب التاريخ الإنجليزية هذا الكفاح مع فرنسا في صورة محاولة حاولت فيها إنجلترا بمفردها أن تقهر فرنسا وكادت أن تبلغ التوفيق . والواقع أنها كانت مشروعاً مشتركاً قامت به مجتمعة مع الفلمنك والبافارين أولاً ، ثم بعد ذلك مع ولاية برجنديا الفرنسية القوية لغزو تراث هيوكايت واقتسامه . . .

ولسنا على أن نحدثك عن تشتيت شمل الإنجليز على يد الاسكتلنديين في بانوكبرن (١٣١٤) ولا عن وليم والاس وروبرت بروس البطلين الوطنيين الاسكتلنديين ، ولا عن معارك كريسي (١٣٤٦) وبواتييه (١٣٥٦) وأجينكور (١٤١٥) في فرنسا ، التي يشرق ضياؤها في الخيال الإنجليزي ، وهى معارك صغيرة قام فيها رماة نبال أقوىاء المراس في بعض الساعات المشرقة بإنزال هزيمة منكرة بالفرسان الفرنسيين في دروعهم السابغة ، ولا عن الأمير الأسود^(١) وهنرى الخامس ملك إنجلترا ، ولا عن كيف دفعت فتاة ريفية هى جان دارك ، عذراء أورليان ، الإنجليز مرة ثانية عن وطنها (١٤٢٩ - ١٤٣٠) - فلن يقص هذا الكتاب عن ذلك كله شيئاً . ذلك أن لكل قطر مثل تلك الأحداث القومية التي يعتز بها . فهى طنافس التاريخ التي تعلق للزينة والزخرفة ، وليست جزءاً من البناء بأى حال . فإن راجهوتانا أو بولندة والمجر والروسيا وأسبانيا وفارس والصين تستطيع كلها أن تبارى أو تبتز أقصى ما دار على مسرح التاريخ الأوروبى الغربى من مغامرات رومانسية يظهر فيها فرسان لا يقلون عن الأوربيين مغامرة ، وأميرات لسن أقل من الأوربيات إقداماً ، وقتالا وصيناً لا يقل قوة شكيمة في هذه عن تلك .

ولن نحدثك في أى تفصيل كيف أن لويس الحادى عشر الفرنسى (١٤٦١ - ١٤٨٣) ،

(١) هو إدوارد : الأمير الأسود (١٣٣٠ - ٧٦) ابن إدوارد الثالث ملك إنجلترا .
(المترجم)

وابن شارل السابع صديق جان دارك ، أذل برجنديا ووضع أساساً للملكية مركزية
يفرنسا . إذ أن الذي يهمننا أكثر من ذلك أنه حدث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر
أن البارود ، تلك الهبة المغولية ، وصل إلى أوروبا ، فاستطاع بفضلها الملوك (بما
فيهم لويس الحادى عشر) والقانون — معتمدين على نصرة المدن النامية ، أن يحطموا
قلاع الفرسان والبارونات اللصوص نصف المستقلين في العصور الوسطى الأولى وأن
يجمعوا في أيديهم أشتات سلطان أشد تمركزاً .



(شكل ١٦١) خريطة الطرق التجارية الرئيسية بأوروبا في القرن الرابع عشر

ويحتفى بلاء وفرسان الفترة الهمجية المتقاتلون من التاريخ في بطء أثناء تلك
القرون ، ذلك أن الحروب الصليبية استنفدتهم ، كما أفنتهم أيضاً أمثال حرب الوردتين
من الحروب بين الأسر المالكة ، فكانت الأسهم المرسلة من القسى الإنجليزية الطويلة

تنفذ من أجسامهم ناشبة فيما وراءهم ياردة ، وكان المشاة المسلحون بهذا القوس يجتاحونهم ويقذفون بهم إلى ميادين الهزيمة ، فأخذوا يروضون انفسهم على التجارة وغيروا من طبعهم . واختفوا من الوجود وزال كل أثر لهم إلا وجود اسمي في غرب وجنوب أوروبا . قبل أن اختفوا من ألمانيا . وذلك أن الفارس في ألمانيا ظلي محارباً محترفاً حتى صميم القرن السادس عشر .

وحدث إبان الفترة المنصرمة بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر في أوروبا الغربية ، وبخاصة في فرنسا وإنجلترا ، أن نشأت كازهرات باقة كبيرة من المباني والكاتدرائيات والأديرة وما إليها طرازها شديد التميز والجمال وهوفن العمارة القوسية . وقد سبق أن أشرنا إلى أهم خصائص ذلك الطراز . ويسجل هذا الازدهار البديع ظهور هيئة من أرباب الحرف ترتبط بدايات نشوئها ارتباطاً وثيقاً بالكنيسة ، وشرع العالم للمرة الثانية في إيطاليا وأسبانيا كذلك ، يكثر من تشييد المباني بوفرة وجمال . وفي بداية الأمر كانت أموال الكنيسة وثروتها هي التي تقوم بمعظم هاتيك المباني ، ثم أقبل الملوك والتجار أيضاً على البناء . ومن ثم فإلى جوار الكنيسة والقلعة يظهر القصر الريفي والمنزل

وقد حدث في كل أرجاء أوروبا مع زيادة التجارة ، انتعاش كبير في حياة المدن منذ القرن الثانى عشر فما تلاه . ومن أبرز هذه المدن البندقية وتابعتها راجوزا وكورفو ، ثم جنوة وفرونا وبولونيا ويزا وفلورنسا وناپولى وميلانو ومرسيليا ولشبونة وبرشلونة وناربونه وتور واورليان وبوردو وباريس وغنت وبروج وبولونى ولندن واكسفورد وكبريدج وسوهمبتون ودوفر وانتورب وهمبورج وبريمن وكولونيا وماينس ونورمبرج وميونخ وليبزيغ ومجدبرج وبرسلاو وستين ودانزج وكونيجزبرج وريجا وپسكوف ونوفجورود وويسبي وبرجن .

« وكانت المدينة بألمانيا الغربية بين عامى (١٤٠٠) ، (١٥٠٠) » تضم كل ألوان التقدم التي اكتملت للناس في ذلك الأوان ، وإن كانت - من وجهة النظر العصرية -

يعوزها الشيء الكثير . . . فكانت معظم الشوارع ضيقة ، غير منتظمة المباني . وكانت المنازل تبنى في الغالب من الخشب ، على حين كاد كل ساكن من سكان المدينة يحتفظ بماشيته في منزله ، كما أن قطع الخنازير الذى يسوقه في كل صباح راعى المدينة إلى المرعى كان جزءاً لا يتجزأ من حياة المدينة » . ويذكر شارلز ديكنز في كتابه « مذكرات أمريكية » أن الخنازير كانت موجودة في برودواى ونيويورك في منتصف القرن التاسع عشر . وذلك بينما كان القانون يحرم ، في فرانكفورت على نهر المين بعد (١٤٨١) ، تربية الخنازير في المدينة القديمة (Altstadt) . ولكن هذه العادة ظلت قائمة في المدينة الجديدة (نيوستاد) وفي ساكسهاوزن - كأمر عادى بحت . ولم تتمكن السلطات من هدم حظائر الخنازير في المدينة الداخلية في ليزج إلا في (١٦٤٥) بعد محاولة فاشلة قامت بها في (١٥٥٦) . وكان سكان المدن الأغنياء الذين كثيراً ما كانوا يشتركون في شركات التجارة العظيمة من أصحاب الأراضي الواسعة الثراء ، وكانت لهم أفنية فسيحة بها أجران كبيرة داخل أسوار المدينة . وكان أوسعهم ثراء يملكون تلك البيوت الضخمة الفاخرة التي ما تزال نعجب بها إلى يومنا هذا .

« ولكن جل بيوت القرن الخامس عشر قد اندثرت حتى في المدن القديمة نفسها ، ولم يعد باقياً إلا بناء هنا أو هناك يتجلى فيه الخشب والطوباقى البارزة بعضها فوق بعض ، كما في مدينة بخاراخ (Bacharach) أو ملنبورج ، وهى تذكرنا بطراز العمارة المألوف آنذاك في بيوت سكان المدن . فأما الأغلبية الغالبة من الطبقة الدنيا من السكان ، الذين كانوا يعيشون عيش التسول ، أو يحصلون على معاشهم بممارسة الصناعات الدنيا ، فكانوا يسكنون أكواخاً قلدة خارج المدن . وكثيراً ما كانت أسوار المدينة هى الدعامة الوحيدة لهذه المباني التعسة . وتعتبر تنظيفات ومرافق المنزل الداخلية حتى عند السكان الأغنياء ، ناقصة ومعيبة جداً من وجهة النظر العصرية ، كما أن الطراز القوطى كان مكيفاً بشكل رائع لبناء الكنائس وقاعات البلديات بقدر ما كان أقل الطرز صلاحية لإبراز التفاصيل الصغيرة في وسائل الترف . على أن عصر النهضة أضاف الشيء الكثير من وسائل الراحة إلى البيوت .

« وشهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر بناء عدة كنائس للمدن وقاعات للبلديات (١) قوطية الطراز في كل أرجاء أوروبا ، ما تزال في كثير من الحالات تخدم الغرض الأصلي المنشود منها . ولا أدل على قوة المدينة ورغدها من هذه المباني والتحصينات ، بما حوت من أبراج قوية وبوابات ضخمة . وما من صور لمدينة في القرن السادس عشر أو ما يتلوها من قرون إلا وتظهر بشكل بيّن هذه النيات الأخيرة المبتناة لحماية المدينة وتثريتها .

« وكانت المدينة تتولى أشياء كثيرة تقوم بها الدولة في زماننا هذا . فإن إدارة المدينة كانت تتولى المسائل الاجتماعية أو يتولاها ما يقابل ذلك من مجالس بلدية . وكان تنظيم الحرف من اختصاص النقابات بالاتفاق مع المجلس ، على أن العناية بالفقراء من شأن الكنيسة ، على حين كان من واجب المجلس وقاية أسوار المدينة والعناية بفرق المطافئ العظيمة الضرورة والأهمية . وتنبا من المجلس إلى عنايته بواجباته الاجتماعية ، فإنه يشرف على ملء مخارن الحبوب التابعة للبلدية ، لكي يكون لديه الطعام اللازم في سنوات القحط . ولم تخل مدينة واحدة من هذه المخازن تقريباً إبان القرن الخامس عشر . ولم ينقطع قط صدور تعريفات لأسعار بيع السلع كلها ، وهي على درجة من الارتفاع تكفل لكل صانع ماهر أن يكتسب رزقاً طيباً ؛ ونضمن للمشتري جودة صنف السلعة . وكانت المدينة كذلك هي الممول الرأسمالي ؛ وبالترامها بيع المرتبات السنوية على الحياة وعند الميراث ، أصبحت تقوم بعمل البنوك وتحظى بثقة لا حد لها . وكانت تحصل مقابل تلك الخدمات على المال اللازم لابتناء التحصينات أو الحصول على حقوق السيادة من يدى أمير مفلس » .

وكانت هذه المدن الأوروبية في معظم شأنها جمهوريات أرستقراطية مستقلة أو شبه مستقلة . وكان معظمها يعترف بسيادة عليا مبهمة من جانب الكنيسة ، أو الإمبراطور أو أحد الملوك . على أن بعضها الآخر كان جزءاً من ممالك ، أو حتى عواصم

(١) قاعة البلدية Town Hall : مبنى عام يستعمل لاجتماع مجلس المدينة ولأعمال أخرى .

(المترجم)

دوقات أو ملوك . وفي مثل هذه الحالات كانت حرياتها الداخلية مكفولة باستمرار بأمر ملكي أو إمبراطوري . وفي إنجلترا قامت على نهر التايمز مدينة وستمنستر الملكية ملاصقة تمام الملاصقة وندا مساويا لمدينة لندن المسورة ، التي كان الملك لا يدخلها إلا بإذن ومراسم خاصة .

وحكمت جمهورية البندقية المستقلة إمبراطورية من الجزر التابعة والشعور التجارية ، على طريقة تقارب طريقة الجمهورية الأثينية . كذلك كانت جنوا منفصلة وحدها .

وكانت المدن الألمانية في منطقة البلطيق وبحر الشمال من ريجا إلى ميديلبرج في هولندا ودرنموند وكولونيا متحدة اتحادا كفيدراليا مفككا ، هو اتحاد مدن ألانسا ، تحت زعامة هامبرج وبريمن وليوبك ، وهو اتحاد كان ارتباطه بالإمبراطورية أضعف واشد تفككا . وقام هذا الاتحاد الذي يحتوى على أكثر من سبعين مدينة في مجموعه ، والذي كانت له مستودعات في نوفجورود وبرجس ولندن وبروج ، يبذل الجهد الكثير للاحتفاظ بالبحار الشمالية خالية من القرصنة ، تلك اللعنة التي نكب بها البحر المتوسط والبحار الشرقية .

وكانت الإمبراطورية الشرقية إبان دورها الأخير بأكمله ، منذ الفتح العثماني لأراضيها الأوربية بالبلقان في القرنين الرابع عشر وأوائل الخامس عشر حتى سقوطها في (١٤٥٣) ، تكاد تقتصر على مدينة القسطنطينية التجارية ليس غير ، فكانت من ثم « دولة مدينة » مثل جنوا أو البندقية ، لا يفرقها عنهما إلا وجود بلاط إمبراطوى فاسد يرهقها ويثقل كاهلها .

وقد بلغت حياة المدن تلك في العصور الوسطى المتأخرة ، أعلى ذرى تطورها وفخامتها في إيطاليا . فبعد انقراض أسرة هوهنشتاوفن في القرن الثالث عشر ، ضعفت قبضة الإمبراطورية الرمانية المقدسة على شمال ووسط إيطاليا ، وإن ظل الأباطرة الألمان — كما سندكر فيما بعد — يتوجون ملوكاً وأباطرة لإيطاليا حتى زمان شارل الخامس (قرابة ١٥٣٠) . ونشأ عدد من دول مدن شبه مستقلة ، إلى الشمال

من روما العاصمة البابوية . ولكن جنوب إيطاليا وصقلية ظلتا مع ذلك تحت السيادة الأجنبية . وكانت جنوة ومنافسها البندقية أكبر الثغور التجارية في ذلك العصر ، وما تزال قصورها الفخمة ونقوشها الفاخرة تحظى بإعجابنا . وانتعشت كذلك ميلانو عند سفح ممر سان جوثارد ففاضت بالثراء والقوة . ولعل أسطع المدن ضياءً في كل تلك المجموعة من النجوم الإيطالية ، مدينة فلورنسا ، وهي مركز تجارى مالى ، حظيت بعصر كعصر « بريكليس » تحت حكم عائلة ميديتشى شسبه الملكى في القرن الخامس عشر . على أن فلورنسا انتجت قبل زمان هؤلاء « الكبراء » الميديتشيين المثقفين ، الكثير من آيات الفن الجميل . فإن برج جوتو^(١) (١٢٦٦ - ١٣٣٧) ومبنى ديومو (الذى عمله برونللسكو ، ١٣٧٧ - ١٤٤٦) كانا موجودين قبل عهدهم . وقد أصبحت فلورنسا قرب نهاية القرن الرابع عشر ، مركز اكتشاف فنون القدماء واسترجاعها ومخاكتها . على أن نهضة الفنون التى قامت فيها فلورنسا بدور عظيم كبير ، من الأوفى أن نتكلم عنها في قسم تال .

٨ - النهضة الأدبية

يرتبط بهذا التيقظ العام بالحديد الذى ألم بالدكاء الأوربي الغربى انفجار عظيم في الأدب الابتداعى الخلاق . ولقد سبق أن لاحظنا ظهور الأدب في اللغة الإيطالية بفضل مبادرات الإمبراطور فردريك الثانى . وفي نفس الوقت كان المنشدون التروبادور^(٢) في كل من شمال فرنسا وپروفانس^(٣) يدفعون الناس إلى نظم الشعر باللهجات الشمالية والجنوبية ، ومنها أغاني الحب والأغاني القصصية وما شاكلها . وقد انفجرت هذه الأمور جميعاً ، إن صح لنا هذا التعبير ، كتيار سفلى يجرى تحت ميل إلى كتابة اللاتينية وقراءتها . وكان صدورهما عن العقل الشعبي وعن العقل المهاون المرسل على سجيته وليس عن العقل المتعلم . وولد بفلورنسا في (١٢٦٥) ، دانتي أليجيرى ، الذى انتهى أمره إلى

(١) برج جوتو (Giotto tower) : هو برج الحرس الكبير بكاتدرائية فلورنسا .

(المترجم)

(٢) التروبادور : مغنون جوالون في القرون الوسطى ينشدون أغاني الحب . (المترجم)

(٣) پروفانس : القسم الجنوبي من فرنسا المطل على البحر المتوسط . (المترجم)

المنفى بعد نشاط سياسى عنيف ، ثم كتب بين ما كتب من أعمال ، قصيدة رصينة جزلة فى شعر إيطالى مُقَفَّى ، هى « الكوميديا » ، وهى وشى من الإشارات الرمزية والأحداث المتقطعة غير المترابطة والبحث الدبنى . وهى تصف زيارة للجحيم والمطهر والفردوس . ومما يلوّح بعلاقتها بأدب الأجداد اللاتينى اتخاذ دانتى من فرجيل دليلاً يهديه فى المناطق السفلى (أعنى الجحيم) . وهى فى ترجماتها الإنجليزية المختلفة تسبب للقارئ مللاً وسآمة ، ولكن أهل الفكر الذين أوتوا من العلم ما يسمح لهم بالحديث فى الموضوع لا يكادون لفرط إعجابهم يستطيعون أن يعبروا عما يحسونه إزاء الجمال الرائع ، واللذة والحكمة التى تنجلي فى الأصل . وقد كتب دانتى أيضاً باللاتينية فى المسائل السياسية وفى الدفاع عن حق اللسان الإيطالى بأن يعد لغة أدبية . فوجه إليه نقد لاذع لاستعماله اللغة الإيطالية ، واتهم بعدم المقدرة على كتابة الشعر باللاتينية .

وبعد ذلك بزمن وجيز أخذ پترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) كذلك يكتب الأهازيج (Sonnets)^(١) والقصائد الغنائية Odes باللغة الإيطالية مما أثار حمية جميع من بلغ من الثقافة حداً يمكنه من التأثير بهما . مثال ذلك ما كتبه چون أدينجتون سيموندس : « إن القافية فى قصيدة حياة المادونا لورا ووفاتها (Vita e Morte di Madonna Laura) لا يمكن أن يتقدم عليها العهد مهما طال الزمن ، وذلك لأن الصيغة العروضية البالغة حد الكمال قد قرنت فيها إلى الألفاظ المنتحلة الصافية » . على أن القصائد تتركنا فى شك من أمر وجود المادونا لورا . وكان پترارك أحد جماعة من الإيطاليين الذين دأبوا جاهدين فى استرجاع أمجاد الأدب اللاتينى . وإن كتاب معالم تاريخية كهذا قد لا تستطيع فيه هذه الأمجاد أن تبلغ حد السمو الذى لاحت به فى عين جيل من الإيطاليين أخذ يفتح عينيه ثانية على ما للجمال الأدبى من روعة تهز الأنفس . ثم ذوت عملية الكتابة بالإيطالية ردىحاً من الزمان انتعش أثناءه التأليف باللاتينية . فكتب پترارك ملحمة باللاتينية هى « أفريكا » . وظهر محصول ضخيم من الكتابة الكلاسيكية الكاذبة (Pseudo-classical) ، وهى ملاحم ومآسى (تراجيديات) زائفة ومهازل (كوميديات) زائفة باللاتينية ، لاشك

(١) الأهازيج أو السونيتات : ضرب من القصائد الأوربية مكون من ١٤ بيتاً وله بحر خاص .
(المترجم)

في شبهها الكبير بالأشعار والنثر البياني المنمق الذي يصدر في الإنجليزية من بعض الموهوبين من شباب الهنود . ولم يحدث أن عاد الشعر الإيطالي من جديد إلى رفعة وتميزه إلا بعد ذلك بزمان ، بظهور بوياردو ثم آريوستو (١٤٧٥ - ١٥٣٣) . ولم تكن قصة آريوستو المسماة (أورلاندو فوريوسو) إلا الآية المتروكة لعدد جم من القصائد الرومانسية القصصية التي كانت تدخل البهجة إلى قلوب قراء عصر النهضة القليلي الاطلاع . وكانت هذه القصائد القصصية تعترف على الدوام بالفضل لذويه بإشارتها ومحاماتها بشكل ما لتقاليد الملحمة الفرجلية المصطنعة ، التي هي في حد ذاتها عمل جليل ينطوي على المحاكاة وموفور الاطلاع . وتتكون كتلة هذا الأدب من الكوميديبات والقصيدة القصصية ، والقصائد القصيرة في أشكالها المتنوعة . ولم يبلغ النثر من التكلف والدمائة الدرجة التي تجعله موضع استحسان النقاد .

وكذلك رانت على تيقظ الحياة الأدبية في المجتمع الناطق بالفرنسية ذكريات للأدب اللاتيني . وكان هناك بالفعل أدب من الأغاني المرحية كتب في فرنسا بلاتينية القرون الوسطى ، وهي أغاني الحان والطريق (وهي ما يسمى بالشعر الجولياردى في القرن الثالث عشر) ، وظلت روح هذه الكتابة الأصيلية تعيش في الأشعار الصادقة التعبير لشعراء مثل فيتون Villon (١٤٣١ - ١٤٦٣) ؛ ولكن انتعاش الدراسات اللاتينية انتقل من إيطاليا وفرض التكلف على الناس عامة اللهم إلا أصحاب أقوى العقول ، وتأسس أسلوب محكم فيه شيء من جلال المباني الحجرية الأثرية . وأنشئت قصائد فاخرة وروايات تمثيلية كلاسيكية قصد منها إلى استثارة إعجاب الخلف (الأجيال التالية) أكثر من إدخال السرور عليهم . ومع هذا فإن عبقرية الحياة الفرنسية لم تقتصر اقتصاراً تاماً على هذه الممارسات الرفيعة ؛ فإن نثراً يتصف بالامتياز والمرونة قد ظهر . وكتب مونتين (١٥٣٣ - ١٥٩٢) ، وهو أول كاتب المقالات ، كتابات لطيفة عن الحياة وكرهية عن العلماء ، وانفجر رابليه (١٤٩٠ ؟ - ١٥٥٣) كسيل من الحمم المحرق الصاحب الضاحك ، انفجر محطاً ما للعلماء المتحدثين في عصره من مظاهر الكرامة واللياقة .

فأما في ألمانيا وهولندا فإن الدوافع الفكرية الجديدة جاءت في نفس الوقت تقريباً الذي تجلت فيه الآثار السياسية والدينية الضخمة للإصلاح الديني ، كما أنهما أنتجتا أشكالاً روحها الفنية أقل نقاء . يقول ج . أدنجنجتون سيموندس : إن إيراسموس (إيرازم)

هو الممثل العظيم لعصر النهضة في هولندا مثلما كان لوثر في ألمانيا ، ولكنه لم يكتب بالهولندية بل باللاتينية .

وحدث في إنجلترا انفجار في النشاط الأدبي يرجع إلى القرن الرابع عشر . فأنشج جفرى شوسر (١٣٤٠ ؟ - ١٤٠٠) شعراً قصصياً ممتعاً نهج فيه بشكل ظاهر نهج النماذج الإيطالية ، على أن قدراً كبيراً من الشعر القصصى الرومانسى كان موجوداً من قبل . ولكن الحروب الأهلية وحروب الوردتين والوباء والمنازعات الدينية قضت على هذه البداية الأولى ، ومن ثمة لم يدخل الأدب الإنجليزي مرحلة الحياة القوية إلا مع استهلال القرن السادس عشر بعد عهد هنرى الثامن . فحدث في مستهل الأمر انتشار سريع للدراسات الكلاسيكية وسيل من الترجمات عن اللاتينية والإغريقية والإيطالية بعث الحماس في الأذهان . وظهر محصول فجائى من الكتابات الإنجليزية الممتازة . وأخذ الكتاب يدعون اللغة الإنجليزية ويختبرونها ويصقلونها . وكتب سبنسر قصته (الفيرى كوين) ، وهى عمل رمزى ممل له جمال زخرفى عظيم . ولكن الدراما فى أيام الملكة إليزابث ، كانت المضمار الذى وجدت فيه العبقريّة الإنجليزيّة خير مجال للتعبير عن نفسها . لم تخضع قط للتقاليد الكلاسيكية ، بل كانت الدراما فى عصر إليزابث شكلاً أو قالباً أدبياً جديداً أهدا اكتمالا وأتم تحرراً وأعظم قوة وأحفل بالسمة الطبيعية التامة . ووجدت فى شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) خير من يجلبها إلى أقصى حد ؛ وهو رجل كان لديه لحسن الحظ « القليل من اللاتينية والأقل من الإغريقية » ، وكانت أجزل فقراته وأحفلها بالبراعة مستقاة من الحياة المتواضعة بل حتى السوقية ، كان رجلاً ذا فكاهة سادة وحلاوة ذهنية عظيمة ، يحول كل جملة يكتبها لحناً شجياً ، وولد ملتون (١٦٠٨ - ١٦٧٤) قبل وفاة شكسبير بثمانية أعوام . وقد أسبغت دراساته الكلاسيكية الأولى فى صباه على كل من شعره ونثره سمّة شتتالة من الكبرياء والفخامة لم تزل منهما قط زوالاً تاماً . رحل إلى إيطاليا وشهد روائع التصوير فى عصر النهضة . وترجم تصاوير رافاييل وميشيل انجلو شعراً إنجليزياً فائقاً دونه فى ملحمتيه العظيمتين « الفردوس المفقود » و « الفردوس المستعاد » . ومن حسن حظ الأدب الإنجليزي أن شكسبير جاء ليوازن ملتون وينقذ قدراً كبيراً من الروح الجوهرى لذلك الأدب من التشيع بالروح الكلاسيكى .

وأنتجت البرتغال بلمسة نالتها من النهضة الأدبية ، ملحمة اللوسيدادة التي وضعها كاموينس (١٥٢٤ - ١٥٨٠) ولكن كان من حسن حظ أسبانيا - شأن إنجلترا ، أن وجدت رجلا ذا عبقرية فائقة ، لا يثقل فرط العلم كاهله ، يعبر لها عن روحها . فإن سرفانتيز (١٥٤٧ - ١٦١٦) تناول بسخريته الفكاهات والسخافات التي أثارها في رأس رجل هزيل فقير نصف مجنون ، نزاع نشب بين تقاليد الفروسية في العصر الوسيط وبين احتياجات الحياة السوقية ودوافعها . وإن بطليته دون كيشوت وسانكوپانزا - شأن بطل شكسبير السير جون فالستاف وبطلة شوسر زوجة باث ، وبطل رابليه جارجتوا - ليقترحا كرامه الأدب الشكلي القديم وبطولاته مدخلين عليهما الحرية والضحك . وإنهما ليقترحا خلاهما كما اقتحم روجر باكون والرجال العلميون علم العلماء المدرسانيين المعتمد على الكتب وحدها ، وكما اقتحم المصورون والمثالون الذين سنتكلم عنهم فيما بعد ، القيود والتضييق الزخرفية والتزام الاحتشام الديني في فنون العصور الوسطى . ولم تكن الحقيقة الجوهرية التي اجتذبتها عصر النهضة هي الروح الكلاسيكية بل إطلاق السراح وتحطيم القيود ؛ ولم يكن لإحياء العلوم اللاتينية والإغريقية إلا إسهاماً في القيم الإيجابية لعصر النهضة ، لما لتلك القيم من تأثير مدمر للتقاليد الكاثوليكية والقوطية والإمبراطورية .

٩ - النهضة الفنية

لا شك أن مما يتجاوز مجالنا وحدودنا أن نقف النهضة المتعددة في الفنون المحلية والزخرفية في هذه الفترة العظيمة من الانتعاش البشري العام ؛ وأن ننبئك كيف كُيِّفَ الفن القوطي الشمالي لمباني البلديات والمباني الخاصة ، ثم كيف أدخلت عليه التعديلات ، واستبدل إلى حد كبير بأشكال مستقاة من الفن (الرومانسكي) الإيطالي ، ومن إحياء التقاليد القديمة في إيطاليا . ولم يحدث قط أن مالت إيطاليا إلى الفن القوطي الذي اجتاحتها من الشمال ، أو إلى الأشكال العربية التي دخلتها من الجنوب . وفي القرن الخامس عشر تم اكتشاف الكتابات اللاتينية التي سطرها قثروفيوس (Vitruvius) في فن العمارة ، وكانت منها قويا زاد في عمليات التغيير التي كانت تجري فعلا .

فانتشرت المؤثرات الكلاسيكية القديمة التي كانت تنهمر في الأدب بقوة ، منتقلة إلى عالم الخلق والابتكار الفني المتفزز بالنشاط آنفاً .

ولكن كما أن الانتعاش الأدبي قد سبق لإحياء الدراسات الكلاسيكية (إحياء العلوم القديمة) ، فقد جرى كذلك أن الیقظة الفنية بلغت أقصى مراتب تقدمها قبل اتجاه الأنظار إلى الفن التمثيلي^(١) الكلاسيكي . فإن أوروبا أخذ يشتد فيها على التدريج منذ أيام شرلمان بروز الميل إلى المحاكاة التمثيلية للطبيعة وإيثارها على الفن الزخرفي . فحدث بألمانيا إبان القرنين الثاني عشر والثالث عشر تطور قوى في فن التصوير ، وأعنى به تصوير أشياء حقيقية على الخشب . فأما في إيطاليا — حيث كانت الأشكال المعمارية تتيح لأهل الفن براحاً أرحب مما يتيحها الفن القوطي ، فإن أهمية التصوير على الجدران كانت تزايد . وقامت أول مدرسة محددة التصوير الألماني في مدينة كولونيا (١٣٦٠ فما تلاها) . وبعد زمن غير كبير ظهر في هولندا الأخوان هوبارت وچان فان آيك (قرابة ١٣٨٠ — ١٤٤٠) . ويمتاز عملهما بالإشراق والنضرة والبهجة وهو يشبه ما في كتاب القديس (الخولاچی) من تصويرات . ولكنها حية تنفس الهواء على السطوح الأرحب للوحات المصورة (Panels) .

وكان تشيمابويه (Cimabue) يصور في القرن الثالث عشر ، وهو أستاذ چوتو (١٢٦٦ — ١٣٣٧) ، الذي يبرز بوصفه الشخصية الضليعة المبكرة في تلك المرحلة الأولى من مراحل نهوض الفن إلى سابق عهده . وهي مرحلة بلغت ذروتها في شخص فرا أنجليكو دا فيسولي (١٣٨٧ — ١٤٥٥) وختمت به .

وعند ذاك ابتداء في إيطاليا وبخاصة في فلورنسا ، بحث علمي بالمعنى الدقيق في الوسائل الفنية للفن التمثيلي الواقعي . ولا حاجة بنا أن تؤكد بقوة أن جوهر التغيرات التي كانت تحدث في الفن والنحت في أوروبا في عصر النهضة هو التخلي عن الاعتبارات الجمالية والاستمسك بالاعتبارات العلمية ، وهي حقيقة تجاهلتها على الدوام

(١) الفن التمثيلي Representative art : هو مجموعة فنون الرسم والتصوير والتشكيل وسمى بالتمثيل لأنه يمثل الطبيعة والحياة . (المترجم)

جميع الكتب التي تبحث في الفنون . فنشأ في مكان تصميم الحلقات وصوغ أشكال الزخارف بما فيها من شكلية وتجريد وجمال ، بحث وراء الواقع كان في خير أحواله جريئاً بديعاً وغالباً ما كان خشناً صريحاً إلى حد مؤلم . فعلى الجدران والأحجار ظهر من جديد ما للجسم الإنساني في هيئته الساذجة من تمايس ولدونة حركة بعد أن قضى عليهما الفن العربي وجمدها الفن البيزنطي . فقد أخذت الحياة تدب ثانية في الفن وأخذت من فورها تنفّس وتحرك وتتصبّب عرقاً وتؤدي الإشارات المعبرة ، ودرست مشاكل المنظور ووجدت لها الحلول ، وشرع المصورون لأول مرة مع التمكن والاطمئنان في أن يمثلوا « العمق » في الصورة . وأخذ الفنانون يدرسون التكوين التشريحي للبدن دراسة استقصاء مدققة . وقد ظل الفن فترة من الزمان ثملاً تسكره خرة التمثيل التشكيلي . فأقبل المصورون على التفاصيل يظهرونها إظهاراً دقيقاً صادقاً — الزهور والجواهر ، والذنيات في القماش والانعكاسات في الأشياء الشفافة . ووصل الفن إلى دور من الجمال الزخرفي المتطرف وتجاوزه .

وليس في إمكاننا أن نقفوا هنا المضي المتواصل لهذه الدوافع المبتعثة خلال المدارس المختلفة بمدن إيطاليا وشمال ألمانيا ، ولا أن ننأثر التفاعلات المتبادلة بين جماعات المصورين الفلمنكيين والفلورنسيين والأمبريانيين^(١) وغيرهم . وسنقتصر فقط على ذكر أسماء بعض كبار أساتذة القرن الخامس عشر الفلورنسيين ، فيليببولي وبوتشيلي وغرلنداجو ، والأمبريانيين : سنبورلي وپروجينو ومانتيا . فأما مانتيا (١٤٣١ - ١٥٠٦) فإنه يهزم جميعاً لأن الإنسان يلحظ في عمله وحده أكثر من أي معاصر له ، روح الفن القديم الكلاسيكي المسترجعة . وإن له في خير أحواله لصرامة لا تجارى .

وظهر مع القرن السادس عشر ليوناردو دافنتشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) الذي أسلفنا لك القول في آرائه العلمية . وكان هناك في نورمبرج شخص ذوروح قريبة من روحه هو ألبريخت دورر (١٤٧١ - ١٥٢٨) . وارتفع فن البندقية إلى ذروة مجده ،

(١) الأمبريانيون (Umbrian) : نسبة إلى أمبريا وهي مندلقة بوسط إيطاليا .

(المترجم)

بفضل كل من تتيان (١٤٧٦ ؟ - ١٥٧٦) وتنتورتو (١٥١٨ - ١٥٩٤) وپول فيرونيزي (١٥٨٢ - ١٥٨٨) . ولكن ليس يعنى القارئ في كثير ولا قليل أن نقوم بسرد الأسماء له ، ولن تستطيع أجود صور مستنسخة لهم ، نقدمها للقارئ ، أن تقدم إليه إلا إشارات قليلة عن « كنه وكيف » هؤلاء الأساتذة ، وما نستطيع بواسطة المطبعة إلا أن نذكر علاقتهم العامة بالفن والحياة بوصفهم عوامل في اتجاه جديد نحو الجسم والأشياء الملموسة . ولا بد للقارئ الدارس من الرجوع إلى صورهم الأصلية يطلب فيها بنفسه إدراكاً واقعياً لسماتهم المميزة . وربما أشرنا له إلى صورة تتيان المعروفة بالاسم غير المطابق لها ، وهو « الحب الطاهر والحب الدنس » ، أو إلى مختلف صور العرافات (Sibyls) وإلى « خلق آدم » التي رسمها مايكلا نجلو على سقف كنيسة السميتين ، بوصفهم من أبدع أزاهير تلك الروضة فتنة وجمالاً . وانتقل فن التصوير إلى إنجلترا على يد هانز هولبين الألماني (١٤٩٧ - ١٥٤٣) ، وذلك لأن إنجلترا قد بلغ بها التمزق في الحرب الأهلية حداً لم تستطع معه أن تظل في كنفها أية مدرسة للفن . كان مجيئه مجرد زيارة عابرة . بل إن عصر الملكة إليزابث نفسه - وناهيك بترائه في الأدب وبخصبه في الموسيقى - لم ينتج أى تصوير أو نحت يمكن أن يقارنا بمثاليهما في إيطاليا وفرنسا . ولم تلبث الحروب والشغب السياسى أن عوقت فن ألمانيا عن التقدم ، واكن الدافع الفنى الفلمنكى استمر إلى روبنز (١٥٧٧ - ١٦٤٠) ، ورامبراندت (١٦٠٦ - ١٦٦٩) ، وإلى عدد عظيم من مصوري الهنرى^(١) البهيج والمناظر الطبيعية البرية الذين أنتجوا صوراً زيتية في غرب أوروبا الأقصى ، والذين كان لإنتاجهم شبيهاً في روحه وموضوعه شبيهاً عجيبياً بطائفة من أقدم الصور الصينية دون أن يكون هناك أى احتمال لوجود علاقة أو نقل أو محاكاة . وربما كان هذا التماثل راجعاً إلى وجود تماثل ما غامض في الظروف الاجتماعية .

وأخذت عظمة مصورى إيطاليا تنحدر وتخبو منذ نهاية القرن السادس عشر . فذوت حماسة الناس وإحساسهم بطرافة تصوير الجسم الإنسانى المغمور بالضياء بكل ما يحتمل أن يحتويه من ثنيات ، ومن امتداد ومن التقصير الأمامى (Exiension & Foreshortening)

(١) الهنرى (Genre) : نوع وطرز من تصوير مناظر الحياة العادية . (المترجم)

بين أحضان خلفيات (Backgrounds) لها نصاعة وإشراق يفوق ما للطبيعة من إشراق . كما أن مبررات اتخاذ النحت والأساطير (الميثولوجيا) الكلاسيكية موضوعات للتماثيل التي تمثل التبرينات الجثمانية قد استنفدت أغراضها إلى حد كبير . ولم تعد تستثير العقواء الأصلية الصور التي تقوم بتمثيل الفضائل والذائل والفنون والعلوم والمدن والأمم وما إليها بأشكال نسائية مكشوفة كشفاً حراً ومقدمة في هيئة تسر الأعين ؛ وظهر طراز من المحترفين أقل ميلاً للاجتهاد وأخذ في ممارسة الفن قانعاً بتصوير صور كانت في خير أحوالها مجرد مطاولة لصور موجودة من قبل . فأما فن النحت الأوربي الذي تطور بهيئة بطيئة طبيعية في ألمانيا وفرنسا وشمال إيطاليا منذ القرن الحادي عشر فما أعقبه من قرون ، والذي كان أنتج أعمالاً ممتازة من أمثال ملائكة الكنيسة المقدسة بباريس ، تماثيل الفارس لكان جراندي في فيرونا ، وتماثيل كليلوني في البندقية (الذي صنعه فيروتشيوي وليوباردى) — فلم يلبث أن جرفته أمامها المحاولات التي أنفقت لإحياء الصفات الخاصة التي تمتاز بها صناعة التماثيل الكلاسيكية التي كان الناس عند ذلك قد استخرجوها من الأرض وأخذوا ينظرون إليها معجبين . فأنتج مايكلا نجلو وهو سكران بنشوة هذا الإلهام أعمالاً بالغة الذروة في القوة والكرامة مع تمكن في تكوينها التشريحي لا يشق له غبار وهي أعمال أذهلت خلفاءه ودفعتهم إلى التقليد ، فأوردتهم ذلك موارد التدهور . ومع تقدم الزمن بالقرن السابع عشر أخذ فن التصوير الأوربي والنحت يتخذان لنفسيهما سمة الرياضى الذي أفرط تمريناً حتى بلغ حد الإعياء ، أو الوردية التي أفرطت في التفتح .

على أن حاجات الناس المادية تدعم فن العمارة عندما تضمحل الفنون الأقل منه ضرورة ، ولذلك تواصل إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر إنتاج مستمر متنوع لمبانٍ رقيقة جميلة في كل أرجاء أوروبا . ولن نذكر لك إلا اسم بالاديو (١٥١٨ - ١٥٨٠) ، الذي تملأ أعماله مدينة فيشنزا مسقط رأسه ، والذي نشرت كتبه وتعاليمه في كل أقطار أوروبا تقريباً أسلوبه الكلاسيكى المبتعث حياً . وإنه ليحاكى ينبوعاً عظيماً يفيض بالأفكار المعاصرة . ولسنا بمستطيعين ها هنا أن نقص أثر التفريعات والتغيرات المعقدة التي أملت بعمارة عصر النهضة والتي استمر تطورها استمراراً طبيعياً ومتواصلاً حتى زماننا هذا .

ولم يكن فن التصوير في أسبانيا نباتاً أصيلاً في أراضيها كما كان حاله ألمانيا وإيطاليا . فإن المصورين الإسبان كانوا يهبطون إيطاليا للدراسة ثم يعودون بفهم . ولكن حدث في النصف الأول من القرن السابع عشر ، في البلاط المتقلص الذي كان ما يزال محتفظاً بآرائه ، أن ازدهر التصوير الإسباني فيلاسكوز (١٥٩٩ - ١٦٦٠) العظيم الأصيل . فكانت له إلى الأشياء نضاً بالطرافة والقصد المباشر إلى الغاية ، وكانت في مرقاشه قوة جديدة ؛ فهو - في ذلك رامبراندت الهولندي - يبرز متفوقاً على بقية مصوري عصر النهضة ؛ والكيف كما أنه يسير في طريق أقوى ما أنتجت أخريات القرن التاسع عشر و زماننا هذا من أعمال .

١٠ - أمريكا تدخل التاريخ

سقطت القسطنطينية في (١٤٥٣) كما أسلفنا إليك القول . وظل الضعف على أوروبا طوال القرن التالي قوياً لا ينقطع . فإن الحد الفاصل بين المغولى و الذى كان يمتد في مكان ما شرق هضبة الهامير في أيام پريكليس ، تراجع إلى هنغاريا . وتحولت القسطنطينية رشحاً طويلاً من الزمان إلى مجرد مسيحيين تحيط بها شبه جزيرة البلقان الذى يحكمه الترك ؛ وأفضى سقوطها التجارة مع الشرق إلى حد كبير .

فأما مدينتا البحر المتوسط المتنافستان جنوة والبندقية ، فكانت الأخيرة وجه الإجمال أحسن علاقة بالترك من الأولى . لذا كان كل ملاح جنوى ذ من احتكار البندقية ، نجارة في البحر المتوسط ، ويحاول أن يستنبط طريقاً نطاق ذلك الاحتكار أو الدوران من حوله . وظهرت عند ذلك شعوب جديدة هويت التجارة البحرية ، ومالت إلى البحث عن طرق جديدة تؤدي إلى القديمة ، وذلك لأن الطرق العتيقة كانت مغلقة وجوههم .

فكان البرتغاليون مثلاً يطورون تجارتهم بإزاء شواطئ المحيط وبذا أخذ ذلك المحيط يستيقظ من جديد بعد مدة إهمال مترامية ترجع إلى أوا

قرطاجة على يد الرومان . ومن العسير علينا الفصل فيما إذا كان الأوربي الغربي يندفع إلى المحيط من تلقائه أم كان يدفعه الأتراك إليه دفعاً ، وهم الذين كانت لهم السيادة في البحر المتوسط حتى يوم معركة ليبانتو (١٥٧١) . فإن السفائن البندقية والجنوية كانت تتسلل بمحاذاة الشواطئ حتى تبلغ انتورب (١) ، وكان ملاحو مدن الهانسا أخذوا ينحدرون جنوباً ويوسعون مجاهم . وحدثت أثناء ذلك تطورات ضخمة في فنون الملاحة وبناء السفن . ولا يخفى أن البحر المتوسط بحر قوادم (٢) وملاحة ساحلية . ولكن المحيط الأطلسي وبحر الشمال ، أكثر رياحاً وأشد موجاً والشواطئ فيهما في كثير من الأحيان مصدر خطر أكثر منها كنفاً يحمي به . فاستدعت البحار العالية وجود السفينة الشراعية الضخمة ، ومن ثم يتم ظهورها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وتمخر البحر مسترشدة في طريقها بالبوصله والنجوم .

وكان تجار الهانسا عندما وافي القرن الثالث عشر يقلعون بانتظام عبر البحار الباردة الشبهاء ، من برجن إلى أهل الشمال سكان أيسلندة . وعرف الناس من أيسلندة خبر جرينلندة ، وكان الرحالة المغامرون قد وجدوا من زمان مديد أرضاً أخرى خلفها ، هي فينلندة ، حيث المناخ لطيف معتدل وحيث يستطيع الناس أن ينزلوا ويستقروا إن آثروا أن يقطعوا الصلة بينهم وبين بقية الجنس البشري . وفينلندة هذه إما أن تكون نوفا سكوتشيا أو ، نيوانجلند (٣) وهو الأرجح .

وكان التجار والبحارة في كل بقاع أوربا في القرن الخامس عشر يقلبون الفكر في شأن طرق جديدة تفضي إلى الشرق . وكان البرتغاليون يتساءلون غير عالمين بأن الفرعون نخاو قد حل المشكل قبل زمانهم بعصور مديدة : أليس في الإمكان أن يصل الناس إلى الهند بالدوران حول ساحل أفريقيا ؟ . واتبعت سفنهم (١٤٤٥) نفس الطريق الذي سلكه هانوا إلى رأس قردي ، فانطلقوا في البحر غرباً ووجدوا جزائر الكاناري وماديرا والأزورس . وكانت تلك خطوة طويلة نوعاً ما عبر الأطلسي . يقول السير هاري جونسون متحدثاً عن هذه المغامرات البحرية في المحيط الأطلسي الشرقي وبمحاذاة الشاطئ الإفريقي الغربي : « إن البرتغاليين قد سبقهم في القرنين

(١) وهي بالفرنسية أنفرس ، وتقع الآن في بلجيكا . وكانت لها أهمية تجارية عظيمة . (المترجم)

(٢) القادس أو الغليون Galley : طراز قديم من السفينة الشراعية الكبيرة ذات المحاديف . (المترجم)

(٣) هو الاسم الذي يطلق على المنطقة الشمالية الشرقية من الولايات المتحدة ويضم ولايات : ماين

ونيوهمشير وفرمونت وماساشوسيتس ، ورود - آيلند ، وكونيكتيكت . (المترجم)

الثالث عشر والرابع عشر وأوائل الخامس عشر كل من النورمان والقطالونيين والجنوئين. ولكن مناشط البرتغاليين سمت إلى الذروة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ومهما يكن الأمر فهم وحدهم الذين ثبتوا المكتشفات، وركزوها بعد أن كانت حتى ذلك الحين مجرد زيارات مبهمة عارضة. فكانوا رواد علم الفلك البحري». وفي (١٤٨٦) أعلن برتغالي اسمه برنولوميو دياز أنه دار حول جنوب أفريقيا. وبذلك انفتح السيل أمام مغامرة فاسكودا جاما الكبرى بعد ذلك بإحدى عشرة سنة. وقبل أن يتجه الأسبان إلى الغرب كان البرتغاليون يفتشون طريقهم إلى الشرق فعلا.

وشرع جنوى اسمه خرستوف كولمبس يعن في التفكير فيما نعتبره الآن مشروعاً واضحاً. وطبيعياً جداً، ولكنه مشروع أجهد خيال القرن الخامس عشر إلى أقصى حد، وهو الإبحار نحو الغرب مباشرة عبر الأطلسي. ولم يكن أحد يعرف في ذلك الزمان بوجود أمريكا بوصفها قارة منفصلة. كان كولمبس يعرف أن العالم كروي الشكل، ولكنه أخطأ في تقدير حجمه، فزعمه أقل من حقيقته، وذلك لأن رحلات ماركوپولو أدلت إليه بفكرة مبالغ فيها عن مدى اتساع آسيا، فظن تبعاً لذلك أن اليابان بما لها من صيت بعيد في ثروة عظيمة من الذهب كانت تقع عبر الأطلسي في ما يقارب موقع المكسيك. وقد قام برحلات متنوعة بالحيط الأطلسي، ووصل إلى أيسلندة ولعله سمع هناك شيئاً عن فينلندة، وهو أمر لابد أنه شجع في نفسه فكراته تلك، وأصبح ذلك المشروع، مشروع السفر إلى مغرب الشمس الهدف الأسمى المتسلط على حياته.

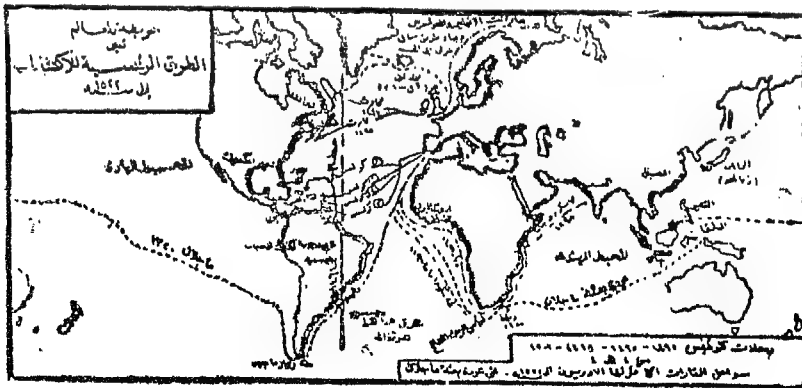
كان رجلاً مملقاً، تقول بعض الروايات عنه إنه كان مفلساً، ولم تكن أمامه من وسيلة للحصول على سفينة إلا أن يحمل أحد الناس على أن يسند إليه قيادة سفينته. فذهب بادي ذى بدء إلى الملك جون الثاني البرتغالي، فأصغى إليه وأقام في سبيله الصعاب، ثم دبر أمر رحلة تقوم بغير علم منه؛ وتكون رحلة برتغالية صرفة. وأخفقت هذه المحاولة المغرقة في «الدبلوماسية» الملتوية والتي قصد بها استراق السبق إلى السفر خفية عن رجل عبقرى أصيل، ويحق ما أخفقت، فلن الملاحين تمردوا،

١٠٢٩

وفقد الربان شجاعته وعاد أدراجه (١٤٨٣) . عند ذلك اتجه كولبس إلى البلاط الأسباني .

ولكنه لم يتمكن في بادئ الأمر أن يحصل لا على سفن ولا على تفويض . وذلك لأن أسبانيا كانت تهاجم غرناطة ؛ آخر معقل للمسلمين في أوروبا الغربية . وكان المسيحيون قد استردوا معظم أسبانيا إبان الفترة بين القرن الحادى عشر والقرن الثالث عشر ، ثم تلا ذلك فترة توقف . فلما أن أصبحت كل أسبانيا المسيحية كتلة واحدة بزواج فرديناند الأرجونى من إيزابلا القشتالية ، نهضت لاستكمال الفتح المسيحى . حتى إذا غلب اليأس على نفس كولبس من مساعدة أسبانيا له ، بعث بأخيه بارثولوميو إلى هنرى السابع ملك إنجلترا ، ولكن المغامرة لم ترق في عين ذلك الملك الحذر . وأخيراً سقطت غرناطة (١٤٩٢) . وهى شىء طفيف من التعويض عن فقدان المسيحية لمدينة القسطنطينية قبل ذلك بخمسين سنة . وما عم كولبس أن حصل على سفائنه بمساعدة بعض تجار مدينة بالوس ، وهى ثلاث سفن لم يكن منها إلا واحدة ذات سطح هى « السانتاماريا » وحمولتها مئة طن . وكانت السفينتان الأخريان زورقين مكشوفين لهما نصف الحمولة .

وانحدرت الحملة الصغيرة - وكان مجموع عدد أفرادها ثمانية وثمانين رجلاً - جنوباً إلى جزائر الكنارى ، ثم انطلقت تعبر البحار المجهولة ، فى جو جميل وتحت ربيع مواتية .



(شكل ١٦٢) خريطة للعالم تبين رحلات الاستكشاف الرئيسية إلى سنة ١٥٢٢

ولا بد للقارئ من أن يقرأ بالتفصيل قصة تلك الرحلة الجلييلة الشأن التي دامت شهرين وتسعة أيام حتى يقدرها قدرها . كانت نفوس البحارة تفيض بالخاوف والشكوك ؛ فكانوا يخشون أن يظلوا يسبرون في البحر إلى الأبد ، ولكن رؤيتهم بعض الطيور وعثورهم على قضيب من الخشب فيه آثار بعض الآلات ، وعلى غصن يحمل بعض ثمار غريبة أدخلت الطمأنينة على أفئدتهم . وفي الساعة العاشرة من ليلة ١١ أكتوبر ١٤٩٢ أنس كولمبس أمامه نوراً ؛ وفي الصباح التالي شوهدت الأرض ، ونزل كولمبس والصبح ما يزال يتنفس ، إلى أرض العالم الجديد في ثياب فاخرة وهو يحمل راية أسبانيا الملكية .

وعاد كولمبس إلى أوروبا في مستهل (١٤٩٣) ، مجتلباً معه ذهباً وقطناً وحيوانات وطيوراً غريبة وهنديين هائجين منقوشى الجسم ما لهث أن عمدهما في الكنيسة ، وزعم أنه لم يجد اليابان ، بل وجد الهند . ولذلك سميت الجزر التي اكتشفها باسم جزر الهند الغربية . وفي نفس السنة رحل مرة أخرى تصحبه حملة عظيمة من سبع عشرة سفينة وألف وخمسة رجل ، بإذن خاص من البابا بأن يمتلك تلك الأراضي الجديدة للتاج الأسباني .

ويضيق بنا المقام عن الحديث عما مرّ به من الحوادث وهو حاكم لهذه المستعمرة الأسبانية ، ولا عن كيف عُرّل وكبل بالأصفاد . ولم يمض زمن طويل حتى كان حشد من المغامرين الأسبان يرتادون الأراضي الجديدة . ولعل من الشائق أن نسجل أن كولمبس مات وهو يجهل أنه اكتشف قارة جديدة . فإنه ظل يعتقد حتى يومه الأخير أنه دار حول العالم إلى آسيا .

وأحدثت أخبار اكتشافاته هزة عظيمة . كل أرجاء غرب أوروبا . وحفزت البرتغاليين أن يجددوا محاولاتهم الوصول إلى الهند بطريق جنوب إفريقيا . وفي (١٤٩٧) أقلع فاسكودا جاما من لشبونة إلى زنجبار ، ثم سار من هناك بهداية دليل عربي فاخترق المحيط الهندي إلى قاليقوط في الهند .

وأصبحت للبرتغال (١٥١٥) سفائن في جواه وجزر مولوفا (١) (مُلْكًا) . وفي

(١) جزر مولوفا أو جزر البهارات : مجاميع من الجزر البركانية تقع في اندونيسيا الشرقية . وتشتهر بالتوابل . (المترجم)

(١٥١٩) سار ملاح برتغالى اسمه ماجلان ، يعمل فى خدمة ملك أسبانيا جنوباً محاذياً لشاطئ أمريكا الجنوبية ، فاجتاز « مضيق ماجلان » المظلم الخيف ، وبهذا وصل إلى المحيط الهادى الذى سبقه إلى مشاهدته المكتشفون الأسبان الذين عبروا برزخ پيما .

وواصلت بعثة ماجلان سيرها قُدُماً إلى الغرب عبر المحيط الهادى . وكانت تلك رحلة يتجلى فيها من آيات البطولة قدر أوفى كثيراً مما فى رحلة كولمبس ، إذ ظل ماجلان « تسعين وثمانية من الأيام » يسير بسفائه غير هياب ولا متردد على أمواه ذلك المحيط الهائل الخالى المترامى الأطراف ، دون أن يرى فيه شيئاً إلا جزيرتين صخراويتين صغيرتين . وتفشى مرض الإسخربوط وعمل عمله فى البحارة ، ولم يبق إلا القليل الفاسد من الماء والتالف من البسكوت . وكان البحارة يصيدون الفئران بلهفة شديدة ويقرضون جلود البقر ويلتهمون نشارة الخشب لكى يَقِفُوا عضات الجوع فى أحشائهم . وصلت البعثة إلى جزائر اللادرون وهى على هذه الحال السيئة ، فاكتشفوا جزر الفلبين ، وهناك قتل ماجلان أثناء عراك مع الأهلى . وقتل كذلك كثير من الربابنة . وقد خرج ماجلان فى أغسطس (١٥١٩) بخمس سفن عليها مئتان وثمانون رجلاً ، ولكن لم تعد منها إلا « الفيتوريا Vitoria » فى يولية (١٥٢٢) وعليها البقية الباقية وعددها واحد وثلاثون رجلاً . عادت مصعّدة فى المحيط الأطلسى إلى مرساها قرب رصيف أشبيلية فى نهر الوادى الكبير — وهى أول سفينة دارت حول هذا الكوكب .

فأما الإنجليز والفرنسيون والهولنديون ونوتية مدن الهانسا ، فإنهم هبطوا إلى ميدان مغامرة الارتباد هذه متأخرين نوعاً ما . إذ لم يكن يخالجهم نفس الاهتمام الشديد بالتجارة مع الشرق . فلما أن انحدروا إلى الميدان فعلاً ، اتجهت أوائل جهودهم إلى المسير بسفنههم حول شمالى أمريكا ، مثلما سار ماجلان حول جنوبها ، وإلى الاتجار من حول شمال آسيا ، كما أبحر فاسكودا جاما حول جنوب أفريقيا . ولكن طبيعة الأشياء قضت على هذين المشروعين بالإخفاق التام . فسبقت كل من البرتغال وأسبانيا فى أمريكا والشرق ، إنجلترا وفرنسا وهولندة بنصف قرن .

ولم تبدأ ألمانيا قط ، ذلك أن ملك أسبانيا كان إمبراطوراً على ألمانيا في تلك السنين الحاسمة ، وكان البابا أعطى احتكار أمريكا لأسبانيا إلا أنه لم يمنحها لأسبانيا نفسها بل لمملكة قشتالة ، وبديهي أن يكون لهذا الأمر أثره في اعتياق كل من ألمانيا وهولندا باديء بدء عن النزول إلى ساحة المغامرات الأمريكية . وكانت مدن الهانسا شبه مستقلة ، فلم يكن من خلفهم ملك يعتمدون على مساندته ، ولم تربطهم وحدة تستطيع النهوض بالمشروعات الكبار كعملية ارتياد المحيطات مثلاً . ومن سوء حظ ألمانيا ، بل لعله من سوء حظ العالم أجمع ، أن استنفدت قواها عاصفة هوجاء من الحروب ، كما سنبين ذلك من فورنا ، على حين كانت الدول الغربية بأجمعها تنطلق إلى المدرسة المفتوحة حديثاً وراء البحار العالية^(١) ، تتعلم فيها التجارة والإدارة .

وأخذ طالع قشتالة الهائل الميمون يتكشف في بطن إبان القرن السادس عشر أمام عيون أوروبا المنبهة . ذلك أنها اكتشفت عالماً جديداً ثرياً بمفور ذهبه وفضته حافلاً بعجيب احتمالات استيطانه والمقام فيه . كان كله ملك يمينها ، لأن البابا قال بذلك . وكان بلاط روما وهو في إحدى نوبات أريحيته قد قام تحف به الفخامة والجلال ، بتقسيم عالم الأراضي العجيبة الحديد ، الذي كان يتبدى آنذاك أمام الخيال الأوربي ، بين الأسبان الذين جعل لهم كل الأراضي الواقعة غربي خط يقع على ٣٧٠ فرسخاً غربي جزائر رأس فردى ، وبين البرتغاليين الذين منحوا كل شيء يقع إلى الشرق من ذلك الخط .

وفي بادئ الأمر كان الناس الوحيدون الذين لقيهم الأسبان في أمريكا متوحشين من الطراز شبه المغولي^(٢) . وكان الكثير من هؤلاء المتوحشين من أكلة البشر . ومن سوء حظ العلم أن كان أول من بلغ أمريكا من الأوربيين ، هم هؤلاء الأسبان القليلو الاستطلاع ، المجردون من أية رغبة علمية والظامثون إلى الذهب ، والمشبعون بروح التعصب العمياء الراجعة إلى حرب دينية قريبة العهد . لم يصدر عنهم غير ملاحظات

(١) البحار العالية : ما تجاوز من البحار الشقة الإقليمية الساحلية للدول . (المترجم)

(٢) شبه المغولي (Mongoloid) : انظر ج ١ ص ١٧٥ من المجلد ٣ . (المترجم)

١٠٣٣

قليلة ذكية عن طرائق هذا الشعب البدائي وفكراته . وقد أعملوا فيهم السيف ، وسرقوهم ثرواتهم ، واستعبدوهم وعمدوهم مسيحيين ، ولكنهم لم يدركوا إلا قليلا العرف والعادات والأفكار الأصلية التي تغيرت واختفت أمام هجمتهم . كانوا في تدميرهم وعدم مبالاتهم وقلة تقديرهم أشبه شيء بالنازليين البريطانيين الأول في تسمانيا ، الذين كانوا يطلقون الرصاص عند رؤيتهم رجال العصر الحجري القديم الذين كانوا ما يزالون باقين هناك ، ويضعون لهم اللحم مسما لياكلوه .

وكانت مساحات عظيمة من الأراضي الداخلية في أمريكا أرض برارى ، كانت قبائلها الرحل الضاربة فيها تعتمد في معاشها على قطعان ضخمة من (البizon) الجاموس البرى الذى انقرض الآن أو كاد . وكان هنود البرارى هؤلاء على تشابه عظيم في طريقة حياتهم ، وفي ثيابهم المنقوشة وفي إسرافهم في استعمال الصباغ وفي عوام خصائصهم الجثمانية برجال العصر الحجري القديم في عهده الثانى الأخير الذين عاشوا في العصر السوليوتري بأوربا . ولكن لم تكن لديهم خيل . ويلوح أنهم لم يتقدموا تقدماً يذكر عن تلك الحالة البدائية ، التي يرجح أن تكون هي الحالة التي وصل عليها أجدادهم إلى أمريكا . ومهما يكن من شيء فقد كانوا على علم بالمعادن . وبصفة خاصة على استخدام كبير للنحاس المحلى ، ولكنهم لم يعرفوا الحديد .

وبينما كان الأسبان يتوغلون في القارة ، وجدوا بأمريكا حضارتين منفصلتين ومتطورتين فهاجوهما وانهبوهما وقضوا عليهما ، ولعلهما تطورتا بمعزل تام عن المدينيات القائمة في العالم القديم . وكانت إحداها مدينة المكسيك الأزتيكية ، والأخرى حضارة پيرو . ولعلهما نشأتا عن مرحلة « شبه المدينة » للعصر الحجري الحديث ، التي انتشرت عبر المحيط الهادى من جزيرة إلى جزيرة ، خطوة فخطوة ، وعصرأ بعد عصر ، مبتدئة من أرض أرومتها الأصلية حول البحر المتوسط وبالقرب منه . لقد سبق أن ذكرنا بضع نقاط مشوقة في هذين التطورين الفريدين في نوعهما . وهما متأخران عن بلاد المشرق والبحر المتوسط بآلاف السنين . وقد بلغ هذان الشعبان الأمريكيان المتحضران دارجين في طريقهما الخاص مرتبة توازى موازاة خشنة ، ثقافة

مصر قبل الأسرات وثقافة المدن السومرية الباكورة . وكانت هناك قبل الأزتيك والبيروزيين (أى أهل بيرو) بدايات حضارات أقدم منهما ، إما أن خلفاءهم دمروها ، وإما أن تكون أخضقت وذهبت من تلقاء نفسها .

ويبدو أن الأزتيك كانوا شعباً فاتحاً أقل تمدناً ، يتسلطون على مجتمع أكثر منهم مدنية ، شأن الآريين في تسلطهم على بلاد الإغريق وشمال الهند ، وكانت ديانتهم نظاماً بدائياً معقداً وقاسياً ، كانت القرابين الإنسانية وأكل لحوم البشر أثناء الطقوس تلعب فيها دوراً كبيراً . وكانت تملأ عقولهم فكرة الخطيئة والحاجة إلى استرضاء الآلهة بسفك الدماء . فكانت ديانتهم أشبه شيء بصورة كاريكاتورية فظيعة كاملة لديانات العالم القديم البدائية ذات القرابين .

وقد دمرت الحضارة الأزتيكية حملة عسكرية بقيادة كورتيز . كانت لديه إحدى عشرة سفينة وقوة مكونة من أربعمئة أوربي ومئتي هندي وستة عشر حصاناً وأربعة عشر مدفعاً . ولكنه التقط من يوقطان رجلاً أسبانياً شاردأً ، ظل أسيراً لدى الهنود بضع سنين ، فتعلم إلى حد ما عدة لغات هندية ، وعرف أن الحكم الأزتيكى كان مثار استياء عميق لدى الكثيرين من رعاياه ، وبتحالفه مع هؤلاء الحانقين تقدم كورتيز فوق الجبال حتى دخل وديان المكسيك (١٥١٩) .

فأما كيف دخل إلى المكسيك ، وكيف قُتل مونتزوما رئيسها وقائدها في الحرب على يد مواطنيه للمآلته الأسبان ، وكيف حوضر كورتيز في المكسيك ، ثم هرب مخلفاً وراءه مدافعه وخيله ، وكيف استطاع بعد تقهقر رهيب إلى الساحل أن يعود ويخضع البلاد بأكملها ، - فقصه رومانسية جميلة لا نستطيع حتى أن نحاول أن نقصها عليك هاهنا . وما يزال الدم الهندي يغلب على سكان المكسيك إلى يومنا هذا ، ولكن اللغة الأسبانية حلت هناك محل اللغات القومية القديمة ، غير أن الثقافة الموجودة الآن ثقافة كاثوليكية وأسبانية .

فأما دولة بيرو الأعجب شأناً فقد وقعت فريسة بين برائن مغامر آخر هو پزارو . فإنه أفلح من برزخ بنما في ١٥٣٠ ، ومعه حملة مكونة من ١٦٨ أسبانيا .

فحذا حذو كورتيز بأن أفاد من الاختلافات الداخلية بين الأهالي وضمن بذلك الاستيلاء على تلك الدولة المنكودة الحظ . وعلى غرار ما فعله كورتيز أيضاً حين اتخذ مونتزوما أسيراً وألعوبة في يده ، فإنه قبض على « إنكا »^(١) بيرو بالخدعة وحاول أن يحكم البلاد باسمه .

وهنا أيضاً لا نستطيع أن نوفى الأحداث المعقدة التى تلت ذلك ، حقها من الإيضاح ، أو نسهب القول فى الفن الفاشلة السيئة التدبير التى قام بها الوطنيون ، و وصول مدد أسباني جديد من المكسيك ، ثم تحويل الدولة إلى مقاطعة أسبانية . كذلك لسنا بمستطيعين أن نزيدك بياناً عن انتشار المغامرين الأسبانيين انتشاراً سريعاً فوق بقية أمريكا خارج منطقة البرلزيل التى كان البرتغاليون يحتفظون بها لأنفسهم . وكانت قصة كل منها تكاد تكون فى كل الحالات قصة مغامرين وقساوة ونهب واستلاب . وكان الأسبان يسيئون معاملة الأهالي ، ويتشاجرون فيما بينهم ، وذلك لأن قانون أسبانيا ونظامها ، كانا منهم بمنأى تمتد شهوراً بل سنوات ، فلم ينتقل دور العنف والفتح إلى دور حكم واستقرار إلا بغاية البطء . ولكن قبل أن يستتب النظام بزمن مديد فى أمريكا ، أخذ فيض متواصل من الذهب والفضة ينهمر عبر المحيط الأطلسى إلى الأسبان حكومة وشعباً .

وبعد ما انتهى طور اصطياد الكنوز العنيف الأول ، جاء طور الزراعة وفتح المناجم وبذلك نشأت أول المشكلات العمالية فى العالم الجديد . فاستعبد الهنود بآدى الأمر فى شئ كثير من الوحشية والظلم ؛ ولكن مما يشرف الأسبان أنهم لم يدعوا الموضوع يمر بلا انتقاد . فوجد الوطنيون أنصاراً يعطفون عليهم ، أنصاراً عامرة أفئدتهم بالشهامة ، فى هيئة الرهبان الدومينيكيين وفى شخص قسيس علمانى هو « لاس كاساس Las Casas » الذى قضى ردهاً من الزمان يشتغل مزارعاً ومالكاً للرقيق فى كوبا حتى وخزه ضميره . وابتدأ أيضاً استيراد العبيد الزنوج من أفريقيا الغربية فى وقت مبكر جداً من القرن السادس عشر . وبعد فترة غير طويلة أخذت المكسيك

(١) إنكا : لقب ملك بيرو قبل أن فتحها الأسبان . (المترجم)

والبرازيل وأمريكا الجنوبية الأسبانية تتحول إلى بلاد مالكة للعبيد منتجة للثروات ،
ولسنا بمستطيعين أن نحدثك هنا كما نشئى : عن الجهود الحضارية الممتازة التي
قام بها في أمريكا الجنوبية ، وبوجه أخص بين الوطنيين ، الرهبان الفرنسيون ثم
اليسوعيون (الجزويت) الذين هبطوا أمريكا في النصف الثاني من القرن السادس عشر
(بعد ١٥٤٩) .

وهكذا سمّت أسبانيا من الشئون العالمية إلى مرتبة موقوتة من القوة والتبريز في



(شكل ١٦٣) المكسيك وبيرو

شئون العالم . كان ارتفاعها فجائياً جداً بارزاً ومرموقاً . وكانت تلك الشبه
الجزيرة القحلة الوعرة التضاريس ، منقسمة على نفسها منذ القرن الحادى عشر ،

١٠٣٧ .

كما أن سكانها المسيحيين ظلوا في كفاح مستمر مع العرب ؛ ثم حدث بطريقة تكاد تشبه الصدفة المحضة أنها أحرزت الوحدة في أنسب الأوقات بلحني أول ثمار اكتشاف أمريكا . وقبل ذلك الزمان ، كانت أسبانيا على الدوام قطراً فقيراً ، وهى ما تزال حتى اليوم قطراً فقيراً ؛ وتكاد تكون ثروتها الوحيدة منحصرة في مناجها . ومهما يكن من شيء فإنها ظلت قرناً من الزمان سيدة العالم بسبب احتكارها للذهب أمريكا وفضتها .

وكانت ظلال رايات الأتراك والمغول ما تزال ترفرف على شرق أوروبا وجنوبيها وتهدهما ؛ وكان اكتشاف أمريكا في حد ذاته نتيجة للفتوح التركية . وإلى الاختراعين المغوليين ، البوصلة والورق ، وإلى الأثر المنبه الراجع إلى الرحلات في آسيا ، وإلى العلم المتزايد بثروة آسيا الشرقية وحضارتها - يرجع الفضل الأكبر في حدوث ذلك التضخم (التآجيج) المدهش في الطاقات العقلية والجمانية والاجتماعية التي تأججت على « حافة المحيط الأطلسي » . ذلك أن فرنسا وانجلترا دخلتا الميدان عقيب دخول البرتغال وأسبانيا مباشرة ، ثم تلتها للفور هولندا ، فقامت كل واحدة من الثلاثة في حينها بدور التوسع وتكوين إمبراطورية وراء البحار .

وعندئذ ينتقل مركز الاهتمام في التاريخ الأوربي الذي كان محصوراً في بلاد المشرق Levant ، متحولاً عن جبال الألب والبحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي . وانقضت بضعة قرون انحدرت فيها الإمبراطورية التركية ، والروسيا وآسيا الوسطى والصين إلى منزلة ثانوية نسبياً على المسرح حتى أهلها المؤرخ الأوربي ولم يعد يسلط عليها أنواره الوهاجة . ورغم هذا فإن مناطق العالم المركزية هذه تظل مركزية على الدوام ، وتظل رفاهيتها ومشاركتها ضروريتين لسلام البشرية الدائم .

١١ - رأى ماكيافلى في العالم

الآن سنلقى نظرة إلى النتائج السياسية المترتبة على هذا التحرر الحائل ، وهذا التوسع الضخم اللذين ألما بالفكرات الأوربية إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، نتيجة للتطور الجديد للعلم ، وارتداد العالم والاتساع العظيم للمعرفة بواسطة الورق ...

والطباقة ؛ ولانتشار تهافت جديد على الحرية والمساواة . فكيف كان تأثير تلك الحال في عقلية البلاطات والملوك التي كانت تدير الشؤون الرسمية للبشرية ؟ لقد سبق أن أريناك كيف أخذ الضعف يدب إلى قبضة الكنيسة الكاثوليكية على ضمائر الناس في ذلك الأوان ولم يبق أحد على أى حظ كبير من الحماسة للكنيسة إلا الأسبان ، وذلك لقرب العهد بخروجهم من حرب دينية طويلة انتهت آخر الأمر بالنصر على الإسلام . وكان من آثار الفوح التركية مع زيادة واتساع القدر المعروف من العالم أن حرمت الإمبراطورية الرومانية من كرامتها التليدة التي أضفت عليها صفة الشمول العالمية ، ذلك بأن نظام أوربا العقل والخلق القديم كان قد شرع يتحطم . فإذا كان يحدث لدوقات وأمراء وملوك النظام القديم إبان عصر التغير هذا ؟

ففي إنجلترا كما سنخبرك فيما بعد ، كانت هناك نزعات خفية وشائقة جداً تدفع بالناس صوب طريقة جديدة في الحكم ، هي طريقة الحكم البرلماني ، التي قدر لها أن تنتشر فيما بعد في كل يقاع العالم تقريباً . ولكن العالم في جملته لم يكد يحس بوجود هذه النزعات في القرن السادس عشر .

وقل من الملوك من تركوا لنا يرميات تتجلى فيها الصراحة والإخلاص ؛ فإن الملكية والصراحة أمران لا يجتمعان ؛ والملكية في ذاتها « وضعة »^(١) تتخذ . ومن ثم فالمورخ مضطر إلى أن يعمل فكره حدساً وتخميناً فيما تحويه الرأس التي تلبس التاج بقدر ما يستطيع . ولا مراة في أن سيكولوجيا الملوك تغيرت تغيراً كبيراً مع تقدم العصور . ومهما يكن الأمر ، فإن لدينا كتابات رجل من رجال ذلك الأوان بالغ غاية الاقتدار نصّب نفسه لدراسة وبسط « أساليب الحكم الملكي » على ما كانوا يفهمونه في أواخر القرن الخامس عشر .

ذلكم الرجل هو الفلورنسي البعيد الذكر نيقولو ماكيافلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) ، نشأ في أسرة طيبة وترى في بجوحة معقولة من العيش ، ودخل الخدمة العامة للجمهورية وهو في الخامسة والعشرين . وظل يعمل في الوظائف الدبلوماسية الفلورنسية ثمانية عشر عاماً ، فأُسند إليه عدد من السفارات . وفي (١٥٠٠) أرسل إلى فرنسا لينفاهم مع الملك

(١) الوضعة : Pose كما في التصوير ، وضع خاص يتخذه الناس لأنفسهم ، وكثيراً ما يكون متكلفاً . (المترجم)

الفرنسى . وظل من ١٥٠٢ إلى ١٥١٢ اليدين (لرئيس فلورنسا مدى الحياة) سودرينى (Soderini) . وأعاد ماكيافللى تنظيم الجيش الفلورنسى ، وكتب الخطب للرئيس مدى الحياة (gonfalonier) ، وكان فى الواقع هو الذكاء المسيطر على الشئون الفلورنسية . وعند ما تغلبت أسرة ميديشى التى كان الأسبان يناصرونها على سودرينى الذى كان يعتمد على معاضدة الفرنسيين ، حاول ماكيافللى أن يحول خدماته إلى الظافرين ولكنه عُدَّ على المطاطة (١) ، ثم طرد من الخدمة . فاتخذ لنفسه مقاماً فى فيلا على مقربة من سان كاستشانو ، تبعه عن فلورنسا اثني عشر ميلاً تقريباً ، وهناك أخذ يروح عن نفسه من ناحية بجمع وتأليف الأقاصيص الشهوانية الداعرة لإرسالها إلى أحد أصدقائه فى روما ، ومن ناحية أخرى بكتابة كتب فى السياسة الإيطالية ، التى لم يعد يستطيع أن يقوم فيها بدو . وكما أننا مدينون بكتاب رحلات ماركوپولو إلى نسجه ، فإننا ندين لكتب ماكيافللى « الأمير - والتاريخ الفلورنسى - وفن الحزب » إلى عزله وإلى شعوره بالسامة والملل فى سلن كاستشانو .

وتنحصر القيمة الدائمة لهذه الكتب فى الفكرة الواضحة التى تعرضها علينا عن نوع العقول التى كانت تحكم ذلك العصر ، والتحديات التى كانت تغلها . فإن جوها كان جوه الذى فيه يعيش . فإذا كان أدخل ذكاء حاداً مفرطاً إلى محيط أعمالهم ، فإنه لم يزد عن مجرد وضعها تحت ضياء أسطع .

وقد تأثر ذهنه الحساس تأثراً عظيماً بمكر سيزار بورجيا وقساوته وجراته وأطباعه ، وهو دوق فالنتينو الذى قضى ماكيافللى فى معسكره بضعة شهور مبعوثاً من قبل مولاه فصور ذلك الشخص الباهر فى صورة مثالية فى كتابه « الأمير » . وينبغى للقارئ أن يفهم أن سيزار بورجيا (١٤٧٦ - ١٥٠٧) كان ابن البابا اسكندر السادس : رودريجو بورجيا (١٤٩٢ - ١٥٠٣) . وربما دهش القارئ من وجود بابا له ولد ، ولكن لا بد لنا من تذكر أن هذا البابا كان من البابوات السابقين على الإصلاح الدينى . وكانت البابوية فى ذلك الأوان فى حال تراخ خلقى ، ومع أن اسكندر كان بوصفه قسيساً قد نذر أن يعيش أعزب ، فإن ذلك لم يمنعه من أن يعيش صراحاً

(١) المطاطة أو العذراء . آلة للتعذيب بمط الجسم والأطراف . (المترجم)

مع نوع من الزوجة بلازوجية ، ومن توجيه موارد العالم المسيحي لرفع شأن عائلته . وكان سيزار شاباً قوى الطموح والجرأة ، بدرجة تكاد تتجاوز طاقة الزمان الذى عاش فيه ؛ وقد دبر منذ وقت مبكر مقتل أخيه الأكبر ، وكذا زوج أخته لوكريشيا . والواقع أنه غدر بعدد من الناس وقتلهم . وأصبح بمساعدة والده دوقاً على شقة كبيرة من وسط إيطاليا حيث زاره ماكيافللى . ولم يظهر إلا الشيء القليل من المقدرة العسكرية ، وإن أبدى مهارة فائقة وقدرة إدارية جسيمتين . وكانت عظمته من ذلك النوع العارض غير المستديم إلى أقصى حد . فما أن مات والده حتى اتهازت كما تنهار كرة منفوخة وخزها دبوس . ولكن ماكيافللى لم يتبين ما كان يصم تلك العظمة من ضعف وعدم سلامة . والحق أن أعظم دواعى اهتمامنا بسيزار بورجيه ينحصر فى أنه حقق أعظم مثل أعلى ارتآه ماكيافللى عن أمير فائق ناجح .

وقد كثرت المؤلفات التى حاول كتابها أن يبينوا أن ماكيافللى كان يرى من وراء كتاباته السياسية إلى مقاصد عريضة الآفاق شريفة الأهداف ؛ بيد أن كل أمثال هذه المحاولات التى يقصد بها رفعه إلى موضع النبل ، تحرمه من تحمس واهتمام القارئ المتشكك المصر على قراءة السطور ذاتها فى سفر ماكيافللى بدل قراءة أشياء خيالية بين السطور ، ومن الجلى أن الرجل لم يكن يؤمن البتة بأى تقوى ولا صلاح ، ولا يخافه أى اعتقاد فى إله يحكم العالم ولا وجود رب فى قلوب الناس ، ولا أى فهم لقوة الضمير وسلطانه على الرجال . ولم يكن ممن يؤمنون بروى النظام الإنسانى اليوتوبى العالمى العام ، ولا بأية محاولات لتحقيق « مدينة الرب » . فإنه لم يكن يريد مثل هاته الأشياء . وكان يلوح له أن الحصول على القوة ، وإشباع رغبات المرء وحاجاته الجسمية وأحقاده ، والرنح بنشوة الظفر فى العالم ، يجب أن تكون التاج الذى يكلل الرغبات الإنسانية جميعها . ولا يستطيع أن يحقق مثل هذه الحياة بتحقيقها الكامل إلا أمير . وواضح أن مسحة من الجبن ، أو إحساساً بحقارة مدعياته الشخصية ، جعلته يتخلى عن مثل تلك الأحلام بالنسبة لنفسه ؛ ولكن لعله يأمل على الأقل أن يخدم أحد الأمراء ، وأن يعيش على مقربة من المجد ، وأن يشارك فى المغامرات والسلب واللذات الحسية والنزعات الشريرة المشبعة . ولعله يستطيع أن يجعل

من نفسه شخصاً لا يستغنى عنه ! ومن ثم نصَّب نفسه لطلب التعمق والخبرة في فن الإمارة ، فساعد سودرينى حتى أوردته موارد الفشل . فلما مطه المديتشيون في المطاطة ونبلذوة ، وانقطع به ما بقى لديه من أمل حتى في أن يكون في البلاط طفلياً ناجحاً ، كتب هذه الكتب الصغيرة الدائرة حول الدهاء ليظهر أى خادم ماهر فقده بعض الأمراء ! ! . والفكرة المتسلطة على عقله ، التى هى مدار مساهمته العظيمة في الأدب السياسى ، تتلخص في أن الالتزامات الخلقية على الرجال العاديين ، لا يمكن أن تقيد الأمراء .

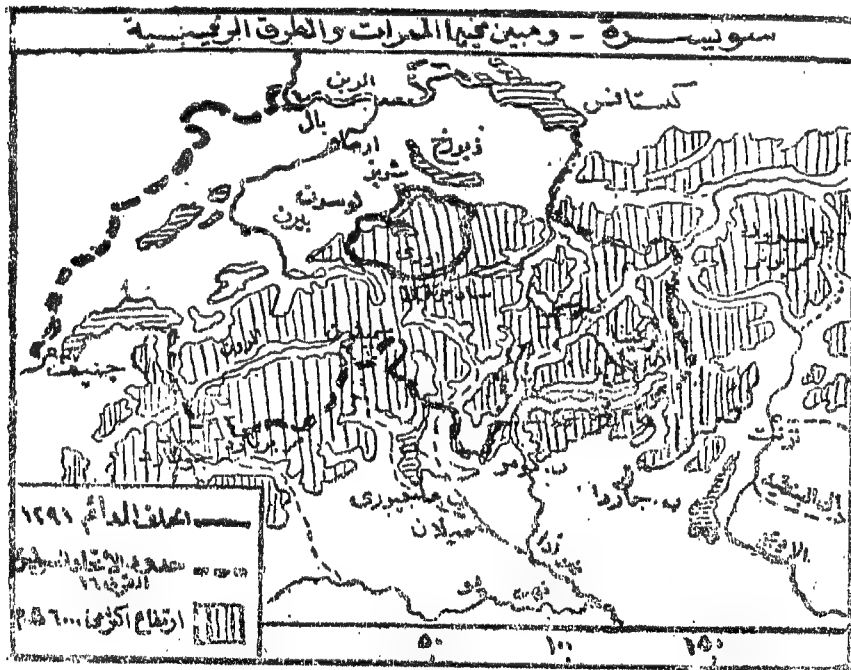
ومن الناس من يميلون إلى نسبة فضيلة الوطنية إلى ماكيافلى ؛ لأنه فكر في أن إيطاليا يجوز أن تتحد وتتقوى ، - وهى التى كانت ضعيفة منقسمة على نفسها إذ غزاها الأتراك ولم ينقذها من فتحهم إلاها موت السلطان محمد الثانى ؛ كذلك اقتتلت على امتلاك أرضها الجيوش الفرنسية والأسبانية كأنما كانت شيئاً فاقد الحياة ؛ ولكنه لم ير في هذا الاحتمال إلا فرصة عظيمة تتاح للأمير . ولم يطالب بوجود جيش قوى إلا لأنه رأى طريقة الإيطاليين في القيام بالحرب بوساطة استئجار رجال من المرتزقة الأجانب ، طريقة لا يرجى من ورأها خير . فإن الجند في مثل هذه الحالة قد تفتقل إلى سيد يزيد لها في أعطيائها ، أو هى قد تقرر انتهاء الدولة التى في حماها . وقد أثرت انتصارات السويسريين على أهل ميلان في نفسه تأثيراً عميقاً ، ولكنه لم يسر قط سر الروح الحرة التى مهدت السبيل لتلك الانتصارات . وأخففت الميليشيا الفلورنسية التى أنشأها إخفاقاً تاماً . وكأني به رجلاً ولد ضريباً وعميت عيناه عن الصهفات التى تجعل الشعوب حرة والأمم عظيمة .

ومع هذا فإن هذا الرجل الضرير من الناحية الأخلاقية ؛ كان يعيش بين ظهراني عالم صغير كل رجاله صم وعميان من الناحية الخلقية . وواضح أن أسلوب تفكيره ، إنما هو أسلوب تفكير كل بلاط في أيامه ؛ فقد كان هناك في كل مكان من خلف أمراء الدول الصغيرة التى نبتت عن تحطم الإمبراطورية وفشل الكنيسة ، مستشارون وسكريترون ووزراء موثمنون من الطراز الماكيافلى . فإن توماس كرومويل مثلاً ، وزير هنرى الثامن الإنجليزي بعد انفصاله عن كنيسة روما ، كان يعد كتاب ماكيافلى « الأمير » زبدة الحكمة السياسية . فإذا كان الأمراء أنفسهم على درجة كافية من الذكاء

والمهارة ، أصبحوا هم كذلك ما كيا فلى النزعة . وإذا هم يدهرون الخطط ليتفوق أحدهم على الآخر ، وليسلبوا معاصريهم الأضعفين ، وليدمروا أندادهم ومنافسيهم ، لكي يصعروا خدعهم فيها فترة قصيرة من الزمان . ولم يدر بخلداهم في قليل ولا كثير - أية خطة لتنظيم مصائر الإنسانية ، تعظم تلك اللعبة التي كانوا يلعبونها فيما بينهم .

١٢ - جمهورية سويسرا

من الشائق الممتع أن يلحظ المرء أن هذه « المشاة » السويسرية التي أثرت في ما كيا فلى إلى هذا الحد ، لم تكن تنسب إلى نظام الأسراء في أوروبا . إذ نشأ في المنطقة



(شكل ١٦٤) خريطة لسويسرا توضح أهم الطرق والممرات

المركزية نفسها من النظام الأوربي ، اتحاد كونفدرالى صغير من الدول الحرة ، هو الاتحاد الكونفدرالى السويسرى ، الذى ما لبث أن تحول صراحةً في (١٤٩٩) إلى النظام الجمهورى بعد بضعة قرون من الاستبسالك بالدولة الرومانية المقدسة أسمياً . ففي زمن

مبكر يرجع إلى القرن الثالث عشر ، اعتزم الفلاحون الساكنون في الوديان الثلاثة المجاورة لبحيرة لوسرن ، أن يستغنوا عن كل سيد يسودهم ، وأن يدبروا شئونهم الخاصة ، على طريقتهم الخاصة . وكان أكبر مصدر لمناجمهم مدعيات عائلة نبيلة في وادي الآر ، هي أسرة هابسبرج . وفي (١٢٤٥) أحرق رجال شويتز (Schwyz) قلعة « هابسبرج الجديدة » ، التي كانت أقيمت قرب لوسرن لإرهابهم ، وما تزال أطلالها باقية هناك إلى اليوم .

كانت عائلة هابسبرج هذه عائلة نامية مiale إلى زيادة ممتلكاتها ، فكانت لها الأراضي والممتلكات في كل أرجاء ألمانيا ، وفي (١٢٧٣) بعد انقراض بيت هوهنشتاوفن ، انتخب رودلف آل هابسبرج إمبراطوراً على ألمانيا ، وهو امتياز أصبح آخر الأمر وراثياً في عائلته . ومع ذلك فإن رجال أورى (Uri) وشويتز (Unter Walden) صمموا على ألا يحكمهم أى هابسبرجى ، فكونوا فيما بينهم حلفاء دائماً في (١٢٩١) ، ثم صمدوا بين الجبال منذ ذلك الزمان إلى يومنا هذا ، فكانوا في بادئ الأمر أعضاء أحراراً في الإمبراطورية ، ثم أصبحوا اتحاداً كوندراياً مستقلاً استقلالاً مطلقاً . ويضيق بنا المقام هنا عن ذكر أسطورة بطولة ولیم قل ، كذلك ليس لدينا متسع نتعقب فيه اتساع الاتحاد الكوندراي تدريجياً إلى حدوده الراهنة . ولم تلبث أن أضيفت للفوروديان تتكلم بالرومانشية^(١) والإيطالية والفرنسية إلى هذه المجموعة الجمهورية الصغيرة الباسلة . وقد أصبح علم الصليب الأحمر وهو علم جنيف رمز الإنسانية الدولية في معمعان الحروب . وصارت مدن سويسرا المشرقة الناجحة تعد على الدوام ملتجأ للرجال وملاذ الأحرار الفارين من جميع أنواع المظالم والاستبداد .

١٣ — (١) حياة الإمبراطور شارل الخامس

إن معظم الشخصيات التي تبرز في التاريخ ، إنما يتم لها ذلك بسبب إقصافها ببعض الصفات الشخصية الاستثنائية ، سواء أكانت حسنة أم سيئة . وهي التي تجعل لهم وزناً يرجح وزن قرنائهم . ولكن ولد في غنت من أعمال بلجيكا في (١٥٠٠) رجل عادى المقدرة سوداوى المزاج ، أمه امرأة ناقصة العقلية ، تزوجت لأغراض سياسية ،

(١) الرومانسية هي اللهجات الموجودة في أعلى نهر الراين . (المترجم)

وقدر له - ولم يكن ذلك نتيجة خطأ منه ولا فضل له - أن يصبح محط أبصار أوروبا وأن توضع على كاهله متاعبها المتكدسة . والمؤرخ ملزم أن يعيره عظمة عارضة لا يستحقها بأية حال ، وأن يضعه إلى جوار أفراد نابيين مرموقين من أمثال الإسكندر وشرلمان وفردريك الثانى . ذلك هو الإمبراطور شارل الخامس . وقد ظل زماناً والحو الذى يحيط به يوحى بأنه أعظم من تولى الملك فى أوروبا منذ أيام شرلمان . على أن الواضح أنه هو وعظمته الوهمية ثمرة سياسة الزواج التى انتهجها جده الإمبراطور مكسيميليان الأول (١٤٥٩ - ١٥١٩) .

وذلك بأن بعض العائلات بلغت المجد قتالا ، كما دبرت بعضها الأخرى المؤامرات للوصول إلى السيطرة الدنيوية ، أما أسرة هابسبرج فلأنها شقت طريقها إليها زواجاً . ابتداءً مكسيميليان حياته بميراث هابسبرج المكون من النمسا واستيريا وجزء من الألزاس ونواح أخرى ، فتزوج الأراضي المنخفضة وبورجنديا - إذ أن اسم السيدة لا يكاد يعنيننا . ولكن أفلت منه معظم برجنديا بعد وفاة زوجته الأولى ، على أنه احتفظ بالأراضي المنخفضة . ثم حاول أن يتزوج (! !) بريتانى ولكنه لم يوفق . وتولى الإمبراطورية بعد أبيه فردريك الثالث (١٤٩٣) ثم تزوج دوقية ميلانو . وأخيراً زوج ابنه من الضعيفة العقل ابنة فرديناند وايزابلا ، وهما فرديناند وايزابلا اللذان عرفناهما مع كولبس ، واللذان لم يحكما فقط أسبانيا الجديدة الموحدة ، وسردينيا ، ومملكة الصقليتين بل أصبحا - بحكم المنح البابوية لأسبانيا - حاكمين على كل أمريكا غربى البرازيل . وهكذا اتفق أن حفيده شارل ورث معظم القارة الأمريكية ، وبين ثلث ونصف ما لم يستول عليه الأتراك من أوربا . ومات والد شارل فى (١٥٠٦) وبذل مكسيميليان قصاره ليضمن انتخاب حفيده للعرش الإمبراطورى .

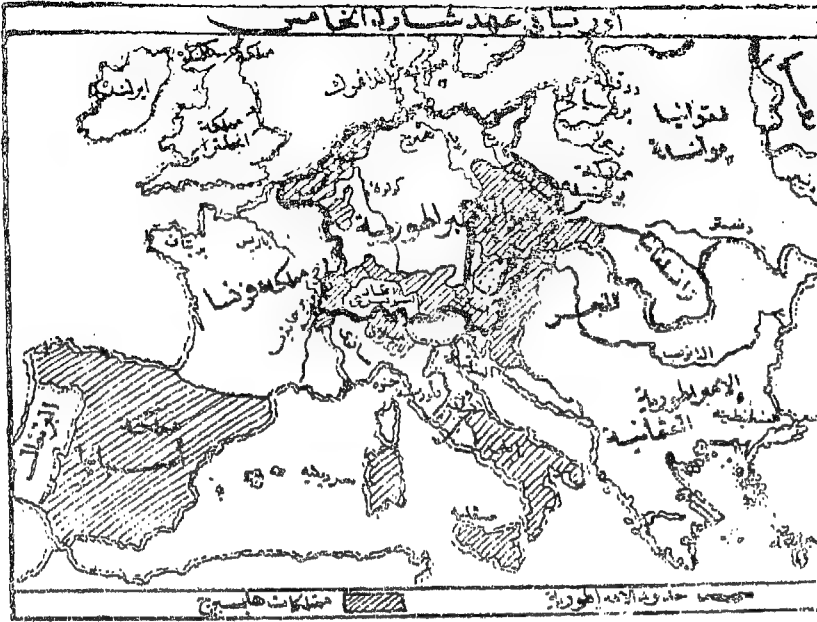
وتولى شارل حكم الأراضي المنخفضة فى (١٤٠٦) ، وأصبح بالفعل ملكاً على الممتلكات الإسبانية المترامية (لأن أمه كانت بلهاء) عندما توفى جده فرديناند فى (١٥١٦) . فلما أن مات جده مكسيميليان (١٥١٩) ، انتخب فى (١٥٢٠) إمبراطوراً وهو ما يزال فى العشرين تلك السن الغضة نسبياً .

واعترض على انتخابه إمبراطوراً الملك الفرنسى الشاب الذكى فرنسيس الأول ،

الذى تولى العرش الفرنسى فى (١٥١٥) وهو فى الحادية والعشرين . وكان يعضد فرنسيس فى ترشيحه البابا ليو العاشر (١٥١٣) ، الذى يقتضى منا أن نلقبه بلقب الذكى هو أيضاً . كان ذلك العصر فى الحق عصر ملوك أذكاء . فهو عصر بابر (Baber) فى الهند (١٥٢٦ - ١٥٣٠) وسلطان القانونى فى تركيا (١٥٢٠) ، وكان كل من ليو وفرنسيس يحنى تركيز مثل هذا القدر الضخم من القوة فى يد رجل واحد ، الأمر الذى ينرب به انتخاب شارل . وكان الملك الآخر الوحيد الذى يبدو ذا بال فى أوربا هو هنرى الثامن ملك إنجلترا ، الذى آل إليه الملك فى (١٥٠٩) وهو فى الثامنة عشرة . وقد رشح نفسه هو أيضاً للمنصب الإمبراطورى . ويستطيع القارىء الإنجليزى الناشط الخيال أن يسلى نفسه باستنتاج العواقب التى كان يحتمل ترتبها على ذلك الانتخاب .

واتسع مجال النشاط الدبلوماسى بين هذا التالوث الملكى . وقد عرج شارل وهو فى طريق عودته من أسبانيا إلى ألمانيا على إنجلترا واستطاع أن ينال مساعدة هنرى ضد فرنسيس بتقديمه الرشوة لوزيره الكروينال ولزى . وكذلك قام هنرى بمظاهرة عظيمة للصدقة بينه وبين فرنسيس ، فأدبت بفرنسا المآدب ، وأقيمت ألعاب الفروسية وما إلى ذلك من ضروب الشبهات التى أكل عليها الدهر وشرب ، فى نزهة ملكية يعرفها المؤرخون باسم « ميدان القماش الذهبى » (١٥٢٠) . وكالت الفروسية قد أخذت تصبح تصنعاً جيلافى القرن السادس عشر . وما يزال مؤرخو الألمان يسمون الإمبراطور مكسيميليان الأول باسم « آخر الفرسان » .

ويجدد بنا أن نلاحظ أن انتخاب شارل إنما تم بعد بذك قدر عظيم من الرشى . وكان أكبر مناصريه ودائنيه ، دار الأعمال الألمانية العظيمة التابعة لأسرة فاجار ، ذلك أن المعالجة للواسعة النطاق لشئون المال والايمان ، وهى التى نسبها باسم « المالية » ، والتى ولت من الحياة الأوربية السياسية مع انهيار الإمبراطورية الرومانية ، قد أخذ يدب فى عروقها آنذاك ديبب القوة . ولا شك أن ظهور آل فاجار ، الذين كانت ديارهم وقصورهم تبرز ما للأباطرة من ديار وقصور ،—



(شكل ١٦٥) أوروبا في عهد شارل الخامس

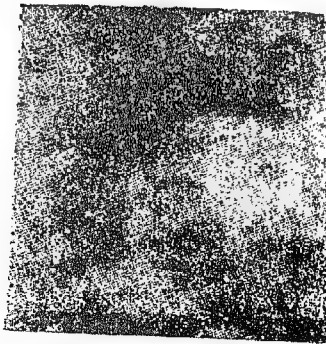
يسجل حركة إلى أعلى لقوى جديدة ابتدأت قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة بكاهور في فرنسا وفلورنسا ومدن إيطالية أخرى. وتعود النقود والديون العامة ، والتقليل الاجتماعي والتدمير ، إلى الظهور على مسرحنا الصغير « في هذه المعالم » . ولم يكن شارل الخامس إمبراطوراً هابسبورجياً قدر ما كان فاجارياً

وظل هذا الشاب الأشقر الذي لا يبدو عليه سيماء الذكاء الكثير ، والذي له شفة عليا غليظة وذقن طويل قبيح ، رذحاً من الزمان العوبة في أيدي وزرائه إلى حد كبير . فإن رجالاً مقتدرين طبعوا على غرار ماكيافلي كانوا في البداية يرشدونه ويوجهونه في فنون الملكية ، وأساليبها ثم أنشأ يظهر ذاتيته بطريقة بطيئة ولكنها فعالة . وكان أول ما واجهه بألمانيا منذ بداية حكمه الخلافات المربكة الناشئة في المسيحية . فإن الثورة على الحكم البابوي التي لم تنقطع منذ أيام هس وويكيليف ، قد أجج لهبها من عهد قريب العودة من جديد إلى بيع صكوك الغفران بيعاً تتجلى فيه

١٠٤٧

الاستهانة والجرأة المفرطة ، وذلك لجمع المال لإتمام كنيسة القديس بطرس في روما ، فإن راهباً اسمه لوثر ، تكرس قسيساً ، وعكف على الكتاب المقدس يقرأه ، فد انزعج أيما انزعاج عند زيارته روما لبعض شئون طائفته لما رآه من خفة البابوية وبلذنها الدنيوى ، فانبرى في ويتنبرج (١٥١٧) ، ينحى باللائمة على هذه الوسائل التى ياجأ إليها البابا رافعاً ضدها علم الخصومة شارحاً بعض المباحث الدينية ، ونشبت نتيجة لذلك معركة جدلية ذات شأن .

وقد خاض لوثر في بادئ الأمر تلك الخصومة باللغة اللاتينية ، ثم انقلب لوقته إلى الألمانية ، وسرعان ما دخل الشعب كله في وطيس الحومة . وألقى شارل هذا النزاع متأججاً عندما عاد من أسبانيا إلى ألمانيا . فدعا إلى عقد (دايت Diet) أى جمعة إمبراطورية بمدينة ورمس على نهر الراين . واستدعى لوثر إلى مجلس الدايت هذا ، وكان البابا ليو العاشر طلب إليه أن يسحب آراءه فأبى أن يفعل ذلك . فحضر إلى المجلس ، ولكنه « فى نفس روح هس تماماً » أبى أن يسحب أقواله ، إلا أن يقنع بخطئه بالمناقشة المنطقية أو بسلطان من الكتب المقدسة . ولكن حماته عن الأمراء كانوا أقوى من أن يصيبه ما أصاب جون هس .

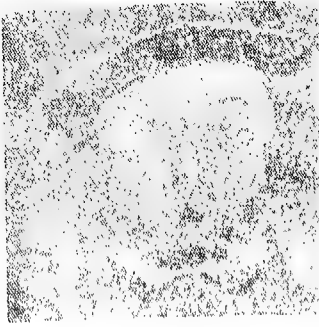


(شكل ١٦٧) فرانسيس الاول
(بريشة تيتيان)



(شكل ١٦٦) الامبراطور شارل الخامس
(تصوير تيتيان)

وكان فى ذلك موقف محير للإمبراطور الشاب ، وهناك أسباب تحملنا على الظن



(شكل ١٦٨) هنري الثامن
(تصوير هوليين)

أنه كان في بادئ الأمر ميالا إلى نصره لوثر على البابا . ذلك أن ليو العاشر كان من المعترضين على انتخاب شارل ، وكان على صداقة وود مع منافسه فرنسيس الأول . ولكن شارل الخامس لم يكن ماكياقلليا ماهراً ، كما أنه اكتسب في أسبانيا قدراً جسيماً من الإخلاص للدين . لذلك وقف ضد لوثر . فانضم إلى المصلح الديني كثير من الأمراء الألمان وبخاصة منتخب سكسونيا . واختفى لوثر عن الأنظار تحت حماية المنتخب السكسوني ، وألقى شارل نفسه أمام بدايات الصدع الذي قدّر له أن يشق المسيحية إلى معسكرين متناحرين .

وجاء على أثر هذه الاضطرابات ، والراجع أنه كان ذا صلة بها عصيان واسع الانتشار بين الفلاحين في كل أرجاء ألمانيا . على أن هذه الاضطرابات ملأت فؤاد لوثر بالخوف الشديد . إذ هاله ما رأى فيها من إسراف القتل والعنف . ومنذ ذلك الحين كف الإصلاح الديني الذي كان يدعو إليه عن أن يكون إصلاحاً بواسطة الشعب وأصبح إصلاحاً بواسطة الأمراء . وذلك أنه فقد ثقته في ذلك « الحكم الحر » الذي قام يناضل عنه برجولية تامة .

وفي الوقت ذاته أدرك شارل أن إمبراطوريته الضخمة كان يحرق بها خطر عظيم جداً من ناحيتها الغربية والشرقية . فكان إلى الغرب منه منافسه الناشط القوي فرنسيس الأول ، وكان الترك إلى الشرق يحتلون هنغاريا وقد تحالفوا مع فرنسيس ، وأخذوا يطالبون صاخبين بموئعات من الجزية على الممتلكات النمساوية . وكان جيش أسبانيا وأموالها رهين إشارة شارل ، ولكن كان من أعسر الأمور عليه أن يحصل على أي عون مالي فعال من ألمانيا . وقد أنشأ جسده جيشاً من المشاة الألمان على الطراز السويسري ، يغلب عليه الأصول التي يبسطها كتاب ماكياقللي « فن الحرب » ولكن كان لا بد لهذه الجنود من الأعطيات ، وكان لا بد لموارده الإمبراطورية من أن

تستكمل بقروض بغير ضمانات ، وترتب عليها آخر الأمر أن جرّت نصراء آل فاجار إلى وهدة الإفلاس .

وجملة القول أن شارل قد وفق بتحالفه مع هنرى الثامن ، إلى التغلب على فرنسيس الأول والأتراك . وكان معركتهما الرئيسى هو شمال إيطاليا ، واتسمت القيادة في كل من الجانبين بالغباء ، فكان ما يقوم به الطرفان من التقدم والتقهقر متوقفاً في أعظم شأله على وصول الأمداد ، واجتاج الجيش الألماني فرنسا ، وأخفق ، دون الإستيلاء على مرسيليا ، ثم ارتد إلى إيطاليا ، وخسر ميلان ، وحوصر في پاڤيا . وضرب فرنسيس الأول على پاڤيا حصاراً طويلاً لم يكمل بالنجاح ، ثم قطعت السبيل عليه قوات ألمانية جديدة وهزمته وجرحته وأخذته أسيراً ، فأرسل إلى زوجته الملكة بيلغها « أنه فقد كل شيء إلا الشرف » ، وعقد صلحاً مهيناً ثم نقضه بمجرد أن أخلى مراحه — فكان خلاص الشرف نفسه لم يكن إلا شيئاً وقتياً

وعند ذلك انضم هنرى الثامن والبابا — عملاً منهما بقواعد الاستراتيجيا الماكياڤلية إلى جانب فرنسا ، لمنع شارل من أن يصل إلى حد بالغ من القوة . أما الجيوش الألمانية في ميلان تحت إمرة كونستابل بوربون ، فلما لم تسلم أعطياتها ، قامت على روما بغارة كانت فيها أدنى إلى دفع قائدها أمامها منها إلى السير تحت إمرته . ففتحوا المدينة قسراً وأعملوا فيها انتهاباً (١٥٢٧) . واعتصم البابا بقلعة سان أنجلو بينما كان النهب والقتل يعملان عملهما في الناس . واشترى رحيل القوات الألمانية آخر الأمر بدفع أربعمئة ألف دوقية . ودامت تلك الحروب الحمقاء المربكة عشر سنوات ، فعادت على أوروبا كلها بالفقر والخسران وخلفت الإمبراطور وفي يده ميلانو . وفي (١٥٣٠) توجّه البابا في بولونيا ، وكان آخر إمبراطور ألماني توجّه البابا . ولايسع المرء إلا أن يفكر في ذلك الوجه الأشقر الذى تبدو عليه مسحة من الغباء ، بما ركب فيه من الشفة الغليظة والذقن الطويل ، والذى يحمل التعبير الوقور تعبير من يتجلد إزاء مراسم مربية وإن جاز أن تكون شريفة .

وفي الوقت ذاته كان الأتراك يشقون طريقهم في بلاد المجر بقوة عظيمة ،

فإنهم كانوا هزموا ملك المجر في (١٥٢٦) وقتلوه ، واستولوا على مدينتي بودا وبيست في (١٥٢٩) ، وكما ذكرنا آنفاً أو شاك سليمان القانوني أن يستولى على فيينا . وقلق الإمبراطور قلقاً عظيماً لهذا التقدم ، وبدل قصارى جهده لصدد غائلة الأتراك ، ولكنه لقي أعظم الصعوبة في حمل الأمراء الألمان على الاتحاد ، حتى وهذا العدو المرعب على أبوابهم .

وظل فرنسيس الأول ردحاً من الزمان حاقداً حائناً ، ثم شبت حرب فرنسية أخرى ، ولكن شارل استطاع في (١٥٣٨) أن يفوز بحمل منافسه على أن يتخذ موقفاً أقرب إلى المودة بإعماله النهب والتخريب في جنوب فرنسا . وعندئذ عقد فرنسيس وشارل بينهما مخالفة ضد الأتراك ، ولكن الأمراء البروتستانت ، وهم الأمراء الألمان الذين عقدوا العزم على الانفصال عن روما ، كوّنوا فيما بينهم عصبة على الإمبراطور ، هي العصبة الشمالكلمدية (نسبة إلى مدينة شمالكالدن الصغيرة من أعمال هيس ، التي وضع فيها دستور العصبة) ، وبدلاً من أن يقوم شارل بحملة لاسترداد المجر إلى أحضان المسيحية ، اضطر أن يوجه فكره إلى الكفاح الداخلي الذي أخذت بوادره تتجمع في ألمانيا . بيد أنه لم يشهد من ذلك الكفاح إلا حرب الافتتاح . كان كفاحاً قوامه مناوشات دموية حمقاء بين الأمراء ، الذين كانوا يطلبون لأنفسهم الرفعة والمجد ، وكان يندلع آنناً حرباً وتدميراً ، ويتبدل آونة إلى المؤامرات والديبلوماسيات الدنيئة ، وكأني بها جرباً مليئاً بأفاعي السياسات الماكيافلية التي قدرلها أن تواصل تلويها حتى صميم القرن التاسع عشر ، وأن تيجر الدمار والخراب على أوروبا الوسطى مرة بعد أخرى .

والظاهر أن الإمبراطور لم يدرك قط القوى الحقيقية التي كانت تعمل في هذه المتاعب المتجمعة . كان بالنسبة لزمانه ومرتبته رجلاً طيباً طيبة استثنائية ، ويبدو أنه كان يعتقد أن الخلافات الدينية التي كانت تمزق أوروبا بدد إلى معسكرات متقاتلة — إنما هي خلافات دينية حقا . فطفق يجمع الدايث بعد الدايث والمجلس إثر المجلس في محاولاته غير المجدية لإصلاح ذات البين . ونظرت من جديد قوانين الإيمان والاعترافات . ولا بد لدارس التاريخ الألماني من أن يكب على دراسة تفاصيل

الصلح الديني الذي عقد في نورمبرج ، والقسوية التي تمت في دايت راتسبون و صلح أوجز برج وما إليها . ولن نتجاوز هنا حد ذكرها بوصفها تفاصيل في حياة الهموم والقلق التي كان يحياها ذلك الإمبراطور الفاخر الجليل .

والواقع أن أحداً من هذه الكثرة الكبيرة من الأمراء والحكام في أوروبا لا يبدو أنه كان يعمل بنية صحيحة وإخلاص . فقد كانت الاضطرابات الدينية الفسيحة الانتشار في العالم ، ورغبة عامة الناس في الصدق والصلاح الاجتماعي ، والعلم الآخذ في الانتشار في ذلك الزمان ، كانت كل هذه الأشياء تعد في خيلة الأمراء ودبلوماسيتهم مجرد أضداد تناصبهم العداء . وانضم هنري الثامن ملك إنجلترا الذي ابتدأ حياته العملية بكتاب كتبه مناهضاً الهرطقة ، والذي كافأه البابا بأن أمم عليه بلقب « حامي الدين » ، إلى جماعة الأمراء البروتستانت في (١٥٣٥) ، لاهتمامه بطلاق زوجته الأولى لعقمها ، وشغفاً منه بشابة مريحة اسمها آن بولين ، ولرغبته كذلك في الانقلاب على الإمبراطور والانحياز إلى فرنسيس الأول ؛ وأن ينتهب ثروة الكنيسة الهائلة في إنجلترا . وكانت السويد والدانمارك والنرويج ، انضمت من قبل إلى الجانب البروتستانتي .

ونشبت الحرب الدينية الألمانية في (١٥٤٦) بعد موت مارتن لوثر ببضعة شهور . وما نحن بحاجة إلى الاهتمام بأحداث الحملة وتفاصيلها . لقد هزم الجيش البروتستانتي السكسوني هزيمة منكرة في لوشاو . وقبض على فيليب أمير هسن (Hesse) الخصم الأكبر الباقي للإمبراطور بطريقة تقارب نكث العهد ثم سجن ، واستبعد شبح الأراك بدفع جزية سنوية . وفي (١٥٤٧) مات فرنسيس الأول فأراح الإمبراطور راحة عظيمة . ولذا فإن شارل وصل في (١٥٤٧) إلى نوع من التسوية ، وقام ببذل آخر جهد لديه لإنشاء سلم حيث لا سلم ولا سلام .

وفي (١٥٥٢) عمت الحرب كل أرجاء ألمانيا مرة أخرى ، ولم ينقذ شارل من الأسر إلا هربه سريعاً من إنسبروك ، وجاءت معاهدة پاساو (Passau) فأوجدت البلاد توازناً غير مستقر . وكان التبرم بمتاعب وفخامة الإمبراطورية ، قد بلغ بنفس شارل نهايته القصوى ، فإنه لم تتوفر له في أي يوم من الأيام بنية كاملة السلامة ، وكان بطبعه

كسولا متراحياً ، وكان يقاسى عظيم الآلام من النقرس . فتنحى عن العرش ، ونقل كل حقوقه الملكية فى ألمانيا إلى شقيقه فرديناند ، ونازل عن أسبانيا والأراضى المنخفضة لولده فيليب . ثم تقاعد فى أحد الأديرة فى يوست وفى قلبه نوع من الحقد الدفين الفاخر ، بين غابات البلوط والقسطل فى التلال الواقعة إلى الشمال من وادى التاجه ، وهناك توفى (١٥٥٨) .

ولقد أكثر الكتاب من الكتابة فى نعمة عاطفية عن هذا التقاعد ، ذلك الاعتزال للعالم الذى اتجه إليه ذلك الجبار المتعصب الفاخر ، الذى سُم العالم ، وأخذ يطلب سلامه مع الله فى وحدة تقشف صارم . ولكن تقاعده لم يكن بالمنزل ولا المتقشف ؛ إذ كان معه ما يقارب المئة والخمسين من الأتباع ؛ وكان مُقامه يحوى كل ملذات البلاط دون متاعبه ، وفضلاً عن ذلك فإن فيليب الثانى كان ابناً باراً ، نصائح أبيه لديه أوامر واجبة الطاعة . فأما تقشفه وزهده فخبر شاهد عليها هو پريسكوت حيث يقول : « لا يكاد يوجد فى المراسلات اليومية تقريباً المتبادلة بين تابعيه كويكسادا أوجاز تلو وبين الوزير المقيم فى بلد الوليد ، رسالة لا تدور قليلاً أو كثيراً حول طعام الإمبراطور أو مرضه » . ويلوح طبيعياً ، أن يجىء أحد الأمرين كأنما هو تعليق مستمر على الآخر . ويندر فى التاريخ أن تكون مثل هاته الموضوعات قوام مراسلات تتبادل مع إدارة الدولة . ولا بد أنه لم يكن من الهين على الوزير أن يحافظ على وقاره أثناء تلاوته الرسائل التى كانت فيها السياسة وفن الطهى والمائدة مختلطين معاً بمثل تلك الدرجة . وأمر الساعى القادم من بلد الوليد إلى لشبونة أن يعدل طريقه بحيث يمر على بلدة جارانديلا ، ليحضر المؤن للمائدة الملكية . وكان عليه فى أيام الخميس أن يحضر السمك لتقديمه فى « يوم الصيام jourmaigre » الذى يتلوه وكان شارل يرى أن سمك النقط فى المنطقة المجاورة صغير جداً ؛ ولذا كان من اللازم أن ترسل أسماك أخرى ذات حجم أكبر ، من بلد الوليد . وكانت الأسماك على اختلاف أنواعها تروقة وتلذه ، وكذا كل شئ يقارب السمك فى طبيعته وعاداته . ومن ثمة احتلت ثعابين البحر والضفادع وأم الخلول مكاناً علياً فى قوائم طعام الإمبراطور وكانت الأسماك

المحفوطة وبخاصة الأنشوجة تلقى منه قبولاً كبيراً ؛ وأبدى أسفه لأنه لم يحضر معه من الأراضي المنخفضة صنفاً أجود ، وكان مشغولاً بوجه خاص بفطيرة ثعبان الماء (١) .

وحصل شارل في (١٥٥٤) على مرسوم من البابا يوليوس الثالث ، يمنحه إعفاء من الصيام ، ويسمح له بأن يفطر في بكرة الصباح حتى ولو كان ينوى أن يتناول القربان .

« فأما أن شارل لم ينس مطلقاً وهو في يوست بزة ثيابه ، فأمر يمكن استنتاجه من الحقيقة الواقعة ، وهي أن دولاب ثيابه لم يكن يحتوى أقل من ستة عشر ثوباً من الحرير والقטיפ المبطنة بفرو القاقم أو زغب البط ، أو الشعر الناعم للعنز للبربرى (٢) . فأما أثاث جناحه الخاص وتنجيده - وكم يجب ألا نعتمد على الشائعات المتداولة هنا في غير تحفظ - فأمر يمكن إدراكه بنظرة واحدة إلى قائمة منقولاته التي أنشأها كويكسادا وجازتلو ، بعيد وفاة سيدهما . فنجد من بينها أبسطه وسجاجيد من بلاد الترك والكاريز (Alcares) (٣) ومظلات من القטיפ وما مائلها من أقشة ، وأستاراً من القماش الأسود البديع ، الذي اختاره منذ وفاة أمه لحجرة نومه الخاصة ، بينما كانت الشقق الأخرى مفروشة بما لا يقل عن خمسة وعشرين طاقاً من الطنافس المعلقة من نسيج مناويل فلاندر ، وهي موشاة توشية ثمينة بأشكال الحيوانات وصور المناظر الطبيعية .

« وإننا لنجد فيما نجد من الأطباق مجموعة صنعت من الذهب الخالص ، وأخرى ملحوظة بصفة خاصة لغرابة صناعتها . ولما كان عهده عصر ارتفع فيه فن صناعة المعادن النفيسة إلى أقصى درجات الكمال ، فليس لدينا خلجة شك في أن كثيراً من أبداع الأنواع صنعاً كانت ملك يمين الإمبراطور . ويتراوح وزن جميع الأطباق بين اثنتي عشرة ألف وثلاث عشرة ألف أوقية (٤) .

(١) نقلاً عن تذييل پريسكوت على كتاب روبرتسون « تاريخ شارل الخامس » .

(٢) العنز البربرى . أى المترجى بمراعى بلاد البربرى .

(٣) الكاريز . مدينة بأسبانيا .

(٤) نقلاً عن تذييل پريسكوت على كتاب روبرتسون « تاريخ شارل الخامس » .

ولم يكتسب شارل قط عادة القراءة ، ولكنه كان يستمع إلى قارئ يقرأ عليه أثناء تناوله طعامه على طريقة شرلمان ، وكان يدلى بما يصفه أحد الرواة بأنه « تعليقات حلوة سماوية » . كذلك كان يسلى نفسه باللعب الفنية وبالإستماع إلى الموسيقى أو المواعظ ، وبالالتفات إلى الشؤون الإمبراطورية التي كانت ما تزال تقوِّد عليه ، وجاءت وفاة الإمبراطورة ، التي كان متعلقاً بها عظيم التعلق ، فمحوت ذهنه إلى الدين تحويلاً تجلّى فيه التدقيق الشديد والتزام الطقوس والبراسم ، فكان يتجسّد نفسه في أيام الجمعة من الصوم الكبير ومعه بقية الرهبان بعزم قوى يبلغ حد استنزال الدماء .

وكان من أثر هذه الممارسات ومعها انقراض أن انطالق في نفس شارل عوامل تعصب ديني ، كانت تصده عنها حتى ذلك الحين الاعتبارات السياسية . فاستثار حنقه إلى أقصى حد ظهور التعاليم البروتستانتية في المنطقة المجاورة لبلده الوليد . « مرّ رئيس محاكم التفتيش ومجلسه نقلاً عنى بأن يتولوا أعمالهم وأن يعملوا الفأس في جانور الشر قبل أن يستفحل » وعبر عن شكه في أن لا يكون من المستحسن في مثل هذه المسألة القائمة ، أن يستغنى عن محاكم العدالة العادية ، وأن يبطل استعمال الشفقة « لكيلا تكون أمام المجرم إذا عنى عنه فرصة لتكرار جرمه » . وضرب المثل بشيّد بطريقة تصرفه في الأراضي المنخفضة ، « حيث أحرق حياً كل من تمسك بخطئه عناداً ، وقطعت رأس كل من قبلت توبتهم » .

واهتمام شارل بالجنائزات يكاد يكون رمزاً إلى مكانه ودوره في التاريخ . وكأني به كان يشعر بالحاجة إلى كتابة كلمة « انتهى » إلى ما لا نهاية . فإنه لم يكتف فقط بحضور كل جنازة فعلية تقام في يوست ، بل كان يأمر بإقامة الصلاة على الموقى الغائبين وكان يقيم صلاة جنازة كاملة في يوم الذكرى السنوية لزواجه ، وانتهى الأمر أن أقام حفلة جنازته .

« فجلبت حوائط الكنيسة بالأسفار السوداء ، ولم يكده وهيج مئات الشموع . يكتفى لإزالة دياجير الظلمات التي أطبقت على المكان ، واجتمع الرهبان في ثيابهم

١٠٥٥

الديرية ، وكل أتباع الإمبراطور ، يرتدون ثياب الحداد القائمة ، حول نعش ضخم ، وقد كسى هو أيضاً بالسواد ، ورفع في وسط الكنيسة . ثم أقيمت صلاة دفن الموتى ، وارتفعت بين ولولة الرهبان الحزينة أصوات الصلوات لأجل الروح الراحلة ، ابتهالاً إلى الذات الإلهية أن تنزلها منازل الأبرار . وذابت نفوس الحضور الحزاني أسى ودموعاً ، إذ طاف بهم خيال ممات سيدهم ، أو قل إن أفئدتهم ربما مستها رحمة لهذا المظهر المؤسف للضعف والوهن . وكان شارل وهو ملتف بجلباب أسود ، حاملاً في يده شمعة مضاءة ، يشارك أفراد حاشيته ، ويشهد جنازته ومأتمه ، وانتهى الاحتفال الحزين بوضعه الشمعة في يد القسيس ، رمزاً إلى تسليمه روحه إلى تقوى القادر .

وتجعل بعض الروايات شارل يرتدى كفنًا ويرقد في التابوت ، ثم يبقى فيه وحيداً . حتى يغادر الكنيسة آخر المشيعين .

ومات شارل في مدى شهرين من مهزلته هذه . وماتت بموته عظمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة . حقاً إن الإمبراطورية الرومانية المقدسة واصلت بعده حياتها بعسر كبير حتى أيام نابليون ، ولكن بوصفها شيئاً عليلًا على فراش الموت . وما تزال تقاليدنا غير المدفونة تسهم إلى يومنا هذا جونا السياسي .

١٣ - (ب) بروتستانت إذا رغب الأمير في ذلك

حمل فرديناند شقيق شارك الخامس لواء الوحدة الذي تخلى عنه أخوه والتقى بالأمراء الألمان في أوجزبرج (١٥٥٥) . وهناك حدثت محاولة أخرى لإقامة سلام ديني . ولا أدل على روح تلك التسوية ، وعماية الأمراء ورجال السياسة القائمين بها عن أحداث ذلك الزمان الأكثر عمقاً وإنشائياً ، من التسوية التي كانت تلك التسوية . فيقرر أن يرجع الاعتراف بالحرية الدينية إلى الدول وليس إلى أفراد المواطنين . « *cujus regio ejus religio* الملك »

١٣ - (ح) التيار الفكرى السفلى المضاد

لقد وجهنا ما وجهنا من الالتفات الكبير إلى كتابات ماكيافلى وإلى شخصية شارل الخامس ، لما يلقيانه من فيض الضياء على خصومات الفترة التالية من تاريخنا ، وقد تحدث هذا الفصل بقصة الاتساع الضخم فى الآفاق الإنسانية ، والزيادة العظيمة والانتشار الكبير للمعرفة ؛ فرأينا ضمير عامة الناس يستيقظ وشهدنا بوادر تشير إلى ظهور عدالة اجتماعية جديدة أشد عمقاً تنتشر بصورة عامة فى كل أرجاء الحضارة الغربية . ولكن إشاعة النور والفكر هاته كانت تغادر البلاط وحياة العالم السياسية دون أن تمسها بأى تغيير . وقل إن يوجد بين كتابات ماكيافلى شىء لم يكن ليستطيع أن يكتبه أحد مهرة الوزراء فى بلاط كسرى الأول أو شىء هوائج فى أوحى سرجون الأول أو ببيى فرعون مصر . فعلى حين كان العالم يتقدم إلى الأمام كل شىء آخر ، فإنه كان يقف جامداً لا يتحرك من حيث الأفكار السياسية ، والفكرات المتعلقة بعلاقة الدولة بالدولة وعلاقة الملك بالمواطن ، بل الواقع أنه كان يرجع القهقرى ، ذلك أن الفكرة العظيمة القائلة بجعل الكنيسة الكاثوليكية مدينة الرب العلمانية ، قد دمرتها الكنيسة نفسها فى أذهان الناس ، واتخذ الحلم بالسيادة الإمبراطورية العالمية ممثلاً فى شخص شارل الخامس ، شكل دمية ، ومراً من خلال أوربا كلها ثم هوى إلى مثواه الأخير . وبدأ على العالم من الناحية السياسية دلائل الرجوع إلى الملكية الشخصية المستبدة ذات الطراز الأشورى أو المقدونى

وليس معنى هذا أن الطاقات الفكرية الحديثة التيقظ فى شعوب أوربا الغربية ، كانت من الإنهمك فى إعادة الشئون اللاهوتية إلى نصابها ، وفى إجراء البحوث العلمية ، وفى الارتياح الاستكشافى والتطور التجارى ، بحيث جعلت القوم لا يستطيعون أن يلقوا يالاً إلى مدعيات الحكام ومسئولياتهم . إذ لم يقتصر عامة الرجال فقط على أن يتنهلوا من الكتاب المقدس ، الذى أصبح فى متناول الأيدى ، أفكاراً عن نظم الحكم فقد تكون كهتوتية « شيوخراطية » أو جمهورية أو شيوعية الطابع على ترتيب على العودة إلى دراسة الآداب الإغريقية الكلاسيكية ، أن عادت روح أفلاطون الخلاقة المحسنة إلى التأثير فى العقل الغربى .

فأنتج السير توماس مور محاكاة غريبة « لجمهورية » أفلاطون هي كتابه « اليوتوبيا » ، الذى جعل الأساس فيه نوعاً من الشيوعية الاستبدادية . وبعد ذلك بقرن من الزمان أظهر راهب اسمه كامبانللا فى نابولى ، مثل ما أظهر مور من الجروا بكتابه « مدينة الشمس » . ولكن لم يكن لمثل هاته الأبحاث أى تأثير مباشر فى النظم السياسية الجارية : ولو قورن هذان الكتابان بضخاسة العمل المرجو منهما ، لبدت فيهما غلبة النزعات الشعاعرية والنظرية والهزال . (ومع هذا فقد قُدِّر « لليوتوبيا » أن تؤثر ثمارها فيما بعد فى « قوانين الفقراء^(١) » الإنجليزية) .

وظل التطور الفكرى والخلق للعقل الغربى وهذا الاتجاه صوب الملكية الماكنيا قليلة فى أوربا ، يسيران ردحاً من الزمان جنباً إلى جنب فى نفس العالم ، ولكنهما كانا يتسيران مستقلين تقريباً . وظل رجال السياسة يديرون الخطط ويقومون بالمداورات (المناورات) ، كأنما ليس هناك شىء ينمو إلا قوة الملوك الحذرين المحظوظين .

ولم يحدث إلا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أن هذين التيارين من النزعات — تيارا الأفكار العامة وحركة الدبلوماسية الملكية التقليدية الأنانية — تداخلا بعضهما فى بعض واشتجر بينهما النزاع .

(١) قوانين الفقراء . القوانين الخاصة بإعالة المتشردين . (المتوجم)

تم الكتاب السابع
ويليه الثامن

في

التاريخ الحديث

«عصر الدول العظمى»

فهرس أبجدي للكتاب

(١)

- أديرة ٧٣٠ ، ٧٣٤ ، ٩٢٤
أدينجتون سيموندس (ج) ١٠١٩
أذينة ٧٤١ ، ٧٨٢
الآراميين ٧٥٩ ، ٧٨١
إربان الثاني ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨١ ، ٨٩٤ ،
٩١١ ، ٩١٢ ، ٩٩٧
إربان السادس ٩١٤
أرجون ٩٣٩
أردشير الأول ٧٤٠ ، ٧٤١
أرسطو ٨٢٨ ، ٨٣٠ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٩٨ ،
٩٩٩ ، ١٠٠٤
الأرشكية ٨٢٧
الآرشكيين البارثية ٧٤٠
أرض اليهودية ٦٨٩ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٨٢٩ ، ٩٥٣
الأرغن ٩٢١
آرلس ٧١٩ ، ٧٢٠
أرميتة ٧٢٢
آريوس ٧١٢ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢٢ ، ٧٨٠
الآريوسية ٧١١
الآريوسيين ٧١٢
آريستو ١٠١٩
الآزتيك ١٠٣٤
الآزتيكية ١٠٣٣
الاستحالة ١٠٠٢
أستويا ٩٦١
أستيفن ٨٧٥
الأسر ٦٨٨
أسرة تشو ٧٧٢
أسرة صنغ ٩٢٤
أسرة المانشو ٩٤٨
الإسكندر الأكبر ٧٠٥ ، ٧١٧ ، ٧٣٨ ، ٧٤٠ ،
٧٥٦ ، ٨٤٩ ، ٨٨٤ ، ٩٣٣ ، ١٠٤٤
- أداميا ٧٤٥
أبجدية ٧٦٨
إبراهيم (إبراهيم) ٦٩٤
ابن رشد القرطبي ٨٣٠ ، ٨٩٩ ، ٩٩٨ ، ١٠٠٢
ابن سينا ٨٢٠
أبو بكر ٧٨٨ ، ٧٩٠ ، ٨٠٠ ، ٨٠٤ ، ٨٠٩ ،
٨١٠ ، ٨١٣ ، ٨٢٦
أبو العباس ٨٢٢
أبو الفضل ٩٥٩
الأبيقورية ٧٦٠
اتحاد مدن الهامسا ١٠١٦
الأتراك ٧٤٢ ، ٨٧٧ ، ٨٨٤ ، ٩٤٢ ، ٩٥٥
الأتراك السلجوقيون ٨٧٦ ، ٩٤١
الأتراك العثمانيين ٧٣٩ ، ٩٤١
أتيلا ٧٥٥ ، ٨٣٨
الأثر للسطوري ٧٦٣
انناسيوس ٧١١ ، ٧٢٠ ، ٧٨٠
أثينا ٧٧٧
أچاڤا ٧٧٧
أجبرت ٨٥٠
أجزرسمس ٩٤١
أجنهارد ٨٥٦ ، ٨٥٨
أچينكورت ١٠١١
الأحباش ٧٨٢
أحد ٧٩٢
إسماء العلوم ١٠٢١ ، ١٠٢٢
الأدب ١٠١٩
الأدب اللاتيني ٧٣٤
الأدباء ٩٧٣
الأدرية ٧١٠
الأدريين ٧٢٢

١٠٦٠

آل هابسبرج ٩١٢
 آل هوهنتاوفن ٩١٢
 ألأ أرسلان ٨٧٧
 ألبرتوس ١٠٠٢
 ألبرخت دورر ١٠٢٣
 ألبيجيتسين ٩٠٧ ، ٩٠٤
 ألفريد الأكبر ٧٥٢ ، ٩٧٥
 ألكسيوس كومنينوس ٧٧٨
 ألكوين ٨٥٩
 ألمانيا ٧٢٢
 الألمانية الدنيا والعليا (اللغة) ٨٤٣
 آلهة تينوى وبابل الأقدمين ٧٥٠
 أليزابيث ١٠٢٠ ، ١٠٢٤
 أليكسيوس ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦
 الألباني ٨٤٦
 أمريكا ١٠٣٣
 أم قسطنطين (هيلينا) ٧٤٢
 أماديس دي جول ٩٩٥ ، ٩٩٦
 إمارات لاتينية ٨٨٥
 الإمبراطورية البيزنطية ٨٠٩ ، ٨١٢ ، ٨٣٢ ،
 ٨٣٧ ، ٨٥٣ ، ٨٥٧ ، ٨٦٩ ، ٨٦٩ ،
 ٨٧٠ ، ٨٧٧ ، ٨٩٠
 الإمبراطورية الخوارزمية ٩٢٣ ، ٩٢٧
 إمبراطورية خيوة ٩٢٥
 إمبراطورية الرومانية ٧٢٧ ، ٧٣٧ ، ٧٤٠ ،
 ٧٤٣ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ،
 ٩٤١ ، ١٠١٦ ، ١٠٣٨ ، ١٠٤٥
 الإمبراطورية الرومانية اللاتينية ٧٣٩
 » » المقدسة ٨٥٧ ، ١٠٥٥
 » الشرقية ٧٢٣ ، ٧٢٥ ، ٨٣٨ ، ١٠١٦
 » الصينية ٧٤٣
 » الغربية ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٨٣٨ ، ٩٢٣ ،
 ٩٧٣
 إمبراطورية القسطنطينية ٩٤٢
 » الكين ٩٢٤ ، ٩٢٩

إسكندر الثالث ٩١١
 إسكندر السادس ١٠٣٩
 الاسكندرية ٧٢٤
 الإسكينيون ٧٥٥ ، ٨٧٠
 الإسلام ٧٥٦ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١١ ، ٨١٢ ،
 ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٣٢ ، ٨٥٠ ،
 ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٥٧
 الإسميون ١٠٠٠ ، ١٠٠٢
 إسوس ٨٠٧
 أسوكا ٧٥٥ ، ٨٧٨ ، ٩٥٧ ، ٩٦١
 آسيا ٨١٩
 آسيا الوسطى ٨١٨
 أسيسي (دير) ٩٠٧
 الأسينيين ٧٣٠
 آشور ٦٨٧
 الإصلاح الديني ٩٨٠ ، ٩٩٠ ، ٩٩٢ ، ٩٩٧ ،
 ١٠٤٨
 الإصلاح الديني المضاد ١٠٠٩
 الاعتقاد الختمى ٩٠٢
 الاعتقادى ٧١٢
 إغناطيوس ليولا ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦
 الأغسطيين ٧٢٢
 الأفكار ٧٤٠
 الإنفاليين ٧٧٨ ، ٧٥٥
 إفريقيا ٨١٩
 أفلاطون ٧٤٢ ، ٩٩٩ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧
 الأفلاطونية الحديثة ٧١٠ ، ٩٩٩
 أفنيون ٩١٤ ، ٩٤٧ ، ٩٤٧ ، ٩٧٥
 إفيسوس ٧٢١
 الإقطاع ٨٣٩
 الإقطاعى ٨٣٨
 إقطاعى ٩٣١
 أكام ١٠٥٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٥
 أكبر ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠
 أكسير ١٠٥٦
 آل كومنين ٨٧٣
 آل ميسون ٨٢٩

١٠٦١

أوغسطس ٧١٧ ، ٨٥٨
 » قيصر ٨٨١
 أوغسطس ٧١١ ، ٧٢٤ ، ٨٥٤ ، ٨٧٨
 أولمبج ٨٧٢
 إيراسموس ١٠١٩
 إيرلندة ٧٢٢
 إيزابلا ١٠٤٤
 إيسوس ٨٨٤
 إيطاليا ٧٢٦
 إيقان الرابع ٩٥٢
 الإيلخانية ٩٣٢ ، ٩٣٧ ، ٩٤٨ ، ٩٥٣
 الإين (الإيسن) معركة ٨٤٥
 إينيجو لوبيز دي ريكالدي ٩٩٤
 (ب)
 البايا ٧٢٤ ، ٨٦٥ ، ٩٩٠
 البابوية ٨٩٥ ، ٩١٢ ، ٩١٤
 باير ٩٥٥ ، ٩٥٦
 بايل ٧٥٩
 البارثين ٧٤٠
 الهارسيون ٧٥٠ ، ٩٦١
 البارود ٧٦٥ ، ٩٢٨ ، ١٠١٢
 باريس ١٠١٣
 پاساو ١٠٥١
 پافيا ١٠٤٩
 البافاريين ٨٥٥
 باكتريا ٩٥٣
 بالمير ٧٤٥
 بالاديو ١٠٢٥
 بامبيكي ٧٤٥
 بافوكيرن (معركة) ١٠١١
 بانونيا ٧٢٦
 بانينيات ٩٥٥
 بايزيد الثاني ٩٤٦
 بين الأركل ٨٧٤
 بين القصير ٨٤٦ ، ٨٤٩ ، ٨٥٦
 قطارك ١٠١٨
 البيتشنج ٨٧٥ ، ٨٧٧

أمريكا ١٠٣٧
 إمبراطورية الحسبا ٩٢٤ ، ٩٢٨
 الأمير يانين ١٠٢٣
 آمون ٧٢١
 الأمير الأسود ١٠١١
 أناكرومنينا ٨٨٧
 الأنبار ٩٦٠
 الأنجل ٧٢٥
 أنجلو ٨٦٥
 الأنجلوسكسون ٧٢٣
 الأنابيل الأربعة ٦٩٠ ، ٧١٣ ، ٧٢٠
 أندرونيكوس ٩٤٣
 الانسجام ٩٢٠
 أنطاكية ٧٢٤ ، ٧٤٥ ، ٨٨٤ ، ٨٨٧
 أنطيوخوس ٦٨٨
 الانكشارية ٩٤٣ ، ٩٥٤
 أنوسلت الثالث ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٧ ، ٩٠١ ،
 ٩٠٤ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩١١ ،
 ٩١٢ ، ٩٩٧
 أنوسلت الرابع ٨٩٠ ، ٨٩٩ ، ٩٣٣
 إنكا ١٠٣٥
 أهرمان ٧٥٠ ، ٧٥١
 أهل الشمال ٨٧١
 أوتو ٨٦٦
 » الأول ٨٦٧ ، ٨٧٥ ، ٩١٠
 » الثاني ٨٦٧
 » الثالث ٨٦٧
 أوجزبرج ١٠٥١
 أوجداي ٩٢٩
 أودن ٨٤٧
 أودواكر ٨٥٧
 أورافزيب ٩٥٦
 أورسني ٩١٣
 أورشليم ٦٩٨ ، ٦٩٢ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ،
 ٧٠٢
 أورليان ٧٢١ ، ٧٤١
 أوستراسيا ٨٤٥

١٠٦٢

بلدوين الفلاندرى ٨٩٠
 بليساريوس ٧٣٢
 بليى ٨٣١
 البنادقة ٩٦٥
 البندقية ٩٣٩ ، ١٠١٣ ، ١٠١٦ ، ١٠٢٦
 بندكت ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٧
 ٨٢٨ ، ٩١٠
 البندكتى ٧٣٣
 بنى أمية ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٧ ، ٨٢٢
 بواتيه ١٠١١
 يونثيوس ٨٣٠
 بوني ٦٨٩ ، ٧٥١
 بوتشالى ١٠٢٣
 بوذا ٦٩٠ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٥٠ ، ٧٧٩ ،
 ٧٨٨
 البوذية ٧٥٥ ، ٧٧٨ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٥١
 بوربون (كونستابل) ١٠٤٩
 البورسلان ٩٥٠
 البوصله ١٠٢٧
 بوريس ٨٧٤
 البوصله ١٠٣٧
 البوشن ٧٦٤
 بولس ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ،
 ٧٢٢
 پول ١٠٢٤
 پولو ٩٣٩
 بولين (آل) ١٠٥١
 بونيفاس الثامن ٩١٣
 بوهمند ٨٨٧
 بوپاردو ١٠١٩
 بيباسزا ٨٨٥
 بيبسى ١٠٥٦
 بيت المقدس ٨١٠
 بيجو ٩٣٩
 بيشنيا ٧١٨
 بيد ٧٢٩ ، ٨٤٨

البحر المتوسط ٨١٨ ، ٨١٩
 بحيرة الخليل ٧٠٢
 بدر ٧٩٢ ، ٨١٧
 بربرية ٧٢٧
 برتولوميو دياز ١٠٢٨
 برج جيوتو ١٠١٧
 برغنديا ١٠١٢
 البرغنديين ٧٢٦
 برفار الأخ الفرنسكى ٩٠٧
 برنجل باتيسون ١٠٠٣
 البراهمة ٧٧٧ ، ٧٨٠
 البرهانية ٧٥٥ ، ٧٧٨
 البروتستانتية ٩٧٧ ، ٩٨٩ ، ٩٩٢
 بروفانس ١٠١٧
 بروكوب العظيم ٩٨٠
 البرونز ٧٧٢
 برونيلسكو ١٠١٧
 بريستر جون ٩٣٨
 بريسكون ١٠٥٢
 بريسكومى ٨٣٨
 بريطانيا ٧٢٥
 بريكليس ٩٤٩ ، ١٠١٧ ، ١٠٢٦
 البريطون ٧٢٥
 البسفور ٨١٩ ، ٨٢٣
 البطالمة ٦٨٠
 بطرس أبيلارد ١٠٠٢
 » الناسك ٨٨١ ، ٨٨٤
 بطوطه (ابن) ٩٨١
 بعل ماردوخ ٧٢١
 بعلبك ٧٨٢
 بغداد ٨٢٣ ، ٨٢٥
 بلاد العرب ٧٨٢
 بلاد اليهودية ٦٨٥ ، ٦٨٧ ، ٧٠٥ ، ٨١٦
 البلغار ٧٢٧ ، ٨٥٧
 بلوتارك ٧١٧
 البلوتوقراطية ٧٢٨

١٠٦٣

تنويرينو ١٠٢٤

توتيل ٧٣٢

توماس أكويناس ١٠٠٢

توماس مور ١٠٥٧

تيريوس جراكوس ٧٥٩

تيتوس ٦٨٨

تيخويراهي ١٠٠٧

تيمور ٩٥٥

تيمورلنك ٩٨٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٢ ، ٩٥٤

التوتون ٧٢٥

قيودور الطرسوسي ٨٤٨

(ث)

الثالوث ٦٩٢

الثالوثية ٧١١

الثالوثين ٧١٢

الثقافة العربية ٨٢٨

الثورة الفرنسية ٩٨٥

ثورة الفلاحين ٩٨٥

ثيودورا ٧٣٩

ثيودوريك الأول ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٨٣٠

ثيودوسيوس الأكبر ٧٣٩

ثيودوسيوس الأول ٧٢٢

الشيوقرازيا ٧٠٨ ، ٧٥١

(ج)

الخالكري ٩٨٤

جاليريوس ٧١٥

جاليلو جاليلي ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠١٠

جامعات ٧٣٤ ، ٨٢٩

جامعة سالرنو ٨٩٩

جان دارك ١٠١١ ، ١٠١٢

جان فان إيك ١٠٢٢

جبال البرانس ٨١٩

حمام طه روس ٨١٨

بين نظة ٨٢٣

بيرو ١٠٣٤

بيروچينو ١٠٢٣

بزارو ١٠٣٤

بيكين ٩٥٧

بيلاطس البنطي ٧٠٢ ، ٧٠٣

(ت)

تاج محل ٩٦٢

تاخوف ٩٧٩

تاكسيلا ٧٧٧

تائج ٧٥٧ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٧٣ ، ٩٢٣

تاتكريند ٨٨٧

تاي تسنج ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٧٤ ، ٧٧٩ ، ٩٢٣ ، ٩٦٠

تاييلور ١٠٠٣

تقيان ١٠٢٤

التجريد ١٠٠٦ ، ١٠٠٨

التجريد ١٠٠٥

تدمر ٧٤١ ، ٧٤٥ ، ٧٤٨ ، ٧٨٢

تراچان ٧٤٠ ، ٧٤٨ ، ٧٨٢

الترحل ٩٢٢ ، ٩٦٧ ، ٩٦٩

الترك ٧٧٦ ، ٨٢٦ ، ٨٣٢ ، ٩٢٣ ، ٩٦٥

التركستان ٧٢٢ ، ٧٥٢

التركوفلندية (اللغة) ٨٧٥

التروبادور ٩٢٠ ، ١٠١٧

تسافيا ١٠٣٣

تسي إن ٧٧١

التشكيل التمثيلي ٩١٨

تشو (أسرة) ٧٧٢

التصوير ٧٣٥ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٥

الجداري ٩١٨

التعميديين ٩٨٤ ، ٩٩١

التميينات ٨٧٩

تمثيل الطبيعة (فن) ٩١٩

١٠٦٤

جون ٨٩٠ ، ١٠٢٨
جون أدينتجتون سيموندس ١٠١٨
جون بال ٩٨٣ ، ٩٨٤
جون الفورنسي ٩٢٠
جون اليلدي ٩٨٥
جون هس ٩١٥ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩
جويسكاراد ٨٨٧
جيون ٧١٥ ، ٧١٨ ، ٧٢٩ ، ٧٤٣ ، ٣٨
٨٦١ ، ٨٦٦ ، ٨٧٤ ، ٨٨٥ ، ٨٩١
جيروم البراجي ٩٧٩
جيمس الأول ١٠٠٨
جيش الخلاص ٩٩٦
جيهان (شاه) ٩٦٢
جيهان جير ٩٥٦
جيوتو ١٠٢٢

(ح)

الحبر العظيم ٧٢٤
الحبشة ٧٢٢
حرب صليبية (انظر حملة) ٨٨٣ ، ٩٧٩
الحرب الصليبية الأولى ٨٨٩
» » الثالثة ٨٨٩
» » السابعة ٨٩٣
الحروب الصليبية ٨٨١ ، ٨٩٣ ، ١٠١٢
حروب الفلاحين ٩٨٣
حرب الورديين ١٠١٢ ، ١٠٢٠
الحركة الاشتراكية ٩٨٦
الحسن بن علي ٨١٦
الحسين ٨١٦
الحشد الذهبي ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٧
الحضارة (انظر مدنية) ٧٦٦
حضارة يورور ١٠٣٣
حكومة ديلية ٨٧٨
» عالمية ٧٢٥ ، ٩٠١
الحكم البرلماني ١٠٣٨

جسيماني ٧٠٣
جراكوس ٩٧٤
جراندي ١٠٢٥
جريجوري ٧٣٣ ، ٧٣٥ ، ٧٧٤ ، ٨٤٨
جريجوري (ر . ا) ٧٣٢ ، ١٠٠٨
جريجوري الأول العظيم ٩١٠
جريجوري التاسع ٨٩٢ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٧٥
» الحادي عشر ٩١٤ ، ٩٤٨
» السابع ٨٧٧ ، ٨٧٩ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥
٩٩٧ ، ٩١٠
الجزويت ٩٤٨ ، ٩٩٦
جسفيان ٧٢٧ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٨ ، ٨٣٩
٧٤٢ ، ٧٦١ ، ٨٤٢ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ،
٩٤٤
جفري شوسر ١٠٢٠
جلبرت ١٠٠٨
جلجثة ٧٠٣
الجليل ٧٠٤ ، ٧٠٩
الجمعية الملكية ١٠٠٩
جمعية يسوع (اليسوعيون) ٩٩٤
الجمهورية الرومانية ٧٥٩ ، ٩٠١ ، ٩١٦ ،
٩٦٧
چنري ١٠٢٤
جندهارا ٩٦٢
چنكيز خان ٩٢٣ ، ٩٢٥ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ،
٩٣٣ ، ٩٤٠ ، ٩٤٨ ، ٩٥٠ ، ٩٥٣ ،
٩٥٤ ، ٩٥٧ ، ٩٦٣
نو ١٠١٣ ، ١٠١٦ ، ١٠٢٦
جوثرام ٨٥٢
الجوهنا ٧٥٥ ، ٩٦٢
الجوت ٧٢٥
جوتامابودا ٦٩١ ، ٧٠٣ ، ٧٠٩ ، ٩٠٦
جوتنبرج ٩٨٧
جودفري البويوني ٨٨٤
الجولياردي ١٠١٩

الدولة التعليمية المصرية ٩٧٤

الدولة الرومانية ٧٤٣

الدولة الرومانية المقدسة ١٠٤٢

الدولة السلجوقية ٩٢٣

الدولة المصرية ٩٦٧ ، ٩٧٤

دومازيلك (معركة) ٩٨٠

دومينيك الأسباني ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩

الدومينيكيين ٩٠٨ ، ٩٠٩

دون كيشوت ٩٩٥ ، ١٠٢١

ديكيوس ٧١٣

ديموقراطية ٩٧٣

(ذ)

ذبح العبيد ٧٧٣

الذكاء الطليق ٩٩٨

(ر)

رايبله ١٠٢١

رافاييل ١٠٢٠

رامبازندت ١٠٢٤ ، ١٠٢٥

راتبون ١٠٥١

رب ٦٨٨

ربوبية قيصر ٧١٣

رسم ٨٠٧ ، ٨٠٩

رستشانو ٩٣٥ ، ٩٣٨

الرق ٧٠٧

الرهبان الدومينيكيين ١٠٣٥

الرهبان السود ٩٩٣

الرهبان الفرنسكيون ١٠٣٦

الرهبة ٧٣٠

روبرت بروس ١٠١١

روبرت جويسكارد ٨٧٣ ، ٩١١

روبنز ١٠٢٤

روجر الأول ٨٩٧

روجر باكون ٠٠٥ ، ١٠٠٧ ، ١٠١٠ ، ١٠٢١

روح القدس ٧٢٣

حصص ٧٤٥

حملة صليبية ٨٨٨

الحملة الصليبية الأولى ٨٨٤ ، ٨٨٥

» » الرابعة ٨٩٠

» » الخامسة ٨٩١

» » السادسة ٨٩١

» » لشعبية ٨٨٣

حملة صليبية للأطفال ٨٩٠

(خ)

خالد ٨٠٥ ، ٨٠٧

خديجة ٧٩٨

الخزر ٨٧٥

الخزف ٧٧٣ ، ٩٥٠

الخلافة الفاطمية ٨٦٩

خلقدون ٧٢١

الحيثان ٩٢٤ ، ٩٢٧

(د)

دارا ٨٠٧ ، ٩٤٢

دالماشيا ٧٢٦

دانتق الليجيري ١٠١٧

الدراما ١٠٢٠

درتموند ١٠١٦

الدردنيل ٩٤٠

دقلديانوس ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٧ ، ٨١٨ ،

٧١٩ ، ٧٢١

دطى ٩٥٥

دمشق ٨١٩

دمياط ٨٩١

دنزسكوتوس ١٠٠٢ ، ١٠٠٣

دوهماتية (انظر اعتقاد) ٩٠٢

دورازو ٨٧٧

الدولة ١٠٥٦

١٠٦٦

السكسونية (الأسرة ٨٦٧
سكسونيون ٨٤٦
السلجوقية (العشيرة) ٨٧٦
السلجوقية — سلجوق ٨٢٦ ، ٨٨٢ ،
٩٤١ ، ٨٨٤
السلاف (انظر صقالبة) ٧٤٠
السلني (المذهب) ٧١٢
السلوقيين ٦٨٧
سليم ٩٤٦ ، ٩٤٧
سليمان (ابن عبد الملك) ٨١٢
سليمان بن الوليد ٨١٩
سليمان القافوني ٩٤٧ ، ١٠٤٥ ، ١٠٥٠
سمرقند ٩٥٤ ، ٩٥٥
سنيو لي ١٠٢٣
السنون ٨١٥
سواسون ٨٤٥
سوبوقاي ٣٠
سوتونيوس ٧١٧
سودرني ١٠٣٩ ، ١٠٤١
سوريا ٦٨٧
السولتري ١٠٣٣
سومر ٩٢٣ ، ٩٥٣
السومرية (الثقافة) ١٠٣٤
سوي (أسرة) ٧٦٠
سويسرا ١٠٤٣
السويسري (الاتحاد) ١٠٤٢
السويش ٧٢٦
سيان فو ٧٧٩
سيرابيس ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧٢١ ، ٢٢
سيرار جورجيا ١٠٣٩ ، ١٠٤٠
سيمابيو ١٠٢٢

(ش)

شامول الطرسوسي ٧٠٥

رودولف الهابسبرج ٩١٢ ، ١٠٤٣
روريك ٨٧٢
رولف ٨٥٢
رولف الجداء ٨٧١
روما ٦٨٨
الرومان ٦٨٧
الرومانس ٩٤٠
الرومانسكي (الفن) ٨٦١
الرومانشية (اللغة) ٨٤٤
ريتشارد ٨٨٩
ريتشارد الثاني ٩٨٤

(ز)

زرادشت ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١
الزراذشتية ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٨٠١ ، ٨٢٠
الزراعة ٨٣١
زرواستر (انظر زرادشت) ٧٥٠
الزرد أفتا ٧٥٠
زوسيموس ٧١٧
زيكا ٩٧٩

(س)

سابور الأول ٧٤١ ، ٨٥١
الساسانية ٧٤٠ ، ٨٢٧
الساسانيين ٧٤٠
سالرنو ٩٠٠
السالانيية (الأسرة) ٨٦٧
السامية ٧٨١
الساميون ٩٢٣
سبنر ١٠٢٠
السبيلية ٧١١
سرجون الأول ٧١٧ ، ١٠٥٦
سرفانتين ٩٦٦ ، ١٠٢١
السكسون ٧٢٥ ، ٨٥٥

صور ٦٨٨
صوفيا ٩٤٤
الصين ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٨١٩

(ض)

الصفيرة ٩٤٩

(ط)

طاعون ٩٨١
الطب ٨٣١
الطباعة ٨٣٢ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٩٨ ، ١٠٢٨
الطراز البيزنطي ٧٣٥
الطراز القوطي ٩١٦ ، ١٠١٤
الطوائف ٧٧٧
الطورانيين ٨٢٠
طير يوس الثاني ٧٠٢
طير يوس قيصر ٦٨٩

(ع)

عائشة ٨١٤ ، ٨١٥
العالم المسيحي ٧٢٥ ، ٩١١
عالم المسيحية ٧٢٧ ، ٩٠٦
عالم المسيحية الغربية ٨٧٠
العاهل ٩٦٩
العباس ٨٢١
العباسيون ٨٢٢ ، ٨٦٩
عبد الملك ٨١٩
العبرانيون ٧٨١
عثمان ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥
العرب ٧٦٣ ، ٨٢٠ ، ٨٧٠
العصر الحجري الحديث ٩١٩ ، ١٠٣٣
العصر الحجري القديم ١٠٣٣
العصر الروماني ٩١٦
عصر الولايات العشر ٩٢٤
العقيدة النيقية ٧٢٠
المسلم ٩٩٧
علم الطب ٨٢٨

شارل الثاني ١٠٠٩
شارل الخامس ٩٦٥ ، ٩٩٤ ، ١٠١٦ ، ١٠٤٤ ،
١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ،
١٠٤٩ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦

شارل ديكنز ١٠١٤
شارل السابع ١٠١٢
شارل مارقل ٨٤٦
شامانيه ٩٣٣ ، ٩٥١
شانج (أسرة) ٧٧٢
شاه جيها ٩٥٦
الشرقيين ٧٢٦

شرلمان ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥٢ ،
٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ،
٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٣ ،
٨٦٤ ، ٩١٠ ، ٩١٢ ، ٩٣٣ ، ٩٥٨ ،
٩٦٠ ، ٩٧٥ ، ١٠٤٤ ، ١٠٥٤

الشعوب التركية ٨٦٩
الشعوب الهمجية ٧٢٤
شكسبير ١٠٢٠ ، ١٠٢١
شمالكالدين ١٠٥٠

الشب ٩٩٣
شورتز ٨٠٦
شوسر ١٠٢١
الشعبة ٨١٥ ، ٨٢٢
شي هونج في ١٠٥٦

(ص)

الصدع الكبير ٩١٤ ، ٩٤٨ ، ٩٧٨
الصدوقيون ٦٨٩
الصفدية ٧٥٣
الصقالبة ٧٤٠ ، ٨٤٦ ، ٨٥٥ ، ٨٧٥
الصقليتين ١٠٤٤
صكوك الغفران ٩٠٥ ، ١٠٤٦
صلاح الدين ٨٨٩ ، ٩٢٣
الصليب ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٨١٠
الصليبيين ٨٢٧
صنم ٧٦٤ ، ٩٢٩ ، ٩٣١ ، ٩٤٩

١٠٦٨

٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٦ ، ٩١١ ، ٩١٢ ،
 ٩١٦ ، ٩٢٩ ، ٩٣٥ ، ٩٧٥ ، ٩٨٩ ،
 ١٠١٧ ، ١٠٤٤ ،
 فردريك الثالث ١٠٤٤
 فردريك مارجرىف براندنبرج ٩٧٩
 فرديناند الأرجواني ١٠٢٩ ، ١٠٤٤ ، ١٠٥٢ ،
 ١٠٥٥
 الفرنجة ٧٢٦ ، ٨٣٩ ، ٨٨٥
 الفرنجة البورغنديين ٨٤٦
 فرنسيس ٩٠٧ ، ٩٠٩ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥
 فرنسيس الأول ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ،
 ١٠٥١
 فرنسيس الأسيسى ٩٠٦ ، ٩٩٠
 فرنسيس باكون ١٠٠٨
 الفرنسية كاثوليكية ٩٠٦
 الفرنسيين (الفرنسيين) ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩٧٥
 فريديجو العظيم ٩٠٠
 الفريسيون ٦٨٨
 فرييا (الربة) ٨٤٧
 فسبازيان ٦٨٨
 فيسفا ٧٣٥
 الفطنة الحرة ٩٦٩
 الفلاسفة ٧٤٢
 فلافيوس يوسيه
 الفلك ٨٣١
 فلمنج ٩١٠
 فلورنسا ١٠١٣ ، ١٠١٧
 الفن (فنون) ٧٣٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٨ ، ٧٧١ ،
 ٧٧٣ ، ٨٦١ ، ٩١٦ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٣
 الفن البوذي ٩٦٢
 فن التشكيل ٩١٩
 الفن التمثيل ١٠٢٢
 الفن الرومانسكى ٨٦٣ ، ١٠٢١
 الفن الصينى ٩٤٩

على ٧٨٨ ، ٨١٤ ، ٨١٧ ، ٨٢٢
 الهارة ٨٦١ ، ١٠٢٥
 عمر ٨٠٥ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١٣ ، ٨٩٢
 عملة ٩٠٠
 العمودى ٩١٧
 جمهورية ٨١٩
 عيسى (يسوع) ٧٠٧ ، ٦٩٠ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤
 ٧٠٤ ، ٧٠٦ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ،
 ٧١٣ ، ٧١٦ ، ٧٢٠ ، ٧٣٠ ، ٧٥٢ ،
 ٩٠٢ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٧
 العيلاميين ٩٢٣

(غ)

الغال ٧٢٦
 الفجر ٩٦٢ ، ٩٦٣
 الغريبيين ٧٢٦
 غرناطة ١٠٢٩
 غليوم الثانى ٨٥٨
 غليوم دى نوجاريه ٩١٣
 غبالا ليل ٧٠٦

(د)

فاتيبو سيكرى ٩٥٩
 فاسار ١٠٤٥ ، ١٠٤٩
 فارس ٧٢٢
 الفرنجيين ٨٧٢
 فاسكودا جاما ١٠٢٨ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١
 فاطمة ٨١٤
 الفاطميون ٨٨٢ ، ٨٨٩
 فاليريان ٧٤١
 فتروفيوس ١٠٢١
 فرانكفورت ١٠١٤
 فرا أنجليكو دافيسولى ١٠٢٢
 فردريك الأول ٨٨٩ ، ٩٠٠
 فردريك ببروسا ٨٩٧ ، ٩١١
 فردريك الثانى ٩٠٧ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٧

١٠٦٩

قسطنطين الأكبر ٧١٣ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ،
٧٢١ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٨٠ ، ٩٥٧ ، ٩٦٠
القسطنطينية ٧١٩ ، ٧٢١ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ،
٧٢٧ ، ٧٣٤ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٨٠٧ ،
٨١٣ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ،
٩٢٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ١٠١٦ ،
١٠٢٦ ، ١٠٢٩

فشالة ١٠٣٢

قصر اللاتيران ٨٦٨ ، ٨٧٨ ، ٨٩٤ ، ٩٠٤

القطالونيين ١٠٢٨

قطب ٩٢٥

قطيغا ٩٣٢ ، ٥٤

القلعوق ٩٥٠

قوبلاي خان ٩٣١ ، ٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ،

٩٠٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٩ ، ٩٤٧ ،

٩٤٨ ، ٩٧٠

قورش ٩٤٧ ، ٩٥٠

القوزاق ٩٥١

القوط ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٣٩ ، ٨٧١

القوط الغربيين ٢٧ ، ٨٣

القومية ٨٦٤

قيافا ٧٠٣

القيصر الرب ٧١٣

(ك)

الكاتدرائيات ٩١٦

الكاثاريين ٩٠٤

كاثاي ٩٣٧ ، ٩٤٠

الكاثوليكية ٩٦٧ ، ٩٧٧

كاراي ٧٤٠

الكارولونجيين ٨٦٥

كارايا ٧٤٥

كاسيودوراس ٧٣٣ ، ٨٢٨ ، ٨٣٥

كاستن ٩٨٧

كامبالوك ٩٣٧ ، ٩٤٠

كامباللا ١٠٥٧

(٢٥٠ - معالم)

الفن العربي ٨٢٣

فن المارة ١٠١٣

فن المارة الإسلامي ٨٦٢

الفن القوطي ٩١٧ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢

الفن الهليني ٨٣٤

الفن الهندي ٩٦١

فن لاند ٨٥١

الفنون ٧٦١

فنون اليونان ٧٤٦

فور ٧٦٠ ، ٧٦١

فوستا ٧١٧

فيروشيو ١٠٢٥

فيرولام ٩٩٦

فيضي ٩٥٩

الفيلك أنجز ٨٥١ ، ٧٧٢

فيللا سكوير ١٠٢٦

فيليب ٩١٤ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢

فيليبس لبي ١٠٢٣

فيون ١٠١٩

(ق)

القانون الدائيركي ٨٥٢

قاليقوت ١٠٣٠

قباذ ٧٤٩ ، ٧٨١ ، ٨١٥

القبحاق ٧٣٢ ، ٩٥١ ، ٩٥٤

قيدوقية ٨١٩

القدس ٧٢٤

القديس بطرس ٩١٣

القديس لويس ٨٩٣

القرآن ٨٢٠ ، ٨٢١

طاجنة ١٠٢٧ ، ٦٨٨

قرطبة ٨٢٩ ، ٨٣٠

قره فورم ٩٥٧

قريش ٧٨٩

١٠٧٠

كوستر ٩٨٧
كوشان ٧٥٥
كوكاي تشيه ٧٧٢
الكولوزيوم ٧٣٠
كوليمس (خروستوف) ١٠٢٨ ، ١٠٣٠ ، ١٠٤٤
كوماجين ٧٤٥
كونراد الثالث ٨٨٨
كونراد الثاني ٨٦٧
كونستاس ٩١٠ ، ٩١٥
كونفوشيوس ٦٩٩ ، ٧٤٢ ، ٧٥٠
الكيمايون ١٠٠٦
كبيث ٩٢٨ ، ٩٢٩

(ل)

اللاتيران ٨٥٦ ، ٨٧٩ ، ٩٠١ ، ٩١١ ، ٩١٢
لاس كاساس ١٠٣٥
لاهوتى ٦٩٩ ، ٧٦٠ ، ٧٨٠ ، ٩٢٤
اللغات الألمانية ٨٤٣
اللغات الصقلية ٨٧٦
التركونندية ٨٧٥
لندن ١٠١٣ ، ١٠١٦
لوتزو ٩٨٠
لوثر ١٠٢٠ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨
اللوحة المصورة ٩١٨
الروسيادة ١٠٢١
لوشاو ١٠٥١
اللومبارد ٧٢٧ ، ٧٣٣ ، ٧٣٩
لويس ٨٦٠ ، ٨٦٤ ، ٨٨٨ ، ٩٣٤
لويس الحادى عشر ١٠١١
ليبانتو (معركة) ٩٦٦ ، ١٠٢٧
ليجنتز (معركة) ٩٢٩ ، ٩٣١
ليكييا ٨١٨
ليو الإيسورى ٨١٩
ليو الثالث ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٩ ، ٩١٠
ليو العاشر ١٠٤٥ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨

كامونس ١٠٢١
كانتريرى ٨٤٨
كانوسا ٩١٠
كانوت الأكبر ٨٧١
كانيشكا ٧٥٥ ، ٨٧٨
الكاهن ٩٦٨
كبلر ١٠٠٧
الكتابة ٧٦٧ ، ٧٦٩ ، ٧٧٧
كراسوس ٧٤٠ ، ٨٠٧
كروم ٨٥٧ ، ٨٧٤
كرومويل ١٠٤١
كريس ١٠١١
كريسپوس ٧١٧
كسرى الأول ٧٤٢ ، ١٠٥٦
كسرى الثاني ٧٤٢ ، ٨٨٢ ، ٨٠٥ ، ٨٩١
الكنية ٧٨٣
الكلت ٨٤٦
الكلدانيون ٧٨٢
كلمنت الخامس ٩١٤
كلمنت السابع ٩١٤
كليرمونت ٨٨٠
الكان ٩٢١
الكن ٩٢٦ ، ٩٢٨
الكنيسة ٧٢٢ ، ٨٩٥ ، ٨٩٩ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ،
٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٦ ،
٩٧٥ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩٢ ، ٩٩٦ ،
٩٩٧ ، ١٠٣٨
الكنيسة الأرثوذكسية ٧٢٣
» الإنجليزى ٩٩١
» الغربية ٧٢٣
» الكاثوليكية ٨٥٣ ، ١٠٥٦
كهنوتية ٧٣٠
كوپرفيكوس ١٠٠٧
كورتيو ١٠٣٤ ، ١٠٣٥

١٠٧١

المجلس الإمبراطوري ٩٣٩
مجلس بال ٩٨٥
» ترنت ٩٩٧
» شيوخ (سناو) ٧١٨
» (كلى عالمى) ٧٢٥
» كوستانس ٩٧٨
مجمع بازل ٩١٥
مجمع نيقي ٧٢١
المجوس ٨٠١ ، ٨٠٣
حكاكة الطبيعة (التشكيل التمثيل) ٩١٩
محكم التفتيش ٩٠٩ ، ٩٣٥ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦
محكمة التفتيش البايوية ٩٠٨
محمد (صلى الله عليه وسلم) ٧٠٠ ، ٦٩٠ ، ٧٤٩ ، ٧٨٩ ، ٧٨٦ ، ٧٨١ ، ٧٦٣ ، ٧٤٩ ، ٧٩٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٤ ، ٨١٣ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨٢٠ ، ٨٢٢ ، ٨٢٦ ، ٨٩١ ، ٩٥٨
محمد (الفاتح) ٩٤٥ ، ١٠٤١
محمد بن موسى ٨٣٠
محمد الثانى ١٠٤١
الخالفون ٩٩٣
المخطوطات ٨٦٤
المداخن ٧٤٢ ، ٧٤٦ ، ٧٢٣
المدرسانيون (العلماء) ٩٩٩ ، ١٠٠٧
المدن ١٠١٣
المديشيون ١٠٤١
المدنية الصينية ٧٧١
مدينة ٧٧٠ ، ٩٥٣ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٨٦
المدينة ٧٦٣ ، ٧٨١ ، ٧٩٤ ، ٨١٣ ، ٨١٩
٨٢٠ ، ١٠١٣ ، ١٠١٥
مدينة الرب ٩١١ ، ١٠٥٦
مدينة الشمس ١٠٥٧
مدينة الله ٩٠١
مذهب الإسميين ١٠٥٥

ليوفهوك ١٥٠٩
ليوناردو دافنشى ١٠٢٣ ، ١٠٠٧
ليويو ٧٦١

(م)

ماجلان ١٠٣١
ماجنوس ١٠٠٢
مارتن الخامس ٩١٠ ، ٩١٥ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩
مارتن لوثر ٩٩٢ ، ١٠٥١
مارك سايكس ٧٤٣ ، ٨٢٤
ماركو پولو ٩٣٥ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٤٠ ، ١٠٢٨ ، ١٠٣٩
ماكياڤلى ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٦ ، ١٠٥٦
ماتننيا ١٠٢٣
ماتكو خان ٩٣١ ، ٩٣٤
الماندرين ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧١
مالزى ٩٣٧
مانزىكوت (معدكة) ٨٧٧
المانشو (أسرة) ٩٤٨
مانى ٧٥١ ، ٨٠٣ ، ٩٠٤
المانوية ٧٥١ ، ٨٢٠
المانويين ٧٢٢
المبعوثون المانويون ٧٥٣
المترحلة (الشعوب) ٩٦٧ ، ٩٦٩
مى ٦٩٠
مئراس ٦٩٣
المثالية ٧٠٦ ، ٧٠٨ ، ٧٥١
المجالدون ٧٠٧ ، ٧١٣
مجمع العزيمة والإرادة ٩٦٧
» العقيدة والطاعة ٩٦٧ ، ٩٧٤
مجتمعات الإرادة ٩٦٩ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤
مجتمعات الطاعة ٩٦٩
المجريون ٧٢٧

المذهب الاعتقادي (الختمى) ٨٣٠ ، ٩٠٢ ،
 ١٠٠٥ ، ١٠٠٨
 المذهب الواقعي ١٠٠٥
 مراد ٩٤٢
 مرقص ٦٩٠
 مريم ٧٠٩
 المزدكية ٧٥٢ ، ٨٠٣
 مسيا ٧٠٥
 المسيح ٧٠٥

(ن)

نابليون الأول ٩٠٠ ، ١٠٥٥
 الناصريون (الناصري) ٧٠٦
 نالاندا ٧٧٧
 النبط ٧٤٦
 النحت (انظر فن) ١٠٢٥
 نحاو ١٠٢٧
 الناصرة ٨٢٨ ، ٩٣٤
 النسطورية ٧٤١ ، ٩٢٤
 النسطوريين ٧٦٢ ، ٩٣٨
 نظام الإقطاع ٨٣٩
 نظام الامتحان ٧٦٩
 نظام تعليمي ٩٦١
 نظام العوائف ٧١٩
 نقفور ٨٥٩
 النقود ٧٥٩
 نوجاريه ٩١٣
 النورمان ١٠٢٨
 النورماندين ٨٧٢ ، ٨٧٧ ، ٨٨٢
 نورمبرج ١٠٥١
 النهضة ١٠٢١
 نورستريا ٨٤٣ ، ٨٤٥
 نوفجورود الكبرى ٨٧٠ ، ٨٧٢ ، ١٠١٣ ،
 ١٠١٦
 نيرون ٧٠٧ ، ٧٣١
 نيقولاس الميري ٧١٩
 نيوميديا ٧١٤ ، ٧١٨ ، ٧١٩
 نيقية (أنظر مجمع)
 نينوى ٧٤٠ ، ٧٤٣

المسيحية ٧١٧ ، ٧١٩ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ،
 ٧٢٤ ، ٧٢٧ ، ٨٠٣ ، ٨٤٧ ، ٨٤٩ ،
 ٨٥٠ ، ٨٥٢ ، ٩٦٥ ، ٩٧٣
 المسيحيين ٨٢٠
 مصر ٦٨٧
 معاوية ٨١٨
 معركة الإيسن ٨٤٥
 المغول ٩٢٣ ، ٩٢٦
 المقنع ٨٢٣
 مكابيين ٦٨٨
 مكة ٧٨٣ ، ٨١٤ ، ٨٢٠
 مكسميليان ١٠٤٤
 ملتون ١٠٢٠
 ملكا ٩٣٨
 الماليك ٩٥٤
 ملكة السماء ٦٩٣ ، ٦٩٤
 منج (أسرة) ٧٦٤ ، ٧٦٩ ، ٩٣٥ ، ٩٤٨ ،
 ٩٤٩ ، ٩٥٠
 المنصور ٨٢٣
 موالى أرض ٧١٩ ، ٩٥١ ، ٩٨٣ ، ٩٨٥
 الموت الأسود ٩٨١
 موست (مدينة) ٩٧٩
 الموسيق ٧٣٦ ، ٩١٩
 مونزوما ١٠٣٤
 مونتين ١٠١٩
 مونتي كاسينو ٧٣١
 موهاكس ٩٤٧
 ميخائيل هاليولوجوس ٩١٤
 السابح ٨٧٧

هوبارت ١٠٢٢
 مولاكو ٩٣١ ، ٩٢٢ ، ٩٣٦ ، ٩٣٩ ، ٩٥٣ ،
 ٩٨٢ ، ٩٥٤
 هومايون ٩٥٦
 الهون ٩٢٣
 هون أتيل ٧٥٥
 هونوريوس الثالث ٨٩٨
 هونشتاوغن ٨٦٨ ، ١٠١٦ ، ١٠٤٣
 هيرث ٧٠٠
 هيرودوت ٧٣٨ ، ٧٧٤ ، ٨٠٨
 الهيروديين ٦٨٨ ، ٦٩٧
 الهيروديين المهلين ٦٩٧
 هيلاس ٨٨١
 هيلانه ٧١٧ ، ٨٩١
 هيلينا ٧٤٢
 هيوكايت ١٠١١

(و)

وات تيلر ٩٨٤
 الواقميون ١٠٠٠ ، ١٠٠٢
 والو ٩٠٤ ، ٩٠٧
 الوالدونيون ٩٠٤
 وباء ٧٢٩
 الوثنيين ٨٢٠
 الووق ٨٣٢ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ١٠٣٧
 وستملستر ١٠١٦
 ولزي ١٠٤٥
 الوليد ٨١٩ ، ٨٢١
 وليم ٨٧١
 وليم ثل ١٠٤٣
 وليم والاس ٢٠١١
 الولد ٨٨٨
 ويسبي ١٠١٣
 ويكلف ٩٠٩ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨
 ٩٨١ ، ١٠٤٦

نيوتن ١٠٠٨

(ه)

هابسبرج ٨٦٨ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤
 هادريان ٧٣٠
 هارفي ١٠٠٩
 هارون الرشيد ٨٢٣ ، ٨٢٦ ، ٨٦١
 هاري چوئستون ١٠٢٧
 هان ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٧٢
 هانز هوليين ١٠٢٤
 الهانسا ١٠٢٧ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢
 هانو ١٠٢٧
 الهجرة ٧٩٠ ، ٧٩١
 الهراطقة ٩٠٣
 الهراطقة ٧١٢
 هرقل ٧٣٩ ، ٧٤٣ ، ٧٤٨ ، ٧٨١ ، ٨٠٧ ،
 ٨١٠ ، ٨٩١
 هرمز ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٣٧
 هس ١٠٤٦ ، ١٠٤٧
 الحسين ٩٩١
 هشام (ابن) ٧٤٩
 الهكسوس ٧٨١
 هديران ٨٧٩ ، ٩١٠
 الهليلية ٦٨٧
 الهمجية ٧٢٥
 الهند ٧٢٢
 الهندو إسكيليين ٧٤٠ ، ٧٥٥
 الهندوس ٩٥٩
 الهندوكية ٧٥٥
 هنري الثامن ١٠٢٠ ، ١٠٤١ ، ٩٠٤٥ ، ١٠٣٩ ،
 ١٠٥١
 هنري الخامس ١٠١١
 هنري الرابع ٩١٠
 هنري السادس ٨٨٧
 هنر السابع ١٠٢٩
 هنري الصياد ٨٦٧ ، ٨٧٤

١٠٧٤

(ك)

اليهودى ٨٢٨
اليهودية (فى أرض أو بلاد اليهودية)
يوان ٩٣٢ ، ٩٣٥ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩
يوان تشوانج ٩٢٤ ، ٩٣٧
يوان شوانج ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٧ ، ٨١١ ، ٨٢٦
يوحنا ٩٣٨
يوحنا الثانى عشر ٨٦٦ ، ٨٧٨ ، ٩١٠
يوحنا الحادى عشر ٨٦٥ ، ٩١٠
يوحنا العاشر ٨٦٥
يوسبيوس ٧١٩
يوسيفوس ٦٧٦
يوغوسلاف ٧٤٠
اليوفينور ٩٢٦
يوليوس الثالث ١٠٨٣
يوليوس قيصر ٨٤٩

يانج تشر ٩٣٩
يثر ب ٧٨٣ ، ٧٨٩
اليرموك ٨٠٧
يسوع (عيسى) الناصرى ٦٨٥ ، ٦٨٩ ، ٦٩٤
٨٥٣ ، ٧٠٤
اليسوعيون ٩٣٥ ، ٩٨٦ ، ١٠٣٦ ، ٩٩١ ، ٩٩٢
اليوتوبيا ١٠٥٧
يليوئشوتزاي ٩٢٨
اليمن ٧٩٢
يهود ٧٩٤ ، ٨٢٠ ، ٩٧٣
يهود أسبانيا ٨٣٧
يهود التشتت ٦٨٨

التعريف بالمرجع

هو عبد العزيز محمد توفيق عزيز جاويد .

ولد بالقاهرة سنة ١٩٠٧ : وحصل على ليسانس في التربية والآداب من المعلمين العليا (١٩٢٩) ، واشتغل بالتدريس ، حتى رقى وكيلا لمدرسة مصر الجديدة الثانوية (١٩٥١) ، فديراً للمركز الرئيسي للتدريب بوزارة التربية والتعليم (١٩٦٣) . وشغف منذ حداثة بالثقافة وآداب العربية والإنجليزية والفرنسية . واهتم بنوع خاص بالترجمة ، فنقل الكتب التالية إلى العربية :

(أولاً) في التاريخ وفلسفة التاريخ :

- ١ - « معالم تاريخ الإنسانية » هـ . ج . ولز - (لجنة التأليف)
- ٢ - « موجز تاريخ العالم » [الألف كتاب] هـ . ج . ولز - (مكتبة النهضة)
- ٣ - « أعلام وأفكار » للمؤرخ الهولندي هويزنج (الهيئة المصرية العامة)
- ٤ - « التاريخ وكيف يفسرونه » ألبان ويدجرى (الهيئة المصرية العامة)

(ثانياً) في تاريخ الحضارات :

- ٥ - « حضارة الإسلام » [الألف كتاب] لجوستاف فون جرونباوم . (مكتبة مصر)
- ٦ - « الحضارة البيزنطية » [الألف كتاب] رنسيان . (مكتبة النهضة)
- ٧ - « الحضارة الهلنستية » [الألف كتاب] تارن . . . (مكتبة الأنجلو)
- ٨ - « ميلاد العصور الوسطى » [الألف كتاب] موص . . (عالم الكتب)
- ٩ - « اضمحلال العصور الوسطى » هويزنج (المجلس الأعلى)

(ثالثاً) في علم النفس والتربية :

- ١٠ - « مدخل إلى علم النفس الحديث » [الألف كتاب] زانجوبل (مكتبة الآداب)
- ١١ - « الحُصين والطفل في ثقافة اليوم » : [الألف كتاب] جزل (الكرنك)
- ١٢ - « الطفل من الخامسة إلى العاشرة » : « » جزل (لجنة التأليف)

- ١٣ - «الشباب» : [الألف كتاب] جزل (الأنجلو)
وهي [ثلاثية أرنولد جزل في تربية الأطفال وسيكولوجيتهم
- ١٤ - «الطفولة وما بعدها» : تحت الطبع سوزان إيزاكس
- ١٥ - «سلوك الأطفال» : تحت الطبع الدكتور فرانسيس إيلج .
- (رابعاً) كتب في السياسة والثقافة العامة والفنون :
- ١٦ - «آسيا والسيطرة الغربية» : السردار بانينكار الهندي (الهيئة المصرية العامة)
- ١٧ - «حول منع الحرب» جون استراتشي (الهيئة المصرية العامة)
- ١٨ - «الطور في الفنون» توماس مونرو (الهيئة المصرية العامة)
- ١٩ - «التربية عن طريق الفن» : [الألف كتاب] هيربرت ريد (لجنة الأجهزة العلمية)
- ٢٠ - «أليس في أرض العجائب» لويس كارول (لجنة الرواد)
- ٢١ - «أحلى كنوز الأقدمين» . (قصص للأطفال تحت الطبع)
- ٢٢ - «مدينة الملاهي» (قصص عالمية) أرنولد بينيت
- وذلك عدا ترجمة مقالات في كتاب «تاريخ العالم لعمرتون» «مكتبة النهضة»
ونشر أبحاث في بعض المجالات الأدبية .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٥٥٠٦

I.S.B.N 977-01-3993-9

هذا الكتاب - كما يدل عليه اسمه - موسوعة تاريخية شاملة موجزة للحضارة الإنسانية عبر عصورها ويروى قصتها الأديب الإنجليزي الشهير ج. هـ. ويلز، والطبعة العربية من هذا الكتاب سوف تصدر في أربعة أجزاء يتناول الجزء الأول منها نشأة الكون والنظريات العلمية المختلفة التي تفسر تطوره ثم ظهور الإنسان والأجناس القديمة المنقرضة، ويعرض لفكر الإنسان البدائي ومعتقداته الدينية ونشأة اللغة وتقسيماتها ثم لأقدم الحضارات في مصر والعراق والهند، أما الجزء الثاني فيعرض للحضارة الإغريقية والهلينستية والرومانية، وملحة عن تاريخ العبرانيين، أما الجزء الثالث فيعرض بحضارات العصر الوسيط والجزء الرابع يتناول التاريخ الحديث.



مطابع الهيئة المصرية العامة